عالمٌ لا يغيب عنه النور

الجزء الأول

بنت التراب

رواية خيالية

بقلم: خيال

"الأرضية.. الأرضية القذرة.."
سقطت الفتاة ذات العاشرة أرضاً
بدفعة من يد أحدهم، فيما تناثلت
الشتائم تتقاذف على رأسها
وكأنها سهام مسمومة تخترق
جسدها دون رحمة..

* * *

قالت بانبهار "وهل هناك من يعيش
في العالم السفلي؟"
غمغم الرجل "هناك واحدة على الأقل،
وهي الأولى في تاريخ ممالكنا.. وها هي
ملقاة أرضاً تتلقى الشتائم والبصقات بصمت.."

* * *

استدارت الفتاة على الفور ولكمت الفتى بكل
قوتها.. وفور سقوطه أرضاً هجمت عليه وكالت
له اللكمات بقوة غير عابئة بصياحه، والغلّ الذي
تشعر به قد فاض بها وانقلب عنفاً لم تتمكن من
السيطرة عليه..

* * *

راقبت الفتاة عالمها يتضاءل بسرعة والرياح
تعبث بشعرها بقوة.. ثم همست بصوت مرتجف
"سنموت؟.."
أمسك الفتى يدها بقوة قائلاً بلهجة تقريرية
"سنموت....."
وتضاءل العالم الذي لا يغيب عنه النور أكثر فأكثر
والغيوم تغيّبه في ثنايالها بسرعة كبيرة..

* * *

khayal-world.blogspot.com

(مقدمة)

"الأرضية.. الأرضية القذرة.."

سقطت الفتاة ذات العاشرة أرضاً بدفعة من يد أحدهم، فيما تتالت الشتائم تتقاذف على رأسها وكأنها سهام مسمومة تخترق جسدها دون رحمة..

"إنها من نسلٍ غير نبيل، وتجلب الشؤم لممالكنا السامية.."

"تخلصوا منها.. فلتعد للأرض الطينية التي جاءت منها.."

"إنها ملعونة.. وملعون من يتعطف عليها ويؤويها بيننا بكل صفاقة.."

لكن رغم كل الشتائم، إلا أن أحدهم لم ينفذ تهديده خوفاً من العواقب.. اكتفوا بإلقاء اللعنات والشتائم وبعض البصقات على رأسها دون الاقتراب منها.. فيما لم يتردد الصبية الأصغر سناً من رميها بحجارة قاسية وهم يصيحون ببغض انعكس عليهم من كلمات آبائهم "ملعونة.. ملعونة.. ارحلي عنا.."

ظلت الفتاة جاثية بصمت وعبوس وهي غير قادرة على الرد.. بحجمها الصغير وضعفها وكونها وحيدة فإن مواجهتهم مستحيلة.. وبالطبع لا يمكنها أن تأمل بأن يهبّ شخص ما لإنقاذها بين هؤلاء..

ومن بين السيقان حولها، ظهر وجهٌ لطفلة بفمٍ ظل مفتوحاً وهي تراقب ما تراه بدهشة وصدمة.. ولما لاحظت أحد الرجال الذي انفصل عن البقية وأكمل طريقه دون أن يشارك في احتفال إهانة الفتاة، أسرعت الطفلة الصغيرة تلحقه بخطوات متسارعة، وتساءلت فور أن وصلت إليه "ما معنى أرضية؟"

أجاب الرجل وهو يعدل كيساً ورقياً لمشترياته في يده "معناه أنها جاءت من العالم السفلي.."

قالت الطفلة بانبهار "وهل هناك من يعيش في العالم السفلي؟"

غمغم الرجل "هناك واحدة على الأقل، وهي الأولى التي نراها في تاريخ ممالكنا.. وها هي ملقاة أرضاً تتلقى الشتائم والبصقات بصمت.."

لم تستوعب الطفلة ما قاله.. فركضت لاحقة بالرجل وهي تسأل بإلحاح "هل هناك بشر يعيشون خارج ممالكنا؟.. هل هناك عالمٌ أسفل منا بالفعل؟"

قال الرجل بصبر "أجل.. هناك عالم أسفل ممالكنا يا فتاتي.. لكن كل كتبنا تذكر أنه عالمٌ لا يسكنه إلا الوحوش والهوام، وبشر أقرب إليهم من أن يكونوا بشراً فعلاً.."

التفتت الطفلة خلفها تنظر لحلقة الرجال الذين لم ينفضّوا بعد من حول الفتاة، ثم غمغمت وهي تلحق بالرجل "هذا مثير.."

غمغم الرجل وهو يزفر ويجدّ الخطى في سيره "لا أظن هذا يا صغيرة.."

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

انفضّ الجمع المتحلق حول الفتاة الأرضية بلمحة بصر عندما تعالت تلك الصيحة الصارمة من خلفهم.. التفت الرجال لصاحب الصوت بتوتر وقلق ليروا رجلاً عظيم المهابة ارتجفت له قلوبهم.. وسرعان ما تفرقوا من حول الفتاة وكل فرد منهم يتظاهر بالانشغال بأي أمر لئلا يواجهوا نظراته الحادة.. تقدم الرجل من الفتاة التي نهضت جالسة وهي تمسح وجهها مما علق به.. فقال لها الرجل بصرامة "ما الأمر؟.. هل عجزتِ عن مواجهة هؤلاء؟.. هل يتفوق شراذم الناس عليك ليغلبوك؟"

لم تكن الفتاة تفهم إلا بضع كلمات مما قاله، لكن رسالته وصلت إليها وهي ترفع وجهها وتحدجه بنظرات حادة غاضبة.. لم تكن تملك حصيلة كافية من الكلمات لإجابته، وإلا لشتمته وشتمت الجمع الذي استغل ضعفها وهوانها أمامهم..

ابتسم الرجل لنظراتها الغاضبة قائلاً "هكذا أفضل يا ابنة التراب.."

والتفت إلى شخص ما خلفه، وقال له "أنت تعرف ما تفعله.."

هز الرجل الثاني رأسه بشيء من التوتر، فيما تقدم الأول بخطوات واثقة قاطعاً ذلك الشارع الذي يضمّ سوقاً شعبياً في جوانبه.. ولم تتردد الفتاة في اللحاق به ومجاراة خطواته السريعة.. فيما بقي الرجل الثاني والأنظار تحط عليه بقلق وقد أدرك أصحاب ذلك السوق وزواره أن ما فعلوه لن يمر مرور الكرام.. فقال الرجل الثاني بصوت واضح "بأمر من الملك، ومن مجلس الكهنة الأكبر، تمت زيادة الضريبة المقامة على هذا السوق للضعف.. وموعد دفعها بعد أسبوع من الآن.."

تعالى الصياح والتذمر الحانق من بعض أصحاب الدكاكين وأحدهم يصيح "أكل هذا لأجل أرضية قذرة؟"

رمقه الرجل الثاني بنظرة صارمة مضيفاً "هذا أمرٌ من الملك ولم يوضع محاباةً لأحد.. كل من يتقاعس عن دفع الضريبة ستتم مصادرة دكانه كاملاً.."

فقال صاحب الدكان الغاضب "سحقاً لك ولقائدك المغرور.."

استدار الرجل الثاني وسار بخطوات واسعة حتى وقف أمام صاحب الدكان الذي بهت بارتباك واضح، فقال الرجل بصرامة "هناك غرامة كبيرة على من يتجرأ بشتم قائد من قادة الجيش أو من ينوب عنه.. هل تحب أن تعرف قيمة هذه الغرامة؟"

سارع صاحب الدكان ليقول بارتباك "لا.. آسف يا سيدي لم أعنِ التقليل من شأنك وشأن قائدنا العظيم.."

ابتسم الرجل ابتسامة باهتة، والتفت إلى جمعٍ من جنوده قائلاً "هيا بنا.. لا يجب أن نتأخر عن القائد.."

لم يتباطأ القائد في سيره رغم تخلّف معاونه وجنوده في ذلك السوق، ولم تتخلف الفتاة عن اللحاق به عابسة وهي تدير بصرها ملاحظة تجنب أصحاب السوق النظر إليها.. تبدلت معاملتهم لها فور أن أصبحت تسير في ظل القائد، وهذا ساءها أكثر فأكثر وهي تنفخ بغيظ.. وجدت فتىً لا يكبرها إلا بقليل يسير جوارها حاملاً سيف القائد متظاهراً بالأهمية، رغم أن ما يفعله مجرد مظاهر شكلية يحتمها منصب القائد.. ركل الفتى ساقها بخفة وأشار لخدها قائلاً بابتسامة "هناك بصقة على خدك.."

أشاحت الفتاة بوجهها وهي تمسح خدها بطرف كمها، فيما عدّل الفتى السيف الثقيل الذي يحمله بحرص وهو يقول لها بمرح "عندما تخططين للقيام بجولة ممتعة كهذه، لا تنسيَ دعوتي للذهاب معك.. كنتُ سأستمتع بالفرجة على ما يحدث لك.."

استدارت الفتاة على الفور ولكمت الفتى بكل قوتها.. وفور سقوطه أرضاً هجمت عليه وكالت له اللكمات بقوة غير عابئة بصياحه، والغلّ الذي تشعر به قد فاض بها وانقلب عنفاً لم تتمكن من السيطرة عليه.. لم تفهم ما قاله بالتحديد، لكنها ميزت نبرة الهزء في صوته، وأدركت أنه يسخر منها ومما جرى لها، وربما من أصلها الذي يهزأ منه الجميع..

استدار القائد ينظر لما يجري بصمت، فيما لحق به معاونه بعد أن أنجز مهمته مع أصحاب السوق، وهتف بالفتاة فور اقترابه "كفي عن هذا يا فتاة.."

هرع للفصل بينهما، لكن القائد قال "دعها.. لا تتدخل.."

نظر له المعاون بدهشة، فأضاف القائد بابتسامة " هذه خبرة جيدة لها وله.. اتركهما يصفّيان خلافاتهما بنفسيهما.."

حاول المعاون تجاهل صياح الفتى المتألم، وإن لم يملك نفسه من الوقوف قريباً مراقباً ما يجري بقلق.. فيما استدار القائد ليكمل طريقه بهدوء، وسرعان ما لحق به الجنود وبعضهم يضحك على صياح الفتى وعلى العنف الذي تبديه فتاة رغم الضعف والهزال البادیان عليها..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

صمتت الفتاة ذات الثامنة وهي جالسة جلسة صارمة حيث ثنت ساقيها تحتها وفردت ظهرها ووضعت راحتيها متلامستان أمام وجهها في صلاة صامتة.. طال بها الحال على هذا الوضع حتى بدأت ساقها بإيلامها لطول جلوسها، ففتحت عيناً ونظرت جانباً لتلك المرأة التي اتخذت الوضعية ذاتها بصمت وسكون.. تململت الفتاة بضيق وألم، حتى قالت المرأة بحزم "هيما.. لا تقطعي تركيزك.."

عادت الفتاة لوضعيتها السابقة متظاهرة بالالتزام بالتعليمات بدقة، ولم تمكث طويلاً حتى تململت ثانية وهي تهمس "لقد تعبت.."

قالت المرأة محذرة "هيما....."

صاحت هيما على الفور "لقد آلمتني ساقي لطول الجلوس.. لمَ عليّ ممارسة هذا في الصباح الباكر؟.."

قالت المرأة باعتراض "أنتِ لم تتجاوزي الساعة في ممارسة طقوس تطهير النفس.. أنت تعلمين أن الكاهنة العادية تستغرق ما لا يقل عن أربع ساعات يومياً في هذه الطقوس.. وأنت....."

صاحت الفتاة بحنق وتذمر "أنا لم أرغب بأن أكون كاهنة.. لمَ تحاولون تعذيبي بهذه الطقوس؟.."

وارتمت أرضاً بتعب متذمرة، فيما تأففت المرأة بحنق واضح، قبل أن تنهض قائلة "سنرى رأي الكاهنة

الكبرى بما تفعلينه.."

أسرعت هيما لاتخاذ وضعية الصلاة بشيء من التوتر، لكن المرأة غادرت بالفعل للشكوى من طباع هذه الفتاة الفوضوي والذي لا يناسب الدور المنوط بها منذ أشهرٍ عدة.. ظلت الفتاة صامتة بتوتر ظاهر خشية العقاب، عندما سمعت صوتاً مألوفاً من جانب آخر.. فتحت عينيها وأنصتت للصوت، ثم نهضت بنشاط متناسية تهديدات المرأة، وركضت لتطل من السور المحيط بالساحة الصغيرة الذي يمكنها من رؤية جوانب الحديقة السفلية حيث رأت ذلك الفتى الذي انشغل بعمله بصمت وهمّة في جمع الأوراق المتساقطة من أشجار الحدائق الغنّاء..

أسرعت هيما تنزل الدرجات التي تؤدي بها لذلك الجانب، واقتربت من الفتى راكضة وهي تقول باهتمام "كابو.. هل أنت ذاهب لحرق هذه الأوراق اليوم أيضاً؟"

التفت إليها كابو لاهثاً وقال "بلى.. هناك الكثير منها، وإحدى الكاهنات قد أصرّت أن أقوم به هذا....."

قاطعته هيما بحماس "هل أعاونك؟.. لا يمكنك القيام بهذا وحيداً.."

قال كابو بارتباك "لا يا سيدتي.. لا يمكنني السماح لقداستك بالقيام بعمل كهذا.."

قالت هيما باعتراض "سيدتي؟.. قداستك؟.. لِمَ لا تنادني باسمي مجرداً؟"

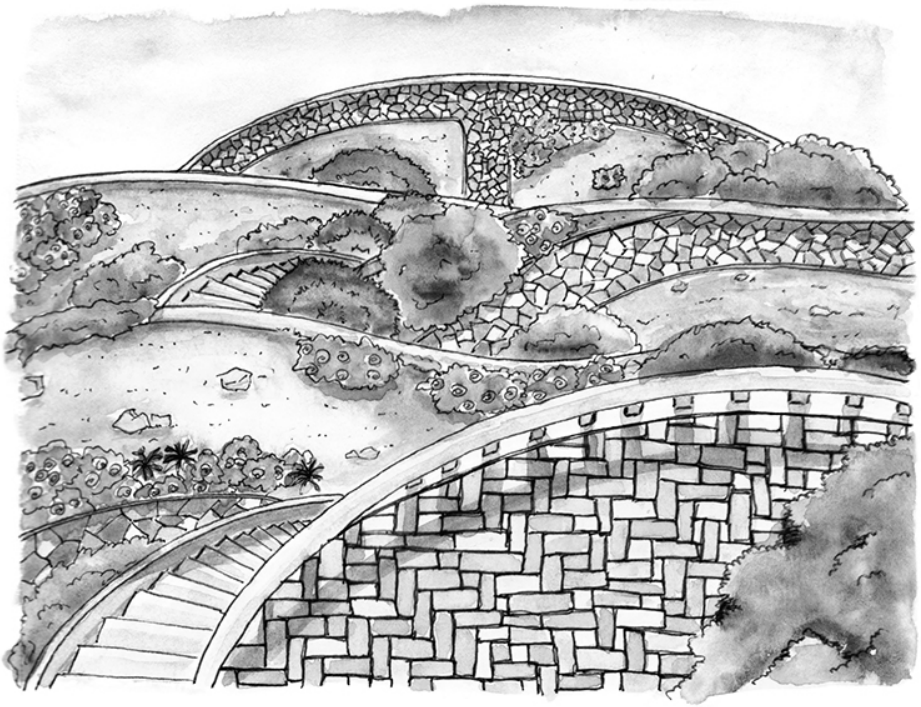

قال كابو بحرج "الكاهنة قد أصرّت أن أعاملك بالاحترام اللازم.. فأنا مجرد خادم، ولا يليق بي مخاطبتك باسمك المجرد.."

فأسرعت هيما تقول "لكني لن أحب ذلك.. نادني باسمي هيما كما كنت تفعل دائماً.."

سمعا في تلك اللحظة صيحة غاضبة باسم الفتاة تصدر من الساحة العلوية، فاستدارت الفتاة على الفور هاتفة بهلع "يجب أن أهرب قبل أن توقع بي الكاهنة الكبرى عقابها.."

وركضت هابطة بعض الدرجات قبل أن تلتفت إلى كابو هاتفة "سأنتظرك عند المحرقة.. وسأعاونك بالتأكيد.."

ظل كابو ينظر لها بتوتر قلق.. لا يدري هل يصمت على ما تفعله أم يبلغ الكاهنة بأمرها؟.. لو صمت، فقد ينال هو العقاب على ذلك.. ولو أخبر الكاهنة بأمرها، فعندها ستغضب هيما وقد تبغضه لما فعله..

استسلم كابو أخيراً وهو يدفع العربة التي اكتضت بالأوراق اليابسة من هذه الحدائق.. وسار تابعاً هيما نحو المحرقة بصمت ودون تذمر..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

وقف طفلان لا يتجاوز أحدهما السابعة من عمره، وكل منهما متشبث بيد الآخر بقوة.. تبادلا نظرات الذعر الواضحة مع صياح امرأة باكية وهي تتشبث بهما "لماذا؟.. ما سبب اختياركم لهما بالذات؟"

جذب أحد الجنود الطفلين فيما وقف أحد كهنة المعبد قربهما قائلاً بحزم "هذه أوامر الملك، وهي من طقوس المعبد الهامة التي لا يمكن لأحد إنكارها أو الاعتراض عليها.."

قالت بدموع غزيرة "لِمَ طفلاي بالذات؟.. إنهما لم يرتكبا ذنباً.. أنا لم أرتكب ذنباً لتعاقبوني بهذه الطريقة.."

قال الكاهن بصرامة "ليس ذنباً.. بل شرفٌ لك أن يضحي الطفلان بحياتيهما لاستقرار مملكتنا المجيدة.."

لم يتفوه الطفلان بكلمة وكل منهما متشبث بيد الآخر، فدفعهما الجندي للخروج من هذا المنزل ومواجهة فرقة من الجنود أتت مصاحبة الكاهن في مهمته المقدسة هذه.. وسرعان ما تحركت العربة حاملة الكاهن والطفلين بعد أن غيّب صوت الحوافر صياح المرأة وعويلها الذي لم ينقطع..

تأمل الكاهن الطفلين المتماثلين في الشكل بصورة كبيرة، ولا اختلاف بينهما إلا في الشعر الطويل والملامح الناعمة للفتاة، والشعر القصير والوجه الأكثر جدية للصبي.. تأمل شعرهما الكستنائي االفاتح الذي يكسبه نور الشمس حمرة زاهية، وعيناهما الرماديتان الشفافتان، وبشرتهما الشاحبة، ثم ابتسم ابتسامة باهتة في وجهيهما قائلاً "هل تريدان الذهاب للجنة؟"

نظرا له بذعر واضح، فشبك الكاهن كفية قائلاً "مهما كانت ذنوبكما، أو ذنوب أبويكما، فمن يقدم حياته للمملكة يمكنه دخول الجنة دون أي تأخير.."

تجرأ الفتى ليقول "كيف ندخل الجنة وأنتم سترموننا للعالم السفلي؟.. أليست الجنة في الأعلى؟.."

نظر له الكاهن بغيظ، وقال بلهجة صارمة "لن تسقطا.. جسديكما سيحلقان نحو جنة عالية لم يُرَ مثلها قط.. لذا لا تخشيا شيئاً.."

لم يكن قوله ليقنع أحداً، لكن نظراته لم تترك لهما خياراً إلا الصمت.. وبعد أيام، خضع فيهما الطفلان لطقوس معقدة لتطهير جسديهما وتهيئتهما للتضحية الكبرى، أزِف اليوم الموعود عندما اقتيدا لساحة واسعة في جانب معبد الشمس الذي أقيم على بعد عدة كيلومترات من عاصمة المملكة.. تعالت صيحات الجمهور المتحمس الذي حضر ليشهد التضحية الكبرى، وليطمئن على الرخاء والأمان الذي سيسود بعد أن تتم التضحية بهذين الطفلين.. وخلال كل تلك الأوقات، لم يتفوه الطفلان بأي كلمة أو تهطل من عيونهما دمعة لهذا المصير..

أوقف الطفلان على حافة الساحة حيث تهبط أمامهما بضع درجات تنتهي للفراغ الأزرق والغيوم التي تتراكض بسلاسة تحت أرض المملكة.. ارتجفت الفتاة للحظة عندما أوقفوهما عند رأس السلم، فشدّ الفتى على يدها بقوة وكأنه يحاول طمأنتها، رغم أنهما يواجهان المصير ذاته.. بعد لحظات، تمت فيها تلاوة بعض الأدعية القديمة بلغة لا يعرفها إلا خاصة الكهنة، وبعد أن نُثر التراب المقدس على رأسي الطفلين، تم دفعهما دون أدنى تردد أو شفقة من ذلك المكان الشاهق..

لم تصدر عن الطفلين أي صيحة مع سقوطهما، بل تشبثا بأيدي بعض بقوة أكبر وهما يسلّمان جسديهما للرياح القوية دون أن يفوتهما الصياح الذي تعالى بحماس وشدة كبيرة حتى طغى على كل ما عداه.. ثم خفت كل شيء ولم يبق أمامهما إلا السماء الرحبة التي اتسعت بهما ونور الشمس يضيئها ببهاء، فيما بدت

الأرض المظلمة باهتة شاحبة من بين الغيوم في الأسفل..

راقبت الفتاة عالمها الذي تضاءل بسرعة والرياح تعبث بشعرها بقوة.. ثم همست بصوت مرتجف "سنموت؟.."

أمسك الفتىٰ يدها بقوة قائلاً بلهجة تقريرية "سنموت....."

لم تعلق الفتاة ودموعها تتساقط من عينيها الواسعتين، وبدلاً من السقوط للأسفل فإن دموعها سقطت للأعلىٰ بفعل الرياح القوية فيما هوىٰ جسدا الطفلان نحو الأرض المظلمة.. وتضاءل العالم الذي لا يغيب عنه النور أكثر فأكثر والغيوم تغيّبه في ثناياها بسرعة كبيرة..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

(تمهيـد)

عالمٌ لا يغيب عنه النور..

اسم غريب، لا واقعي، ويزخر بالخيال الذي يتجاوز الحدود..

لكنه عالمٌ يستحق اسمه دون شك..

هو عالمٌ تحدىٰ التقاليد والأعراف، عالمٌ تجاوز المنطق والمقبول..

عالمٌ سمىٰ بجسده فوق مستوىٰ الأرض، ليحلق في السماء في حكاية أقرب للخيال..

عالمٌ تجاوز حاجز الغيوم واقترب من الشمس لتغمره بنورها دون انقطاع..

عالمٌ تخلىٰ عن الأرض وفضّل السباحة في عرض السماء الزاهية..

عالمنا هذا يتحدىٰ كل القوانين.. لكنه موجود منذ عشرات القرون حسب ما تذكر السجلات التاريخية التي احتفظ بها الكهنة في غياهب معابدهم بعيداً عن أيدي العامة إلا ما شاؤوا له أن يرىٰ النور..

عالمنا هذا هو عالمٌ يسبح في عرض السماء بشكل فعلي لا مجازي.. انفصلت مئات آلاف الهكتارات من الأرض الدنيا وارتفعت في مستويات السماء العليا مخالفة كل القوانين التي تسري علىٰ باقي الأجزاء من الأرض.. ارتفعت تلك الأرض بجبالها وأنهارها وصحاريها وتضاريسها المتباينة، وبساكنيها من البشر والحيوانات والحشرات علىٰ حد سواء..

أصبح هناك عالمٌ فوق العالم.. وحياة فوق الحياة.. ولا يعرف شخص حتىٰ الآن السبب الذي مكّن هذه الأراضي من السباحة في عرض السماء دون اختلال علىٰ مر القرون..

وعلىٰ هذه الأرض العالية، نشأت عدة ممالك منذ زمن قديم.. أربع ممالك بالتحديد توزعت بشكل متساوٍ علىٰ مساحة الأرض المحدودة.. ولكل مملكة ملك، ودين، ومعبد يسيرّ الشعب وفق إرادته..

مملكة الضياء، الأقوىٰ بين الممالك، وهي تدين بدين الشمس الذي يقوده كهنة المعبد بتعصب وشدّة لا تعرف الرحمة..

مملكة الغمام، هي الأكثر سعة ورخاءً بين الممالك، ولا يخفي ذلك قوتها وشدّة جيشها في حمايتها.. تتوازىٰ

القوى فيها بين المعبد الذي يتبع تعاليم مؤسسه الأول، وبين الجيش الذي فرض سطوته على ا لمملكة كاملة باسم الملك..

مملكة القمة العالية، وهي مملكة لا يحكمها أي دين أو تقاليد، وتفضّل حرية المعتقد والرأي.. تحكمها ملكة أنثى في لفتة نادرة من لفتات التاريخ، وتسيطر على مملكتها الواسعة بحكمة وذكاء ظاهرين..

والمملكة الرابعة هي مملكة النبع المقدس.. حيث ملكها هو كاهنها الأعظم كذلك، وحيث السطوة العظمى فيها للمعبد الذي لا يمارس أي تجبر أو تسلط في حكمه.. وقد حكمها الكهنة منذ نشأتها دون اختلاف..

وبخلاف هذه الممالك الأربع، لا وجود لأي مملكة أو دولة في أي منطقة من مناطق الأرض.. في الواقع، يوقن شعوب هذه الممالك يقيناً تاماً أن الأرض الدنيا تخلو من أي نوع من الحضارة، أو من أي بشري بعقلٍ واعٍ ومستنير.. يوقن الشعب السامي أن البشر في العالم السفلي هم أقرب للهوام الذين يعيشون وسطهم، لذا اصطلح على تسمية الأرض الدنيا بأرض الهوام.. حيث لا يعيش بشري عاقل.. وحيث تنقطع الحياة كما يعرفها البشر..

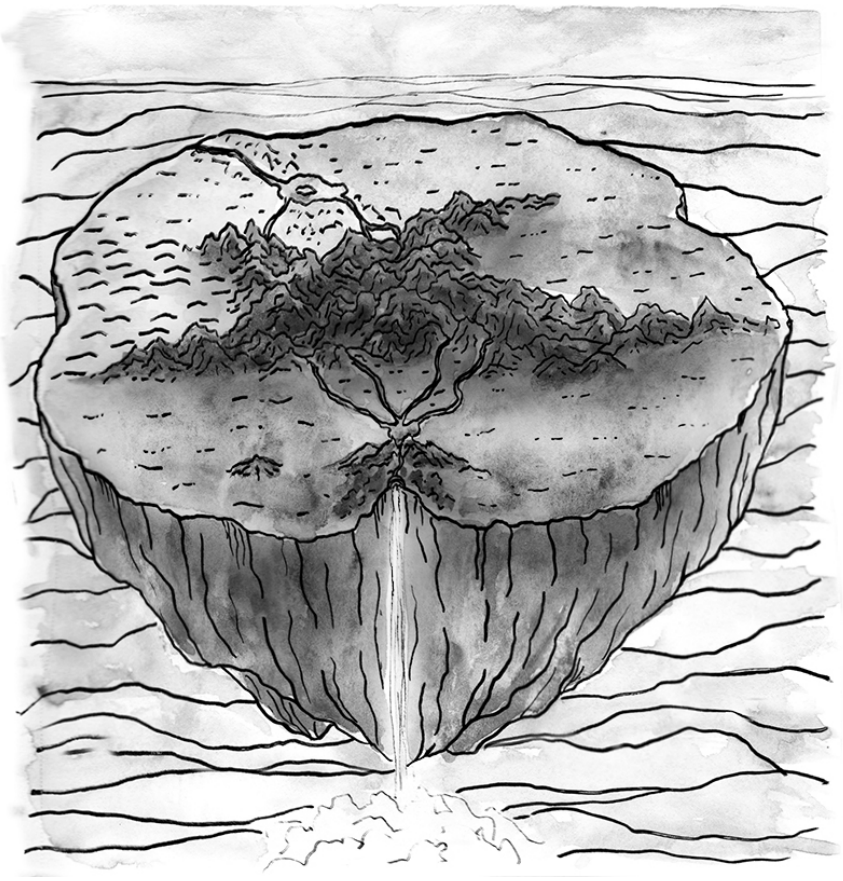

وعلى تلك الأرض العالية، التي تسميها شعوبها بالأرض السامية، يعيش بشرٌ يرون أنفسهم أعلى وأسمى من أي مخلوق على هذه الأرض.. بشرٌ اصطفاه خالقه ليسمو فوق الأرض الدنيا.. بشرٌ يأنف من خفض بصره للأرض الدنيّة التي لا تليق به، ويستنكر الاختلاط بسكان العالم السفلي الذي يعدّهم في مصاف الحيوانات..

وبين الأرض الدنيا والأرض العليا، انعقدت مصائر الكثيرين في حكايات تجاوزت حد المعقول.. وغاصت في غياهب الخيال..

✻✻✻✻✻✻✻✻✻

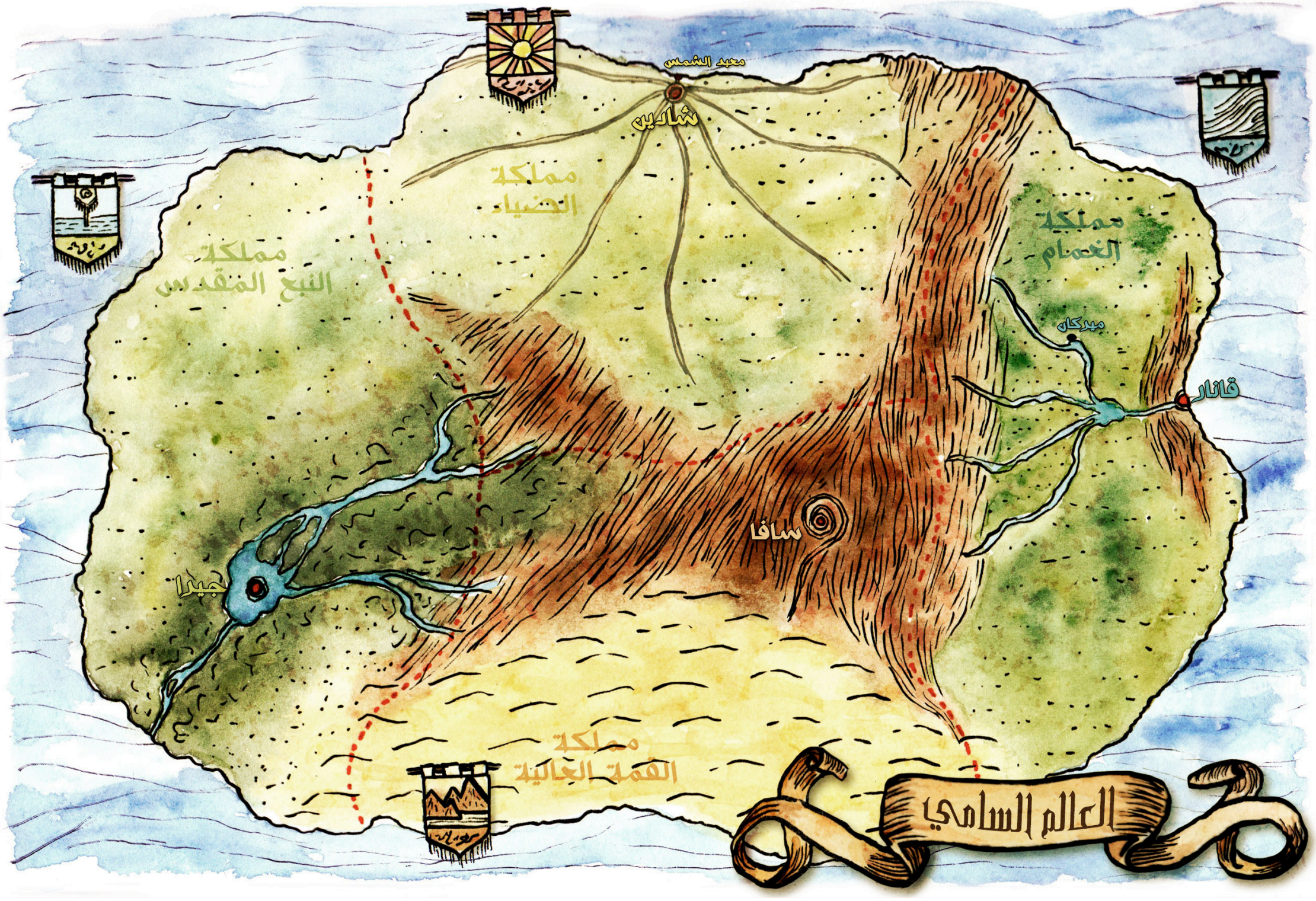
معبد الشمس
شادين
مملكة الضياء
مملكة النبع المقدس
مملكة الغمام
ميركان
قانار
سافا
جيدرا
مملكة القمة العالية
العالم السامي

(الفصل الأول)
مملكة الغمام: الأرضية

أشرقت الشمس في ذلك اليوم، لتزهو بضيائها مدينة (قانار) الأكبر والأعظم في مملكة (الغمام).. كانت قانار، وهي عاصمة المملكة، تشغل مكاناً كبيراً من ذلك الجانب من أرض المملكة، ولا يحدّها من الجهة الشرقية أي تضاريس أو أراضٍ قد تحجب عنها نور الشمس.. لذا فهي تشرق بالنور كل صباح دون استثناء، خاصة أن الشمس لا تغيب أبداً عن هذا العالم بل تظل مشرقة طوال العام، دون أن تعرف يوماً غائماً أو معتماً غاب عنه النور.. مانحة إياه اسمه المشهور به.. عالمٌ لا يغيب عنه النور..

وأول ما تشرق عليه الشمس، هو الجانب الشرقي من المدينة الذي يضمّ قصر الملك العظيم بلونه الأبيض البهيّ والذي يتلألأ بالنور معلناً عن بدء يوم جديد تشتعل فيه الأحلام والآمال في حياة وادعة كالتي يحياها سكان الممالك.. كما يضمّ ذلك الجانب من المدينة عدداً من الأحياء الفخمة التي اختار أصحابها سكنى هذا المكان مجاورة القصر الملكي والذي يفخر جيرانه بالسكنى قربه.. وغير بعيد عن القصر، في أقرب موضع من حافة الأرض، يقع معبد (إينار) الذي يتبع تعاليم الكاهن الأول إينار ولا يركز في عبادته على الشمس فقط، بل تشمل عبادته وصلاته قوى الطبيعة كلها ويؤمن أنها قد حَبَتْ عالمهم بمعجزاتها ومنحتهم هذه المكانة العالية في السماء السامية.. انتصب المعبد المقدس بجدرانه العالية ذات النقوش الزاهية الجميلة، وساحاته الواسعة التي يستقبل بها مئات البشر كل يوم للصلاة والعبادة وتقديم القرابين المتنوعة.. وباتخاذ القصر والمعبد كمركز جانبي للمدينة، فإن بقية الأحياء الأكثر شعبية والأسواق المختلفة قد تمددت حولهما بشكل دائري مانحة المدينة شكلها الجميل.. ويشق المدينة من غربها لشرقها نهرٌ ينحدر من الجبال القريبة ويمر عبر أسوارها وأحيائها دائراً حول القصر ومنخفضاً تحت جدران المعبد ليصبّ في الفراغ من بعدها.. وعلى الأسوار التي تحيط بالعاصمة إحاطة محكمة، ارتفعت ست أبراج عالية تعلو ست بوابات تنتهي إليها المسالك المطروقة من أرجاء المملكة.. ومن بعد الأسوار انتشرت غابات كثيفة تليها بضع جبال متوسطة الارتفاع منحت المدينة غطاءً يحميها من أي اعتداء، رغم أن تلك الفكرة عصيّة على

التصديق مع الأمان الذي تعيشه الممالك السامية..

لم تكد الشمس ترتفع في السماء في هذا اليوم متجاوزة أسطح المنازل القريبة، حتى سمع أصحاب السوق وسط المدينة تلك الخطوات الحازمة التي يعرفونها حق المعرفة، والتي لم تكد تنقطع في السنوات الماضية إلا في حالات نادرة.. توتر الجميع لهذا الصوت، وتشاغل أصحاب الدكاكين بأعمالهم متفادين النظر لتلك الفرقة من الجنود التي عبرت طرقات السوق الضيقة، والذي تظلله الأقمشة الملونة التي تعكس ألوانها على طرقاته ليحمل اسم (سوق الألوان).. وعندما مرت الفرقة وسط السوق، استرق أصحاب الدكاكين النظرات المختلسة نحو الجنود، وبالذات نحو الجندية التي تقدمت تلك الفرقة بصمت ومهابة دون أن يظهر على وجهها من تحت القبعة الرسمية للجنود أي انفعال أو تلتفت لأي كائن يمر قربها..

لم يكن يبدو على الجندية أي ملامح مميزة، لكنها رغم ذلك تلفت الأنظار بشدة في ذلك السوق الذي لم يخلُ من الازدحام الذي تضيع وسطه الوجوه والملامح.. كانت الجندية ببشرة سمراء خفيفة، ووجه نحيف جامد الملامح، لكن جمودها الظاهر لم يكن يطغى على ملامحها الجميلة ولا عينيها اللتين اكتسبتا لون البندق بلمعة واضحة.. أنفها طويل دقيق وفمها بشفتين ممتلئتين تزمّهما بصورة تلقائية كلما أرادت أن تكسو ملامحها صرامة وحدة.. وللغرض ذاته، احتفظت بشعرها الأسود بخصلاته الكثيفة المتموجة قصيراً وهي تضمّه خلف عنقها برباط بسيط، محتفظة بخصلة على جبينها لتغطية جرح قديم يشق الجانب الأيسر منه ويكاد يصل لحاجبها.. جسدها ممشوق دون ضعف، ناتجٌ عن التدريبات المكثفة التي تقوم بها كجندية متمرسة، وإن لم تظهر عليه أي عضلات بارزة، وبطول يزّ بقية الفتيات عادة.. لم تكن تلك الملامح ولا الهيئة تختلف عن أي فتاة عادية، لكن النظرات التي تحدق بوجهها لم تكن تفعل ذلك لتأمل ملامحها وجمالها، بل للتحديق في الفتاة ذات الأصل الوضيع التي جرؤت على قطع طرقات مدينتهم السامية بكل جرأة وصفاقة..

سمعت الجندية أثناء مرورها بجانب السوق أحد الباعة ممن تجرأ على التحديق بها بوضوح يقول بهمس وبغض "أرضيّة قذرة.."

لم تعبأ الجندية لقوله، بل استمرت في سيرها بصمت فيما انفصل جنديان من فرقتها وأوسعا ذلك الرجل ضرباً وركلاً أمام أعين الجميع دون أن يملك من أمره شيئاً.. لم تبتسم الجندية لما جرى، ولم تُظهر ضيقاً

كذلك.. أكملت جولتها بصمت ومهنيّة وهي تتفقد جوانب السوق وتطمئن أن أموره تسير على خير ما يرام.. وبعد جولة قصيرة متمحصة للسوق وجوانبه، عادت الجندية بفرقتها الصغيرة لمبنى قيادة الجيش الذي يقع في الجانب الشمالي من المدينة، الأقرب لسورها العالي الذي يحيط بها..

كانت العاصمة هي أكبر مدن مملكة الغمام، يحيطها سورٌ يغطي الجانب الشمالي والغربي والجنوبي منها، بينما بقي جانبها الشرقي مفتوحاً عند نهاية حد المملكة حيث لا ينشأ بعدها إلا الفراغ التام.. ورغم خطورة بقاء العاصمة في هذا الجانب المكشوف، مع ما قد تتعرض له من أخطار، لكن أحداً من ملوكها لم يحاول تغييرها تحقيقاً لرغبة مؤسس المملكة الملك الأول.. ومنذ نشأة المملكة وقيام العاصمة في هذا الجانب، فإن شعبها استمتع برغد العيش والسلام اللذان يخيّمان عليها بقوى جيشها الذي يرهب كل من تسوّل له نفسه الإخلال بهذا الأمان..

وصلت الجندية لمركز قيادة الجيش الذي شغل مساحة واسعة لتضمّ كل قياداته، بالإضافة لسكنى الجنود والمستودعات ومهبط للطائرات التابعة للجيش والتي تقوم بجولات دورية فوق المدينة وما حولها بشكل رتيب لم ينقطع قط طوال عقود..

تجاوزت الجندية بوابة القيادة بسلاسة مع مركبتها التي تحمل فرقة الجنود، ووسط الساحة القريبة من المباني الرئيسية، قفزت من المركبة بكل نشاط وسارت نحو أكبر المباني في القاعدة.. تجاوزت عدداً من الحراس والجنود، ووقفت جانباً لمرور فرقة يتقدمها أحد القادة الخمس للجيش.. فأدت التحية بانتباه حتى تجاوزها القائد مع فرقته، عندها أكملت سيرها عبر الممرات متجاوزة بعض القاعات الواسعة قبل أن تصل لغرفة تقع في الطابق الثاني من المبنى، عليها حارسان لم يحاولا منعها من الاقتراب وهي تطرق الباب طرقة سريعة قبل أن تدخل عندما سمعت الإذن لها بذلك..

فور دخولها الغرفة، خلعت الجندية قبعتها وتبدلت جهامة وجهها على الفور وهي تنظر لرجل جلس على كرسي فخم قرب نافذة عريضة تحتل جداراً بأكمله، وارتسمت ابتسامة على وجهها رغم نبرتها الحازمة وهي تقول "كل الأمور على ما يرام يا سيدي.."

تعلق بصرها بالرجل الذي انشغل بأوراقه للحظة قبل أن يغمغم "عملٌ رائع يا ابنة التراب.."

لم تعلق الجندية على هذا اللقب الذي استخدمه معها منذ صغرها، بل ظلت واقفة بانتباه بانتظار أن يوليها

اهتمامه.. راقبته للحظات كما تفعل عادة، وتأملت ملامحه التي لا تبدو لرجل في الخمسين من عمره، وإن كان جسده الممشوق ووجه الصارم يضفيان عليه هيبة لا يمكن إغفالها.. ورغم مكانة القائد قاث في الجيش بصفته قائداً عاماً ويترأس مجلس القادة الخمس للجيش، لكنه كان بسيطاً في التعامل معها ولم يسعَ لفرض حواجز بينها وبينه مطلقاً.. ما يزال يتعامل معها كما كان يفعل منذ أن رآها لأول مرة وهي دون العاشرة من العمر..

ولما طال الوقت دون أن يوليها أي اهتمام، تجرأت على السؤال أخيراً "سيدي.. مع المكانة التي حصلتُ عليها في الجيش، وما أسبغته عليّ من فضائل برفعي لمنصب رئيسة إحدى فصائل الجند التابعين لك.. ألا ترى أن التجوال في الأسواق كما دأبت على فعل ذلك في السابق تقليلٌ من شأني الآن؟"

ابتسم قاث وهو يرفع بصره إليها أخيراً وقال "أتظنين أنني أرسلك لتطمئني على سير السوق؟.. جندي واحد يكفي لإحضار تقرير مفصل عن هذا كل يوم.."

قالت بحيرة "إذن لمَ؟"

تراجع قاث بظهره في كرسيه قائلاً "أتذكرين حادثة تطاول أهل السوق والمدينة عليك عندما كنت صغيرة؟"

ازدادت حيرة الجندية وهي تقول "طبعاً لا أنسى ذلك.. لكن مضى أكثر من اثني عشر عاماً على هذا الأمر.. فما الداعي لتذكره الآن؟"

لوح قاث بإصبعه قائلاً "لأنني لا أريدك أن تنسيه.. ولا أريد لأهل المدينة أن ينسوه مطلقاً.."

وأشار إليها مضيفاً "والآن، بهذه الهيئة التي تصيبهم بالرعب والقلق، لن ينسوا أبداً أنهم تحت رحمة من نالت شتائمهم وبصقاتهم في ذلك اليوم.."

صمتت الجندية مفكرة في قوله للحظات.. لم تدرك إن كان ما يفعله انتقاماً لها، أم انتقاماً للشتيمة التي طالته لأنه قد تولاها برعايته.. ثم علقت أخيراً مغمغمة "أتمنى أن تزيل ذكرى تلك البصقات بالذات من ذهنك يا سيدي.."

ابتسم قاث ولوح بيده ليصرفها، فتراجعت بظهرها خطوات، ثم استدارت عندما وصلت للباب وغادرت بصمت وخطوات حازمة اعتادتها طوال سني حياتها في هذه المدينة.. اثنتي عشرة سنة.. من يمكنه أن

ينسى هذه الذكرى حتى لو مرّ عليها مئات السنين؟.. إنها لم تنسَ، ولن تنساها مطلقاً.. لكنها لا تسعى للانتقام.. فالخوف المرتسم في أعين أهل المدينة عند مرورها بهم يكفيها.. ونظرات الاحترام التي تلقاها من مرؤوسيها ورؤسائها على حد سواء ترضيها..

مرت في سيرها برجل لا يكبرها إلا بعدد من السنوات يعابث قطة سوداء ملوحاً ببعض الطعام في الهواء ليدفعها للقفز نحوه، فضربت مؤخرة رأسه بشيء من القوة وهي تقول "ألا تكف عن هذا العبث مطلقاً؟"

سقط الطعام من يده مع الضربة، فاختطفته القطة وهربت بأسرع من البرق من أمامه.. فيما التفت الرجل إليها قائلاً باحتجاج "وأنت لا تكفين عن العنف أبداً.. متى ستحترمين من هو أعلى منك رتبة يا جود؟"

نظرت له باستخفاف قائلة "أعلى مني رتبة؟.. كونك توليّت أمر إحدى سرايا الجيش لا يعني شيئاً.. أنت وصلت لما وصلت إليه لأن القائد كارون متهاون ومتخاذل، فيلجأ لترقية جنوده للحصول على ولائهم بسهولة.. لكني أعمل تحت إمرة قائد الجيش مباشرة، لذا فحتى القادة مثلك يخضعون لي نوعاً ما يا ياسان.."

وأكملت سيرها دون تمهل، فسارع ياسان للحاق بها متسائلاً "ما الذي جرى مع القائد قاث؟"

تساءلت "وما الذي قد يجري؟.. لقد أدليت بتقريري عن حال سوق الألوان كما أفعل كل صباح.. فما الجديد؟"

قال ياسان بتردد "ألم يحدثك عن أي أمر بعدها؟"

رمقته جود بحدة متسائلة "عن أي أمر سيحدثني؟.. ما الذي ترمي إليه؟"

افتعل ياسان ابتسامة مجيباً "لا أعني أمراً محدداً.. فأنت المفضلة لدى قاث، أهم القادة الخمس الذين يكوّنون مجلس القادة والقائد الأعلى للجيش، لذا من الطبيعي أن تكون عندك أي أخبار جديدة قبل أن يعرفها غيرك.."

لم تقتنع جود بحجته، لكنها تجاوزت عن ذلك معلقة "الأمن مستتب والحياة هادئة.. لذا لا جديد على الساحة.."

غمغم ياسان وهو يلاحق خطواتها الواسعة "بودي أن أعرف لمَ يفضلك القائد على غيرك.. يا ابنة التراب.."

التفتت جود إليه بنظرة حانقة وهي تقول "إياك....."

تراجع ياسان خطوة وهو يقول بابتسامة "لمَ؟.. هل هو لقبٌ حصري للقائد؟"

انعقد حاجباها أكثر وهي تقول بغلظة "حذرتك من تكرار هذا الأمر.. فمتى ستكف؟.. أم أنك تريد مني إجبارك على هذا؟"

هتف ياسان "لا أرجوك.. يكفيني ما نلته من قبضتك القاسية هذه.."

ومسّد أنفه مغمغماً "يكفي أنها شوّهت وسامتي النادرة.."

رمقت جود أنف ياسان الذي كان معوجّاً اعوجاجاً طفيفاً بسبب ضربة قديمة تسببت في كسره.. ضربة قديمة نالها من قبضتها في السوق قبل اثنتي عشرة سنة، عندما ثارت وهجمت عليه تفرغ غضبها وحنقها لمعاملة أهل المدينة السيئة لها.. ورغم الضرب الذي ناله ياسان منها ذلك اليوم، إلا أن علاقتهما قد توطدت بعدها بسبب ملازمتها للقائد قاث، وأصبح ياسان من أقرب الأشخاص إليها في هذه المدينة.. الأقرب إليها بعد قاث بالطبع..

لم تحاول جود التلطف بكلمة إزاء التشوه البادي في أنف ياسان، بل قالت بسخرية "وسامتك؟.. هذه نكتة جديدة.."

قال ياسان باستنكار "نكتة؟.. وسامتي المشهودة حديث الجميع في فيالق الجيش كلها.."

لم يكن ياسان بالوسامة التي يظنّها في نفسه، فملامحه عادية لا تلفت الأنظار رغم كل ما يحاول إيحاءه لها وللآخرين.. ورغم لون شعره الفاتح وبياض بشرته ولون عينيه العسليتين، لكنه لا يجذب الأنظار إليه بملامحه هذه، وربما كانت شخصيته الأقرب للهدوء والوداعة تجعل العين تقتحمه ولا تقف عنده طويلاً..

مضى ياسان في تذمره وهو يسير معها قاطعين الساحة، وإن كانت جود واثقة أنه لم يستأ من تعليقها مطلقاً.. لطالما هزأت بمظهر أنفه الجديد عالمة أنه يتقبل سخريتها هذه بأريحية.. لم يكن للمجاملات أي مكان بينهما.. لكن الحد الوحيد الذي لا تسمح لياسان تجاوزه، هو في

ما يتعلق بهذا اللقب.. وبالقائد.. هذا اللقب يذكرها دوماً بأصلها، وبأنها لا تنتمي لهذا العالم حقاً.. يوحي لها أن ياسان لم يتقبلها كفرد من هذا العالم ومن هذا الجيش.. وهذا يسوؤها أكثر من أي أمر آخر..

أما القائد، فهو هو.. إنه أكبر ما تمثّل أمام عينيها منذ وَعَت هذه الدنيا.. وهو أكبر من حياتها ذاتها.. لذا لا تطيق جود أي كلمة سيئة تقال في حقه.. والكل في قلب الجيش يعرف هذا.. ولا تشك جود أن القائد قاث نفسه يعرف بهذا.. لكنها لم تستأ من هذا قط.. لقد عاشت السنوات الماضية ملاصقة للقائد، وهو يعرفها أفضل مما تعرف نفسها.. طبعاً.. أليس هو من أحضرها لهذا العالم من غياهب النسيان؟..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

قبل اثنتي عشرة سنة

لم تكن تلك مهمة هيّنة.. والأسوأ من ذلك هو وجود أحد قادة الجيش الخمس، والقائد الأعلى للجيش، مع فصيل من الجنود لا يزيد عددهم على ٢٠ جندياً في موضع خطر مثل هذا.. لذا كان توتر الفصيل المصاحب له من الجنود وتوتر معاونه على أشدها عندما هبطت بهم الطائرة على أرض العالم السفلي.. لم يكن الجنود معتادون على التعامل مع بيئة غريبة كالتي تحيط بهم.. في الواقع لم يسبق لها مغادرة الأرض العليا وعالمهم السامي قط، حيث كل شيء معروف ومعتاد ولا يخرج عن المألوف.. أما هنا، فحتى رائحة الهواء مختلفة وتثير توترهم بشدة..

عندما أعلن لهم القائد قاث بأمر هذه المهمة، اتسعت الأعين بدهشة وصدمة دون استثناء.. وانبرى المعاون دارو قائلاً باعتراض "العالم السفلي؟.. ما السبب الذي يدعو الملك لإرسال فصيل من الجنود لعالمٍ لا يسكنه إلا الهوام؟"

لم يعترض قاث على سؤال دارو، بل قال ببساطة "هناك بشرٌ على الأرض يا دارو.."

علق دارو بضيق "ليس هذا ما عنيته.."

فاعتدل قاث على كرسيه في الغرفة التي خصصت له من الطائرة التي تمت تهيئتها لهذه المهمة.. وقال بحزم "أدرك ما عنيته.. لكن الأوامر هي الأوامر.. والمهمة التي نحن بصددها ليست مما يمكننا التهاون فيه.. فحياتنا جميعاً على المحك، وأي خطأ من أحدنا سيبتلع الجميع عواقبه رغماً عنهم.."

ودار ببصره بين الجنود الذين وقفوا أمامه مضيفاً "الطائرة التي كانت تقل ابن أخي الملك قد سقطت أرضاً بسبب خلل فني لا نعرف كنهه.. علينا العثور على الطائرة، والتأكد من وجود أحياء فيها.. ورغم أن سقوط بعض الطائرات ليس أمراً غير مألوف، لكن وجود ابن أخي الملك يحتم علينا السعي خلفها مهما كانت المخاطر.."

وعندما انفضّ ذلك الاجتماع المصغر، تجرأ دارو ليقول لقائده "ما الداعي لذهابك أنت في هذه المهمة؟.. هذه مهمة تصلح لضابط صغير من ضباط الجيش، أو حتى قائد إحدى الكتائب.. ما الداعي لذهاب قائد الجيش العام في مهمة خطرة كهذه؟"

قال قاث بحزم "كي أتأكد من عدم تقاعسكم عن القيام بهذه المهمة على أكمل وجه.."

لم تكن نظرات المعاون تشي بأي اقتناع بما قاله، فأضاف قاث بابتسامة وببساطة "ويمكنك أن تقول إن الفضول له يدٌ كبرى في تدخلي المباشر.."

وغادر دون أن يعبأ بنظرات الاستنكار الواضحة على ملامح دارو.. ولم يكن الأمر هيناً بالفعل.. بعد عدة ساعات من هبوطهم على هذه الأرض الوحشية، وبعد مواجهتهم مع أحد الكائنات الغريبة التي لم يسبق لهم رؤية مثيل لها، وفقدانهم لعدد من الرفاق أثناء ذلك، كان الإنهاك والضيق قد بلغ أشده في أنفس الجنود.. لكن أحدهم لم يملك التذمر على ما يجري حتى أمرهم القائد بالعودة للطائرة أخيراً بعد عثورهم على حطام الطائرة المفقودة، ومع استعادتهم لجثمان الأمير وبقية الجنود الذين كانوا معه.. تنفس أغلبهم الصعداء وهم يعودون بخطوات حذرة للطائرة التي لا تبعد عنهم الكثير، يتقدمهم قاث الذي سار بهدوء ودون توتر ظاهر وكأنه يسير في طرقات (قانار) الآمنة..

دخل القائد الطائرة التي يحرسها جنديان متحفزان، وسار في الممر الوحيد الذي يقطعها قبل أن يصل لغرفة القيادة الخالية مزمعاً الاتصال بالمركز الرئيسي لقيادة الجيش وتبليغهم بنتائج هذه المهمة.. وفور دخوله الغرفة، انتبه لتلك العينان اللامعتان اللتان تحدقان به من عتمة أحد جوانب المكان.. جمد قاث في موقعه للحظة ظاناً أن صاحب العينان هو هرٌّ بري أو حيوان شرس صغير الحجم تسلل مستغلاً انشغال الجنديين الموكلين بحراسة المدخل، واندسّ في ذلك الموضع دون أن يراه أحد، ولابد أن رؤية الجنود قد أثارت فزعه أكثر فأكثر.. راودته نفسه بمناداة أحد الجنود لإطلاق النار على ذلك الحيوان وقتله ثم التخلص من جثته خارجاً.. لكن حدسه أشار عليه ليتقدم قليلاً ويكشف اللثام عن هوية ذلك الشيء.. أمرٌ ما أوحى له أنه

سيندم لو لم يفعل..

تقدم قاث من تلك الزاوية، فلاحظ على الفور جلبة خافتة من المكان.. ولما تقدم خطوات أخرى وهو يقبض بيده على كرسي قريب لحماية نفسه في حال الخطر، فوجئ بذلك الجسد الصغير الذي اندفع نحوه محاولاً تجاوزه هارباً.. لحظة واحدة فقط كانت تكفي قاث ليدرك هوية ذلك الشيء مع الخصلات التي رآها تتطاير خلفه.. فرمى الكرسي أرضاً وتلقى ذلك الجسد بذراعيه قبل أن يفر هارباً..

صدر صياح متحشرج من ذلك الجسد وهو يناضل بشراسة للإفلات من قبضتي قاث القويتين.. وعلى صوته هرع بعض الجنود نحو الغرفة بدهشة وحذر، ليروا قاث يمسك بطفلة صغيرة ذات شعر أسود طويل أخفى ملامحها وهي تناضله بقوة وتخمشه بأظافرها حيث طالته.. فقال معاون القائد دارو بصدمة "ما هذا يا سيدي؟.. من أين أتت هذه؟.."

قال قاث وهو يمسك ذراعيها بقوة فوق رأسها ويرفع جسدها عالياً "لا أدري.. أنتظر إجابة من أحدكم ليخبرني كيف تسلل هذا الكائن للطائرة دون علمنا.."

قال دارو بدهشة وحيرة "إنها طفلة.. لكن، كيف؟!.. لم نرَ بشراً في هذه الأرض الجرداء.. فمن أين أتت هذه؟!.."

رفعها قاث عالياً بحيث تدلت قدماها وهي تركل بعنف مواصلة صياحها المفزوع.. ولم يتمكن قاث أن يغفل الدماء المتصببة من جرح جبينها والذي بدا أنه بفعل مخالب حيوان شرس.. ربما كان أحد الحيوانات الضارية يلاحقها، فلجأت للاختباء في هذه الطائرة بحثاً عن الأمان، وربما أفزع صوت الجنود وطلقات بنادقهم ذلك الحيوان ففرّ هارباً قبل أن يلحق بالفتاة ويلتهمها.. لاحظ قاث أيضاً ضلوع الفتاة البارزة من ملابسها المهلهلة وجفاف شفتيها التي لم تكف عن إصدار الأصوات المزعجة الغاضبة.. فقال لمعاونه "أحضر لها بعض الطعام والماء.. إنها بحالٍ يرثى لها.."

نظر له دارو بدهشة شديدة وهو يقول "طعام؟.. سيدي.. نحن نتأهب للتحليق، ولا نملك الوقت الكافي لإطعام هذه الـ..... الطفلة.."

قال قاث بتقطيبة "أنت سمعت أمري بوضوح.. فلا تجرؤ على دفعي لترديده مرة أخرى.."

أشار دارو لأحد الجند لتنفيذ طلب القائد، وبقي في موقعه يراقب ما يجري بانتظار أمر القائد له لرمي الطفلة خارجاً.. فبقدر تعجبه من وجودها في هذا المكان، بقدر عدم اهتمامه.. كل ما يهمه هو أن تنتهي

هذه المهمة ويعود بقائده المجنون لعالمهم الآمن قبل أن يحدث ما لم يحسبوا له حساباً.. ربما لو كان عالماً من العلماء، لاهتم بأمر هذه الطفلة وبحياتها على هذه الأرض المجهولة، خاصة مع ذعرها الشديد منهم ومن المكان مما يوحي بعدم اعتيادها على رؤية شيء مماثل مثل هذه الطائرة أو أي نوع من الوسائل الحضارية المعتادة على الأرض السامية.. لكنه حقاً لا يهتم.. لن يهتم لأمرها الغريب إلا عالم فضولي أو قائد مجنون..

أحضر الجندي بعض الشطائر وكوباً من الماء فوضعهم على طاولة قريبة.. عندها أنزل قاث الطفلة وهو يشير للطعام "تناولي هذا حتى نعرف ما...."

وجدها تطلق ساقيها فور أن لامستا الأرض محاولة الفرار.. لكن قاث سارع لجذبها من قميصها ودفن وجهها في صحن الشطائر قائلاً بحنق واضح "ألن تكفي عن هذا؟.."

كان واضحاً أن الطفلة لم تفهم كلمة مما قاله، لكن رائحة الطعام وطعمه الذي لامس شفتيها قد هيّج جوعها، فكفّت عن التفكير بالهرب وانقضّت على الشطائر تأكلها بعجلة وغير تروي.. دفعها قاث لتجلس على كرسي قريب، ملاحظاً عيناها اللامعتان اللتان راقبتاه بنظرة حذرة من بين خصلات شعرها الكثيفة، دون أن تكف الطفلة للحظة عن التهام طعامها بسرعة ولهفة وبفوضوية تامة.. جلس قاث بدوره يتأملها ودارو يقول بضيق بعد أن خلت الغرفة إلا منهما ومن الطفلة "لقد تأخرنا كثيراً يا سيدي.. لا يجدر بنا البقاء أكثر من هذا في هذا المكان.."

قال قاث ببساطة "يمكنك أن تأمر القائد بالإقلاع الآن.."

وقف دارو صامتاً بحيرة للحظة، ثم أشار للطفلة قائلاً "هل أرميها خارجاً؟.."

نظر له قاث بصرامة قائلاً "افعل هذا لو كنت تريدني أن أرميك خلفها.."

فقال دارو باعتراض "لا أفهم ما ترمي إليه يا سيدي القائد.. هل تنوي أخذ هذا الشيء معنا؟.. لا نعرف من أين أتت، وما الذي قد تسببه لنا من ضرر.."

لم يعلق قاث وهو يراقب الطفلة مستمتعاً، فقال دارو باعتراض أشد "سيثير وجودها بلبلة بين سكان مملكتنا وبين الممالك الأخرى.. لا نعلم تداعيات ظهور فتاة من العالم السفلي كاسرة حظراً غير مكتوب لعدم التواصل مع من هم مثلها.. قد يغضب الملك لما فعلناه.. من سيتحمل مسؤولية كل هذا؟.."

تزايد حنق قاث لتذمر معاونه، فقال بغضب "إن لم ترحل لتنفيذ ما أمرتك به سأرمي بك من الطائرة قبل

وصولنا لقانار يا دارو.."

تراجع دارو بشيء من القلق وكثير من الضيق، ثم استدار على الفور مغادراً وهو يدمدم "من يدري أي أمراض غريبة تحملها في جسدها القذر هذا.."

لاحظ قاث أن الطفلة عاد إليها خوفها منه مع غضبه ذاك، فحاول الابتسام لكي يزيح قلقها وقال "أنهي طعامك يا فتاة.. علينا تنظيف جرحك قبل أن يسوء حاله أكثر.."

عادت الطفلة لتناول طعامها ببطء وهي تقلب بصرها فيما حولها بحذر ظاهر.. وقاث يراقبها باستمتاع كمن يراقب حيواناً برياً صغيراً.. وغمغم وهو يتأمل هيئتها القذرة "ابنة التراب.. لا أظنني سأجد اسماً أفضل لفتاة أتت من العالم السفلي معفرة بالتراب.."

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

اقتحمت الكاهنة بيرن المستودع الكبير بوجه محتقن غضباً.. دارت في أرجاء المكان بعينيها بتفحص دقيق وغضب بينّ أصبح من معالم وجهها منذ عهدت الكاهنة الكبرى إليها شؤون الكاهنات المستجدات اللواتي لم تتم ترقيتهن ليصبحن كاهنات كاملات المسؤولية.. كان المستودع خاصاً بالأدوات التي يستخدمها عمال المعبد، بالإضافة لبعض العربات القديمة التي تمت الاستعاضة عنها بأخرى أحدث وأكثر جمالاً، وبعض السروج الخاصة بخيول المعبد ومعدات أخرى..

انتبهت الكاهنة لوجود رجل في جانب المكان يرمقها بدهشة وصمت بعد أن فاجأته أثناء عمله.. فسألته بتقطيبة "ما الذي تفعله هنا يا كابو؟.."

بدا الارتباك الواضح على كابو بشكل يخالف هيئته وضخامة جسده التي تمنحه حجماً وعمراً فوق عمره.. لم يكن كابو يتجاوز العشرين من عمره إلا بسنوات معدودات، وقد ساعده حجمه على القيام بالأعمال المنوطة به بشكل أفضل وأكثر فاعليه من غيره، مما جعل الاستغناء عنه صعباً في هذا المكان، وجعل انتقاله لعمل أكثر راحة وأقل عناء أصعب مع مر السنوات.. ضيّقت بيرن عينيها بشيء من الريبة لارتباكه، لكن كابو قال مدارياً ذلك الارتباك "لقد أمرني رئيس العمال بترتيب هذا المستودع وتنظيفه.. وأنا أعمل هنا منذ الصباح.."

دارت الكاهنة ببصرها في المكان وهي تتقدم خطوات، ثم سألته "ألم ترَ تلك المأفونة؟.."

قال كابو بدهشة وارتباك أشد "مأفونة؟.. من....؟!.. لا يصحّ أن يصدر هذا القول من كاهنة مثلـــ....."

قالت الكاهنة بغلظة "لستُ هنا لأستمع لنصائح عامل مثلك.. أين هي؟.."

أجاب كابو وهو يضغط على بعض المعدات التي ينقلها بقبضتيه بقوة "لا أعلم.. لا..... لا وجود لشخص آخر هنا سواي.."

زفرت الكاهنة بحنق، ملقية نظرة أخيرة على المكان، ثم استدارت وأغلقت الباب الضخم بشيء من العنف.. أصاخ كابو سمعه لخطواتها التي ابتعدت بسرعة عن المستودع، ثم أطلق تنهيدة مرتبكة وهو يضع الأغراض التي يحملها جانباً.. فيما علت صيحة خافتة من جانب المكان وفتاة تخرج من موقعها هاتفة "كدت أموت اختناقاً من الغبار.. هذا أسوأ مكان ممكن للاختباء.."

نظر كابو للفتاة التي خرجت من مخبئها في إحدى العربات الخشبية التي فقدت إحدى عجلاتها ومالت جانباً بوضع بائس.. كانت الفتاة التي تقارب العشرين من عمرها متوسطة الطول وبجسد معتدل، بشرتها بيضاء مشربة بحمرة وعيناها سوداوان لوزيتان بانحناءة طفيفة للأعلى في نهايتها، بينما انسدل شعرها البني المتماوج على كتفيها من تحت الخمار الواسع الذي تضعه على رأسها، وهو الرداء المتعارف عليه للكاهنات..

قال كابو بشيء من التوتر "ما كان عليك الاختباء هنا.. سينالني غضب الكاهنة بيرن لو عثرت علي.."

ارتمت الفتاة على كرسي علاه الغبار وهي تقول "لن تعرف الكاهنة بتاتاً موضع اختبائي.. أنا أمارس هروبي هذا منذ مدة دون أن تفلح بالقبض عليّ إلا عندما أعود بمفردي.."

قال كابو بضيق لم يستطع إخفاءه "وأنت تجرّينني لمشاكلك هذه رغماً عني.. لن يوازي عقابك عقابي لو قبض علينا هنا.. فأنت متهمة بالتخلي عن مهامك.. بينما تهمتي تدنيس حرمة المعبد والتعدي على كاهنة مقدسة.."

قالت هيما باستنكار "لكنك لم تفعل شيئاً لتدنيس المعبد، فمن قد يتهمك بتهمة كهذه؟.."

أدار وجهه جانباً وقال "معاونة كاهنة على التسلل من المعبد ستجلب عليّ تهمة كهذه.."

قالت هيما باعتراض "لن يجرؤ شخص على اتهامك وأنت بريء.."

نظر لها كابو قائلاً بحزم غريب عليه "الجرم الذي قمت به بمعاونتك على الإفلات من مهامك لن يمرّ دون

طردي.. وهذا الطرد لن يكون هيناً أمام العامة ولا بد من مبرر قوي له.. لذا، قد تلجأ إحدى الكاهنات لاتهامي علناً بأنني تجاوزت حدودي ودنّست المعبد.. وهكذا، سيكون طردي ميسراً دون عواقب.."

قالت هيما رافعة حاجبيها "هذا تفكيرٌ مطوّلٌ من جانبك فيما يخص هذا الأمر.."

عاد لكابو ارتباكه المعتاد وهو ينشغل بعمله معلقاً "لطالما فكرت بعواقب ما أفعله.. ولم أجد إلا هذه الفكرة تلحّ علي بشكل دائم.. فهي ليست الحادثة الأولى التي تحدث في المعبد كما تعرفين.."

أدركت هيما أنه يشير لحادثة قديمة حدثت بين إحدى الكاهنات الشابات وبين أحد الحرس المكلفين بحراسة المعبد.. لا تدري هيما صدق الادعاءات التي نالت الحارس، لكن ما تعرفه أنه طرد بشكل مهين من عمله ومن العاصمة كلها، بعد أن نكّل به العامة عقاباً له على تجرؤه المساس بكاهنة مقدسة، مغفلين على كون ما جرى قد تم برضاها..

ولم يكن أمر الكاهنة أكثر يسراً وهي تطرد من المعبد لتعامل بازدراء من العامة لأنها نبذت منصباً سامياً كالذي كانت فيه.. لينتهي الأمر بها بالتواري بشكل تام وعزل نفسها عن الآخرين على مدى سنوات..

نظرت هيما لكابو برجاء قائلة "سأكون حريصة في كل مرة.. أنت لن تخذلني، أليس كذلك يا كابو؟"

نظر كابو لعينيها اللتين حملتا رجاءً ملحاً ليقبل طلبها، فزفر وهو يغمغم "لا أملك أن أرفض ذلك.."

قفزت هيما واقفة بفرح، وقالت بانفعال "إذن.. أين سنذهب اليوم؟"

خفض كابو وجهه باستسلام مجيباً "أنا ذاهبٌ للسوق لتنفيذ طلب رئيس الخدم.. لديّ بعض البضائع التي يجب عليّ بيعها ومبادلتها بأخرى.."

فقالت هيما بحماس "سوق الألوان؟.. لطالما انتظرت هذا اليوم.. لحظات وأكون جاهزة.."

زفر كابو من جديد باستسلام أصبح ملازماً لشخصيته.. لم يكن يملك القدرة على رفض طلب هيما، فهي كالإعصار الذي لا يمكن كبحه، ولم يكن ذلك لقوة شخصيتها أو لعصبيتها، بل لحماسها الشديد وتفاعلها الأشد مع كل ما ترغب الحصول عليه.. أو القيام به بالأحرى.. عندما يرى التماع عينيها وصوتها الملهوف، لا يقدر على رفض أي شيء تطلبه مهما كان جامحاً.. وفوق ذلك، جاء هذا الدور المنوط بها ككاهنة مخالفاً لإرادتها ولشخصيتها المنطلقة، فشعر بها كعصفور حبيس يترقب الفرصة للانطلاق.. ولولا خشيتها من توابع أفعالها لما ترددت في الهرب من المعبد منذ أمدٍ بعيد..

بعد لحظات انشغل فيها كابو بعمله انشغالاً تاماً، خرجت هيما من غرفة جانبية ملحقة بالمستودع وهي تقول بحماس متوتر "هيا بنا.. أنا جاهزة.."

ألقى كابو عليها نظرة سريعة ليطمئن أن هيأتها لن تجذب الأنظار، ثم هز رأسه مغمغماً "لا بأس.. سأحضر العربة بعد قليل.. حاذري أن يراك أحد حتى أعود.."

وغادر بصمت فيما تأملت هيما ملابسها باهتمام وتدقيق.. كانت قد تخلّت عن ملابس الكاهنات وارتدت الملابس التي تم تخصيصها للعاملات الخادمات في المعبد.. بثياب رمادية طويلة تضيق عند الخصر، وتبلغ كعبي قدميها دون أن تصلا للأرض.. وعلى رأسها شالٌ صغير أسود يضمّ شعرها ولا يتركه مرسلاً كما كان سابقاً.. وعلى قدميها حذائين جلديين بلون أسود يخالف الخفّين البسيطين الذي ترتديه الكاهنات عادة.. لم تكن هيئتها تخالف هيئة خادمات المعبد كثيراً، لكن خروجها سافرة بهذه الصورة ستوقعها في أيدي حراس المعبد.. لا يمكنها كشف نفسها قبل أن تتجاوز المعبد والأحياء القريبة منه.. وبعد ذلك، لن يتعرفها شخص من العامة وسيظنونها خادمة خرجت برفقة أحد خدم المعبد لأداء إحدى مهامهم المعتادة..

دارت هيما في موقعها بحماس شديد وهي تفرك كفيها بانتظار عودة كابو بالعربة.. لقد دأبت على الهروب مع كابو منذ سنة تقريباً بعد إلحاح منها.. ما يزال كابو قلقاً مذعوراً من انكشاف أمرهما، لكنها تزداد حماساً لما يفعلانه مع مرور الأيام وتزداد ثقتها بقدرتها على الإفلات من عيني الكاهنة الكبرى ورئيسة الكاهنات المستجدات.. هي حقاً لا تريد توريط كابو في هذا الأمر، لكن قيامها بذلك وحيدة أمرٌ مستحيل.. ولن تجد غيره يطاوعها في هذا الأمر بالطبع.. لذا، عليه أن يتحمل جنونها فترة أطول.. بعض الوقت فقط لكي تشبع من ذلك العالم الزاهي الذي يقع خارج أسوار المعبد الكئيبة قبل أن تصبح كاهنة رسمية..

لا تعلم هيما السبب الذي لأجله ضمّتها عائلتها للمعبد ككاهنة منذ كانت في السادسة من عمرها.. هل بدا لوالديها أنها من النوع الذي يقبل أن يعيش عيشة استعباد كالتي تحياها الآن؟.. أم أنهما فعلا هذا لكبح جماحها وللسيطرة على روحها التي لا تعرف الهدوء؟..

لن تعرف قط.. ولا يمكنها أن تكره والديها لهذا السبب.. كل ما تبغيه هو بضع لحظات تقضيها في حرية تامة بعيداً عن عيني رئيسة الكاهنات المستجدات وبعيداً عن صياحها المزعج..

✻✻✻✻✻✻✻✻✻✻

قبل اثنتي عشرة سنة

وقفت الطفلة القادمة من العالم السفلي بصمت وهندام نظيف أمام الباب الفخم العريض دون أن تخفي انبهارها.. أصبحت الطفلة مع بعض العناية أكثر بشرية وتحضراً من هيئتها الحيوانية السابقة.. كانت بشرتها أنظف وشعرها أزكى رائحة، بعد أن تم ضمّه ورفعه بشريطة ملونة.. واستبدلت ملابسها البالية بأخرى أكثر جمالاً رغم تململها الواضح منها، وارتدت حذائين جميلين في قدميها الداميتين.. كانت تبدو كطفلة عادية سيئة التغذية، ولم يكن ينقصها إلا فهم لغة هذا العالم التي لا تفقهها، والتأقلم مع أشكال الحضارة التي لم تعتدْ عليها.. لم تكدْ الطفلة تغلق فمها الذي تدلى انبهاراً منذ وصولها لعاصمة مملكة (الغمام) البهيّة الواسعة، ورؤية أشكال الحضارة التي لا ترى جزءاً منها في العالم السفلي.. وجوارها، وقف قاث يمسك كتفيها ليمنع تقدمها وهو ينتظر الإذن بالدخول..

عندما أتى الاستدعاء العاجل إليه، أدرك قاث سبب ذلك الاستدعاء، وما سيواجهه في هذه القاعة.. لكنه لم يكن يهتم.. ولمَ عليه أن يعبأ لكلمات بضع أشخاص يحاولون فرض أمرهم على المملكة كاملة بما فيها الملك؟.. فتح الباب بصوتٍ عالٍ هز الممر، فجذب قاث يد الطفلة سائراً عبره نحو القاعة الواسعة خلفه، ولم يسمح للطفلة بالركض في جوانب المكان كما تشتهي مع كل الأشياء التي أثارت دهشتها وفضولها بشدة.. وقف قاث أمام الملك الذي جلس على عرش مذهب يعلو عدة درجات ترفعه عن مستوى من يمثل أمامه وتجبرهم على النظر إليه رافعي رؤوسهم، فانحنى له باحترام والملك يرد عليه بهزة خفيفة من رأسه.. لم يكن لقاث ألا يلاحظ مجلس الكهنة الذي جلس جانباً مكوناً مما لا يقل عن سبع كهّان، والذي لا يفارق قاعة الملك في أي حدث مهم يمر به.. ثم سمع الملك يسأله بصرامة "ما معنى ما وصل إليّ يا قاث؟.. أحقاً أنت جلبت معك شخصاً من العالم السفلي؟"

أجاب قاث بهدوء "ليس شخصاً.. بل طفلة.."

وجذب الطفلة التي لا تكف عن الحركة مضيفاً "وها هي أمامك.."

تدخل كبير الكهنة قائلاً بغضب "كيف تجرؤ على القيام بتصرف كهذا دون الرجوع إلى القيادات العليا؟"

قال قاث بحزم "وهل هناك ما يمنع إيوائي طفلة مشردة مهما كان أصلها؟!.."

قال كبير الكهنة "أنت تعلم بالضبط سبب ذلك.. إنها النبوءة.."

علق قاث بسخرية لم يملكها "النبوءة؟.. أتعني تلك الألواح التي تحمل هذيان رجل عاش قبل مئات السنين؟.. من يصدق هذا القول في هذا الوقت؟"

نهض أحد الكهنة غاضباً وصاح "أنت تتجرأ على الكاهن الأول إينار، مؤسس معبدنا وديانتنا وصاحب النصوص التي نتبعها منذ قرون.. كيف تجرؤ على ذلك؟"

قال قاث ببرود "وكيف تجرؤ على الصياح في حضرة الملك؟"

رفع كبير الكهنة يده للكاهن ليصمت، فيما قال الملك "ليس هذا ما يهمني في هذه اللحظة يا قاث.. بل أمر هذه الطفلة التي تخالف أبسط تعليمات الكاهن الأول.. وهذا ما لا يمكنني السماح به في هذه المدينة.."

قال قاث ببساطة "ولهذا أتيت بها لتمْثل أمامك، ولتأذن لي بالاحتفاظ بها.. ولكي ترى بعينيك أنها لا تمثّل أي خطر لعالمنا السامي بأي شكل كان.."

قال كبير الكهنة بصوت صارم "أنت تهزأ بتعليمات إينار يا قاث.. هذا عملٌ له تبعاتٌ خطيرة عليك وعلى مستقبلك العملي في قيادة الجيش.."

قال قاث بتحدٍ واضح "أهذا تهديد لي؟.."

ونظر للملك مضيفاً "لا أدري ما يقلق سموّك.. أهي كلمات كاهن؟.. أم هذه الطفلة؟.. هل يرضى الملك بأن يشاع أنه خائفٌ من طفلة لا تتجاوز العاشرة من عمرها فقط بسبب نبوءة؟"

قال كبير الكهنة وقبضته تضرب الطاولة بقوة "كيف تجرؤ على التطاول على الملك يا هذا؟"

فعلق قاث محتداً بدوره "ولمَ تتولىّ أنت الإجابة والتدخل في كل حديث بيني وبين الملك؟.. أتستهين به؟"

قال الملك بملل "هذا جدالٌ عقيم.."

التفت كبير الكهنة إلى الملك قائلاً "مولاي.. أرى أن تأمر بالتخلص من هذا الكائن.. وأن تعاقب قاث على تطاوله على الكاهن الأول.. وعلى عصيانه للأوامر.."

قاطعه قاث بصوت واضح "الكاهن الأول ليس قائدي ولا رئيساً لي لكي أعصي أوامره.."

ورفع بصره للملك مضيفاً "أنا لا أطيع إلا الملك.. وأرى ألا يخسر الملك قائد جيشه بسبب طفلة لا ندري إن كانت هي التي تتحدث عنها النبوءة أم لا.."

اعترض كبير الكهنة "مولاي.. لا يمكنك أن تسمح....."

قاطعه قاث من جديد "لا يمكنه؟!.. من قال ذلك؟"

نظر له كبير الكهنة بحنق، وقاث يضيف بصوت أعلى "مما أراه اليوم، فإن مجلس الكهنة يتدخل ويتحكم بكل من في القاعة، ويفرض رأيه بكل صورة ممكنة.. فهل يرضى الملك بذلك؟.. هل يرضى الملك أن يفرض الكهنة كلمتهم عليه دون رأي منه؟.."

اعتدل الملك في مجلسه يقلب بصره بين قاث وبين مجلس الكهنة الذي يتميز غيظاً من كلمات قاث.. ثم قال الأخير بهدوء "كلمة أخيرة أقولها لكم.. النبوءة ذكرت رجلاً ولم تذكر امرأة.. كما أنها لم تتحدث قطعاً عن طفلة.. أليس كذلك؟"

مسّد الملك لحيته الخفيفة وهو يغمغم "هذا حق.. كيف غفلنا عن ذلك؟.."

ابتسم قاث ابتسامة خفيفة لدى رؤية الصدمة في أعين الكهنة، وقال بهدوء "ممالكنا السامية قد عاشت لقرون دون أن تواجه خطراً حقيقياً من العالم السفلي.. فكيف لنا أن نصدّق أن هذه الطفلة بجسدها الهش يمكنها أن تكون خطراً علينا مع كل علومنا وتطورنا؟.. أليس من الاستهانة بعقولنا أن نصدّق كل ما يقال لنا دون تدقيق؟"

تعاظم الاستنكار في وجه مجلس الكهنة، وقاث متيقن أن كبيرهم يودّ لو يرديه قتيلاً في تلك اللحظة.. ومما زاد من غضبهم قول الملك وهو يعتدل بحزم "لا بأس.. لا أجد ما يمنعني من الموافقة.."

اتسعت ابتسامة قاث بينما صاح كبير الكهنة "مولاي.... كيف.....؟!"

قاطعه الملك قائلاً "ولكن، لابد أن تبقى هذه الطفلة تحت عينيك.. إنها مسؤوليتك.. ولا يمكن أن تسمح لها بأن تغيب عن ناظريك مطلقاً.. وإن ثبت لنا أنها قد تحمل لنا خطراً، فسآمر بطردها من هذا العالم بأي وسيلة كانت.."

قال قاث معتدلاً في وقفته "أنا موافق على ذلك.. ستكون الطفلة تحت رعايتي، ولن ترَ منها ما يسيئك مطلقاً يا مولاي.."

صرفه الملك بإشارة من يده، فأدى له قاث التحية، ثم جذب الطفلة التي لا تفهم مما جرى أمامها شيئاً وغادر القاعة بصمت.. ومن خلفه، تعالى صياح كبير الكهنة متجاهلاً قول الملك "ستندم يا قاث.. ستندم على هذا بعد أن ترى توابع هذا الفعل في مملكتنا الآمنة.. وعندها، ستتحمل نتيجة هذا التصرف وحدك أنت.."

لم يعلق قاث وهو يغادر القاعة دون تردد ممسكاً يد الفتاة دون أن يفلتها.. ولم تمضِ ساعة على ذاك اللقاء، حتى كانت الفتاة تجلس أمام قاث الذي استخدم مقصاً لقص خصلات شعرها تاركاً جزءاً قصيراً لا يكاد يجاوز أذنيها.. وبينما تساقطت خصلات شعرها أرضاً، فإن الفتاة انشغلت عن كل ذلك بتأمل ساحة مركز قيادة الجيش بانبهار وهي تتناول شيئاً من الطعام.. ورغم نظرات الجنود وبعض الضباط الفضولية الحذرة نحوها، لكن أحدهم لم يجرؤ على الاقتراب والتحدث مع القائد.. عدا عن دارو الذي وقف قريباً يراقب ما يفعله قاث باستياء معلقاً "هذا متوقع من الكهنة.. هذه الفتاة ليس مرحّباً بها في هذا العالم.. علينا أن نعيدها من حيث أتت، وتناسي ذاك العالم الذي نجهله بشكل تام.. لسنا في حاجة للمزيد من المشاكل.."

رمى قاث المقص جانباً بعد أن فرغ مما يفعله، ونظر للفتاة التي رمقته بصمت قائلاً بابتسامة جانبية "أنت ستكونين تحت حمايتي يا ابنة التراب، وسأضمّك للجيش فور بلوغك السن المناسبة.. ألن يكون ذلك عقاباً ملائماً لأولئك الكهنة الذين يظنون أنفسهم يملكون القدرة على التحكم في مصائر الآخرين؟"

قال دارو باعتراض "سيدي.. عليك التخلص منها بدل هذا الجنون الذي تنوي القيام به.. لو وصل أمرها للعامة، فلا ندري ما قد يحدث آنذاك.."

نظر له قاث بنظرة حادة، ثم قال وهو ينهض واقفاً "لا بأس.. إن كان هذا ما سيريحك.."

وجذب الفتاة من ذراعها نحو جانب الساحة الأبعد من المباني، حيث تنقطع الأرض عند حافة هذا العالم كاشفة عن سماء سوداء مظلمة لا تكاد مصابيح القاعدة تنير ولو جزءاً بسيطاً منها.. ولما لحق به دارو بعجلة وقلق، دفع قاث الطفلة إليه قائلاً "افعل هذا أنت.."

اتسعت عينا دارو بدهشة، وقاث يحثه قائلاً "إن كنت ترى أن صالح مملكتنا يكمن في التخلص من طفلة صغيرة دنيئة، فلا حرج عليك في التخلص منها.. فافعل ذلك أنت وليكن لك الشرف بذلك.."

صمت دارو للحظة فيما اتسعت عينا الطفلة بقلق وشحب وجهها وهي ترمق ما بدا لها كهاوية مظلمة.. لم يستوعب عقلها الارتفاع الذي تصل إليه هذه الأرض مقارنة بالأرض الدنيا، لكن ما أدركته أن سقوطها من هذا الموقع سيكون مؤلماً.. مؤلماً بشدة.. تراجعت الطفلة خطوة بقلق، لكن قاث أجبرها على التقدم وهو يقول لدارو بحزم "ما الأمر؟.. ها أنا أحقق مطلبك وأستجيب لإلحاحك.. ألن تقوم بالتخلص منها؟"

وبدفعة من يد قاث، شعرت الطفلة أن قدمها تكاد تزل من ذلك الموقع الذي لا يحجزه أي حاجز.. فأطلقت صيحة مذعورة والفزع يرتسم بشدة في عينيها وهي ترمي نفسها على دارو الأقرب إليها وتتشبث بساقه..

ظلت تطلق صيحاتها وهي ترتجف بشدة فيما راقب قاث شحوب وجه دارو الذي تمسك بالطفلة دون أن يدري ما يفعله.. لم يكن هذا ما عناه عندما طلب من القائد التخلص من الطفلة.. كان يرمي لإعادتها لعالمها، لا رميها من هذا العلوّ بقسوة.. ورغم يقينه أن قاث لن يفعل ذلك حقاً، لكن رمي هذه المهمة على عاتق دارو قد آتت ثمارها، عندما انحنى حاملاً الطفلة ومتراجعاً بها خطوات وهو يقول بارتباك "لم يكن هذا ما عنيته.."

ابتسم قاث ابتسامة راضية، وتراجع عائداً لمبنى القادة قائلاً "تولّ أمر هذه الطفلة بنفسك منذ هذه اللحظة.. أريدها أن تتكلم لغتنا بطلاقة بعد شهر من الآن.."

ولم يكن هذا أمراً يمكن عصيانه.. فزفر دارو وهو يشعر بالفتاة المتشبثة به وهي ترجف بقوة.. فغادر الموقع لتهدئة مخاوف الطفلة وهو يغمغم "لم يكن هذا ما عنيته مطلقاً.."

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

"جود.."

استدارت جود خلفها لترى دارو يتقدم منها بنظرة حادة صارمة.. فابتسمت له قائلة بمرح "صباحٌ جميل يا دارو.. أين كنت؟.. أنت تعلم أنني لا يمكن أن أهنأ بصباحي دون أن أراك.."

اقترب منها دارو قائلاً بصرامة "ما هذا الذي سمعته اليوم يا جود؟.."

قالت جود مفكرة "لا أدري بالتحديد ما تعنيه.. هناك الكثير من الأمور التي حدثت اليوم.. الأمن مستتب في السوق، وياسان قد تلقى علقة ملائمة لتهربه من أعماله، ولا ننسى....."

قال دارو بحدة "هل قام رجال فصيلك بإيساع أحد الباعة ضرباً في السوق؟.. لقد جاء الرجل يشتكي بأنفٍ يتصبب دماً.. ما الذي دفعك لإصدار أمرٍ مثل هذا؟"

قالت جود باعتراض "لم يكن أمراً مني.. لقد سمع جنودي الرجل يتهجم عليّ بشتيمة لم يقبلوها، وقاموا بعقابه لتطاوله على الجيش ورجاله.."

قال دارو بغضب "وهل أصبح من حقك سلب العامة رأيهم وإسكاتهم؟.. مجرد شتيمة؟.. أهذا يستدعي العقاب الذي ناله بدون رأفة؟"

قالت جود مبررة "أخبرتك، لم يكن ما جرى بأمرٍ مني.. كما أنني لم أتمكن من إيقاف الجنود عما فعلوه لأنهم لن يطيعوني في هذا الأمر على كل حال.. فما الذي كان بيدي فعله؟"

قال دارو بشدة "كان عليك عقاب الجنود على تصرفهم.. كان عليك أن تنتصري للحق، لا أن تتغاضي عنه فقط لأن الهجوم كان عليك أنت، ولأن من قام بالرد هم رجالك.. إياك أن تكرري هذا الأمر يا جود، وإلا كان العقاب من نصيبك أنت.."

واستدار مغادراً بخطوات حانقة، فقالت جود وهي تتبعه "لا بأس، لن أكرر هذا الخطأ مرة أخرى.. لا داعي لكل هذا الغضب فهو لا يليق بك.. تبدو مخيفاً هكذا.."

قال دارو بحنق "لم أعهدك قاسية بهذه الصورة.. ما الذي جرى لك؟.. أم أن المنصب الجديد قد حشد رأسك بالكبرياء حتى صرتِ تتطاولين على من هم أدنى منك؟"

خفضت جود رأسها بضيق لتقريعه، ثم قالت بانفعال مكتوم "لا أدري.. ربما لأنني شعرت بغضب وحنق لتلك الشتيمة التي لا تفتأ تصبّ على رأسي.. أرضية قذرة.. أهذا كل إثمي؟.. ألسنا كلنا بشراً؟.."

ونظرت لدارو الذي رمقها بصمت، فقالت مدافعة عن نفسها "لم أحاول الانتصار لنفسي، فليست هذه من طبائعي.. لكن انتصار الجنود لي قد أزال غضبي ولو قليلاً.. فهل ألام على هذا؟"

اقترب دارو منها وضغط على كتفها قائلاً "جود، أنت أكبر من أن تذلّك كلمة كهذه.. هي مجرد كلمة، وأنت أثبتّ للجميع أنك أفضل من كل ما توقعوه.. ألا يمكن التغاضي عن تلك الكلمات التي لا تؤذي إلا لو أردنا أن نجعلها كذلك؟"

هزت جود رأسها إيجاباً وقد سَكَن ضيقها مع كلمات دارو، وشعرت بغضبها السابق لما يقال عنها قد تبخر تماماً.. فقال دارو بلهجة حازمة "والآن، ستأتين معي للاعتذار للرجل بنفسك.. ولن أقبل إلا عندما أرى هذا بعينيّ.."

واستدار مغادراً، فسارعت جود لتتبعه دون غضاضة فيما طلبه منها.. منذ اللحظة التي تولىّ دارو أمرها عند مجيئها لهذا العالم، فإنه فعل ذلك بكل إخلاص.. كان سندها وعضيدها في سنواتها الاثنتي عشر في هذا العالم الذي لم يترفق بها لأصلها الذي ينكرونه ويحتقرونه.. لكن دارو كان بلسماً شافياً لجراحها، ورغم محاولته أن يعاملها بصرامة وشدّة، لكن طيبته ورقة قلبه كانت تتغلب عليه في كثير من الأوقات..

ولولاه، لربما كرهت جود هذا العالم السامي وبغضته من كل قلبها..

✻✻✻✻✻✻✻✻✻

بدا هذا اليوم أكثر إشراقاً وبهاءً لعيني هيما بعد مغادرتها أسوار المعبد العالية.. كل ما هو بعيدٌ عن المعبد جميل ومبهر لعينيها.. حتى الهواء يحمل رائحة مميزة تحبها.. يتعجب كابو من حديثها هذا عندما تتكلم بحماس عن تلك الأمور بعد عودتهما سالمين من هروبهما الصغير ذاك، ويتعجب من إصرارها أن للهواء رائحة أجمل خارج المعبد.. دمدم عدة مرات معترضاً "أنت تهذين.. لا شيء يميّز المدينة خارج أسوار المعبد.."

لكن هيما تصرّ على رأيها وعيناها تتلألآن حماساً وسعادة.. فلا يملك كابو إلا الاستماع إليها بصمت وعدم اقتناع..المعبد المقام في واحدة من أرقى أحياء العاصمة يعتبر من أنظف المباني وأجملها وأكثرها زخرفة.. عندما أتى للعمل في المعبد في طفولته لم يتمكن من إخفاء انبهاره بما يراه.. ربما كانت القصور الملكية تتفوق عليها في البهرجة والجمال، لكنه لم يرَ تلك القصور قط إلا من مبعدة.. لكن هذا المعبد الماثل أمام عينيه كان الأجمل في العاصمة، ولا يمكنه أن يفهم إطلاقاً كيف لهيما أن تتذمر من وجودها فيه.. أن تتذمر من حياة هانئة وادعة لا تحتاج فيها للعمل والكد، وتلقى فيها الاحترام والتقديس الذي يفوق ما قد يحصل عليه رجالٌ أكبر عمراً وأكثر مكانة خارج المعبد، وقطعاً لا يحصل عليها شخص مثله.. لا يمكنه أن يفهم، لكن لا يمكنه إلا مجاراتها فيما تطلبه في كل مرة..

سارت العربة التي يقودها حصان نشط، ويمسك كابو بزمامه خارجاً به من أسوار المعبد العالية ليشق طريقه عبر الشارع الذي يصله بقلب المدينة.. وفور تجاوزه الأسوار والحي القريب من المعبد، حتى قال وهو يتلفت حوله "المكان آمن الآن.."

رفعت هيما رأسها من بين الأجولة التي تحتلّ العربة، وتلفتت حولها بفضول وإثارة، قبل أن تدفع الأجولة القريبة وتنهض نافضة ملابسها وهي تقول بسعادة "تم الأمر بسهولة.."

ترقّب كابو الأعين حولهما شاعراً أن كل من يراهما يعرف بالجرم الذي قاما به، وغمغم دون أن يخفي توتره

"لن يتمّ الأمر حتى تعودي للمعبد دون أن يكتشف أمرك.."

ربتت هيما على ذراعه قائلة بابتسامة متسعة "لا تقلق.. لقد خططت للأمر جيداً.. لن تدرك بيرن قط ما جرى رغم كل محاولاتها.."

وجلست عند مقدمة العربة جواره وهي تتلفت حولها بشغف متأملة أحياء المدينة التي تمر بها.. لم يخفت شغفها لما تراه مع تكرار هروبها، ولم يصبِها الملل قط من تأمل الطرقات والبشر والبيوت متأملة أدق التفاصيل.. فعلق كابو قائلاً "كفّي عن التلفت بهذه الصورة.. قد يثير تصرفك هذا الشكوك نحونا.."

لم تعلق هيما وهي تحاول التزام تعليماته دون نجاح كبير.. سارت بهما العربة شاقة بضع أحياء قبل أن تصل بهما إلى مدخل السوق الكبير الذي منحته الأقمشة الملونة التي تغطيه اسمه المميز.. سوق الألوان.. شغفت هيما بمنظر السوق وهو يزهو بالألوان التي تعكسها الأقمشة عليه، من حمراء وصفراء وزرقاء وبنفسجية.. كان منظراً جميلاً تلألأت له عيناها رغم أن الدهشة لم تكن واضحة على أي وجهٍ آخر سواها..

بدا سكان المدينة معتادون على منظر ذلك السوق، بل بدا الضيق والبؤس على بعض الوجوه وهم مضطرون لخوض ذلك الازدحام لقضاء حاجاتهم المختلفة.. لكن ذلك الضيق كان بعيداً كل البعد عن هيما وهي تهبط من العربة التي أوقفها كابو أمام أحد المحلات التي صفّت على جانبي ذلك الشارع..

هبط كابو بدوره قائلاً "عليّ أن أنهي هذه الصفقة مع صاحب هذا المحل.. وقد يستغرق هذا بعض

الوقت.. فهل ستنتظرينني في العربة؟"

قالت هيما بلهفة "بل سأقوم بجولة في السوق حتى تفرغ من عملك.."

نظر لها كابو بصدمة وتوتر، ثم قال بارتباك "أنا أفضّل أن تنتظري عودتي، وبعدها سآخذك في جولة في السوق بالتأكيد.."

قالت هيما بانفعال "لا.. سأذهب في جولة سريعة ولن أتأخر.."

ولوحت له بيدها وهي تبتعد قائلة "سأشتري لك بعض الفاكهة اللذيذة.."

كانت قد أحضرت معها بعض النقود، ولم يكن مبلغاً كبيراً إنما قطعتين فضيتين ظنت أنهما كافيتين لشراء أي شيء من بضائع السوق المتنوعة.. لم تكن الكاهنات يستلمن أي مبالغ من المعبد، ولم يكن بإمكانهن شراء أي شيء غير ما يخصص لهن عبر إدارة المعبد وكاهنته الكبرى.. لكن هيما قد تمكنت من الحصول على هذه النقود الفضيّة من أحد أدراج الكاهنة بيرن.. لم يكن هذا سرقة بنظرها، ولم ترَ هيما غضاضة فيما فعلته، فالكاهنة بيرن كانت تختلس تلك الأموال بغير وجه حق من أموال المعبد والتبرعات التي تصل إليه.. ولذا، لا تعدّ هيما اختلاس الأموال المختلسة شيئاً تندم عليه..

دارت هيما في جوانب السوق متأملة محالّه وبضائعه وروّاده من البشر.. دققت النظر في كل محل وكل رف وتأملت كل واجهة زجاجية تمر بها لافتة أنظار البعض للفضول والدهشة الواضحين عليها.. لكنها لم تنتبه لتلك الأنظار وهي تشعر بنفسها تحلق في عالم الخيال..

أخيراً، مرت بعربة صفّت عليها أنواعٌ مختلفة وشهية من الفاكهة والخضار، بألوانٍ زاهية ورائحة لذيذة دفعتها للعبث بنقودها في جيبها بلهفة وهي تحدق في تلك الثمار.. حارت في اختيار أيها لها ولكابو.. كل الفاكهة المعروضة جميلة المنظر، وبرائحة زكية أسالت لعابها.. أخيراً انتخبت تفاحتين حمراوين من الفاكهة ومدت يدها للرجل بالعملتين قائلة بابتسامة "أهذا كافٍ؟"

مد الرجل يده ليستلم العملتين متعجباً من هذا السؤال، ملاحظاً الابتسامة السعيدة على وجهها وكأنها حققت إنجازاً كبيراً بهذا العمل، عندما فوجئت به هيما يمسك يدها بقوة شهقت لها وهي تنظر في وجهه..

ظل الرجل يحدق في وجهها للحظات، قبل أن يقول مدهوشاً "ألست أنت من كهنة المعبد؟"

ارتجف جسد هيما بقوة وهي تنظر له مصعوقة، فيما قال الرجل بإلحاح "أجل.. أنا أذكرك.. لقد رأيتك في

الاحتفال الماضي مع الكاهنات المستجدات، وقد لاحظتك بوضوح لأنك كنت تكثرين الحركة والتململ بينهن.."

همست هيما بحلق جاف "أنت مخطئ.. أنا لست....."

قال الرجل بصوت أعلى ودون أن يفلتها "بل أنت منهن.. لا يمكنك الكذب عليّ.. هل أنت بمهمة متخفية خاصة بالمعبد؟"

ازداد حرج هيما وصدمتها وهي تحاول جذب يدها من قبضة الرجل، ملاحظة الأنظار التي صبّت عليهما بدهشة وفضول.. تلفت الرجل حوله وهو يقول بريبة "هل أرسلك الكهنة لاستطلاع أمور الباعة؟.. هل يحاولون فرض ضريبة جديدة علينا؟"

سال العرق غزيراً من جبين هيما وهي تقول بارتباك "لا.. أنا لا أعلم شيئاً عن ذلك.. إنما أنا خادمة من خدم المعبد أتيت لبيع بعض الـ...."

قال رجل آخر وهو يتأملها "عادة يرسل الكهنة خادماً لهذا الأمر، فما أهمية وجود خادمة؟.. وجودك يثير الريبة ولا يسعنا إلا أن نشك بغرض كهنة المعبد من إرسالك.."

شعرت هيما بارتباكها يتزايد.. رغم أن أمر هروبها من المعبد لم يطرأ لذهن أحدهم، فليست له سابقة قط.. لكن هذا لا ينفي أنهم قد ارتابوا بأمرها ويشددون عليها الخناق.. وفور انكشاف الأمر حتى يصل لكهنة المعبد وحراسه.. فما الذي ستفعله عندئذ؟.. ما الذي سيفعله كابو وهو قد تورط في أمرها حتى الأذنين؟.. أي عقاب سيحصل عليه ذلك البائس لطاعته رغباتها الرعناء؟..

كان شحوبها يزيد من الشك حولها، ولم ينفضّ الجمع الذي تحلق حولها حتى شق كابو طريقه إليها وهو يسأل بلهجة غاب عنها الارتباك وبصوت جهوري "ما الأمر؟.. ما الداعي للتحلق ومضايقة خادمة المعبد بهذه الصورة؟"

نظر له البائع بحنق قائلاً "أتحاول خداعنا يا هذا؟.. أليست هذه من كاهنات المعبد؟"

وجذبها من ذراعها قائلاً "لن أتركك حتى تخبرينا بما ينتويه الكهنة من إرسالك.. هل ساءهم أننا ندفع الضرائب بصمت؟.. هل ينتوون استغلال صمتنا ورفع الضرائب المقامة على هذا السوق حتى تفرغ نقودنا في جيوب الكهنة؟.."

جذب كابو هيما ودفع يد الرجل عنها وهو يقول بحدة "إياك أن تلمسها.. ولو كانت لديك شكوى معينة، فتقدم بها لكهنة المعبد.. لا شأن للخدم بما يقرره الكهنة كما لك أن تخمّن.."

وجذب هيما الشاحبة محاولاً الابتعاد، لكن الحلقة حولهما ضاقت أكثر ورجل آخر يقول "نحن لم نرتكب إثماً.. كل ما نريده هو بعض الأجوبة.. فما الداعي لهذا الجدال؟"

قال آخر حانقاً "أجل.. لن نسمح لكما بالرحيل دون أجوبة.."

تعالت الصيحات مختلفة من حولهما، وفيما زاد شحوب هيما وهي تتشبث بيد كابو، فإن العرق سال من صدغ كابو وهو يحاول الإفلات من هذه الحلقة دون أن ينغمسوا في هذا الأمر أكثر.. ومما زاد قلقه وارتباكه، رؤية تلك الفرقة من الجنود التي سلكت طريق السوق في الجهة القريبة منهما.. لو حاول الجنود التدخل وفك الجدال، فقد يسوقونهما للمعبد بتهمة الإخلال بالنظام أو لأي تهمة أخرى.. وعندها، سيكون أمرهما قد افتضح دون محالة..

يبدو أن الفضيحة ستكون من نصيبهما اليوم مهما فعلا..

ولكم كان كابو نادماً على مسايرة هيما في هذا اليوم المشؤوم..

✻✻✻✻✻✻✻✻✻✻

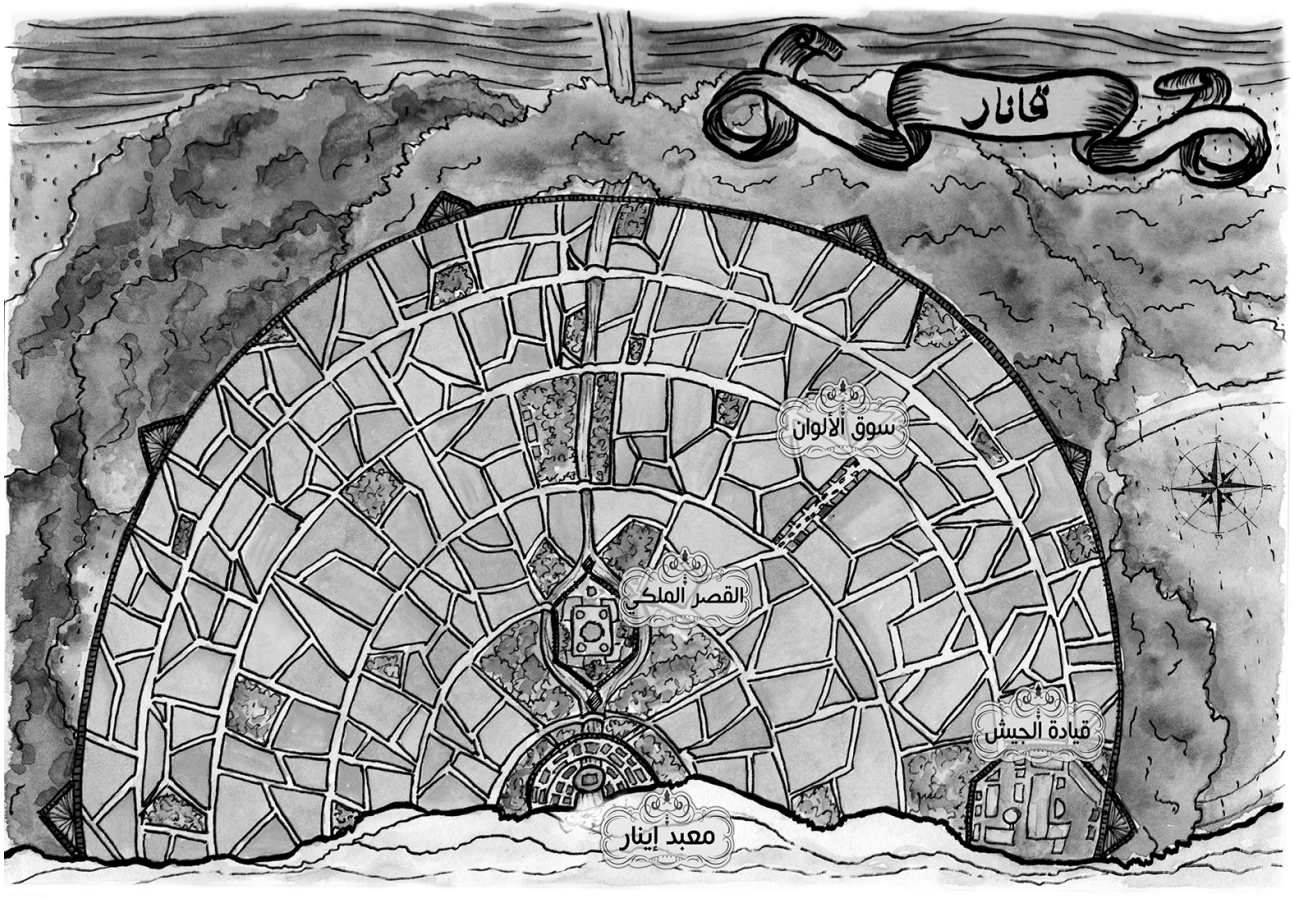

(الفصل الثاني)
أرض الهوام : سيرا وبارا

دفع ذلك الشاب قدميه بصعوبة وسط المستنقعات التي احتلت مساحة كبيرة من الأرض حوله.. كانت رائحة المياه الآسنة تكاد تخنقه، وصعوبة السير في هذه المستنقعات مع الخطورة التي يواجهها في كل لحظة دفعته ليصيح بحنق "سيرا.. ما الذي تطمحين للقيام به في هذا المكان؟"

أجابته الفتاة التي تسبقه بخطوات حاملة رمحاً يفوقها طولاً "أتيت لاصطياد حيوان الكيراك.. ما الذي قد يفعله أي امرئٍ في المستنقعات إلا هذا؟"

قال الشاب بحنق "ومنذ متى تسعين لتحقيق مثل هذا الأمر؟.. الكيراك لا فائدة منه بأي صورة كانت، إلا لو كنت تريدين استعراض عضلات لا تملكينها.. فما الداعي لمثل هذه المخاطرة؟"

قالت الفتاة بعناد "أريد أن أثبت نفسي.."

لم يبدُ عليها أي تردد وهي تخوض هذه المستنقعات الخطرة، فقال الشاب بغيظ "هل تريدين إثبات نفسك أم لفت انتباهه؟.. أتظنين أنني لا أدرك مقصدك حقاً؟"

قالت الفتاة ببساطة "هذا وذاك.. فما الذي يمنع ذلك؟"

قال الشاب وهو يسرع في سيره محاولاً اللحاق بها وإمساكها "ما الذي يجعلك تسعين خلف رجل مثله؟.. إنه يفوقك عمراً بكثير، وأنت لا تتجاوزين التاسعة عشر.. كما أنه من سكان العالم السفلي البدائيين.. أنسيت ذلك؟"

قالت الفتاة بحزم "بل هل نسيت أنت من تكون؟.. أما زلت تظن نفسك من سكان العالم الذي لا يغيب عنه النور؟.. أفق لنفسك يا بارا.. أنت أصبحت من سكان العالم السفلي بالفعل.. "

قال بارا حانقاً "محال.."

ابتسمت سيرا بجانب فمها وعلقت "بل أصبحت كذلك منذ اثنتي عشرة سنة.. أو أن تكون ميتاً.. اختر الصفة التي تروق لك.."

ركض بارا بشيء من الصعوبة وهو يخوض في المياه التي تتميز بكثافة غير عادية، حتى لحق بالفتاة فأمسك ذراعها وأجبرها على الوقوف قائلاً بعبوس "سيرا.. أأنت حمقاء؟.. هل ستتنازلين عن حياتك كلها لتعيشي هذه العيشة البدائية مع رجل يفوق عمرك بكثير؟.. ألا تريدين العودة لعالمك ولحياتك التي سُلبت منك؟"

واجهت سيرا عبوسه بابتسامة واثقة قائلة "أجل.. هذا ما أسعى إليه.."

ضغط بارا على ذراعها بقوة، ثم قال بغضب "لكني لم أنسَ.. ولن أنسى ما فعلوه بنا.. ولا يجب أن تفعلي ذلك أنت.. لا تركني لهذه الحياة البائسة، ولا تنسي ما أذاقنا إياه ذاك الرجل منذ مجيئنا هنا.."

قالت سيرا بهدوء "بل أنت من نسي أن ذاك الرجل هو من أنقذ حياتينا بعد أن كان موتنا محققاً.. فهل ألام على نسياني تلك الحياة التي نبذتنا بكل برود؟.. ثم إننا أمضينا اثنتي عشرة سنة دون أن نعثر على وسيلة للعودة.. أما آن لك أن تيأس؟.."

وأدارت له ظهرها وهي تجذب ذراعها من قبضته، وابتعدت قائلة "احتفظ بأنفاسك لنفسك.. لا أريد أن يفرّ الكيراك من صوتك العالي قبل أن أتمكن من اصطياده.."

✻✻✻✻✻✻✻✻✻✻

قبل اثنتي عشرة سنة

عندما تراءت الأرض السوداء من بين حاجز الغيوم لعيني الصبي والفتاة بعد سقوطهما من عالمهما المضيء، بدا واضحاً لهما أن النجاة مستحيلة.. أغمضت الفتاة عينيها بقوة وهي تتشبث بشقيقها التوأم ونشيجها المكتوم يصل لأذنيه بوضوح رغم اندفاع الهواء القوي حولهما.. لكنه لم يتمكن من مجاراتها.. لم يتمكن من إغلاق عينيه وهو ينظر بذعر واضح للأرض التي تقاربت منهما بسرعة.. ولم يقدر حتى على البكاء على المصير القاسي الذي سيواجهانه خلال لحظات قليلة..

سمع الفتاة تنشج هامسة "سنموت.. سنموت يا بارا.."

أغمض عينيها بأصابعه وهو يتمتم "وماذا في ذلك؟.. إن هي إلا لحظات فقط وينتهي كل شيء.."

تزايد بكاء الفتاة وبارا يقول بابتسامة شاحبة "ومن يدري؟.. عندما نموت، قد نذهب للجنة حقاً يا سيرا.."

كان لهذه الجملة مذاقٌ مرير في حلقه، لكنه لم يتمهل مفكراً في مدى اقتناعه بصحّة ما قاله، إذ لفت انتباهه ذلك الجسد الذي اقترب منهما بسرعة خاطفة من جانبهما.. استدار إليه بدهشة، وشيء من الأمل لم يدُم طويلاً.. في البدء ظن أنها طائرة من طائرات عالمه أتت لإنقاذهما من هذا المصير.. لكن من النظرة الأولى أدرك أن هذا الجسد لم يكن إلا لكائن غريب المنظر يشبه النمر بجناحين وقد اقترب منهما محلقاً بسرعة.. شهقت سيرا بصدمة لدى رؤية الكائن، ولم يتمكن بارا من التفوه بكلمة وهما يريانه ينقض عليهما بسرعة.. أغمضا عينيهما بقوة خشية أن يلجأ ذلك الكائن الغريب والوحشي لالتهامها، وشعرا بارتطامه بهما قبل أن يستمر بالهبوط أرضاً وإن كان بسرعة أقل وثبات أكثر.. أخيراً تجرأ بارا على فتح عينيه على اتساعهما وهو يشعر بتلك الذراع التي تحيط به وبسيرا.. وخلفهما، على ظهر ذلك الكائن، استطاع أن يرى شاباً لا يتجاوز العشرين من عمره.. لا يبدو أكثر لطفاً من الكائن الذي يمتطيه، مع ملامحه التي علاها الطين والتراب وثيابه البالية ورائحته التي تنافس رائحة الحيوان قوة..

سمعا الشاب يقول وهو يشدّ ذراعه حولهما لئلا يسقطا "من حسن حظكما أنني بدأت التجوال في هذه المناطق خلال اليومين الماضيين.. لم أكن أظن أن الموعد قريبٌ بهذه الصورة.."

نظرت سيرا لمنقذها بذهول، فيما قال بارا بصدمة "من أنت؟"

أجاب الشاب بابتسامة "ومن أكون؟.. منقذكما طبعاً.."

تدافعت دموع سيرا أكثر فأكثر، ثم تشبثت بالشاب بقوة وهي تبكي بحرقة وصدمة.. لقد قال لهما الكاهن أنهما سيحلقان للجنة.. فهل هذا ما عناه؟.. وهل هذا الشاب هو من سيأخذهما للجنة؟.. لمَ إذن أمضت الأيام الماضية كلها مرتعبة خائفة لا تكاد تعرف النوم أو الراحة وقد أيقنت أنها ستموت لا محالة؟..

لم يتعجب الشاب لبكائها، بينما قال بارا باستياء لم يملكه وهو يحاول جذبها "ابتعدي عنه يا سيرا.. كيف تتعلقين بشخص قذر كهذا؟"

نظر له الشاب بصدمة وغيظ، ثم قال "قد لا أكون نظيفاً عطر الرائحة مثلكما، لكني على الأقل أنقذت حياتيكما.. عليك أن تكون شاكراً.."

قال بارا بحنق وتكبر "هذا لا يعني أنني سأكون مديناً لك لتفضلك عليّ.. ابتعد عن شقيقتي خيراً لك.."

ضحك الشاب رغماً عنه وقال "لا بأس.. لن يزول تكبرك قبل مرور سنوات يا هذا.. وستجد نفسك مرغماً على نسيان أصلك بعد أن نبذك بنو قومك الجبناء.."

قال بارا بغضب "لا أسمح لك بالتطاول على قومي.. ومن أي قوم أنت؟"

قال الشاب بسخرية "ألم تفهم بعد؟.. ألا تراني أتحدث بلغتك يا هذا؟"

علق بارا حانقاً "لهجتك رديئة.."

غمغم الشاب "هذا متوقع مع قلة الممارسة.."

ثم أشار للأعلى قائلاً "لكن هذا لا ينفي أنني جئت من المكان الذي جئتما منه.."

نظر له بارا مبهوتاً، فيما مسح الشاب على شعر الفتاة الناعم مضيفاً بابتسامة "لا تقلقي يا فتاة.. لن تموتي جوعاً على هذه الأرض.. وستجدين أن حياتك هنا ليست سيئة تماماً.."

لم تكف سيرا عن البكاء لكل ما جرى، بينما انتفض بارا لقوله وصاح باستنكار "أتظننا سنعيش هنا؟.."

ونظر حوله للغابة الكثيفة السوداء من تحتهم، والتي لم تكن رائحتها منعشة أو لطيفة بأي حال.. ثم قال للشاب بإلحاح "خذنا على ظهر هذا الحيوان الطائر وأعدنا لمملكتنا.. لا يمكننا البقاء هنا.."

قال الشاب بجدية "ما الذي تقوله يا فتى؟.. أتظن أن عودتك ستكون سلسة ولطيفة؟.. لقد تمت التضحية بكما لضمان سلامة وأمن المملكة.. أتعرف معنى أن يعود القربان دون أن يمسّه سوء؟.. ستكون هذه بشارة سوء، وسيعمد الكهنة لقتلكما دون هوادة لئلا تضيع جهودهما سدىً.."

قال بارا بشحوب "هذا لا يمكن.."

فيما قالت سيرا من بين دموعها "أنا لا أريد العودة.. لا أريد الذهاب لذاك المكان مرة أخرى.. خذنا إلى الجنة.. أنت ستأخذنا إليها.. أليس كذلك؟"

لم يضحك الشاب لقولها الغريب، بل ربت على رأسها بلطف، ثم أدار الحيوان الطائر ليهبط بهم أكثر نحو الأرض التي لم تكن أقل ظلمة ووحشة مما يرونها في الأعلى..

ولم تكن رائحتها العطنة مبشرة بأيام سعيدة هانئة..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

ارتمى ذلك الرأس الطويل بأنيابه البارزة أرضاً، عند قدمي رجل جلس أمام كوخٍ بسيط من الحجارة غير المتساوية يعلوه سقف من القش مثبتة بالحبال والحجارة.. ولا يختلف الكوخ في مظهره عن الأكواخ القريبة

التي كوّنت دائرة متوسطة الحجم في موقعٍ منبسط لا يبعد الكثير عن المستنقعات التي احتلت منطقة شاسعة من هذه الأرض، وفي الجانب الآخر يمكن رؤية نهر عريض المجرىٰ بمياه عكره لا يمكن رؤية ما بقلبها، فيما امتدت غابات شاسعة علىٰ الضفة المقابلة جنوب القرية وشرقها وعلىٰ مدىٰ هكتارات واسعة من هذه الأرض..

تقع القرية في منطقة من أكثر مناطق الأرض رطوبة، وتتكون من مستنقعات وأراضٍ طينية تغمرها الرطوبة معظم أيام السنة، وبعض المسطحات الجافة التي حاول القرويون استغلالها للزراعة بكثير من الجهد.. كانت الرطوبة خانقة، والعفونة قد تسللت إلى الأكواخ وكستها بلون أخضر قاتم، فيما تسللت الشجيرات والفروع لكل جحر وفراغ في المكان بشكل كثيف ومتشابك يصعب التخلص منه.. ورغم صعوبة العيش في هذه المنطقة، لكن لم يدُرْ بخلد القرويين قط التخلي عنها والرحيل لمناطق أكثر جفافاً وراحة..

ابتسم الرجل وهو يتأمل الرأس الحرشفي الطويل بقرنين طويلين ملتويين وبأنياب بارزة وعين خضراء مشقوقة والدماء تسيل بلزوجة من جزئه المقطوع.. ثم حمل الرأس الذي لم يسبب له أي دهشة، ورفع بصره لسيرا الواقفة بثقة واعتداد أمامه معلقاً "هل أنت من اصطاده؟.. أم أنك أجبرت بارا علىٰ صيده لك؟"

كان قوله لا يجانب الحقيقة كثيراً، بعد أن أمضت سيرا عدة ساعات بحثاً عن واحد، ثم كادت تقضي نحبها في محاولة اصطياده.. ولولا معاونة بارا وإنقاذه لها، لما عادت للقرية مرة أخرىٰ قطعة واحدة.. لكنها أنفَتْ من ذكر ذلك أمام الرجل وهي ترفع ذقنها قائلة "بل أنا من اصطاده.. حتىٰ متىٰ ستظل مقتنعاً أنني فاشلة في هذا الأمر؟"

لم يعلق الرجل علىٰ قولها وهو ينهض ويتقدم منها حاملاً الرأس الذي لم يزَل يقطر دماً.. فيما راقبته سيرا

بترقب وشيء من اللهفة.. لقد وعدها إن تمكنت من اصطياد هذا الكيراك، فلن يسعى لصدّها مجدداً.. لن يمانع تقرّبها منه، وستكون عندها رفيقته بشكل رسمي تمهيداً لتصبح زوجته.. وهل هناك ما هو أسعد لقلبها من هذا الأمر؟..

تأملت الرجل الذي اقترب منها بقلب خافق ولهفة فائقة.. رغم أنها ليست قصيرة القامة، لكن طولها لا يقارن بطوله الفارع وجسده العريض بعضلاته الواضحة.. وهذه نقطة تحسب له في عالمٍ يحتاج للقوة من رجاله أكثر ما يحتاج.. لو كانت ما تزال في العالم السامي، لكانت قد اختارت شاباً رقيقاً مرهف المشاعر جميل الهيئة يناسب ذلك العالم المستقر الهادئ.. لكن في هذا العالم، فالرجل الذي يمنحها الأمان ويشعرها بقوته هو أكثر من يستحق اهتمامها.. وهل هناك من يزّ رادال قوة ومهارة؟.. ملامح وجهه الحادة تزيده هيبة، وشعره الأسود الذي يتجاوز كتفيه يمنحه منظراً أكثر توحشاً، وحاجباه الغليظان يضفيان حدة على عينيه رغم حدقتيه الزرقاوين.. فكه بارز مشدود تكسوه لحية خفيفة يشذبها بخنجره بشيء من الإهمال، وفمه النحيف يعلوه أنفٌ طويل حاد.. كل ما فيه مثالي لعينيها، ورغم أنه ليس بالوسامة التي قد يتوقعها المرء، وليس بوسامة بارا مثلاً، ورغم أنه جاوز الثلاثين من عمره بسنة أو اثنتين، لكن هيبته تضفي عليه جاذبية قوية لا تستطيع سيرا الفكاك منها مطلقاً..

بعد أن كادت أنفاسها تنقطع لشدة لهفتها لسماع إقراره بنجاحها، سمعته يقول رافعاً كفه بالرأس الدامية "أأنت من اصطاد هذا الكيراك يا بارا؟"

بهتت سيرا لسؤاله وصوت بارا يتعالى من خلفها مجيباً باستياء "طبعاً.. بعد أن كادت تلك المجنونة تفقد حياتها بين أنيابه.."

استدارت سيرا صائحة بغضب "كيف تجرؤ على قول ذلك يا بارا.. أأنت مجنون؟"

رمى رادال الرأس عند قدمي بارا وهو يعلق بابتسامة "إذن أنت الأحق به.. ولولا أن سيرا هي شقيقتك، لكنت أعلنتها زوجة لك منذ اللحظة نكاية بها.."

التفتت سيرا إليه قائلة بحنق "كيف لك أن تقول هذا يا رادال؟.. أتهزأ بي؟"

نظر لها رادال معلقاً "أهزأ بمزحتك السخيفة هذه يا سيرا.. أظننتني جاهلاً لقواك الحقيقية؟.. خدعة غبية كهذه لا يمكنها أن تخدعني بسهولة.."

وربت على خدها بيده مضيفاً "كفي عن الادعاء، واقتنعي بما يمكنك الحصول عليه.. هناك المئات في هذه القرية ممن يطمحون للحصول عليك زوجة لأحدهم، ويمكنك اختيار من تشائين منهم.."

واستدار عائداً لكوخه وسيرا تصيح خلفه "لكني لا أريد أحدهم.. ليس لي إلا أنت يا رادال.."

قال رادال بعدم اهتمام "لست أصلح لك يا سيرا.. فاصرفي النظر.."

ظلت سيرا تنظر له وهي تعض شفتها السفلى بغضب.. ثم استدارت بحنق لتحمل الرأس الدامية قبل أن ترميه بقوة في بطن بارا.. ودمدمت بكره وهي تغادر "ستندم أيها المأفون.."

صمت بارا متأملاً رحيلها العاصف، ثم عاد ببصره إلى رادال الذي انشغل بعمله مجدداً عند باب كوخه، وقد افترش الأرض بعدد من الأفرع الخشبية يتخير أفضلها ويقوم بتشذيبها وتهيئتها لصنع مجموعة جديدة من السهام لقوسه.. أخيراً تقدم منه بارا زافراً وقال بحنق "أحقاً طلبت منها اصطياد حيوانٍ خطر كالكيراك؟.. هل كنت تهدف لقتلها؟"

أجاب رادال بهدوء "بل تمنيت أن تكف عن إلحاحها نظراً لخطورة هذا الأمر.. ولم أظن للحظة أنها بالجنون الكافي للسير قدماً في هذا التحدي.."

استاء بارا نوعاً ما لوصف رادال شقيقته التوأم بالجنون، فعلق بجفاء "لا أدري ما يعجب سيرا برجل خشن مثلك.."

رفع رادال بصره إلى بارا معلقاً "ولا أدري ما يثير غضبك في وجودي.. أنت تبغضني منذ اثنتي عشرة سنة، ولم يخفت بغضك لي ولو للحظة.."

قال بارا بضيق "لأنك لم تترفق بنا قط منذ التقطتنا ذلك اليوم.. أنت تعاملنا وكأننا جنود لا مجرد صبي وفتاة لا حول لهما ولا قوة.."

قال رادال "أنا لم ألتقطكما، بل أنقذت حياتيكما.. لا تنسى هذه التفصيلة المهمة.."

ولوّح بالخنجر في يده نحو بارا مضيفاً "ولولا هذه المعاملة القاسية لقضيتما نحبيكما منذ اليوم الأول.. أتظن أن سكان القرية يعبؤون لأمر طفلين مرفّهين لا يعرفان كيف يحميا نفسيهما؟.."

ثم عاد لعمله قائلاً "كان عليك أن ترى الأسلوب الذي دربني به معلمي السابق.. ولولاه، لما كنت أنا من تراه الآن.."

أدار بارا وجهه جانباً مغمغماً "رجل قوي البنية مثلك لا يحتاج الكثير.. لكن ما دفعتنا لفعله كان مستحيلاً مع جسدينا الأكثر ضعفاً وهشاشة.."

ابتسم رادال معلقاً "من قال إنني كنت قوي البنية بالضرورة؟.. قبل أن يقوم كهنة الشمس بالتضحية بي، كنت ضعيف الجسد ودائم المرض بشتى الأمراض منذ طفولتي.. كنت ظاهر الضعف، وقد تنبأ الكثير من الأطباء أنني قد لا أبلغ سن الرشد مطلقاً.."

ورفع بصره للأعلى نحو حاجز الغيوم المعتاد فوق رؤوسهم، وغمغم " وكأنني سقطت لأعيش.. لا لأموت.."

قال بارا باستنكار "لكن كيف أصبحت كما أنت الآن.... قوي البنية بعضلات بارزة مع جسد ضعيف كالذي كنت عليه؟.. هذا محال.."

أجاب رادال "لم يكن معلمي يعرف المحال.. أمضى سنوات طويلة لتدريبي، وقسى عليّ بشكل لا يمكنك تخيّله.. وفي النهاية، ها أنا كما تراني الآن.. وأنا شاكرٌ لمعلمي وممتن له بأكثر من أي شخص آخر.."

صمت بارا مراقباً عمل رادال للحظة وقد خفت ضيقه السابق لخشونة معاملته لهما، وبالأخص لسيرا.. لو فكر بارا بالأمر بموضوعية، فما هو عليه الآن أفضل بالنسبة له فيما لو تخلى رادال عنهما وتركهما يواجهان مصيرهما في هذا العالم القاسي وحيدين.. الآن، بعد هذه السنوات التي عاشها في هذا العالم وأدرك المخاطر التي تحيط بساكنيه، فهو نوعاً ما شاكرٌ لرادال كل ما فعله لهما.. وفي الآن ذاته، يأبى الاعتراف بذلك له بشكل صريح، ويكره إرضاء غرور رادال بكلمات الشكر والامتنان..

تساءل بارا بعد لحظة الصمت تلك "لِمَ قام الكهنة بالتضحية بصبي ضعيف البنية كما كنت أنت؟.. ظننت أنهم يتخيّرون الأقوى والأكثر صحة بين الصبية.. فهذا سيعزز الأمن المزعوم لمملكتهم ويمدّ سلامهم

سنوات أخرىٰ.."

ابتسم رادال بجانب فمه مجيباً "ربما كنتُ الحالة الوحيدة التي استدعت التضحية بصبي ضعيف الجسد.. وذلك لتحقيق طلب شخصي من أبي ذاته.."

حدق بارا بوجه رادال للحظة، ثم صاح "هذا محال.. لمَ قد يطلب رجل من الكهنة التضحية بابنه؟.. وكيف وافق الكهنة علىٰ طلب شخص من العامة؟.."

أجاب رادال "لعدة أسباب، لكن لا تتوقع من صبي لا يتجاوز العاشرة أن يفهمها.. في ذاك الوقت، لم أدرك ما الذي أراد أبي تحقيقه من هذا التصرف.. ولم أدرك لمَ اختارني أنا.. لم أفهم أمراً، ولم يتطوع شخص لإفهامي الأسباب.. لكني الآن أستطيع تخمين الأمر فما عادت الأمور بغموضها السابق.."

تساءل بارا باهتمام "وما هي تلك الأسباب؟"

قال رادال رافعاً حاجباً بتعجب "ألست فضولياً أكثر مما يجب؟.. احمل ذاك الرأس بعيداً عن منزلي، فرائحة دمائه ستجلب المزيد من الكيراك.."

بدا لبارا أن رادال تفادىٰ تلك الإجابة بوضوح.. لكنه لم يلحّ لمعرفة الأمر أكثر مما عرف.. لم يعُد هذا الأمر مهماً بعد كل تلك السنوات، ولا يبدو أن رادال يشعر بالسوء لما جرىٰ.. لا يبدو أن رادال أو سيرا أو أي من الأشخاص الذين تمكن رادال من إنقاذهم سابقاً يحملون أي رغبة بالعودة أو الانتقام لما جرىٰ لهم.. فلمَ لا يزال يحمل هذه المشاعر؟.. لمَ تسيطر عليه الرغبة بالانتقام من كهنة معبد الشمس؟.. لمَ لا يقدر علىٰ الاستقرار والعيش في هذا العالم متناسياً ذلك العالم الذي تغيّبه الغيوم في ثناياها؟.. سؤالٌ لم يجد له إجابة قط طوال اثنتي عشرة سنة مضت..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

في صباح اليوم التالي، خرجت سيرا من الكوخ الذي يضمّها مع بارا منذ سنوات، بعد أن أصرّ رادال علىٰ بناء واحدٍ لهما وإخراجهما من كوخه الذي آواهما في سنواتهما الأولىٰ في هذا العالم.. وخارج الكوخ، رأت بارا الذي ينهض عادة مع الفجر ليعتني بحيوانٍ أليف قام بترويضه بمعاونة رادال، ويسمىٰ (شاس).. كان

ذلك الحيوان مشابهاً للذي يملكه رادال، والذي قام بإنقاذهما من الموت باستخدامه قبل اثنتي عشرة سنة.. وفور أن بلغ بارا أشده، أصرّ على اصطياد واحدٍ خاصٍ به وترويضه..

كان الشاس حيواناً متوسط الحجم، يشبه جسده جسد النمر بلون رمادي مخطط بخطوط سوداء، وبفرو كثيف، وعلى رأسه العريض قرنان متوسطا الطول، بينما نبت عرفٌ قصير من مقدمة رأسه ممتداً حتى أعلى كتفيه بلون أبيض.. ومن جانبي ظهره، نبت جناحان عريضان أقرب لأجنحة الخفافيش المجردة من أي ريش أو غطاء يكسو جلدها.. عيناه الصفراوان يحيطهما سواد في الجلد يبرز لونهما، وأنيابه البارزة واضحة من فمه ذو الشفة السوداء.. ورغم هيئته الشرسة، لكن الشاس أليف الطبع ولا يكاد يثور على صاحبه في أي حالٍ من الأحوال، مما جعله الحيوان المثالي في هذه الأنحاء للتنقل بسهولة بعيداً عن عوائق الأرض.. وإن كان اصطياد أحد هذه الحيوانات أكثر صعوبة من ترويضها بسبب وجودها في جماعات لا تتصرف باللطف الكافي إزاء من يتهجم على فرد من أفرادها، وعيشها في منطقة بعيدة عن هذه القرية تستغرق عدة أيام للوصول إليها..

فور خروج سيرا، تساءلت متلفتة حولها "أين رادال؟"

قال بارا بجفاء واضح "ألا تملكين أمراً آخر تتحدثين عنه إلا فيما يخص رادال؟.."

قالت باستخفاف "وهل هناك ما يستحق الحديث عنه حقاً؟"

قطب بارا معلقاً "مادمت ترين أن هذا العالم لا يحوي ما يستحق الاهتمام، لِمَ تصرين دائماً على رفض العودة لعالمنا السامي؟.. لِمَ تحاولين إثنائي عن التفكير بذاك العالم باستمرار؟"

أجابت سيرا هازئة "من يسمعك يظن السبيل ميسراً للعودة، ولا يمنعك منه إلا رأيي أنا.. ألن تيأس قط يا بارا؟"

وغادرت متجهة لكوخ رادال كعادتها كل يوم، فغمغم بارا وهو مستمر بعمله "يبدو أننا نحن الإثنان نتحلى بالعناد ذاته.."

انشغل بعمله انشغالاً تاماً وهو غارق في أفكاره عن أصوات القرية التي ضجّت بالحياة في هذا الوقت المبكر كعادتها.. حاول تذكر معالم ذلك العالم الذي يتشبث به بإصرار.. حاول تذكر ملامح وجه أمه وأبيه، وملامح تلك المدينة الوادعة التي كانا يعيشان فيها.. كانت تلك الذكريات قد غلفها ضباب كثيف بعد اثنتي عشرة سنة من الغياب، لكن لم يكن هذا ليثنيه قط عن الأمل بالعودة.. الأمل بمغادرة هذه الحياة البائسة.. وبالانتقام ممن لم يعبأ لأمرهما قيد شعرة..

في تلك الأثناء، وبينما سيرا تبحث عن رادال في جوانب القرية، كان الأخير يجلس أرضاً أمام رجلٍ في أحد أكبر الأكواخ وأقربها للساحة.. كان ذلك الرجل يدعى أيصر، وهو أكبر الرجال عمراً ويعامله القرويون كقائد وحاكم غير مكتوب للقرية.. وجواره، جلس رجل لا يكبر رادال بكثير اسمه غيدان، وهو أقرب الأشخاص من رادال منذ عرفه للمرة الأولى في العاشرة من عمره..

جلس رادال عاقداً ذراعيه أمام صدره، فيما ظل أيصر صامتاً مقطباً جبينه، وغيدان يقول ملوحاً بكفه "علينا أن نأخذ هذا الأمر بجدية.. المستنقعات القريبة تزحف علينا بشكل حثيث، ومياه النهر في الجهة الأخرى مستواها يرتفع بشكل ملحوظ.. ما الذي ننتظره حتى تبتلع المياه هذه القرية؟.."

قال رادال "لا أظن ذلك سيحدث مطلقاً.."

قال غيدان باعتراض "بل قد يحدث، لكنه لن يحدث بصورة فجائية تثير انتباه الكل.. ألا يكفي أننا اضطررنا لرفع الأكواخ الجديدة على الأعمدة لتفادي ارتفاع منسوب النهر في المواسم المطيرة؟.. والآن، لم يعد ذلك كافياً بعد أن كاد النهر يغمر أغلب أكواخ القرية في الموسم الماضي.. إن النهر غير مستقر، والمستنقعات أسوأ مكان يناسب البشر للعيش قربه.."

فقال أيصر أخيراً "الانتقال ليس بالسهولة التي تتوقعها يا غيدان.. لا أظن أهل القرية سيطاوعوننا لو طلبنا منهم ذلك.."

قال غيدان بإصرار "لكن هذا لا يمنع أن نتخذ الخطوات اللازمة.. وإن أمرتَ أنت بذلك، فلا أظن الكثير منهم سيعترض على هذا الأمر.."

صمت الاثنان أمام قوله وهما يتبادلان النظرات، عندها قال غيدان بانفعال "كيف يمكنني إقناعكما بما أقوله؟.. على الأقل، يمكننا البدء في الإعداد لهذا الانتقال، وعندما يدرك أهل القرية أن انتقالهم ليس بالصعوبة المتوقعة، وأننا قد خططنا لحياتنا الجديدة في الموضع الجديد بشكل محكم، لن يغدو اقتناعهم صعباً عندها.."

غمغم أيصر "لا أدري.. أيمكننا فعل ذلك؟"

ضرب غيدان الأرض براحة يده قائلاً "ما الذي يمنعنا من المحاولة؟.. سأرحل بحثاً عن أفضل الأماكن وأأمنها لعيشنا ولإنشاء القرية الجديدة.. وعندما أعثر عليه، سيبقى عليكما إقناع أهل القرية.. ما الذي يجعلكما متخاذلان هكذا؟"

نظرا له مدركين أنه لن يتوانى عن تنفيذ ما قاله حتى لو عارضاه.. عندها قال أيصر "لا مانع من ذلك.. لكن لا أحبذ رحيلك وحيداً.. فليذهب رادال معك، فهذا أكثر أمناً، ورأيان أفضل من رأي واحد.. والأفضل من ذلك ذهابكما دون أن تبلغا أحداً من أهل القرية بما تنويان فعله.. لا نريد أن نثير ضجة بين الرجال قبل أن نتخذ القرار بالفعل.."

هز الاثنان رأسيهما موافقين، ونهضا مغادرين بإشارة من أيصر.. وفور خروجهما من الكوخ وسيرهما في الساحة التي تتوسطها منصة خشبية مرتفعة عن الأرض الطينية، قال غيدان باستياء "رادال، كان عليك أن تناصرني في هذه القضية أمام أيصر.. ألأن عقلك مشغول بأمر آخر لذا لا يهمك أمر هذه القرية وما قد يجري لها؟"

قال رادال بضيق "لم أعنِ ذلك.."

فقال غيدان بحنق "إذن تحرك ودع عنك تلك الأحلام الخرقاء.. ما الذي يمنعك من إنقاذ هذه القرية التي آوتك في قلبها لاثنتين وعشرين عاماً؟.."

وابتعد مستاءً تاركاً رادال يقف قرب المنصة الخشبية متأملاً القرية بصمت، ثم زفر مغمغماً "وما الذي قد يمنع ذلك؟"

كانت فكرة رحيلهم لموقع أبعد من هذا المكان تثير ضيقه.. لم يكن هناك ما يمنعه من الرحيل عن هذه القرية والبحث عن مكان أكثر رغداً وراحة في العيش.. لكن بقاءه كان لسببان، الأول يعرفه الجميع وهو إنقاذ من يمكن إنقاذه من الصبية والفتيات الذين تتم التضحية بهم كل خمس سنوات من العالم السامي، أسوةً بما كان معلمه يفعل.. السبب الثاني لا يعلمه إلا غيدان، ويسخر منه ليل نهار.. لكن ربما كان عليه النسيان بعد كل تلك الأوقات.. ربما عليه أن يلتفت لحياته ويتناسى تلك الأحلام الخرقاء كما يدعوها صديق عمره..

ربما عندها سيشعر بالاستقرار ويولي اهتمامه للقرية والبشر حوله..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

في اليوم التالي، التقى غيدان ورادال قرب الحظيرة مع مطلع الفجر كما اتفقا في الليلة الماضية.. وسرعان ما كانا ينطلقان في رحلتهما الأولى نحو الغرب والتي قدّرا أنها ستطول نهاراً بأكمله، ولم يعلم الإثنان إن كانا سيعثران على مرادهما في هذا اليوم أم أن الأمر سيطول لعدة أيام.. لم يبقَ الكثير على الموسم المطير حيث تغرق الأرض بوابل من الأمطار الغزيرة.. ومع كل قطرة مطر، يفيض النهر بمياهه، ويتعدى على الأرض القريبة المشبعة بالمياه بالفعل.. يرتفع منسوب المياه حتى يلاقي المستنقعات القريبة فيظن الناظر للمكان أنه يشاهد بحيرة شاسعة عكرة تمتد حتى الأفق..

لم يكن الأمر بهذا السوء في السنوات السابقة، حيث تكفي السيقان الخشبية لرفع الأكواخ فوق مستوى المياه وحماية سكانها من أن يجرفهم النهر في جريانه.. أما في السنتين الأخيرتين، فقد بدأ الأمر يزيد عن حدة.. تسللت المياه لقلب الأكواخ مدمرة الكثير من المخزون الغذائي الخاص بالقرية، وكادت تجرف أحد الأكواخ الذي يقع في أخفض نقطة من القرية.. النهر يزداد عنفاً، ولا يمكن لأحد إنكار ذلك..

بعد مغادرتهما القرية على ظهري حيوانين من حيوانات الشاس، وهما كل ما تملكه القرية بالإضافة للذي يملكه بارا، سلك الإثنان الجهة الغربية محاذيين مجرى النهر ومخلفين الغابات والمستنقعات خلفهما.. كانت المستنقعات تغمر مساحات لا بأس بها جهة الشمال، جاعلة السكنى في تلك الأماكن مستحيلاً.. وفي

الجنوب والشرق تحتل الغابات الأرض بهيمنة تامة.. لذا كان الحل المثالي هو في السير غرباً وتفحص المناطق الأكثر جفافاً واتساعاً بحثاً عن فرص أفضل لحياة أسهل..

ورغم كل آمالهما، باء بحث الرجلين بالفشل في هذا اليوم وفي بضع أيام تالية.. كانت كل الأماكن الصالحة للسكنى والمناسبة لهذا العدد من البشر، تحوي من القرى والمساكن البشرية ما يكفي لدفعهما للبحث في اتجاه آخر ومسافات أبعد.. لكنهما لم ييأسا بسهولة.. حماس غيدان لم يكن يسمح لرادال تغيير رأيه والعدول عن هذا البحث الذي قد يتطلب منهما مجهوداً أكبر مما عقدا العزم عليه..

وبعد بضعة أيام، كانت سيرا جالسة أمام كوخ رادال بانتظار عودته، وقد لاحظت اختفاء الشاس الخاص به في الحظيرة القريبة مما دلها أنه غادر القرية.. لم يكن رادال يستخدم الشاس عند رحيله للصيد، لكي لا يتوتر الحيوان ويثور لذلك النشاط العنيف الذي قد يثير غريزته الطبيعية، بل كان يستخدم الشاس في الرحلات التي تتطلب منه قطع مسافات كبيرة، أو أثناء تجواله في المناطق القريبة بحثاً عن أحد القرابين التي ألقيت من العالم السامي ومحاولة إنقاذها من موت محقق بشع دون ذنب معروف.. لحسن الحظ، كانت التضحية بالقربان تتم في وقت محدد وساعة محددة كل خمس سنوات.. وهذا يقلص المجهود الذي على رادال القيام به في كل مرة.. وهذه السنة ليست من تلك السنوات المخصصة للقرابين، فما معنى اختفاء رادال في مثل هذه الأوقات؟..

جلست زافرة عند باب الكوخ، حتى رأت إحدى نساء القرية والتي تجاوزت الخمسين من عمرها، تقترب من الكوخ وتدلف إليه ببساطة جامعة بعض الآنية التي جلبت فيها إفطاراً لرادال كما تفعل عادة كل صباح.. لم تحاول سيرا معاونتها بل تساءلت "هل رأيت رادال؟"

أجابت المرأة "بلى، رأيته وهو يغادر القرية منذ بعض الوقت.."

تساءلت سيرا بضيق "وأين ذهب؟.. لقد عاد من رحلة الصيد البارحة، واصطحابه الشاس يثير الريبة بما فيه الكفاية.."

قالت المرأة هازة كتفيها "رأيته يرحل مع غيدان.. لقد بكرا بالرحيل مع طلوع شمس اليوم، كما أصبحا يفعلان بين يوم وآخر منذ مدة ليست بالطويلة.."

وغادرت بهدوء كما جاءت تاركة سيرا مقطبة بتفكير، وكلمات المرأة تثير دوامة متلاحقة الحلقات في

ذهنها.. غادرت سيرا الكوخ بدورها، وإن كان الهدوء آخر ما يمكن أن توصف به في تلك اللحظات.. هناك ما يخفيه رادال عنها.. رادال الذي كان كالنهر السلس الذي تحفظه عن ظهر قلب، وتعرف تحركاته وسكناته في جميع الأوقات، بدأ يمارس فعلاً يتطلب منه السرية والتكتم بشكل غريب عليه.. ورغم أن وجود غيدان معه قد يكون إشارة مطمئنة، لكن سيرا تكره أن تغيب عنها أمور رادال مهما كانت ضئيلة وتافهة..

ورغم إلحاحها في السؤال، كان رادال يتجاهلها عند عودته في كل مرة ويخلد لكوخه مغلقاً الباب أمام وجهها.. وبدأ الأمر يسوء أكثر عندما مرض غيدان وأصبح ملازماً الكوخ لا يكاد يغادره، ورغم ذلك لم يتوقف رادال عن رحلاته الغريبة تلك بل استمر فيها باستماتة أثارت توجسها..

في أحد الأيام، توسلت سيرا طويلاً لأخيها بارا ليسمح لها بركوب الشاس الخاص به.. رغم أنها معتادة على ركوب الشاس، لكنها لم تسعَ يوماً لاستخدامه مع عدم حاجتها لذلك.. إنما اكتفى به بارا في رحلاته التي لا تنتهي ومحاولاته التي لا تعرف اليأس للعثور على وسيلة للعودة للعالم السامي..

ورغم كل توسلات سيرا، رفض بارا الاستجابة لطلبها.. لم يكن يرفض استخدامها للشاس، ولم يكن يملك عملاً مهماً لهذا اليوم، لكن ما رفضه كان ملاحقة سيرا لرادال بهذه الصورة اللحوحة.. كان يتمنى أن تبغض سيرا رادال كما يبغضه هو كي تعثر على رجل أكثر رقيّاً ولطافة منه كزوج لها.. والأفضل أن

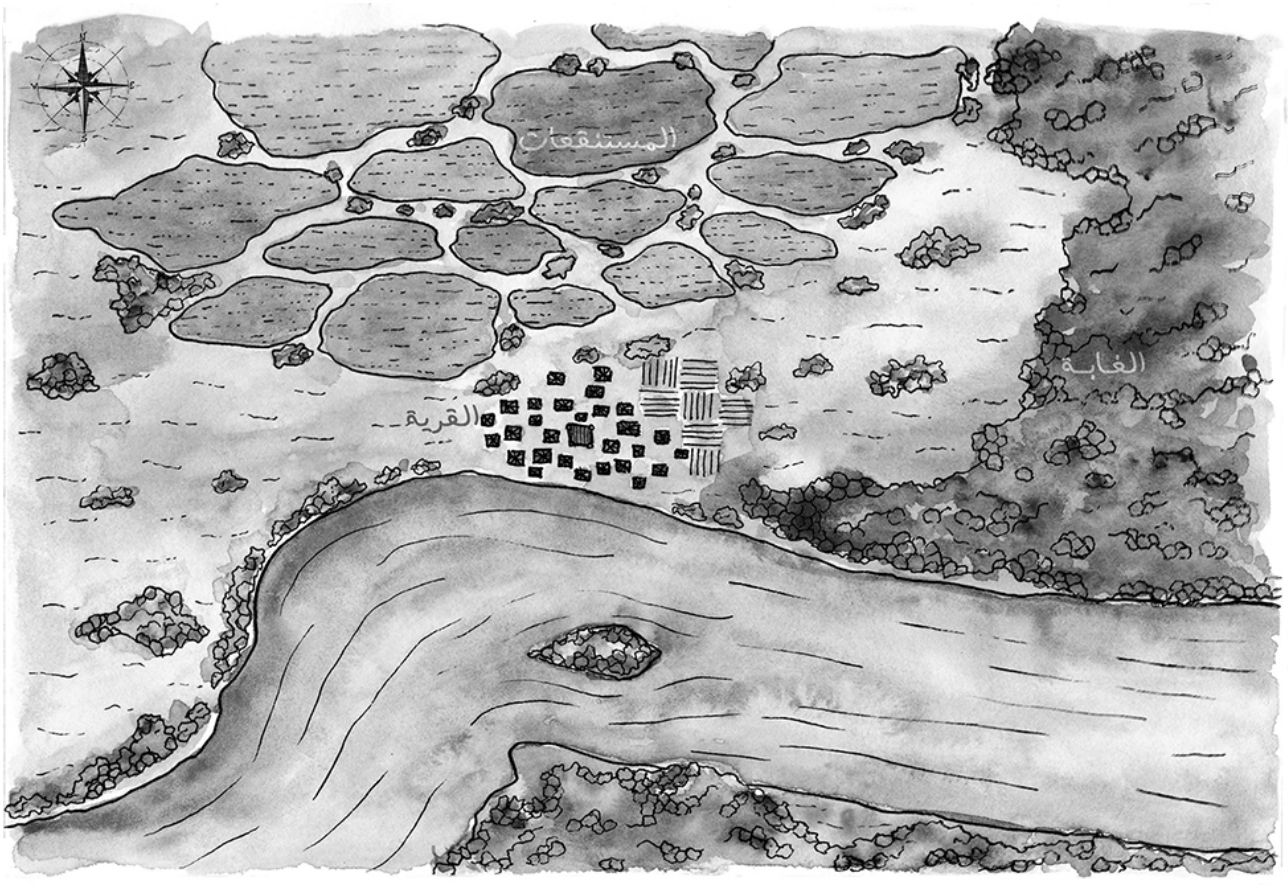

تنتظر عودتهما للعالم السامي لتتزوج رجلاً مناسباً لها من رجال هذا العالم الدنيّ.. لكن إلحاح سيرا كان بلا حل، حتى إن بارا فكر في بعض الأوقات أن يعرض على رادال جاداً الزواج بها كي يتخلص من هذه الانفعالات الحانقة التي يراها عليها كلما تصادمت إرادتها مع إرادة رادال..

ولما يئست سيرا من بارا، انطلقت باحثة عن رادال كي تطلب منه اصطحابها معه بحجة أو بأخرى.. لكنها فوجئت باختفاء الشاس الخاص به من الحظيرة، واكتشفت أنه قد رحل قبل وصولها بالفعل.. عندها ضربت سيرا باب الحظيرة بقوة وغضب وهي تعضّ شفتها السفلى باستياء..
ما الذي يفعله رادال حقاً في رحلاته تلك؟.. ستموت غيظاً لو لم تعرف إجابة هذا السؤال..

✻✻✻✻✻✻✻✻✻

(الفصل الثالث)

مملكة الضياء : مليكي المحبوب

تلألأت الشمس على ذلك القصر الذي يعلو ربوة مرتفعة وسط مدينة واسعة متمددة تحيط بها سهولٌ عشبية واسعة من الجهات الأربع.. كانت المدينة المدعوة (شادين) والتي تعني شعاع الشمس، هي عاصمة مملكة الضياء التي تقع شمال العالم السامي وتوازي مملكة الغمام في الحجم والقوة.. تملك المدينة أسواراً عالية، ولها ثمانية أبواب ضخمة تؤدي لثماني طرق يسلكها الشعب من وإلى المدينة، لذا تبدو للناظر إليها من الأعلى كشمس مشعة تمتد أشعتها لأركان المملكة كاملة.. وعلى تلك الربوة التي أقيمت حولها العاصمة، استقام القصر الملكي بأبراجه وأسواره العالية والحدائق المحيطة به.. كان القصر مكوناً من جدران عالية يغلب عليها النوافذ الزجاجية زرقاء اللون، بحيث كان انعكاس أشعة الشمس أقوى من المباني الحجرية المعتادة.. وفي ممرات القصر وقاعاته الواسعة، تغلغل النور عاكساً الألوان الزاهية التي تزهو بها الجدران والأثاث الفخم الموزع بأناقة في كافة جوانبه.. من النادر في قصر كهذا العثور على زاوية مظلمة أو كئيبة المنظر، وقد عزز هذا التصميم الفريد للقصر علاقة أصحابه بالشمس ونورها، خاصة مع الدين الذي تدين به المملكة كاملة، وهي عبادة الشمس وضيائها..

سار الملك الشاب وسط ممرات القصر التي صممت لتلقي الشمس بأنوارها عليه طوال ساعات النهار.. سار الملك وتاجه الذهبي يلتمع بأشعة الشمس التي انعكست عن أكبر الأحجار الكهرمانية التي زيّنت مقدمة التاج.. كان الملك سوريم لا يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره، تولى الحكم بعد وفاة الملك السابق قبل سنة تقريباً، وقد كان ولي العهد والإبن الوحيد للملك السابق.. وبعد توليه الحكم مباشرة، أقيمت مراسم زواجه على ميام، وهي فتاة من إحدى أرقى العائلات في عاصمة المملكة.. والآن، كانت المملكة تعيش أزهى أيامها تحت حكم الملك الشاب الذي يتمتع بالحزم والطموح لرفع المملكة بين ممالك العالم السامي بأي وسيلة ممكنة..

مر سوريم في سيره نحو قاعة العرش بفتاة لا تكاد تبلغ السادسة عشر من عمرها.. بملامح جميلة ملائكية وبراءة واضحة، وقد وقفت أمام النافذة المفتوحة التي تطل على الحدائق الملكية الواسعة.. ضمّت الفتاة يديها إلى صدرها وهي تخفض وجهها وتهمس بصوت خفيض لا يمكن سماعه وقد غاب وعيها عن كل ما يجري حولها..

اقترب سوريم بخطوات هادئة من الفتاة التي لا تبدو مدركة لما حولها، حتى كادت تقفز مدهوشة عندما شعرت بيده على شعرها.. أسرعت الفتاة تنتفض وتحني ركبتيها خافضة وجهها قائلة بارتباك "عمت صباحاً يا مولاي الملك.."

ابتسم سوريم قائلاً "هل كنت تصلّين للشمس يا مَيام؟.."

قالت بلهجة مخلصة "بلى يا مولاي.. كنت أصلي لسلامتك وسلامة مملكتنا المجيدة.. ولرفعة العرش الذي تجلس عليه يا مليكي.."

ابتسم سوريم مربتاً على خدها قائلاً "لا داعي لإنهاك نفسك في هذه الصلوات يا فتاتي.. ستعلو مملكتنا دون شك في القريب القادم.. هذا ما أنا موقنٌ به.."

هتفت ميام "لا أشك بذلك يا مولاي.. قطعاً ستنال كل ما تسعى إليه لا محالة.."

ابتسم سوريم معجباً بلهجتها المخلصة وعينيها اللتين تفيضان حباً وولاء لا يمكن إنكاره، ولم تخفت ابتسامته تلك طوال الطريق لقاعة الملك.. كانت القاعة هي الأجمل في القصر الملكي كله، وهي ترفل بنور الشمس مع السقف الزجاجي المعشق بألوان زاهية والذي يجعلها تتلألأ كمصباح منير.. وعند جلوس الملك على عرشه الذهبي، انحنى أمامه كبير كهنة الشمس قائلاً "أشرقت شمسك بالنور والضياء يا مولاي.."

هز الملك سوريم رأسه بابتسامة راضية، فعلق الكاهن مبتسماً بدوره "لم أرَ مولاي بهذه الابتسامة السعيدة منذ زمن.. ربما منذ توليك حكم مملكتنا المجيدة منذ سنة.. أهذه الابتسامة مصدرها قربنا من تحقيق حلمنا وحلم جدك الملك الأول؟"

لم يكن ذلك هو سبب تبسّم الملك، لكنه سايَرَ الكاهن في قوله مجيباً "طبعاً.. وهل هناك أسعد لقلبي ولقلب شعبي من اقتراب ذلك اليوم؟.."

ومال للأمام باهتمام متسائلاً "ما الذي أنجزتموه حتى الآن؟.."

ابتسم الكاهن مجيباً "كل القطع في مواقعها يا مولاي.. تنتظر إشارتنا لتبدأ عملها كأفضل ما يكون.."

ثم قال بثقة "لقد تم اختيار أولئك الأشخاص بحذر وعناية تامة.. ونحن واثقون من ولائهم لنا ثقة تامة.. كل ما عليك فعله يا مولاي أن تكافئهم على حسن صنيعهم عند عودتهم لنا، فترسي بذلك مثلاً بين سكان العالم السامي.. من يقف مع الملك السامي، ملك مملكة الضياء، لا يمكن ألا يجد الجزاء الوافي لذلك.."

قال سوريم برضى واضح "رائع.. رائع جداً.. فلترعهم الشمس بضيائها الذهبي.."

تنحنح الكاهن للحظة قبل أن يقول "ولكن.. هناك أمرٌ مهم علينا التناقش حوله يا مولاي.."

بدا الاهتمام على الملك والكاهن يستطرد "إنه فيما يتعلق بقائد الجيوش المسمى قاث.. يبدو أنه يملك بعض الشكوك حول ما يجري في مملكتنا المجيدة.. لقد تناهى لعلمنا أنه يبحث في هذا الأمر بإلحاح، ويبدو أنه يسعى جاهداً لاتخاذ بعض التدابير بهذا الشأن.."

قال سوريم بسرعة "عليك منعه من ذلك بأي صورة.. أبلغ رجلنا أن يمنعه من لفت الأنظار والقيام بأي تصرف لعرقلة خططنا.."

قال الكاهن "لقد أبلغته بذلك بالفعل فور أن وصلني هذا الخبر.. لكن ذلك لم يعد كافياً.. علينا التصرف بشكل حاسم وسريع مع قاث.. وفي الآن ذاته، علينا البدء بتنفيذ خططنا بأسرع ما يمكن قبل أن تبوء بالفشل بسبب تهاوننا بشكوك قاث.."

علق سوريم بشيء من الحذر "لا أحبذ الاستعجال في هذا الأمر.. قد نفشل بسبب تصرفنا بسرعة ودون حكمة.. ومع كل التخطيط الذي قمنا به لشهور طوال، لا أريد أن يتهاوى كل أمر بسبب خطأ لم نحسب له حساباً.."

هتف الكاهن بحماس "لن يحدث ذلك.. كل ذلك التخطيط لن يضيع سدىً مطلقاً.. ولا تنسَ أن الشمس ستكون معنا وسترعانا في مهمتنا المقدسة هذه.."

تنهد سوريم وهو يسند ظهره لعرشه يراقب مدينته التي تزهو بضياء الشمس ككل يوم، ثم غمغم "لا

يمكن أن أسمح لخططنا أن تضيع سدىً.. لقد قام أبي الملك السابق بكثير من التضحيات، ولابد أن نقطف ثمار هذه التضحيات ولا نتركها تضيع سدىً.."

صمت الكاهن للحظة لحساسية الموضوع الذي يردده الملك سوريم في بعض الأوقات، حتى وجد الملك يتجاوز عن هذا الموضوع ويسأله عن بعض تفاصيل ذلك المخطط بالتفصيل.. لم يكن الملك يركن لحديث وزرائه، ويسعى للتأكد من كافة جوانب أي أمر قبل القيام به.. الفشل غير مسموح به بالفعل.. والنجاح لا يمكن ألا يكون حليف مملكة الضياء برعاية شمسهم المشرقة..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

قبل اثنتين وعشرين سنة

ركض الصبي ذو السابعة نحو الملك توريك الذي وقف مع مجموعة من كبار الشخصيات في المملكة في جانب من جوانب حديقة القصر الملكي.. أولى الملك اهتمامه للصبي فور اقترابه، والذي قال بانفعال وعينان ملتمعتان "أبي.. لقد فعلتها مجدداً.. تغلبت على أخي في مبارزة السيف.. ولو كنت أملك سيفاً حقيقياً، لكان ميتاً الآن.."

لم ينزعج الملك من أسلوب ابنه الأصغر في الحديث ومن تجاهل ضيوفه وعدم تحيتهم بالشكل اللائق، بل قال وابتسامة ترتسم على شفتيه "رائع.. كنت دائم الثقة بك يا بني، وأعلم أنك لن تخذلني يوماً.."

انتفخ صدر الصبي فخراً أمام الملك وضيوفه الذين سايروا الملك في كلمات الإعجاب والمديح المبالغ به.. ولم ينتبه أحدهم للفتى الأكبر سناً الذي وقف على مبعدة يراقب ما يجري بخيبة أمل عارمة على وجهه، حتى رفع الملك بصره إليه متسائلاً بتقطيبة ضيق "ما الذي جرى؟"

التفت الضيوف بدورهم نحو الفتى ليلاحظوا الدماء التي تصببت من فمه وأنفه وأغرقت قميصه الأبيض، فيما بدا واضحاً أن يدي الفتى ترتجفان للمجهود الذي بذله مصاحباً بلهاثه الذي لم يقدر على التحكم به.. ورغم أنه قام بتحية الملك وضيوفه طبقاً للأصول والقواعد، لكن أحدهم لم يكلف نفسه الابتسام في وجهه، والصبي الأصغر سناً يقول بابتسامة لم تخلُ من سخرية "لم أفعل له شيئاً.. لقد كنت حريصاً على عدم إيذائه، لكنه بدأ يبصق الدماء دون سبب مفهوم.. يبدو أن المجهود كان قاسياً على قلبه الضعيف.."

خفض الفتى الأكبر وجهه بحرج بالغ وشحوب واضح، فيما أشاح الملك وجهه وهو يلوح بيده قائلاً للقيّم على أعمال القصر والذي كان قريباً "خذه وعدّل هيئته المزرية هذه.. لا يمكنه أن يظهر بهذه الصورة المخزية أمام ضيوفي.."

انحنى القيّم أمام الملك، ثم اقترب من الأمير الأكبر ومد يده بدعوة صامتة.. لم يملك الأمير فرصة لقول شيء، وابتلع كلمات الاعتذار التي اعتاد قولها كلما خانه جسده وخيّب آمال أبيه.. واستدار تاركاً الأمير الأصغر يزداد فخراً بما حققه أمام ضيوف الملك.. وفيما استدار الملك مع ضيوفه متوجهين لضفة البحيرة القريبة حيث تمت تهيئة المكان لاستقبال الضيوف بما لذ وطاب من الطعام، فإن أحد أكبر أعيان المدينة مال على الملك وتساءل "للأسف، ولي عهدك لا يملك نصف قدرات ومهارات الأمير الصغير.. هذا محزن جداً لم يتوقعه أحدٌ كولي عهد مملكة عظيمة كمملكتنا هذه.."

لم يهتز الملك لهذا القول ولم يظهر أسفه وهو يقول بهدوء "لكل مشكلة حل.. ولا يمكن أن يقود هذه المملكة إلا ملك قوي قادر على الإمساك بزمامها بحزم وعزيمة قوية.."

تساءل الرجل بفضول "ما الذي تنوي فعله إذن؟"

ارتسمت ابتسامة جانبية على شفتي الملك، وقال "لن أفعل شيئاً.. سأترك للزمن أن يفعل.."

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

في عصر ذلك اليوم، انطلق سوريم للقاء عائلته المالكة، أو ما تبقى منها، كما يحدث في كل يوم تقريباً.. كان الجناح الشمالي مخصصاً للملكة الأم، وقربها جناح أصغر حجماً للملكة الكبرى وهي أم الملك الراحل وجدة الملك الحالي.. وسواهما، لم يكن الملك يملك عائلة إلا عمة وحيدة تسكن في قصر آخر في أحد جوانب المدينة.. فور اقترابه من الغرفة الواسعة التي تتوسط الجناحين والتي خصصت لمثل تلك اللقاءات، لم يكن بوسع سوريم ألا يسمع النقاش الحاد بين المرأتين كما يحدث في أغلب الأوقات.. لم يدقق سوريم كثيراً في حديثهما فهو معتاد على جدالاتهما التي لا تنتهي سواء حول شؤون المملكة المهمة أو نوعية الكعك الذي يجب تقديمه مع الشاي عصر كل يوم..

تساءل سوريم وهو يعبر الغرفة نحو كرسي فخم خصص له في وسط المكان "ما الذي يجري؟.. جدالكما يجلب أنظار الخدم والحرس دون داعٍ.. إن لم تمانعا أن تصل أخبار ما تقولانه لأطراف المملكة الأربع، فأنا أتمنى أن تتحليا ببعض اللباقة في الحديث.."

أظهرت الملكة الكبرى استيائها من أسلوبه في الحديث معها، فيما قالت الملكة الأم بضيق "لا يهمنا ما يسمعه العامة.. ما لم تكن راغباً في المشاركة في هذا النقاش المصيري فالزم الصمت.."

قالت الملكة الكبرى بحدة "كيف تخاطبين الملك بهذه الصورة؟"

أجابت الملكة الأم محتدة "إنه ابني، حتى لو كان ملكاً.."

ابتسم سوريم لشجار الملكتين الدائم بسبب تناقضاتهما الدائمة، فالملكة الكبرى لم تكن يوماً راضياً عن زوجة ابنها الملك حتى بعد أن أصبحت الملكة الأم وصارت مكانتيهما متساويتين تقريباً.. فقال سوريم لينهي هذا الجدال قبل أن يبدأ "إذن، ما هو ذلك النقاش المصيري؟.. أعدكما أن أتدخل لو كان الموضوع مهماً بحق.."

قالت الملكة الأم باستياء "بالطبع هو مهم.. إنه بخصوص وريث العرش.."

كتم سوريم تنهيدة ضيق، وقال منشغلاً بالعبث بكأس الشراب الذي قدم له "ما به وريث العرش؟.. أرى أنه قد بدأ يثير المشاكل قبل قدومه بالفعل.."

قالت الملكة الكبرى "لن نعرف إن كان وريث العرش سيجلب المشاكل أم لا قبل أن نسعى لقدومه.. وبهذا الشأن، اختلفتُ أنا وأمك الملكة على الفتاة الأنسب لإنجاب هذا الوريث.. وأرى أن نترك لك أنت اختيار زوجتك المستقبلية.."

اعتدل سوريم في جلسته قائلاً بحزم يقارب الصراخ "محال.."

نظرت له جدته الملكة الكبرى بدهشة وشيء من الصدمة، ثم عبست قائلة "ما الأمر؟.. أما زلت تأمل أن تحصل على وريث شرعي من تلك الفتاة العقيم؟.."

قال سوريم مسترداً هدوءه وإن لم يتخلّ عن حزمه "ما زال الوقت مبكراً على هذا.. لم يدُم زواجنا إلا سنة واحدة فقط.. وهي ليست مدة كافية لكي تثبت أن ميام امرأة عقيم.."

ضربت الملكة الأم مسند كرسيها بيدها المحتشدة بالخواتم الضخمة، وقالت بصرامة "وما الذي تنتظره؟..

أنت قد قاربت الثلاثين، ونحن على أبواب مرحلة كبرى في حياة مملكتنا المجيدة.. لو لم تحمل زوجتك الحالية ابناً في رحمها، فسيكون الوقت متأخراً بعد أن نبدأ تلك المرحلة بالفعل.. فما الذي تنتظره بعد؟"

قال سوريم بهدوء مفتعل "ستفعل.. لابد أنها ستفعل.."

قالت الملكة الأم ساخرة "هذا ما تتمناه.. لكن لو لم يحدث هذا خلال شهر واحد، فستضطر للتخلص من هذه المرأة البور دون اعتراض.."

نهض سوريم من كرسيه قائلاً "لن يحدث ذلك قطعاً.."

وغادر الغرفة بخطوات واسعة لإنهاء هذا الحوار العقيم.. سنة هي مدة قصيرة جداً.. مدة قصيرة في عمريهما معاً والذي يجزم سوريم أنه سيكون مديداً ومليئاً بسعادة لا تنتهي.. سعادة بتحقيقه أحلام أجداده، ولتحقيقه أمنيته بحصوله على وريث لعرشه.. هذه أمورٌ لا يجادل نفسه فيها، فهي واقعة لا محالة.. لذا يجد في نفسه هدوءاً وسعة بال تخالف ما هي عليه أمه وجدته اللتان تزدادان عصبية وانعدام صبر مع كل شهر يمضي دون أن يُزفّ لهما الخبر السعيد بحبل زوجة الملك الأعظم.. فسوريم هو الابن الوحيد للملك السابق، ولو لم يرزق بوريث، فستنقطع هذه السلالة الملكية مع غياب أي إخوة أو أبناء عمومة له..

وسينتقل العرش لأكبر أبناء عمته من زوجها الذي لا يحمل الدماء الملكية ذاتها.. وهذا يثير غيظ المرأتين وتوجسهما بشكل دفعهما للتعاضد معاً للمرة الأولى رغم كل خلافاتهما السابقة..

لكن سوريم لا يعبأ بذلك.. ما تزال ميام صغيرة، وهي في أوج صحتها وشبابها، فما الذي يمنعها من أن تأتي له بالوريث المتوقع؟..

وهو الآن مقبلٌ على مرحلة هامة تستدعي منه تركيزاً واهتماماً أكبر مما يجب أن يوليه

لوريث عرشه المحتمل.. وبعدها، سيكون قد حصل على مبتغاه، ونال أقصى أمانيه.. وعندها، سيجد من الفراغ الكافي للالتفات لهذا الأمر الذي تلحّ عليه به أمه صباح مساء..

هاته النسوة.. يتمتعن بقسوة غير عادية، واهتمامات جانبية تكاد تطغى على الهدف الأصلي لهذه المملكة.. وحدها ميام مختلفة.. وحدها ميام من تضيء النور أمام عينيه وتصنع أيامه المبهرة.. معها، كيف له أن يقلق على مستقبله؟..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

(الفصل الرابع)
مملكة الغمام : خادم وكاهنة

شحب وجه هيما بشدة حيث وقفت وسط السوق الذي يعجّ بالعامة في هذا الوقت من النهار.. ولم يكن كابو القريب أقل شحوباً منها لرؤية فرقة الجنود التي لاحظت التجمهر وبدأت الاقتراب لمعرفة سببه، وهذا إن دلّ على شيء فهو يدلّ على فضيحتهما المحتومة.. فيما صاح الرجل الذي يواجههما ملوحاً بإصبعه "ما معنى كل هذا؟.. أنت خادمٌ من خدم المعبد، ألست كذلك؟.. ما الذي يفعله خادمٌ مع كاهنة في هذا المكان؟.. لا يمكن أن يكون هذا إلا بتدبير من كهنة المعبد لأمرٍ عظيم.. ما الذي يخطط له سادتك؟.. أجب.."

تجمهر عددٌ غفير من رواد السوق من الباعة والمتسوقين، وقد علا مزيج من الفضول والحنق ملامحهم وهم يراقبون هذه الحادثة التي يندر أن يتكرر مثلها في هذا المكان.. هناك الكثير من المشاكل، والكثير من الشجارات.. لكن أن يتطاول شخصٌ على معبد المدينة وكهنته، فهذا أمرٌ جديدٌ تماماً..

قالت هيما بتوسل وبصوت مرتجف لا يمكن أن يقنع أحداً "أرجوك يا سيدي.. نحن من المعبد فعلاً، لكننا من الخدم الذين يقومون على أموره.. وهذا ليس أمراً عجيباً ولا يستدعي كل هذه الضجة.."

لكن الحلقة حولهما كانت تضيق أكثر فأكثر، وكابو بطوله الذي يتجاوز الآخرين استطاع أن يرى اقتراب فرقة الجنود منهما باهتمام واضح، فهمس لهيما من بين الضجة المقامة حولهما "يجب أن نرحل من هنا.."

لم تدرك هيما الوسيلة التي يمكن بها الهرب من الحشود المحيطة بهما، لكن كابو أمسك يدها بقوة ودفع أقرب الرجال منه جانباً بشيء من الغلظة قبل أن يدفع هيما أمامه ويحاول شق طريقه بين الرجال.. تكالب بعض الرجال أمامهما سادّين عليهما طريق الفرار، لكن كابو صاح بغلظة وهو يدفعهم جانباً "أفسحوا الطريق.."

تدافع الرجال جانباً مع دفعة يد كابو القوية، وبدأ الاثنان يشقان طريقهما بالقوة هاربين من تلك الحلقة الضيقة.. سمع كابو في تلك اللحظة صيحة أحد الجنود لهما آمراً إيّاهما بالانتظار، فقال كابو لهيما بقلق

"اهربي.."

دفع هيما جانباً واستدار مواجهاً الرجال الذين تصايحوا محاولين اللحاق بهما.. لم تتمكن هيما من الانتظار لرؤية نتيجة هذه المواجهة، فاستدارت مغادرة بخطوات راكضة وقد تملكها القلق.. مواجهة مثل هذه خاسرة بالتأكيد، فما الذي سينال كابو عندما يتكالب عليه البقية؟.. ما أتعسها وما أتعس هذا اليوم الذي قررت التسلل فيه خارج المعبد..

كان السوق في هذا الجانب مكتضاً بالباعة والزائرين، فيما كانت العربة تقع في الجانب الآخر من هذا السوق حيث احتشد الرجال حول كابو في منتصفه.. فكيف لها الهرب والعودة للعربة الآن؟..

ارتطمت أثناء ركضها برجل سارع لإمساكها قائلاً "ممّ أنت هاربة؟.. أأنت سبب الفوضى التي عمّت السوق هذا اليوم؟.."

هزت هيما رأسها بشحوب وهي تتلفت حولها بحثاً عن الخلاص، فيما كان الشحوب البادي على وجهها ونظراتها القلقة أكبر دليل على الجرم الذي بدا للرجل أنها ارتكبته.. فشدّد قبضته عليها وهو يحاول سحبها نحو الحشد القريب رغم تمنعها ورفضها الشديدين.. حتى وجد قبضة قوية تمسك يده وصوتاً صارماً يقول "ما الذي يجري هنا؟.."

استاء الرجل وهو يلتفت لصاحب الصوت الذي بدا له واضحاً أنه لامرأة، لكن عندما وقع بصره عليها صمت بارتباك للحظة، ثم قال مبرراً ما يفعله "هذه الهاربة تبدو آثمة.. وقد قبضت عليها قبل أن تفلت من العقاب.."

التفتت هيما بذعر واضح لترى تلك الفتاة بملابس الجنود والوجه الصارم التي وقفت خلفهما.. عندها ازداد ذعر هيما وارتباكها وهي تدير وجهها وتخفضه.. هذه الجندية ستفضحهما.. لقد انتهى أمرهما بالفعل..

قالت جود التي تمسكت بالرجل ولم تفلته رغم ما قاله "تبدو؟!.. آثمة؟!.. وما الذي فعلته؟.. كيف لك أن تحكم بذلك دون أن تعرف؟"

قطب الرجل بضيق لتدخلها، ولهويتها التي يعرفها الجميع ولا يوارون بغضهم لها، فيما انتاب بعض الأمل هيما التي رفعت رأسها تواجه جود قائلة برجاء "أنا لم أفعل شيئاً.. كنت أقوم ببعض أعمال المعبد مع الخادم

الذي رافقني، عندما أمسك بي أحد الباعة واتهمني بأنني أتجسس لصالح المعبد.. أنا لم أرتكب إثماً.."

لم تعلق جود على ما قاله إنما ضغطت على يد الرجل بقوتها الواضحة، حتى أجبرته على إفلات هيما وهو يتأوه بألم.. فقالت جود عندها "أهذا هو سبب تلك الضجة هناك؟"

هزت هيما رأسها بتوتر وقالت "أرجوك.. ساعدي الخادم فهو لم يفعل شيئاً يستحق عليه عقاباً.. نريد أن نعود للمعبد بسلام ودون أي مشاكل.."

لم تكن هيما تعرف هوية جود، وظنت أنها مجرد جندية في الجيش.. لكنها أملت أن تتمكن جود من تفريق الحشد وإبعادهم عن كابو وعنها ليتمكنا من الرحيل دون فضائح..

تقدمت جود من الحشد الذين أحاطوا بكابو مانعينه من الفرار، فدفعت أقرب الرجال إليها متقدمة بحزم ودون توانٍ.. تراجع الرجال بدهشة، وتعاظمت دهشتهم لرؤية جود التي تقدمت حتى وقفت وسط الحلقة محدقة فيمن حولها.. كان بإمكانها إدراك الخادم المعنيّ من حديث هيما، برؤية ذلك الرجل الذي تكالب عليه البعض وتلقى بضع ضربات لا معنى لها إلا تفريغ بعض الحنق من المعبد الذي يعمل لإمرته..

لم تفهم جود سبباً لهذه الثورة المفاجئة، فخدم المعبد وحراسه يعاملون بالاحترام الواجب عادة ولا يتجاسر أحد العامة على التطاول عليهم.. لكن اجتماع باعة السوق ورواده ربما أغراهم على التطاول على هذا الخادم البائس والإعلان عن الغضب الذي يستعمر قلوبهم لبعض القرارات التعسفية الصادرة من المعبد بحقهم..

قالت جود أخيراً بلهجة آمرة "أطلقوا سراحه.. وفضّوا هذا الاجتماع قبل أن أعاقب جميع المتسببين فيه.."

التقت الأعين عندها بحنق واضح، لكن فرقة الجنود التي كانت تعسّ السوق قد وصلت للموقع وصاح قائدها في الجموع وهو يدفعهم بصرامة "ألم تسمعوا ما قيل لكم؟.. انفضّوا هيا.."

تفرق الرجال بسرعة مع صياح فرقة الجنود وتهديدهم، فيما وقفت جود في موقعها دون حراك تراقب ما يجري.. اندفعت هيما القريبة إلى كابو الذي نهض واقفاً بعد أن تخلى عنه الرجال، فساعدته على الوقوف وهي تهمس بأسى "أأنت بخير؟.. هل تتألم؟"

غمغم كابو "لا عليك.."

تلفتت هيما محنية رأسها شاكرة إلى جود، ودفعت كابو أمامها عائدة للعربة بتوتر ظاهر.. جلّ ما ترغب به

الآن هو العودة، وتفادي أن يتفاقم الوضع أكثر مما هو عليه الآن.. لكن جود قالت بصرامة مقاطعة هروبهما "مهلاً.. أين تظنان أنكما ذاهبان؟"

قالت هيما باضطراب "سنعود من حيث أتينا.. لا نريد أن نسبّب المزيد من المشاكل ببقائنا هنا.."

حدقت بها جود للحظات وبصمت أثار قلق هيما أكثر، ثم قالت لها بأمر "اتبعاني.."

تبادل كابو وهيما النظرات، ثم تبعاها مرغمين خشية أن يثير أي تصرف منهما ريبتها.. قادتهما جود بين المحلات المصفوفة على جانبي الطريق، ونحو زقاق جانبي خلا من المارة.. ازداد ارتباك هيما الواضح فيما بدا الضيق على وجه كابو بعد الضربات التي أصابته والآلام التي انتشرت في جسمه بالإضافة للإهانة التي تلقاها.. وقفت جود في وجههما قائلة بصرامة "والآن.. ما حقيقة ما جرى؟"

اندفعت هيما تردد عليها الحكاية ذاتها بكلمات مرتبكة.. لكن كلماتها لم تجد أذناً صاغية لدى جود التي قاطعتها قائلة بضجر "أنت ما فتئتِ ترددين هذه الحكاية منذ رأيتك.. ألا تملكين غيرها؟"

قالت هيما بارتباك أكبر "غيرها؟!.."

نظرت لها جود بحدة مجيبة "الحقيقة.. مثلاً؟"

صمتت هيما وهي تتبادل النظرات مع كابو، فقالت جود مقاطعة حوارهما الصامت "لا داعي لجرّ هذه الأكاذيب أكثر من هذا.. لا يمكن لخادمة أن تكون بهيئتك هذه وبهذه الصحة والبشرة النظيفة.. هناك عدة أمور تدلني أنك عشت حياتك مرفهة ولا علاقة لك بأي أعمال يقوم بها الخدم.. فما حقيقتك؟.. وما سبب تواجدك هنا في السوق؟"

خفضت هيما بصرها باضطراب وكابو يقلب البصر بينهما بضيق، ثم قال لجود "أرجو أن تعفينا من الحديث يا سيدتي.. نحن لم نُردْ إثارة المشاكل في السوق، ولا نرمي للقيام بأي شغب.. فلا داعي للشك بأمرنا واتهامنا بما لم نفعله.."

قالت جود بجفاء "أتظن أنك قادرٌ على تجاهل أسئلتي؟.. إن لم تستجب لي فسأجرّك للقيادة وأستجوبك بطريقة صحيحة تجبرك على....."

رفعت هيما رأسها قائلة بضراعة "لا داعي لذلك.. أرجوك.. سأخبرك بكل ما جرى.."

نظر لها كابو مدهوشاً وقال "لا تفعلي ذلك.. ليس ذلك في صالحنا.."

لكن هيما لم تتردد في إخبار جود بكل ما جرى وحقيقة قدومهما لهذا السوق.. لم تكن هيما تملك العزيمة الكافية للاستمرار بكذبها السابق، وقلقها وتوترها الواضحين فضحا أمرها بسرعة أمام استجواب جود.. ولما فرغت من حديثها، ووقفت كطفلة مذنبة تنتظر التقريع، لم تبخل جود عليها بذلك وهي تقول بضيق وحنق "أأنت بلهاء؟.. ما الذي يدفعك للقيام بمغامرة غير محسوبة العواقب؟.. والأدهى أنك جررت هذا الخادم لإطاعة أهوائك الحمقاء دون أن تدركي ما تجرّينه إليه من مصائب.."

استمرت جود في صبّ حنقها على هيما التي ظلت مطرقة بصمت وملامح الذنب واضحة على وجهها.. لكنها نوعاً ما شعرت بالراحة.. تقريع جود يدلها أنها ليست غاضبة حقاً، ولن تسعى لفضحها أمام كهنة المعبد.. كما أنها لا تحمّل كابو ذنب ما جرى، ولا تلومه على ما حدث.. وهذا أهم ما في الموضوع..

أخيراً زفرت جود بعد أن أنهت لومها الطويل لهيما دون أن تستثني كابو من ذلك.. ثم قالت باستياء وهي تضع يدها على جبينها "من المفترض أن أسوقكما للمعبد وأبلغ الكهنة بكل ما جرى.. أي معبدٍ هذا الذي يتسلى الكهنة فيه بالتسلل منه بين يوم وآخر؟"

نظرت لها هيما بقلق، فلوحت جود بيدها قائلة "والآن ارحلا.. عليكما أن تكونا شاكرين لأنني مررت بالسوق مصادفة لعمل خاص بي.. لو كان الأمر بيد جندي أو ضابط آخر، لوصل الأمر لأعلى القيادات دون استثناء.."

انحنى كابو شاكراً وهو يجذب هيما عائدين للعربة، فحنت هيما رأسها لجود بشكر عميق وقد غاب الارتباك والقلق من ملامحها وبدت أكثر ارتياحاً.. فغمغمت جود بابتسامة صغيرة "يا لها من كاهنة مجنونة.. لقد تجرأت على كسر قوانين المعبد المقدسة التي لا يجرؤ شخص على كسرها.. لو كنت مكان الكاهن الأعظم لطردتها من المعبد وتخلصت منها في أقرب فرصة.."

بعد ابتعادهما وجدت جود ظلاً يقف في رأس الزقاق، وسمعت صوت ياسان يقول "أأنت هنا؟.. لقد بحثت عنك حتى كلّت قدماي.. أين اختفيت؟"

لم تجبه جود وهي تغادر موقعها مقتربة منه، فيما قال ياسان متذمراً وهو يحمل حقيبة جلدية بدت ثقيلة الوزن بذراعه ويسير معها "ذلك القائد الأحمق كارون.. لقد ضاعت فترة استراحتي وأنا أركض كالمجنون لتلبية طلباته الغريبة.. والآن، لم نعُد نملك الوقت الكافي لتناول بعض الطعام قبل العودة لمقر القيادة.."

سارت جود قربه دون تذمر ملاحظة عودة السوق لما كان عليه من هدوء رغم ازدحامه المعتاد.. لقد كسرت تلك الكاهنة المجنونة هدوء السوق الذي لا يكاد يتغير في المعتاد.. وترجو جود ألا يتكرر ذلك في الأيام القادمة مطلقاً..

فور عودة جود وياسان لمركز قيادة الجيش، بعد رحلة سريعة للسوق لتلبية طلب قائد ياسان ولتناول طعام الغداء في أحد مطاعمه المكشوفة، افترق ياسان عن جود وهرول بحثاً عن قائده لتسليم ما طلبه منه قبل أن يتعكر مزاج الأخير.. فيما أطلقت جود ضحكة هازئة لرؤية الا ضطراب على وجه ياسان أثناء رحيله.. لحسن حظها فإنها ليست بحاجة للتزلف لأي قائد بأي وسيلة، فكل ما يرغبه القائد قاث منها هو الإخلاص والجدية في العمل.. ولن يجد خيراً منها لتلبية كل ما يتمناه.. لذا كانت جود أكثر راحة في التعامل مع قائدها من البقية، وكان القائد أكثر ثقة بها من غيرها من رؤساء الفصائل.. هذه العلاقة الوطيدة قد حرصت جود على الحفاظ عليها بشتى الوسائل منذ تفتح عقلها على هذا العالم السامي وبدأت تدرك ما بذله قاث لأجلها.. ولم تنسَ قط العاصفة الهوجاء التي كادت تطيح به وبها في أولى سنواتها في هذا العالم..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

قبل اثنتي عشرة سنة

لم تكد جود تمضي شهراً في العالم السامي الذي يختلف كل الاختلاف عن عالمها الدنيّ، حتى وجدت يوماً من يقتحم عليها غرفتها وينتزعها من فراشها في وقت متأخر من إحدى الليالي.. كان قاث قد ضمّها لمنزله الواقع في جانب من المدينة لا يبعد الكثير عن مركز قيادة الجيش.. ورغم أنه أحياناً يضطر لقضاء الليل في القيادة، لكن ذلك لم يكن يزعج جود التي حظيت بسقف يظلها بظله للمرة الأولى في حياتها.. ورغم أن خدم المنزل، وهم لا يتجاوزون الثلاثة، يتعاملون معها بجفاء ودونيّة مبطنة، لكنهم لا يتأخرون عن خدمتها بالشكل الملائم طبقاً لأوامر قاث..

وفي تلك الليلة، وقد قضتها جود وحيدة في المنزل مع انشغال قاث في القيادة، فوجئت بالهجوم عليها بعد أن غرقت في نوم عميق، ولم تستيقظ إلا على تلك الأيادي القاسية التي جذبتها بشدة من فراشها وجرتها جراً

عبر أجزاء المنزل ونحو بوابته الخارجية.. لم تستوعب جود ما يجري وهي تقلّب بصرها في الوجوه التي غمرها ظلام تلك الليلة، لكنها استطاعت أن تسمع صوت كبير الخدم وهو يقول باعتراض "سيغضب سيدي القائد لما يجري.. عليكم أن تكفوا عن هذا.."

أتاه الرد من أحد الرجال المجهولين وهو يقول بقسوة "عليك أن تتنحّى جانباً إن لم ترغب بالانضمام إليها هذه الليلة.. تنحّ واكتفِ بالصمت خيراً لك.."

لم تفهم جود ما قيل، لكنها أدركت المعنى من نبرة المتحدث.. وأدركت من تراجع الخادم بصمت أن اعتراضه لم يكن جدياً كفاية، إذ سرعان ما أكملت المجموعة سيرها بجود حتى تجاوزت الباب وسارت في طرقات المدينة القريبة من المنزل ونور القمر ينعكس على الموجودات حولهم متيحاً لجود رؤية العبوس والملامح الغاضبة فيمن حولها.. لم تدرك جود هوية مختطفيها، لكنها أدركت أن ما يريدونه منها لن يكون ساراً بأي حال من الأحوال.. حاولت المقاومة بكل ما تملك عسى أن تفلت من قبضة مختطفيها وتتمكن من الفرار قبل أن ينفذ أحدهم ما جاء لأجله.. لكن مقاومتها لم تجدِ نفعاً وهي تراهم يلتحقون بمجموعة أكبر من الرجال والنساء الذين سدّوا إحدى طرقات المدينة بوجوه لم تكن أقل عبوساً من بقية رفاقهم.. وفور اجتماعهم حول جود، استدارت المجموعة التي لا يقل عددها عن مائة رجل وامرأة وأكملوا طريقهم بصمت حيث لا يُسمع إلا صدى أحذيتهم على الطريق الحجري.. لم يمضِ إلا القليل من الوقت، حاولت فيه جود بشتى الطرق التنصل من قبضة مختطفيها أو الهرب منهم دون فائدة، حتى وجدت نفسها أمام أسوارٍ عالية مزخرفة وحراسة مشددة لا يبدو أن أفرادها يستنكرون ما يجري أمامهم.. عبرت تلك المجموعة الأسوار التي تضمّ خلفها ساحة واسعة وعدداً من المباني المختلفة في الحجم وإن كانت لا تقل زخرفة ولا بهرجة عما رأته خارجها.. ووسط الساحة، استطاعت جود أن ترى عدداً من الرجال لا يقل عن سبع، بملابس تختلف في فخامتها واتساعها عن ملابس البقية.. وبقبعات غريبة المنظر طولية بلون أسود تتخللها زخارف باللون الذهبي.. فيما اندسّت الأيدي في الأكمام الواسعة وهم يرمقونها بصمت وجمود دون انفعال واضح..

جُرّت جود جراً نحو أولئك السبعة، ومن أفواه الجماعة التي لحقت بها وتجمعت حول السبعة بدأت بعض النداءات التي تحمل غضباً وحنقاً واضحاً تحوّل لسعير ونيران تحرق بها جود دون لهب حقيقي..

قلبت جود بصرها فيمن حولها بذعر حيواني أعاد لها ذكرى الأيام التي عاشتها في الأرض الدنيا.. عندما كانت لا تملك من أمرها شيئاً، وتجد الحياة تسيرّها وتقلّبها يميناً ويساراً وقد غُلب عليها أمرها.. والآن، ما الاختلاف

بين هذا الموقف الذي هي فيه وبين ما عاشته سابقاً؟.. إنهما سيّان..

تقدم أحد الكهنة عن البقية ورمقها بنظرة لم تخلُ من الامتعاض والبغض، ثم دار ببصره فيمن حوله وهو يقول لهم "باسم إلهنا، وباسم الكاهن الأعظم والكهنة السبع.. باسم الكاهن الأول الذي أرسى هذا المعبد وهذه العبادة.. أنا أدعوكم للتخلص من هذا الدنس الذي لطخ صفحة مملكتنا المشرقة ولوث نفوس شعبنا بما لا يمكن محوه.. النبوءة لا يمكن التغافل عنها.. فممالكنا السامية ستبقى عالية في صفحة السماء الصافية، حتى تلوثها أقدام شخص من العالم السفلي.. عندها، لن تسع السماء ممالكنا، وستهوي للأرض الدنيّة لتذروها الرياح وتصبح نسيّاً.. وما كان لنا أن نسمح بذلك مطلقاً.."

تعالت الهتافات المناوئة لجود ولوجودها في هذا العالم.. والحانقة من قاث الذي خالف أبسط القوانين وأهمها.. فرفع الكاهن يده يدعوهم للصمت، وقال "مجلس الكهنة السبع قد استقر على هذا الرأي رغماً عن رفض الرافضين.. ولا يحق لامرئٍ أن يخالف الكهنة في أي أمر.. ولم نجد خيراً من النار لتطهير هذا الدنس.. النار فيها نجاة لممالكنا من هذه النهاية المرعبة، والنار هي الحل الوحيد.."

تزايد الهتاف المتحمس من الجموع وجود تقلب بصرها فيمن حولها بذعر.. ومع انتهاء الكاهن من كلماته تلك وتراجعه ليقف مع البقية، دون أن يكلف أحدهم نفسه عناء شرح الأمر لها كما يفعل قاث أو دارو عادة، وجدت جود نفسها تُسحب من ذراعيها على الأرض الحجرية القاسية التي سببت لها بضع سجحات على ساقيها وبطنها مع ذلك الرداء الذي ترتديه عادة للنوم.. أطلقت جود صيحات متألمة وغاضبة وهي تقاوم دون فائدة أو معنى، وشعرت بذراعيها تؤلمانها وكأنهما ستنفصلان عن كتفيها لشدة الجذب الذي لم يترفق بها..

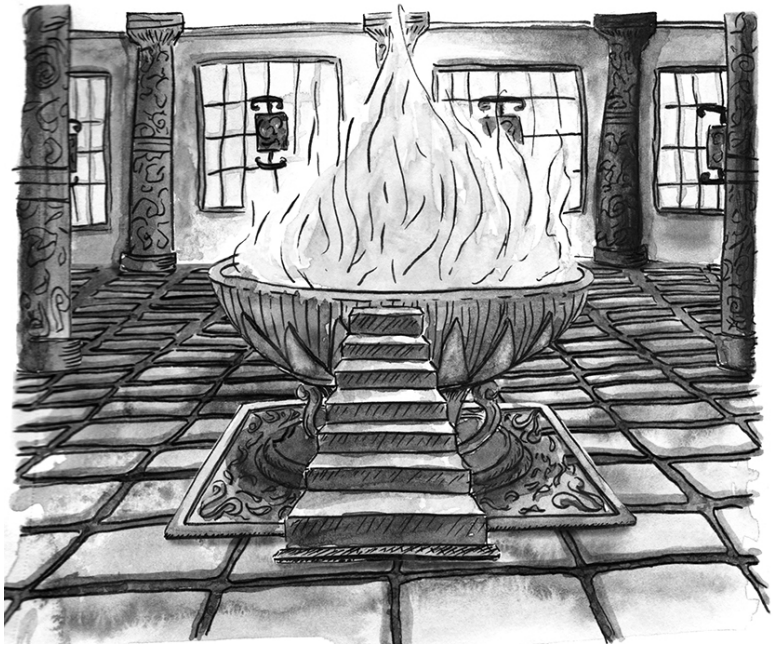

ومما زاد من ذعرها، رؤية تلك النيران التي أشعلت في وسط الساحة في وعاء ضخم من الرخام المزخرف.. كان الوعاء العميق يرتفع بضع درجات عن مستوى الأرض، وعلى جانبيه وقف تمثالان لرجلين يرتديان ملابس الكهنوت ويرفعان يداً

للسماء واليد الأخرى تشير للنار..

لم يبدُ أن الرجال أتوا بها نحو النار بحثاً عن الدفء في هذه الليلة الباردة، بل أدركت جود مع اقترابهم من النيران بتلك الصورة القاسية والمتعجلة المصير الذي رسمه لها الكهنة بتلك الكلمات الغامضة.. صرخت جود وصرخت عندما أوقفها الرجال وقربوها من الدرج الدائري الذي يقود لحافة الوعاء.. وبينما أدار أحد الرجال ذراعيها خلف ظهرها بقوة، دفعها آخر حتى كادت تسقط على الدرج الرخامي الحاد دون ترفق.. ومع الدفعات القاسية من يد أحدهم، أجبرت جود على ارتقاء الدرجات وعيناها تتسعان لمرأى النار مع كل خطوة تخطوها نحوها.. كان ذلك مصيراً قاسياً.. مصيرٌ لا تعرف سببه ولا الهدف منه.. ما الذي ارتكبته؟.. لمَ لا ترى إلا ملامح الغضب والقسوة في وجوه سكان هذا العالم؟.. أهذه هي طبيعة البشر هنا؟.. أهكذا تسير بهم حياتهم؟.. رغم أنها لم ترَ إلا النعيم والحياة الرغدة في هذا العالم، لكنها لا ترى في وجوه سكانه أي سعادة أو قناعة.. فما الذي سيفعلونه لو عاشوا في عالمها القاسي الذي يصحو سكانه على الخطر وينامون في أحضانه؟..

وجدت أن خطوة واحدة تفصلها عن تلك النيران الملتهبة، فيما تزايد صياح الجماعة حولها وهم يتحلقون حول الوعاء بحماس وحشي.. ومن خلفهم وقف الكهنة السبعة يرمقون ما يجري بجمود وصمت.. شعرت جود بتلك الدفعة القوية على ظهرها وهي تقاومها بشدة وتطلق صيحة مذعورة.. كانت الدفعة التالية ستلقيها بين ذراعي النيران المتراقصة بنشوة واضحة، ولم يشفع لجود عيناها المرتعبتان والدموع التي طفرت منهما رغماً عنها.. مرت الثانية التالية متثاقلة وجود تنتظر تلك الدفعة القاتلة، وإحساسها تركز على اللهب الذي يكاد يحرق جلدها قبل أن تقترب منه بالفعل، عندما سمع الجمع صوتاً عالياً يهز أركان الليلة الصامتة، وفي اللحظة ذاتها تكوّم الرجل الواقف خلفها جانباً بصمت مثيراً ذعر الرجال والنساء المتحلقين وهم يتراجعون بشيء من التدافع والأعين تتسع بصمت مذهول..

شهقت جود مستعيدة أنفاسها التي كتمتها ذعراً وتراجعت للخلف بضع خطوات بعيداً عن لهب النيران، دون أن يفوتها رؤية الرجل الذي همد جسده أرضاً دون حراك.. ومن خلف الجموع المدهوشة، رأت جود شخصاً وحيداً يقف مواجهاً الكهنة السبع والجموع الغفيرة بصمت وبمسدس وحيد يمسكه في يده.. أدركت جود هويته دون أن ترى ملامحه بوضوح، فخفق قلبها بقوة وهي تركض هابطة الدرجات القليلة ومنسلّة بين السيقان بعد أن تحررت من الأيدي التي كانت تكبلها سابقاً..

اندفعت جود نحو قاث الذي وقف صامداً أمام النظرات المستنكرة بخطوات متعثرة والآلام تتضافر مع فزعها لتجعل ساقيها لينتين كساقين من طين.. ورغم سقوطها قريباً منه، إلا أنه لم ينحنِ لمعاونتها بل نظر لها بحزم وكأنه يعلن لها عن ثقته بقدرتها على تمالك نفسها وفزعها والعودة للوقوف على ساقيها من جديد.. ورغم معاملته التي بدت للناظر إليهما جافة نوعاً ما، إلا أن جود التي لم تتوقع منه إظهار أي عاطفة أو قلق تجاهها، قد حصلت بوجوده على كل ما تريده من تعاطف ومن طاقة تستمدها منه لتقف على قدميها بعزم وهي تتراجع مواجهة الجموع الغاضبة من جديد..

فضّل قاث الوقوف بصرامة ودون انحناء أمام خصومه وهو يقلب بصره بين الكهنة السبع الذين أبدوا سخطاً واضحاً لما جرى، وقد قال أحدهم بصلف وحنق "ما الذي تظن نفسك فاعله أيها القائد؟.. أظننت أن منصبك يتيح لك التدخل في قرارات مجلس الكهنة وفي اقتحام المعبد بهذه الصورة؟"

قال قاث بهدوء "ليس عندما يهاجم العامة منزلي بإيعاز من الكهنة، ويختطفوا هذه الطفلة دون وجه حق مع علمهم أنني قد ضممتها إليّ وأنعمت عليها بالحماية بموافقة خاصة من ملك البلاد.."

قال الكاهن بغضب "هذا لا معنى له لو رأى كهنة المعبد أن وجود هذه الدنيئة يدنس مملكتنا ويجلب الشؤم علينا.. كيف لك أن تتجاهل كل تلك النبوءات التي....."

قاطعه قاث قائلاً بصوت صارم كالسيف "بل كيف يجرؤ أمثالك على تجاوز أوامر الملك؟.. هل أصبح الكهنة هم ساسة البلاد؟.. أي نبوءة وأي شؤم تتحدث عنه والشؤم لا يحل علينا إلا من أفواهكم النتنة هذه؟.."

تطلع له الكهنة باستنكار لهذه الإهانات التي لم يسبق أن تجرأ بها رجل في هذه البلاد، وبدا الحنق والاستنكار واضحاً على وجوه العامة ممن حضروا هذا اللقاء.. لكن قاث قال قبل أن يعترض أحدهم بكلمة، وقد كسا لهجته بتحذير مرعب نفض أجسادهم للحظة "إن تجرأ أحدكم على المساس بها أو التعرض لها، فسأسحقه مهما كان منصبه ومكانته في هذه البلاد.. ومن يحاول الخلاص منها، فسأتخلص منه برميه من حدود عالمنا بأبشع وسيلة ممكنة حتى لو حاول الاحتماء بالملك ذاته.."

وشدّ جسده مضيفاً "أرجو أن تكون كلماتي هذه قد تغلغلت جماجمكم السميكة هذه، وأن تفكروا ملياً قبل اعتراض شخص مثلي.."

واستدار مغادراً بذات الخطوات الواسعة والواثقة، وجود تلحقه كعادتها وتنهيدة خافتة تفلت من شفتيها بعد إدراكها أن قاث قد تغلب عليهم رغم جموعهم الكثيرة مقارنة به.. ورغم بعض الوعيد والتهديد الذي

صدر من الجموع خلفهما، إلا أنهما لم يلتفتا إليه وهما يغادران المعبد الكئيب ذي الأسوار العالية التي تزيده قسوة ووحشة على ما بدا في أعين رجاله..

✻✻✻✻✻✻✻✻✻✻

وكأن حظ جود مع هذه الذكريات السوداء لم يكن أسوأ ما مر بها هذا اليوم.. فها هو رامين، غريمها منذ انضمامها للجيش، يظهر أمامها في أحد ممرات مبنى القيادة مع اثنين من رفاقه اللذان يلازمانه ويطيعانه في كل موقف أو تعليق خبيث يلقيه على من حوله.. كان رامين رجلاً قبيح الطباع، لا يكاد يسلم أي امرئٍ من أذاه حتى لو تعمد تحاشيه في أي مناسبة كانت.. ورغم سوء معاملته لزملائه من الجنود، ولمن هم أقل منه رتبة، إلا أن قائده (بارِت) ثاني قادة الجيش كان يمده بالعون ليتمادى أكثر فيما يفعله، خاصة مع صلة القرابة الوطيدة بينهما.. وبذا، لا يجد رامين أي رادع له عن تصرفاته الأقرب للصبيانية من تصرفات رجل يكاد يبلغ الثلاثين من عمره..

ظلت جود تسير بنظرات جامدة دون أن تهرب بعينيها من سخريته الواضحة على ملامحه، ولم تحاول أن تحيد في سيرها عن الطريق الذي سيلاقيها به آنفة من أن تبدو كهاربة من سخريته ومعاملته البغيضة.. ورغم أن رامين يعامل أغلب المحيطين به بذات الطريقة الحقيرة، لكن معاملته تتضاعف مع جود بالذات.. ربما بدأ الأمر عندما مرّغت جود كرامته في التراب أمام الجميع لمّا حاول التحرش بها على مرأى عدد كبير من الجنود.. وكأنه يثبت للجميع أن جود، كغيرها من الفتيات، لا تجرؤ على التمنع عنه بسبب مكانته التي يظنها عالية في الجيش.. أو ربما عندما أصدر قاث قراراً بمنعه من المساس بها بسوء رغم ما فعلته به، وهو أمرٌ غاظه بشدة أن تكون لها حصانة تفوق ما يملكه هو بالفعل.. إنه مع قرار قاث ذاك لا يجرؤ على المساس بها، لكن كلماته المسمومة كفيلة بتعكير يومها وجرّها في بعض الأحيان لشجار لن يمضي على خير في مثل هذا المكان..

حاولت جود تجاهل وجوده تماماً وهي تسعى للعودة لمكتبها الجديد، القريب من مكتب قاث، في المبنى.. لكن رامين لم يكن ينوي تفويت فرصة رؤيتها دون أن يشارك رفاقه في الهزء بها، وقال قبل أن تبتعد عنه

"مرحى.. انتظرت هذا اليوم طويلاً.. اليوم الذي سأمتع عيني فيه برؤية وجهك الباكي هو يومٌ مجيد حقاً.."

نظرت له جود عابسة وقالت بجفاء "من الذي سيبكي؟.."

قال رامين بلزوجة "أنت.. وأنا أنتظر هذه الساعة بفارغ الصبر.."

فأدارت جود وجهها جانباً قائلة "ادخر ألاعيبك هذه للجنود الأصغر سناً ومن هم أضعف عن مواجهة شخص مثلك.. كلماتك لا تعنيني في أي أمر.."

قال رامين قبل أن تبتعد عنه "وماذا عن قاث؟.. ألا يعنيك أمره أيضاً؟"

قالت جود بجفاء "اسمع.. لا أملك الفراغ الكافي لتأويل كلماتك الجوفاء.. ولا أظنك تملك موضوعاً مهماً للشجار معي حوله.."

علق أحد مرافقي رامين قائلاً له "دعها.. سيصلها خبر ما سيجري بكل تأكيد.. فلا أظن أن مثل هذا الخبر يمكن إخفاءه طويلاً، خاصة عندما يتعلق الأمر بقائد الجيش العام.."

قال رامين ضاحكاً "بل أظن الجيش كله سيجتمع اليوم ليرى الأرضية الحقيرة وهي تلملم متاعها البالي وتغادر بعد أن يتم طردها شر طردة.."

استدارت جود إليه وجذبته من مجمع ثيابه وهي تقول بحنق "ما الذي تهذي به؟"

قال رامين بسخرية "أعني أنك اليوم قد تصبحين مطرودة من عملك هذا.. ومن يدري؟.. ربما يحالفنا الحظ ويتم طردك من العالم السامي بأكمله.."

رفعت جود قبضتها منتوية لكمه، لكنه قال وهو يمسك قبضتها قبل أن تلكمه بالفعل "لا أنصحك بهذا.. فعندما يتم طردك، لن يمنعني شيء من الانتقام منك لأي تصرف تقومين به.."

قالت بجفاء "أفصح عما لديك يا هذا لو كنت تريد منعي من النيل منك فعلاً.."

قال رفيق رامين بابتسامة جانبية "ألم يصلك خبر الاجتماع العاجل الذي سيقام بين القادة الخمس؟.. للأسف، فإن قاث هو الأجندة الوحيدة لذلك الاجتماع، وتهمته الوحيدة هي أنت.."

بهتت جود وهي تستمع له للحظة.. كانت تكره رامين، وتثق أنه يبادلها كراهية مماثلة.. لا بد أنه يحاول إغضابها ودفعها للعراك معه.. لا بد أنه يسعى لاستثارة أعصابها.. لكن لمَ بدا لها الأمر أقرب للصدق منه

للكذب؟..

سمعت رامين يقول وهو يدير عينيه جانباً "للأسف، قاث قائد رائع.. لكن لا أدري ما سيؤول إليه حاله لو ظل على تمسكه بك ودفاعه عنك.. من الخسارة أن يحاكم قائدٌ رائع بسبب وضيعة مثلك.."

هزته جود بشدة من ملابسه وهي تهدر غاضبة "ما الذي تقوله؟"

لطم يدها قائلاً "لِمَ لا تسألين قائدك المحبوب؟.. لستُ ملزماً بإرضاء فضولك هذا.."

وتركها مذهولة ورفيقه يقول ضاحكاً "بكم تراهن على أنها لن تبيت هذه الليلة في القيادة؟"

قال رامين بصلف "بل أراهنك على أنها لن تشهد غروب الشمس في هذا المكان.."

ظلت جود واقفة وهي عاجزة عن اتخاذ تصرف سريع.. هل تلحق برامين وتستفهم منه عن الأكاذيب التي يدّعيها؟.. أم تسعى لقاث بحثاً عن تلك الأجوبة؟.. تذكرت تساؤلات ياسان الغريبة هذا الصباح، والقلق الذي تبدّى للحظة في عينيه.. أهذا ما كان يحاول السؤال عنه دون أن يثير قلقها؟.. لماذا لم يفصح عن الأمر بكل صراحة؟..

اندفعت جود بقلق عبر ممرات المبنى متوجهة إلى غرفة قاث، وكادت تندفع إليها دون أن تطرق الباب وتنتظر الجواب كعادتها غير آبهة بالجندي الواقف قرب الباب والذي حاول منعها.. لكنها ما كادت تلمس مقبض الباب، حتى فوجئت به يفتح، ويظهر من خلفه قاث وهو يهمّ بالخروج من الغرفة..

تلاحقت أنفاس جود بعد ركضها والانفعال الذي غمرها، بينما رفع قاث حاجبيه قائلاً بهدوء "ما الأمر يا ابنة التراب؟.. هل هوت السماء على رؤوسنا أم تهاوى عالمنا للأرض السفلى كي يبدو الانفعال على وجهك بهذا الشكل؟"

هتفت جود بانفعال "هل تمّ استدعاؤك لاجتماع القادة الخمس؟"

نظر لها قاث بصمت للحظة، ثم تقدم في طريقه معلقاً "أهذا هو الأمر؟.. ما الغريب في اجتماع القادة الخمس وفي حضوري ذلك الاجتماع؟.. أليس ذلك طقساً كريهاً من طقوس الجيش اعتدناه منذ الأزل؟.."

تبعته جود بخطوات سريعة قائلة بتوتر لا حدود له "لقد سمعت أنك محور ذلك الاجتماع.. فما معنى هذا؟.. ما الذي سيدور في ذلك الاجتماع حقاً؟.. وهل له علاقة بي؟.."

تساءل قاث "من الذي أخبرك بذلك؟.."

قالت بضيق "رامين.. قل لي إنه كاذبٌ أرجوك.. فهذا أقصى ما أتمناه حالياً.."

أجاب قاث "لا.. خلافاً للمعتاد، فرامين لم يكذب هذه المرة.."

شعرت جود بتهاوٍ في مشاعرها وهي تفكر في كل كلمة قالها رامين.. أيمكن أن يكون الأمر متعلقاً بها حقاً؟.. تجرأت لتسأل بتردد "ألأنك قمت بترقيتي كقائد لإحدى فصائل الجيش؟.. أهذا هو السبب؟"

قال قاث ببساطة "ربما.. من يدري؟"

أكملت جود سيرها جواره وهي تعبس بشدة.. لا تزال تهمة أصلها الدنيء بنظر سكان العالم السامي تلاحقها حتى بعد أن أمضت اثنتي عشرة سنة في هذا العالم.. ما الذي فعلته لتتم معاملتها بهذه الدونية؟.. أكان خيراً لها البقاء في عالمها الذي قد لا يستنكر وجودها ولا يحتقرها كما يفعل سكان هذا العالم السامي؟..

سمعت قاث يقول وهو يسبقها بخطوات "ظننت ياسان قد حدثك بهذا الشأن.. فهو لا يستطيع الاحتفاظ بكلمة في فمه دون أن يصل خبرها لكل من حوله.."

قالت جود دون أن تخفي عبوسها "لا.. لقد لاحظت تصرفه المرتبك صباحاً، وقد سألني بإلحاح إن كنت قد سمعت منك أمراً هذا اليوم.. لكنه للغرابة لم يفصح عن مغزى ذاك السؤال.."

ابتسم قاث ابتسامة صغيرة معلقاً "يبدو أن ياسان لم يُرِد إقلاقك بهذا الأمر حتى ينقضي.. إنه يهتم لأمرك فوق ما تصورت.."

لم تعلق جود وهي تعض شفتها السفلى بقلق شديد، عندما تساءل قاث "أأنت قلقة يا ابنة التراب؟"

علقت بضيق "ألا يفترض بي ذلك؟"

عندها قال قاث بصرامة "ألستِ تحطّين من قدري بهذا القلق؟.. أظننت أن بقية القادة قادرون على تسيير رغباتهم فوق قراراتي حتى لو اجتمعوا علي؟.. أنا أحد القادة الخمس، وفوق ذلك القائد الأعلى للجيش.. ألن تكون لي الكلمة العليا في مثل ذلك الاجتماع؟.."

غمغمت جود قلقة "ولكن، رغم ذلك....."

قاطعها قائلاً بنظرة حازمة "رغم كل ما يحاولون فعله، لن يتغير أمرٌ يخصك قط في هذا المكان.. ولا في العالم السامي كله.. لكِ كلمتي بذلك.."

وعاد لسيره وجود تتبعه بصمت هذه المرة.. رغم إصرار قاث على ألا تقلق للأمر، لكن لا يمكنها أن تتناسى الخطورة التي تحيق بقاث وبمنصبه مع توابع مثل هذا الاجتماع.. هو القائد الأعلى، لكن منصبه ليس منيعاً بالضرورة.. ويمكن الإطاحة به بقرار تعسفي من باقي القادة، أو بتدخل من الملك الذي تدرك جود أنه لا يكنّ لها أي مودة ولم يتغافل عن وجودها طوال هذه السنوات إلا بإصرار من قاث..

أثناء مغادرتهما مبنى القيادة وسيرهما وسط الساحة، لم تستطع جود منع نفسها من اختلاس النظر لرأس قاث ورؤية أطراف شعره التي تعكس نور الشمس.. كانت خصلات كبيرة من شعره قد اكتسبت اللون الأبيض، لكن ذلك لم يزده إلا جاذبية لعينيها.. ابتسامته المحدودة التي يلقيها على ضباطه عند الحديث معهم تسعدها وتصنع يومها.. وصوته العميق الهادئ يرنّ في أذنيها كل يوم منذ استيقاظها حتى نومها حتى لو كانت في الجانب الآخر من المدينة.. كيف لها أن تلاحق رجلاً بعمره بعينيها بمثل هذه المشاعر القوية؟.. لا تنسى استنكار ياسان عندما لاحظ نظراتها في لحظة فقدت فيها حذرها.. عندها قال بهمس يقارب الهتاف بصدمة "كيف؟!.. يمكنه أن يكون جداً لفتاة بعمرك بسهولة.. كيف لفتاة بعمرك أن تنظر له بهذه النظرة؟.."

أدارت بصرها جانباً قائلة بعناد دون أن تحاول الإنكار "هذا لا يهم.. كل ما يهم هو ما أشعر به أنا.."

أمسك كتفيها معترضاً "أظنك تخلطين بين مشاعر الحب والامتنان.. هو قدوتك، وأنت ربيبته التي صنعها بكل عناية.. لكن الأمر لن يتجاوز هذا بينكما بأي حال من الأحوال.. خصوصاً ليس لرجل مثله.."

عادت جود تقول بعناد أشد "لا يهم كل ما تقوله.."

صمت ياسان مقطباً للحظة، ثم غمغم "لكن، من قال إن هذا مستحيل عليه؟.. بالنظر لملامحك التي لا تخلو من جمال واضح، قد يطمع رجل جاوز الكهولة بفتاة شابة مثلك.."

قالت جود باعتراض مستنكر "ياسان....."

عندها قال ياسان بريبة "هل حاول التقرب إليك بأي شكل من الأشكال؟.. ألم يحاول استغلالك قط بأي صورة يا جود؟.. ألم يحاول استدعائك لغرفته الخاصة لأي سبب؟.."

عبست جود بشكل مخيف وهي تقول بلهجة منذرة "لم يحصل ذلك قط.. ولن يحصل.. إياك أن تتطاول عليه يا ياسان.. إياك أن تتهمه بأي اتهام إن لم ترغب بأن ترى لسانك مقطوعاً أمامك.. وأنا أعني ما

أقول.."

لم يشعر ياسان بالقلق لتحذيرها ولملامحها الغاضبة، بل أمسك كتفيها بقوة وهو يقول بلهجة قلقة "جود.. أنت فتاة حمقاء.. رغم تجاوزك العشرين بسنة أو اثنتين، لكن عقلك أصغر من عقل طفلة.. حتى لو كنتِ مجندة، فهذا لا يعني أن تنسي أنك امرأة قبل ذلك.. ولو تهاونتِ مع أحدهم لمرة واحدة، فستصبحين ألعوبة للآخرين، وستجدين أنك مضطرة للتنازل مرة بعد مرة وأن الآخرين يذلّونك مرة بعد أخرى.. لذا أرجوك..... حافظي على نفسك من أي شخص تسوّل له نفسه أن يتطاول عليك.. حتى لو كان ذلك الشخص هو القائد.."

قالت جود بضيق "ألن تكفّ عن هذا؟"

قال ياسان بإصرار "حتى لو كان ذلك الشخص هو القائد، أو أي شخص آخر.. أنت لن تدركي ما قد يتتبع إهمالك هذا، ولا أريدك أن تندمي قط على ما قد يجري.. لذا، عِديني أن تكوني حذرة وتهتمي بنفسك أكثر.."

قالت باستياء "لا بأس.. أعدك بذلك، وإن كنت لا أدري سبب اهتمامك الشديد بهذا الأمر.."

أجاب ياسان بإخلاص "أنا أعدّك كشقيقة صغرى لي.. يهمني أمرك فوق ما تتصورين، ولا أتمنى أن أرى أي بأسٍ يصيبك لأي سبب كان.."

صمتت جود مقتنعة بما قاله، وشاعرة بامتنان لمشاعره الواضحة تجاهها.. وفي الآن ذاته، لم يغادرها الاستياء لتساؤلاته تلك بخصوص القائد قاث.. كيف تسوّل له نفسه أن يشك بالقائد بهذه الصورة؟.. إنها لم تشعر قط بأن القائد قد تأمل وجهها لوقت طويل، بل في بعض الأحيان تشعر بأنه لا يراها، ويكتفي بإلقاء أوامره إليها دون أن يلقي عليها نظرة واحدة.. أحياناً كان هذا يغيظها، لكنه في الآن ذاته يجعلها تحترمه أكثر فأكثر.. هو ليس ملاكاً، لكنه أفضل بكثير من الكثير من الرجال الذين يعجّ بهم مركز قيادة الجيش هذا، والذين لا يمانعون التطاول عليها ظانّيها صيداً سهلاً.. حتى يتبخر ظنهم هذا مع أول لكمة تصيبهم منها، أو أول عقاب قاسٍ يقع عليهم من القائد قاث نفسه..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

ساد الصمت التام بين هيما وكابو أثناء عودتهما للمعبد على العربة.. كانت العربة لا تزال ملأى بالأجولة التي لم يتمكن كابو من بيعها بسبب المقاطعة التي حدثت أثناء قيامه بعمله.. مما اضطره لنبذ عمله والتدخل السريع لإنقاذ هيما قبل أن يفتضح أمرها.. والآن، هو على وشك العودة خالي الوفاض للمعبد ليتلقى التقريع الملائم على تهاونه في عمله.. زفر كابو بشدة بوجه مهموم لما جرى.. فهمست هيما أخيراً "أنا آسفة يا كابو.."

لم يعلق كابو بامتعاض واضح، مما جعل هيما تشعر باستياء أكبر وهي تخفض وجهها مستطردة بمرارة "آسفة لما حل بك، وللمعاملة القاسية التي نلتها على يد أهل السوق.. وكل هذا بسبب رعونتي ورغباتي الحمقاء.."

قال كابو أخيراً "لست مستاءً منك يا سيدتي.. بل من تجرّؤ أهل السوق عليك ومعاملتهم الخشنة رغم أنك لم ترتكبي ذنباً.. من أين لهم الحق بالتطاول عليك دون أي سبب؟.. غاظني بشدة أنني لم أتمكن من إنقاذك قبل أن يقع ما وقع.."

قالت هيما بخفوت "من حسن حظي وحظك أن تلك الجندية قد مرّت قريباً وتدخلت لصالحنا.. نحن محظوظان بالفعل.."

صمت كابو للحظات يتأمل المارة في الطريق الذي يعبرانه، ثم غمغم "ليست جندية.. بل رئيسة إحدى فصائل الجيش.."

نظرت له هيما بدهشة وقالت "هل تعرفها؟"

أجاب كابو "ومن لا يعرفها؟.. إنها الأرضية.."

ظلت هيما تنظر له بعدم فهم واستيعاب للّفظ الذي ذكره.. فقال أخيراً "هي تلك الفتاة التي أحضرها قائد الجيش قاث من العالم السفلي، من أرض الهوام، قبل اثنتي عشرة سنة.. لا يزال أهل السوق يذكرون حكايتها كلما رأوها تمر أمامهم.. ولا يكاد أمرها يخفى على أحد.."

ظلت هيما تستمع له بدهشة وهي تتذكر كل العبارات التي قيلت في حق الأرضيّة تلك في جنبات المعبد منذ صغرها.. كانت تلك حكاية لا يملّ الكهنة من تكرارها ببغض بينّ.. ويعيدون إثارتها كلما بدا أن الأرضية

قد حصلت على منصب أعلى مما تستحق بنظرهم أو قام قائد الجيش بتكريمها لخدماتها المتفانية..

لكن، لعيني هيما، كانت الفتاة التي رأتها في السوق تبدو مجرد جندية عادية.. لا يبدو عليها أبداً ما نسج حولها من خرافات، وهي بعيدة كل البعد عن الخيالات التي تخيلتها هيما عنها في السابق.. في الواقع، بدت لها أطيب قلباً من كثير من الكهنة الذين يطلقون عليها الأحكام بصفاقة وغرور..

لم يتبادل كابو وهيما كلمة أخرى طوال طريق العودة، وقد سادهما شيء من الضيق والكآبة مع كل ما جرى، ولما قد يواجهه كابو لدى عودته دون إتمام عمله.. وعندما بدت أسوار المعبد أمامهما، سارعت هيما لتندسّ بين الأجولة من جديد حتى يعبر بها كابو حراس المعبد ويصل لساحته الجانبية الخاصة بالخدم والحرس، حيث تقام أغلب الأعمال الخاصة بالمعبد بعيداً عن أعين زواره..

التزمت هيما الصمت التام وهي تشعر باهتزازات العربة ورائحة الأجولة القوية تغطي على ما عداها.. عبرت العربة بوابة المعبد بسلاسة كما يبدو، وسار بها كابو نحو الساحة الجانبية وهيما تكاد تكتم أنفاسها قلقاً.. عودتها للمعبد ليست بأقل خطورة عن رحيلها عنه، ولن يهدأ بالها حتى تعود للمستودع وتستبدل ملابسها ثم تبحث عن عذر ملائم لاختفائها عدة ساعات من هذا النهار..

ساد الصمت للحظات وهي تشعر بكابو يترجل عن العربة ويقف للحظة قربها متظاهراً بالعمل حتى يتسنى له مراقبة الساحة والتأكد من خلوها قبل خروج هيما من مخبئها.. دام صمته وقتاً رأته هيما طويلاً وهي تنتظر بقلق، ثم سمعت صوت قدميه وهي تدور حول العربة ليفتح لها الحاجز الخلفي قبل أن يعطيها إشارة الأمان.. تأهبت هيما للنهوض والابتعاد فور سماعها الإشارة، لكنها للدهشة لم تسمع شيئاً والقدمين اللتين اقتربتا من العربة قد بدأتا صعودها والسير بين الأجولة..

عقدت هيما حاجبيها بتوتر ظاهر وهي تهمس "ما الذي جرى يا كابو؟"

شعرت بتلك اليد التي أمسكت ذراعها وأجبرتها على مغادرة موقعها بصمت.. التفتت هيما بدهشة لصاحب اليد، لتطالعها عينا الكاهنة بيرن الحمراوان بغضب وهي تصيح "أمسكت بك أيتها المأفونة.."

سرت رجفة قوية في جسد هيما وهي تدرك أن أمرها قد انكشف، ربما للمرة الثانية لهذا اليوم.. تلفتت حولها بدهشة، فوجدت كابو يقف جانباً مطرقاً بشحوب ظاهر دون أن يملك من أمرهما شيئاً.. انعقد لسان هيما والكاهنة بيرن تجرّها لتهبط بها من العربة وهي تقول بغضب وكره واضحين "كنت أدرك أنك

سترتكبين فضيحة في يوم ما.. كنت واثقة أن من هي مثلك لا تصحّ لهذا المكان المقدس.."

كانت أنظار بعض الخدم قد انجذبت للضوضاء الصادرة عن العربة التي تتوسط الساحة، فيما تقدم بعض الحرس لمعرفة سبب تلك الضجة الغريبة على هذا المكان.. جذبت الكاهنة بيرن هيما بدون ترفق حتى هبطتا من العربة، ووقفت قربها تكيل الاتهامات والسباب لها ولكابو الذي تزايد ارتباكه وشحوبه أكثر مع كل لحظة تمضي..

تقدم أحد الحرس من الكاهنة بيرن وقال لها "ما الأمر؟.. ما الذي فعله ذلك الخادم لتثار هذه الضجة في مثل هذا الوقت؟"

قالت الكاهنة بيرن باستياء "لقد ارتكب هو وهذه البغيضة ما لا يمكن السكوت عنه.. ولن يبتّ في الأمر إلا الكاهن الأعظم.."

رفع كابو بصره إليها مصعوقاً، فيما أضافت الكاهنة بيرن آمرة ذلك الحارس "خذ هذا الخادم إلى مكتب الكاهن الأعظم.. سيصله خبر كل ما جرى عن طريق الكاهنة الكبرى.."

ودفعت هيما الصامتة أمامها قائلة بغلظة "تحركي.. لن تغرب شمس هذا اليوم قبل أن أتخلص منك تماماً.."

لم تجزع هيما لما يجري، بل كان ارتعابها من العقاب الذي قد يقع على كابو وتوابع ذلك عليه.. استرقت نظرة إلى وجهه الشاحب قبل أن تبتعد، ثم همست عندما مرت جواره "أنا آسفة.."

دفعتها الكاهنة بيرن لتسير أمامها، فيما التزم كابو الصمت بدوره وهو يسير مع الحارس باستسلام تام إلى حيث سيُبَتّ في مصيره للأيام وربما الأعوام القادمة بعد هذه اللحظة..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

ظلت جود تهز قدمها بعصبية حيث جلست في موضع من مبنى القيادة الرئيسية يمكّنها من رؤية بوابة قاعة الاجتماعات بوضوح.. بينما وقف ياسان قربها وقد تبعها عندما تزايد قلقه بدوره على قاث.. فقال ياسان "لا داعي لهذه العصبية.. أتظنين أن أحداً يستطيع الإضرار بقاث نفسه؟"

قالت جود عابسة "لا شيء مستحيل.. خاصة مع إصرار الكهنة والقادة على أنني دنسٌ أدنّس عالمهم ما

دمت فيه.."

قال ياسان مهدئاً إياها "هذه مبالغة.. لابد أن سبباً آخر هو ما يجعلهم يعترضون على ترقيتك.. لقد مضت سنوات طوال منذ أتيتِ لهذا العالم، ولا أظنهم متشبثون بتلك الفكرة بعد.."

قالت جود بضيق "ما هو السبب إذن؟.. ألأنني امرأة؟.. لست الأولى التي تقود فصيلاً أو حتى كتيبة في هذا الجيش.. فما السبب الذي يجعلهم يكرهون وجودي بهذه الصورة؟"

قال ياسان مبرراً "ربما ظنوك جاسوساً.."

علقت جود بسخرية "جاسوساً؟.. لمن؟.. للعالم السفلي الذي لا يملك أي نوع من التطور والحضارة؟.. والذي لا يملك وسيلة ولا سبيلاً للوصول لهذا العالم والتسبب له بأي ضرر؟!.. هذا أمرٌ مضحك.."

غمغم ياسان "تلك مجرد فكرة.."

زفرت جود من جديد دون أن يهدأ قلقها وتوترها.. ساءها أكثر أن تكون السبب في ما قد يجري لقاث بعد هذا الاجتماع، أياً كانت النتيجة.. لطالما كانت ممتنة له لما فعله لها، ولذا لا تتمنى أن تسبّب له أي سوء ولو بغير عمد..

وفي تلك الغرفة التي ضمّت أهم خمسة رجال في جيش مملكة الغمام، جلس قاث على رأس مائدة طويلة توزع قربها القادة الأربع الآخرون، كارون وبارِت وقاشيم وتادار، وهم يرمقونه بصمت ونظرات اتهام واضحة.. فقال قاث بضجر "ما معنى كل هذا؟.. منذ متى كان القادة يناقشون قراراتي بهذه الطريقة التعسفية؟.. أليس لي الحق برفع من أريد رفعه من جنودي؟.."

قال بارِت بصرامة "ليست تلك الفتاة.. أنت تتجاهل الجميع، وتصرّ على رفعها وكأنك تحاول إغاظة جنودنا المخلصين جميعاً.. ما الذي سيدور بخلد جنودنا المنتمين لعالمنا السامي عندما يرون أن فتاة من الأرض الدنيّة قد أصبحت تفوقهم مكانة؟"

قال قاث بصرامة "ألا يملك جنودنا أمراً يقلقون لشأنه أكثر من ترقية كافأت بها جندية مخلصة ومتفانية من جنودي؟.. أهذا أمرٌ كافٍ لنجتمع لمناقشته؟.."

أجاب قاشيم بضيق "بل نحن هنا لمناقشة ضربك الحائط بكل الأفكار والمعتقدات التي تتبناها الشعوب السامية.."

قال قاث بغير اهتمام "ليس هناك أي قانون أو عرف يمنع الاتصال بسكان العالم السفلي.."

قال بارت بحنق "لم يضع الأولون أي قوانين لأن ذلك كان بديهياً في نفوسهم.. ما الذي سنجنيه من ذلك الاتصال؟.. بل ما الذي سنستفيده من وجود فتاة مثل تلك الفتاة في مملكتنا، وفي قلب قيادة الجيش بالذات؟."

قلّب قاث بصره بين القادة الخمس، ملاحظاً النظرات الحادة من بعضهم مثل بارت وقاشيم وتادار، والنظرات المتوترة التي لا تملك من أمرها شيئاً كالتي بدت في عيني كارون.. ثم تراجع في كرسيه قائلاً "عندما أعلمتموني بأمر هذا الاجتماع الطارئ، تأملتُ خيراً.. ظننت أن ما يجري عند حدودنا الشمالية الغربية قد بدأ يستثير اهتمامكم أخيراً، وأنكم بصدد اتخاذ إجراءات حاسمة أخيراً بشأنها.."

قال بارت بجفاء "أتعني ما يجري عند حدودنا مع مملكة الضياء؟.. لا يمكن أن تكون جاداً بشأن ما ورد إلينا من تقارير.."

قطب قاث معلقاً "لم أكن جاداً في يوم من حياتي كقائد عام لهذا الجيش كما أنا الآن.. ألا يثير الأمر ريبتكم ولو قليلاً؟.. لقد عشنا قروناً طويلة من الأمن والرخاء والجيرة الحسنة، لكن هذا لا يعني أن ذلك لن يتحطم في لحظة واحدة.. وما يفعله جيش مملكة الضياء، بأمر من قادته ومن ملك المملكة دون شك، ليس أمراً يمكن التجاوز عنه.."

قال تادار بغير اقتناع "أتعني أن علينا أن نخاطب قيادة ذلك الجيش ونطلب منهم سحب جيوشهم المتمركزة قرب حدودنا دون سبب قوي؟.."

أجاب قاث بحزم "أليس ذلك بديهياً؟.. يمكننا أن نعلن لقادة جيش مملكة الضياء عن استيائنا لما يجري، ونحمّل رسالتنا تهديداً مبطناً بأننا لن نتورع عن فعل المثل لحماية حدودنا حتى لو لم تكن هناك شبهة خطر تتهددها.."

قال تادار باستياء "هذا إعلانٌ عدائي وتصرف خطير لا أوافق عليه مطلقاً.."

قطب قاث معلقاً "عجباً.. أترى في هذا الأمر خطورة أشد من حشودهم المتواجدة قرب حدودنا؟.."

احتدم تادار في جداله بخصوص هذه النقطة مصرحاً باعتراضاته بكل الوجوه الممكنة، فيما التزم قاث الصمت عاقداً ذراعيه على صدره وبملامح هادئة لا تشي بالأفكار التي تصطرع في ذهنه..

منذ البدء، كان تادار معارضاً لكل ما يخص التدخل بشأن تلك المسألة الحساسة المتعلقة بالحدود بين المملكتين.. ورغم أن أكثر من أسبوعين قد مضيا منذ بدأت تحركات جيش المملكة المجاورة، إلا أن عدم وجود أي تطورات منذرة بالخطر جعلت بقية القادة يتقاعسون عن التحرك بشكل مباشر وسريع منعاً لأي كارثة قد تكون وشيكة.. وقد تولى تادار قيادة أي جدال عن هذا الأمر مستنكراً شكوك قاث، ومدافعاً عن حق المملكتين بحشد حشودهما في أي موقع مادام لا يؤثر بالمملكة المجاورة ولا يمسّ أمنها.. لكن أي أمن يتوقعه ذلك الأحمق والحشود العدائية لا يبدو أنها تضمر لهم ولمملكتهم أي خير؟..

من الصعب الاقتناع بأن مملكة الضياء تنوي الهجوم على مملكتهم بشكل مباشر، فهناك هدنة غير مكتوبة بين الممالك الأربع على الحفاظ على الأمن السائد في الممالك العليا وعدم الدخول في حروب قد يكون لها تأثير سيئ على الأرض العليا وقد تؤثر تأثيراً سلبياً على ثباتها وارتفاعها في السماء العالية.. لكن، من قال إن مثل هذا الأمر لا يمكن أن يحدث مطلقاً في المستقبل القريب أو البعيد؟..

بعد انتظار طال وامتد حتى استبد الملل بالواقفين خارج القاعة، فتح الباب بشيء من الضجة وبدأ القادة بالخروج من القاعة ما بين صامت بعبوس ظاهر وبين من انخرط في جدال حانق مع أحد نظرائه.. هبّت جود واقفة قرب ياسان وهي ترمق القادة بشيء من التهيّب.. ومع خروج القادة واقترابهم من الاثنان، اتخذت جود وياسان وضعية صارمة وهما يؤديان التحية المتعارف عليها.. لم تغفل جود عن النظرات الحادة الممتزجة بكره عارم والموجهة نحوها، فيما نادى كارون ياسان مستفهماً بضيق سبب تخلّيه عن موقعه لانتظار نتيجة الاجتماع.. وبينما ساق ياسان بعض الأعذار بارتباك واضح لقائده المباشر، وقفت جود تنتظر خروج قاث بترقب وقلق.. ولما رأته يخرج من القاعة أخيراً، بخطوات واثقة وقد ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه لدى رؤيتها، فإنها تنهدت بقوة وقد أدركت أن الأمور سارت كما خطط لها قاث، وكما تمنّت هي.. سارت بخطوات واسعة تتبع قاث الذي لم يتوقف لحظة، وسمعته يقول فور وصولها إليه "ألم أقل لك إنك تبالغين بهذا القلق؟.. من يمكنه أن يتغلب عليّ في أي جدال في هذه القيادة وفي أي موقع من مملكتنا المجيدة؟"

تساءلت جود "لكن كيف فعلت ذلك؟.."

أجاب قاث "لم يكن ذلك صعباً، باللعب على الوتر الحساس لمناصبهم التي يفترض أن تسخّر لأمورٍ أكثر

أهمية من هوية جندي أو جندية وحيدة وسط هذا الجيش الكبير.."

علقت جود مبتسمة "ما كان عليّ أن أقلق لأمر هذا الاجتماع إذاً.."

عندها قال قاث بحزم "لا تظني للحظة أن هذه هي نهاية متاعبك.. بل هي البداية.. وإن ضعفتِ، أو جبُنتِ عن مواجهة مثل هؤلاء، فأخبريني من الآن كي أعفيك من منصبك هذا ومن تبعاته.."

شدّت جود جسدها قائلة بعزيمة واضحة "محال أن أجبن عن مواجهة أي شخص يشكك في كفاءتي.."

ابتسم قاث ابتسامة راضية، ثم علق بتحذير "عليك ألا تخذليني بعد كل ما جرىٰ يا ابنة التراب.. أتفهمين المسؤولية الملقاة علىٰ عاتقك؟.. عليك الآن أن تكوني أفضل من البقية، وأن تبذلي جهداً مضاعفاً عما يبذله أقرانك.. عليك أن تثبتي أنني لم أكن مخطئاً يوماً في إحضارك من ذلك العالم.."

قالت جود بإخلاص "سأفعل كل ما تتوقعه مني بأفضل ما يمكن.. لن أخذلك قط يا سيدي.."

اتسعت ابتسامته الراضية وهو يعود لمكتبه بحزمه المعروف، فيما تبعته جود وقد تملكتها راحة شديدة وامتنان أشدّ..

حقاً، متىٰ ستتمكن من رد جميل هذا الرجل الذي أغرقها به منذ اللحظة التي رآها فيها؟..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

(الفصل الخامس)
مملكة الخمام : كهنة المعبد المقدس

لم تكن هيما تظن مع بداية هذا اليوم الذي حمل آمالاً عريضة لها بقضاء لحظات من أمتع لحظات حياتها في أحضان المدينة المجهولة بالنسبة لها، أن هذا اليوم سينتهي هذه النهاية المأساوية عندما كشفت بيرن أمرها لأول مرة وساقتها مع كابو لمواجهة عقابهما على ما اقترفته يداهما.. ولكن، مع كل الفزع والذعر الذي انتاب هيما سابقاً خشية كشف أمرهما، لكن ذلك تبخر بعد أن افتضح الأمر بالفعل.. وقفت بصمت وهدوء أمام الكاهنة الكبرى بعد أن جرّتها الكاهنة بيرن لمكتبها الواقع في الجانب الآخر من المعبد جاذبة أنظار كل كهنة المعبد وخدمه وحراسه.. وفيما ظلت الكاهنة الكبرى تحدق بها بصمت دون أن يبدو أي انفعال على وجهها، فإن الكاهنة بيرن قالت بغلظة دون مراعاة لوقوفها أمام أعلى سلطة في الجزء الخاص بالكاهنات من المعبد "أخبرتك أن هذه الفتاة لا تصلح لهذا المكان.. أخبرتك بذلك منذ زمن طويل، لكنك أصررت على منحها الفرصة بعد الفرصة.. والآن، أدرك جميع من في المعبد أن هذه الفتاة السوقية لا تليق بهذا المكان، وعلينا أن نعاقبها لاستهانتها بقدسية المعبد.."

ظلت هيما صامتة أمام الإساءات التي تصبّ على رأسها، عندما سألتها الكاهنة الكبرى بهدوء "ما الذي دفعك لفعل ما فعلته يا هيما؟"

ظلت هيما خافضة وجهها، فيما صاحت الكاهنة بيرن "أهناك داعٍ لسؤالها؟.. إنها رغبتها القوية بكسر القوانين والتحرر من المسؤوليات المناطة بالكاهنات.. إنها تظن نفسها أعلى مكانة منا، وعلينا أن....."

رفعت الكاهنة الكبرى كفها لإسكات بيرن، والتي انتفخ وجهها بغضب ظاهر لهذه المقاطعة.. كانت تشعر بغضب لا محدود إزاء هيما، والتي كانت من الفتيات اللواتي تولّت مسؤولية تدريبهن منذ مجيئها لهذا المعبد.. وربما يكمن غضبها بالأساس لا لمراوغة هيما وتهربها، وهو أمرٌ لم يكن مستغرباً عندما كانت أصغر سناً، بل لتهاون الكاهنة الكبرى في الأخذ بمشورة بيرن وعقاب هيما العقاب الملائم الذي سيردعها عما تفعله.. والآن، ترى بيرن أن تصرفات هيما قد فاقت كل الحدود وما عاد السكوت عليها ممكناً.. وهذه

المرة، لن تتمكن الكاهنة الكبرى من غضّ البصر عما يجري خاصة مع تورط أحد الخدم في الأمر ووصول خبره إلى بقية الكهنة والكاهن الأعظم المسؤول عن هذا المعبد..

زفرت الكاهنة الكبرى إزاء صمت هيما، وقالت برفق "أنت مدركة أنني لن أستطيع تجاوز هذا الأمر يا صغيرة، أليس كذلك؟"

هزت هيما رأسها بصمت، فيما دمدمت بيرن بحنق "ما كان يجب السكوت على ما تفعله منذ البدء.."

تزايد ضيق هيما من غضب الكاهنة بيرن وشتائمها، فقالت باستياء "لقد أخبرتكم منذ البدء أنني لا أصلح لأن أكون كاهنة.. لا أصلح للبقاء في هذا المكان.. لكنكم أصررتم على سجني ومعاملتي ككاهنة سيئة التهذيب والتصرف.. فهل ألام لأنني سعيت خلف بعض الحرية دون أن أتسبب بإيذاء أحد بما أفعله؟"

صاحت الكاهنة بيرن بغضب "بعض الحرية؟.. هذا جرمٌ أكبر مما فعلته بالفعل.. أيمكن لكاهنة مقدسة أن تنبذ الأعباء الملقاة على كتفيها لنيل بعض الحرية؟.. لم أتوقع في يوم من الأيام أن أسمع هذا القول المجحف.."

صاحت هيما "أعباء؟.. أي أعباء نقوم بها إلا الصلاة وتطهير النفس لساعات وساعات كل يوم؟!.. أي أعباء تلك التي تمنعنا من الخروج من هذا السجن الكبير والالتقاء بالعامة في جوانب المدينة؟.. هذه الحياة لا تناسبني على الإطلاق.."

ضربت الكاهنة بيرن سطح طاولة الكاهنة الكبرى قائلة بحقد "عليك عقابها العقاب الملائم يا قداسة الكاهنة.. لقد قضيت الشهور الماضية ألاحقها من موقع لموقع في المعبد وأصبحت محل سخرية بقية الكاهنات وأنا أركض كالمجنونة بحثاً عنها.. ولا يمكن أن يستمر هذا مدة أطول.."

تنهدت الكاهنة الكبرى دون أن تفقد أعصابها للجدال الدائر أمامها، ثم قالت "يجب أن أنتظر رأي الكاهن الأعظم فيما يخص هيما وذلك الخادم.. لن أستطيع التصرف بمفردي هذه المرة.. وحتى يستدعيني الكاهن الأعظم، انتظري خارجاً فقد نحتاجك لتكوني شاهدة على ما جرى.."

اعتدلت الكاهنة بيرن مسوّية ملابس الكهنوت وهي تحدج هيما بنظرة قاسية، ثم غادرت الغرفة تاركة هيما واقفة بصمت أمام الكاهنة الكبرى، والتي قالت بعد أن أغلق الباب عليهما "أنت تعلمين أنني حاولت تفادي هذا الأمر قدر استطاعتي.. تجاهلت شكاوي الكاهنة بيرن الموجهة إليك، وتجاهلت المغامرات

الصغيرة التي كنت تقومين بها على أمل أن تنضجي وتستقيمي في حياتك بين جنبات المعبد.. لكن ما فعلته لا يمكن السكوت عليه، ولا يمكنني التدخل وإنقاذك هذه المرة.."

لم تعترض هيما بل قالت بصوت مرير "كل ما أردته هو أن أرى سوق الألوان.. أهذه جريمة؟"

تنهدت الكاهنة الكبرى دون أن تجيب وهي تنشغل بأعمالها تاركة هيما واقفة في موقعها دون أن تسمح لها بالجلوس..

وبعد ساعة من هذه الحادثة، سارت هيما خلف الكاهنة الكبرى التي قطعت أحد الممرات وتجاوزت حديقة صغيرة تزهو بعدد من الشجيرات المزهرة برائحتها المنعشة، ثم سارت في ممر مسقوف تحدّه الأقواس المزخرفة من جانب، حتى وصلت إلى غرفة على شيء من الاتساع تطل على تلك الحديقة.. كانت الغرفة تضمّ مجلس الكهنة الأعلى الذي تعرفه هيما حق المعرفة، ويتصدره الكاهن الأعظم الذي جلس على كرسيه في رأس ذلك المجلس.. غلب التردد هيما للحظة وهي تقلب البصر في الأعين التي تحدق بها، ملاحظة وجود كابو في وسط الغرفة مواجهاً المجلس وقد ركع أرضاً على ركبتيه بوجه يقرّ بوضوح بالذنب الذي ارتكبه.. وجدت هيما أن الكاهنة بيرن التي تسير خلفها قد دفعتها بغلظة لتدخل الغرفة، وجذبتها لموقع قريب من كابو قبل أن تجبرها على الركوع بدورها أمام المجلس..

اتخذت الكاهنة الكبرى مجلسها قريبة من الكاهن الأعظم، بينما جلست الكاهنة بيرن في جانب الغرفة لكونها شاهدة على الإثم الذي ارتكبه هذان الإثنان وشهادتها مطلوبة في جلسة المحاكمة هذه.. بدأت المحاكمة المحدودة تلك بصوت الكاهنة الكبرى الرتيب وهي تعرض المشكلة الحالية وما ارتكبته هيما ودفعت كابو لارتكابه من مخالفات صريحة لا يمكن التجاوز عنها.. ظلت هيما وكابو مطرقين بصمت وهما يستمعان لما يعرض أمامهما من جرائم بشعة كما تصوره قوانين المعبد.. وبعد أن فاض بها الكيل، تجرأت هيما لتقول دون أن ترفع وجهها "وما الخطأ في ما فعلته؟.. أنا لم أتهاون في قداسة مكانتي في هذا العالم ككاهنة تنتمي لهذا المعبد.. كل ما تجاوزته هو بضع قوانين لا معنى ولا أهمية لها.."

قالت الكاهنة الكبرى بهدوء "لم نسمح لك بالحديث بعد يا هيما.."

رفعت هيما بصرها قائلة دون أن ترتدع "ما العيب في أن أخرج خارج المعبد وأرى أحوال الشعب الذي يلجأ إلينا كلما مر بضائقة أو مشكلة؟.. كيف يمكننا أن نوفر الحلول الملائمة لمشاكل العامة ونحن نضع

حاجزاً عالياً بيننا وبينهم؟.."

حدقت بها الأعين باستنكار واضح، وهي تضيف بحزم "عليكم مراجعة تلك القوانين البالية التي لا معنى لها.. ما الهدف من فرض العزلة على الكهان في هذا المعبد؟.. أليس الهدف الوحيد هو تأليه الكهان وعزلهم عن الشعب، ورفعهم لمصافّ أكبر مما يستحقونها بالفعل؟"

هبّت بيرن واقفة واقتربت منها قائلة بغضب "اصمتي أيتها الدنيئة وانتظري الحكم الذي سيصدر عليك.. أظننت أنك تستطيعين الفرار من العقاب كما في كل مرة؟"

أشارت لها الكاهنة الكبرى لتتراجع جانباً، فيما قال الكاهن الأعظم دون انفعال "من الواضح أنك لا تعترفين بالذنب الذي ارتكبته، ولا تنتوين الاعتراف بخطئك وطلب المغفرة لما جرى بإرادتك.."

كانت نظرات هيما الصامدة أمام اتهاماته إجابة كافية.. إنها لا تنوي الإقرار بما فعلته كذنب عليها التكفير عنه.. عندها نظر الكاهن الأعظم للكاهنة الكبرى مضيفاً "في مثل هذه الحالة، لا أظن أن المعبد قادرٌ على احتضان شخص متمرد مثل هذه الفتاة.. لذا، الطرد هو الحل الوحيد والعقاب الملائم لها.."

عندها صاحت الكاهنة بيرن بشيء من التوحش "لا.. طرد هذه البذيئة ليس عقاباً ملائماً.. فهذا ما كانت ترجوه وتأمله منذ زمن طويل.."

ونقلت بصرها بين الكاهنة الكبرى والكاهن الأعظم وهي تقول بعصبية "يجب أن يكون عقابها ملائماً للجرم الذي ارتكبته.."

تساءلت الكاهنة الكبرى بهدوء "وما هو الجزاء الذي يناسب جرمها برأيك؟.. نحن لا نسجن، ولا نعاقب الكهنة عقاباً بدنياً.. الطرد هو أقصى ما يمكننا فعله للخلاص من مثل هذه الفضيحة بحق بقية الكهنة والكاهنات أمام العامة.."

شدّت الكاهنة بيرن جسدها قائلة بحزم "طردها هو الفضيحة بعينها.. إن لم يكن العامة قد عرفوا بما جرى، فهذا العقاب هو بمثل إعلانٍ فاضح لكل جهات المملكة وجنباتها بما جرى.. لكني أملك حلاً ملائماً.."

ونظرت لملامح هيما القلقة مضيفة "انتخابها ككاهنة سامية.."

انتفضت هيما هامسة "لا..."

ارتسمت ابتسامة متشفية على جانب شفتي الكاهنة بيرن وهي تضيف "هذا يعني أنها ستسخر نفسها للمعبد وللإله، وستقضي بقية حياتها في الجزء الخاص، لا تزور ولا تزار، ولا تغادره حتى الممات.. بهذا، نضمن أن يبقى السر في جنبات المعبد ولا يغادره حتى مماتها.. وقد يكون هذا هو التكفير الملائم لذنب هذه الحقيرة.."

نظرت الكاهنة الكبرى نحو الكاهن الأعظم معلقة بحيرة "لا أدري.. هل يصحّ بنا القيام بذلك؟.. لا تسمح لنا سمعتها بهذا التصرف، فهذا سيثير سخط الكثير من الكاهنات المستجدات.."

قلبت هيما بصرها بين الكاهن الأعظم والكاهنة الكبرى بذعر متزايد.. كان هذا سجناً فوق سجنها، وعذاباً أشد من العذاب الذي هي فيه الآن.. فكيف لهم أن يعاملوها بهذه القسوة؟.. رأت الكاهن الأعظم يتشاور مع الكاهنة الكبرى ومع بقية أفراد المجلس الأعلى للكهنة.. كان أغلبهم غير راضٍ عن وضعها بذلك المنصب الذي له مكانة كبيرة في المعبد.. وفي الآن ذاته، فكرة بقائها في المعبد مستحيلة بالصورة المعتادة، وتركها له مصيبة بحق سمعة المعبد وكهنته.. وهي سمعة يصرّ الكهنة على تلميعها وإبرازها عاماً بعد عام..

وأخيراً، سمعت هيما الكلمات التي كانت تخشاهن أكثر ما تخشى في هذه الجلسة عندما قال الكاهن الأعظم "لا بأس.. يبدو ألا مفر لنا من رفعها لمنصب الكاهنة السامية.. فهي مع الجرم الذي ارتكبته، بحاجة لأعوام وأعوام من التطهير والتكفير عن هذا الذنب لتُمحى خطاياها تماماً.. وبتسخير نفسها لخدمة المعبد، فإنها ستجد الكثير من الوقت والالتزام لتنفيذ ما يطلب منها هذه المرة.."

نهضت هيما واقفة وهي ترتجف وقالت بصوت ينتفض بمزيج الذعر لتلك الفكرة والحنق لإصرار الكهنة على اعتبار ما فعلته ذنباً لا يمكن غفرانه "لماذا؟.. أنا لم أرتكب إثماً.. لو أنكم طردتموني، فلن أجد ما آسف عليه في هذه الحياة القاتمة الكئيبة.. أتعتبرون أن هذه مهنة سامية؟.. إنها حياة قاسية بغيضة لم أشعر يوماً بأنها تستحق نصف التقديس الذي يعاملكم الشعب به.."

قال الكاهن الأعظم بصرامة "لا تزيدي ذنوبك بهذا التجديف يا فتاة.. إن استمررت بالحديث بهذا الأسلوب المجحف، فسنضطر لتكفير ذنوبك بشكل أكثر قسوة وإيلاماً مما قد تتخيلينه.."

شحب وجه هيما إزاء التهديد المباشر، وخفضت وجهها للحظة تتمالك انفعالها، قبل أن تقول بصوت

مرتجف "وكابو..... ما الذي سيجري له؟"

قالت الكاهنة الكبرى وهي تنهض واقفة "هذا ما لا شأن لك به.."

وأشارت للكاهنة بيرن التي قفزت واقفة بنشاط وسارعت لجذب هيما خارج الغرفة وهي تقول لها بصوت هامس "مبارك لك هذا المنصب الرفيع أيتها الكاهنة السامية.. أنا سعيدة لأجلك من كل قلبي.."

لم تعلق هيما وهي تتملص من قبضة بيرن فور خروجهما من تلك الغرفة، واستدارت للكاهنة الكبرى دافعة يد بيرن عنها قائلة برجاء "أرجوك.. احمي كابو من العقاب.. إنه شاب فقير وطيب السريرة.. لا يستحق أي عقاب لما جرى، ولم يفعل ما فعله إلا مرغماً بإلحاح مني.. لذا، يسوؤني أن يتم عقابه على ما ارتكبته أنا.."

قالت الكاهنة الكبرى "كان عليه إبلاغ الكاهنة بيرن بما تنتوينه بدل مسايرتك بهذه الصورة.."

قالت هيما بضراعة "أرجوك.. ساعديه قدر استطاعتك.. إنه لا يستحق ما سيجري له.."

لمحت الكاهنة الكبرى القلق الصادق واضحاً في عيني هيما، فتنهدت وغمغمت "سأرى ما سأفعله.."

لم تملك هيما قول شيء بعدها، ووجدت بيرن تعود لجذبها بعيداً من جديد.. فلم تمانع هذه المرة وهي تتبعها بصمت متأملة الباب المغلق خلفها والذي سيتحدد مصير كابو في الغرفة التي تليه.. ثم قلبت بصرها في أرجاء المعبد الذي سيصبح مأواها لما بقي لها من حياة.. والأسوأ من ذلك، أن الحرية القليلة التي كانت تملكها قد سلبت منها.. فكم سنة سيطول عذابها في أرجاء هذا المكان الكئيب؟..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

تلك الليلة، جافى النوم جود في غرفتها في المبنى الجانبي الخاص بالضباط وبعض القادة.. لم تكن جود تغادر مركز القيادة لأنها لا تملك عائلة تعود إليها، ومنذ زمن امتنعت عن العودة لمنزل قاث بطلب منه بعد أن شعر أن تواجدها في ذلك المنزل سيؤثر على مستقبلها في الجيش، وسيجر عليها الكثير من المتاعب لاعتقاد الآخرين أنها تحظى بمحاباة القائد الأعلى.. لذا أصبحت تسكن في السكن الذي يوفره الجيش لمن هم أمثالها.. ورغم أنها حالة فريدة من نوعها، لكن الكثيرين من الجنود والضباط قد أتوا من مدن وقرى

بعيدة بأمل الحصول على حياة أفضل ودخل أوفر بالعمل في المدينة العظيمة وبالانضمام لجيشها الذي يحظى بمميزات لا تحصل عليها أي جهة أخرى في جنبات المملكة..

دارت الأفكار في عقل جود كزوابع لا نهاية لها.. قاث.. والقادة.. وهي.. كيف لها أن تتناسى العداء الذي يعاديها به بقية القادة؟.. بعضهم يبغضها بغضاً صريحاً، وبعضهم لا يكنّ لها العداء لكنه يفضّل ألا يقحمها قاث على الجيش وأجهزته.. يرون أن وجودها تلويثٌ للجيش وسمعته، وإحباطٌ لمكانته التي يفترض بها عالية لا يمسّها كائن كان ولو بكلمة..

لو لم يكن قاث هو القائد الأعلى، لتمّ رفض انضمامها للجيش بالإجماع.. وجود قاث عقبة في وجوههم للتخلص منها.. فهل سيحاولون التخلص منه لرميها خارجاً؟.. ولمَ يهمهم ذلك لهذه الدرجة؟.. ما الذي يجعلهم يستميتون بهذا الأمر؟..

سمعت طرقات هادئة على باب غرفتها، فنهضت دون وجل لتفتح الباب.. لم تكن تخشى أحداً، ولا تقلق لأي طرقات تدق بابها حتى لو قارب الليل على الانتصاف.. فتحت الباب دون تلكؤ، لتجد دارو خلفه يقف بانتظارها.. فقال لرؤية ملامحها التي فضحت هواجسها "يبدو أنك لم تذوقي لحظة نوم حتى الآن كما خمّنت سابقاً.. هل تنضمّين إليّ في مجلسي؟"

لم تمانع جود ذلك وهي تتبعه على الفور.. كان دارو مثلها لا يملك من يعود إليهم في المدينة، فأهله وعائلته تعيش في إحدى المدن النائية.. وقد عاش في هذه القاعدة منذ قام أحد رؤسائه بترقيته ونقله للعاصمة ليعمل تحت إمرة قاث مباشرة.. فور استقرارهما في إحدى شرفات المبنى على كرسيين خشبيين وبرودة تلك الليلة تثير بعض القشعريرة في جسد جود، حتى بادرها دارو قائلاً "سمعت بما دار في ذلك الاجتماع الذي حضره قاث اليوم، وبما استقر عليه القادة بشأن الترقية التي نلتِها مؤخراً.."

قالت جود بشيء من الفخر "لا يمكن لشخص أن يبزّ قاث أو يتغلب عليه.. لقد اعتراني القلق بلا سبب يذكر.."

لم تبدُ معالم الراحة على وجه دارو وهو يعلق "وما الذي ستفعلينه بعد الآن؟"

نظرت له للحظة بعدم فهم، فأكمل موضحاً "من الخطأ أن تركني للراحة مع مثل هذا القرار.. ماذا لو جاء الاعتراض هذه المرة من جهة أعلى من القادة الخمس؟.."

قالت جود باستياءٍ بالغ "حتى الآن لا أعلم لِمَ يثير وجودي الغيظ في قلوب الجميع.. قد أفهم أمر العامة مع عقليتهم المحدودة وتدني مستوى تفكيرهم.. لكن ماذا عن القادة؟.. ماذا عن الملك؟.. ألا تتسع العاصمة ولا الممالك في العالم السامي لشخص واحد من الأرض الدنيا؟.. هل أنا من سيتسبب بخراب الأرض وسقوط الممالك حقاً؟"

قال دارو بابتسامة "لا داعي لتضخيم الأمور.. لو كان الجميع يناصبك العداء كما تعتقدين لوجدت نفسك مرمية من الأرض العليا منذ اثنتي عشرة سنة.. كما قلت أنت، العامة يناصبونك العداء بسبب جهلهم ومعتقداتهم البالية.. بسبب نبوءة ساذجة أطلقها الكاهن إينار منذ قرون عديدة.. أما القادة، فهم ينصاعون للكهنة وللملك.. وهم لا يبغضونك بغضاً شخصياً لكن يسوؤهم تجاهل قاث لأوامرهم وتجاوزها بشكل علني.."

قالت جود بحدة رغماً عنها "إذن لِمَ استاؤوا للمنصب الذي حصلت عليه بالشكل الذي يجعلهم يقيمون اجتماعاً مغلقاً لمناقشة قاث في قراره ذاك؟.."

غمغم دارو "من يدري؟!.."

تساءلت جود بعد لحظة صمت "بشأن تلك النبوءة....."

لوح دارو بيده قائلاً "لا تهتمي لأمرها.."

قالت جود "ولكن.. العامة يؤمنون بها إيماناً عميقاً.. فماذا لو....."

قاطعها دارو قائلاً "رجلٌ دنيّ.. من العالم الدنيّ..... رجلٌ واحد سيصل للعالم السامي.. ورجلٌ واحد سيسقطه.."

ونظر لجود معلقاً "هذه النبوءة بكلماتها البسيطة ليست دليلاً على أي شيء.. لا يفترض بنا أن نسميها نبوءة حتى.."

وابتسم مضيفاً "ثم إنني لا أذكر كونك رجلاً من الأساس.."

قالت جود بكدر "ربما كان وصف (رجل) عاماً ويشمل الرجال والنساء كذلك.."

تنهد دارو وقال "لا تحملي همّ هذه الكلمات.. فمن أين للكاهن إينار أن يعلم بوجودك، أو بوجود أي شخص من العالم السفلي وهو ميتٌ منذ قرون؟.. العامة يبحثون عن شماعة يعلقون عليها كرههم لما هو

مخالفٌ لهم.. ولو كنتِ من مملكة أخرى، أو من طبقة أخرى تختلف عنهم لواجهت بغضاً وكرهاً مشابهاً تماماً.."

صمتت جود محاولة استيعاب تلك الكلمات وتهدئة ضيقها بها.. أهي حقاً مجرد كلمات ساذجة لا أساس لها من الصحة؟..

سمعت دارو يتسائل محاولاً تغيير دفة الحديث "ما الذي قاله لك قاث بعد الاجتماع؟.. ألم يطمئنك أن الأمور ستبقى كما هي عليه دون أن يؤثر اعتراض القادة بك؟"

هزت جود رأسها إيجاباً قائلة "لقد طمأنني بذلك، وطلب مني ألا أخذله بعد أن بذل كل ما بذله لأجلي.. عليّ أن أبذل جهداً مضاعفاً منذ الآن لأكون عند حسن ظنه بي، ولئلا يشمت بقية القادة والضباط به لأي خطأ أرتكبه.."

قال دارو وهو يرمقها بضيق "ذلك القائد الأحمق، ما كان عليه قول ذلك لك.."

وأمسك كتفها قائلاً "جود، أنت تبذلين جهداً مضاعفاً بالفعل لنيل رضى الآخرين عنك.. وهذا أكثر من كافٍ.. لقد حققت التميّز الذي توقعته وتوقعه قاث منك منذ انضمامك للجيش.. ولكن، عليك الاهتمام بنفسك قليلاً والكف عن دفع نفسك لبذل جهدٍ مضاعف عما يبذله الآخرون بالفعل.. ليس عليك أن تعيشي وسط كذبة كبيرة أن من واجبك التكفير عن أصلك ومنشؤك الذي لا يعجب سكان هذا العالم.."

نظرت له جود بصمت وهو يشد على كتفها مضيفاً "أنت أدّيتِ عملاً أكثر من رائع حتى الآن.. عليك أن تسترخي أكثر وتهتمي بحياتك.. الحياة ليست مقصورة على الجيش في هذا العالم.."

ابتسمت جود له بامتنان، وقالت "أدرك مقدار قلقك عليّ يا دارو.. لكني بخير.. ما أفعله لا يزعجني ولا يتعبني مطلقاً.. بل أنا سعيدة لأنني ألاقي توقعات القائد وتوقعاتك عني، وأنكما راضيان عني.. أما البقية، فلا أعبأ لشأنهم حقاً.."

علق دارو وهو يتراجع في كرسيه "لكن حالك لا يعجبني مطلقاً.. أنت لا تخرجين من مركز قيادة الجيش إلا للضرورة القصوى، ولا تملكين أي رفاق أو أصحاب عدا ياسان.. ليست لك حياة خارج الجيش، وهذا يقلقني بشدة.. ما الذي سيجري لك لو تم طردك من الجيش برغم كل ما يفعله قاث؟.. ألن تشعري عندها أن حياتك قد تهاوت في لحظة وأنك لم تعودي تملكين ما تعيشين لأجله؟.."

قالت جود بسرعة "لا تقلق.. حتى لو حدث ذلك، فأنا لست ضعيفة.. سأتجاوز هذا الأمر، وسأتشبث بحياتي في هذا العالم أكثر فأكثر.. لن أنكسر لأي سبب كان يا دارو.. فكن مطمئناً.."

ظل القلق بادياً في عيني دارو، فمنحته جود ابتسامة مطمئنة، ودارت ببصرها نحو الأفق المظلم الذي يعكس بعض الأضواء الخافتة من المدينة القريبة من مركز قيادة الجيش.. ما الذي سيجري لها حقاً لو تهاوت هذه الحياة في لحظة وفقدت كل ما سعت لأجله في سنواتها الاثنتي عشر في هذا العالم؟.. كيف لها أن تبدأ من جديد، وتتخذ مساراً جديداً وهي التي عاشت بعقلها وفكرها وقلبها في هذا المسار ولا تعرف غيره؟..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

لم تمضِ أيامٌ قليلة على الحادثة التي جرت لجود في السوق مع الكاهنة الهاربة هيما حتى وجدت نفسها تدخل من أسوار المعبد العالية التي لم تقترب منها قط منذ اثنتي عشرة سنة.. منذ تلك الليلة المشؤومة التي سيقت فيها بكل مهانة عبر طرقات المدينة إلى هذا المعبد حيث واجهت محاكمة قاسية سريعة لا محل للرحمة أو الشفقة فيها، وحيث كادت تفقد حياتها قبل أن يتدخل قاث كما فعل في كل مرة اصطدم فيها وجودها بتشاؤم سكان هذا العالي الذين ينكرون عليها بعض الأمن والهدوء في هذا العالم..

ورغم سوء تلك الذكرى في نفسها، فإنها لم تملك الرفض عندما تلقّت أمراً في صباح هذا اليوم من القائد قاث بالذهاب للمعبد الذي يقع شرق العاصمة، في أقرب موقعٍ من حافة الأرض، والالتقاء بكاهنها (حاكد) تمهيداً لمقابلة الكاهن الأعظم لأمرٍ مهم.. بدا أن النقاش الذي جرى بين القادة الخمس بشأنها قد انتقل إلى كهنة المعبد، وصار لزاماً عليها الالتقاء بالكاهن الأعظم ليقرر إن كانت تستحق ما وصلت إليه أم أن التغاضي عما فعله قاث أمرٌ محال.. لا تدري جود كيف سيتمكن الكاهن الأعظم من تقرير أحقيتها بهذا المنصب الذي أصبحت مقتنعة أنه لا يستحق كل هذه الضجة المقامة حوله.. هل سيستجوبها الكاهن الأعظم، أم سيختبرها بوسيلة ما؟.. كل ما تعلمه جود أن فشلها في هذا الأمر محال، وقد شدّد القائد عليها أن لا تفسد هذا الأمر لأي سبب كان، ولا تعود خائبة بأي حال من الأحوال.. لذا سارت جود بعد نزولها

من مركبتها وسط ساحة المعبد وقد شدّت عزيمتها على إنجاح هذه المهمة وألا تسمح لأحدٍ بالتسبب في خذلان قاث بأي صورة..

كان المعبد مهيباً، كئيباً، موحشاً لعينيها رغم مرور السنوات تلك على زيارتها الأخيرة.. لكن لم يكن ذلك ما يشعر به العشرات والمئات من البشر الذين احتشدوا في ساحاته وممراته المكشوفة منذ أن فتح أبوابه مع تباشير ذلك النهار.. لم يكن ذلك المعبد يكاد يخلو في أي يوم من أيام السنة من السكان الذين قدموا من أطراف المدينة ومن المدن الأخرى لإتمام صلواتهم والقيام ببعض التبرعات التي ستيسرّ الكثير من أمور حياتهم، وقد تراوحت التبرعات بين نقدية ممثلة في النقود الفضية وبعض النقود الذهبية التي ترمى في بئر عميقة وسط الساحة، وبعض التبرعات العينية الممثلة في الحيوانات والمحاصيل والأقمشة المنوعة.. ووسط الساحة تلك، رأت جود ذلك المجسم الواضح للكاهنين بالحجم الطبيعي وهما يقفان على جانبي الوعاء الضخم الذي يضمّ النار بين جنبيه كل ليلة دون اختلاف..

سارت جود متجاوزة مشاعرها القاتمة إزاء تلك الذكرى، ومتجاوزة تلك الساحة الواسعة نحو بوابة متوسطة الحجم تؤدي لساحة أصغر وإن كانت أقل اكتضاضاً بالبشر.. فمن هذه البوابة، لا يمر إلا الأشخاص الذين ينتمون للمعبد بصورة أو أخرى، أو المدعوين من وجهاء المدينة وأعيانها.. بينما يحرم المرور عبرها على العامة وسكان المدينة الأقل حظاً وغنىً من غيرهم.. سارت جود تابعة أحد الحراس نحو

غرف متفرقة في جانب تلك الساحة حيث يستخدمها بعض الكهنة كمكاتب لإدارة أعمال المعبد وكغرف استقبال الشخصيات الهامة من أعيان المدينة..

وصل بها الحارس لغرفة في جانب المكان، ذات باب خشبي ثقيل مزخرف كبقية أبواب المعبد، فطرق الباب عدة طرقات ودخل ليبلغ الكاهن بوصول ضيفته المرتقبة.. وقفت جود خارج الغرفة تتأمل ساحة المعبد والحركة الدؤوبة فيه.. كان المكان جميلاً، نظيفاً، عطر الرائحة.. ما الذي قد يدفع تلك الكاهنة المجنونة للهرب لرؤية السوق الذي لم يكن بنظافة ولا لطافة رائحة هذا المكان؟..

انقطعت أفكارها عند خروج الحارس آذناً لها بالدخول، فتناست جود تلك الكاهنة وتناست المشاعر البغيضة التي ظلت تمرح في صدرها لبعض الوقت، ودخلت الغرفة لإتمام مهمتها بأسرع ما يمكن والعودة بالأخبار السارة للقائد قاث.. لم تكن الغرفة أقل بهاءً من المنظر خارجها، بطاولة خشبية وسطها وخزائن امتلأت كتباً ومجلدات وبعض الزينة، ولوحات جميلة معلقة على الحيطان الفارغة، بالإ ضافة لكرسيين وثيرين بأطراف مزخرفة ومذهبة.. لم يكن المكان يوحي بأي تقشف، كما كانت جود تعتقد في كل أمرٍ يخص المعبد وكهنته..

ظل الكاهن الجالس خلف الطاولة يرمقها منذ دخولها معايناً للحظات طويلة، وكأنه يثمّنها ويقدّر استحقاقها لكل ما نالته في هذا العالم.. ثم التفت للحارس القريب وقال له بجفاء "غادر وأغلق الباب خلفك.. ولا أريد مقاطعة أثناء لقائي بزائرتي المهمة هذه.."

حنى الحارس رأسه موافقاً وغادر ملقياً نظرة سريعة على جود.. فيما غمر جود شيء من التوتر لم تملكه.. كانت في سبيلها لمقابلة الكاهن الأعظم، والمفترض بأن يقودها الكاهن حاكد إليه.. فإن لم يفعل ذلك مباشرة، فما سبب ذلك التأخير؟.. هل ينوي منعها من مقابلة الكاهن الأعظم؟.. هل قرر في تلك اللحظة التي قام بتقييمها فيها أنها لا تستحق مقابلة الكاهن بمكانته السامية في هذا المعبد وهذا العالم؟.. بعد أن ساد الصمت المكان والباب الثقيل يعزل الضجة التي كانت في الساحة القريبة، نهض الكاهن المسمى حاكد راسماً ابتسامة على شفتيه، واقترب منها مادّاً يده يصافحها وهو يقول "عندما أخبرني قاث بقدومك إلينا هذا اليوم، لم أظن للحظة أن تدخل فتاة بهذه الملاحة جوانب المعبد.. فكل ما تخيلته عن المجندات أن يكنّ ضخمات خشنات الهيئة وبشوارب لا تقلّ غلظاً عن بقية الرجال، وما أعلمه عن سكان العالم السفلي

أسوأ من هذا بمراحل.."

لم تبتسم جود لمزحته وصافحته متجاوزة عن كلماته التي حملت بعض الإهانة لأصلها قائلة "لابد أنك تعلم بالسبب الذي لأجله أرسلني القائد قاث إليك.. فأنا قد دعيت لمقابلة الكاهن الأعظم.."

اتسعت ابتسامة حاكد قائلاً بنبرة رضىً واضحة "بالفعل أعلم بأمر ذاك الاستدعاء.."

لم تفهم جود سبب تلك النبرة في صوت الكاهن، لكن لم يكن من طبيعتها طرح التساؤلات التي تدور في ذهنها علناً، فالتزمت الصمت وهي تجلس على الكرسي الوثير متتبعة إشارة الكاهن.. رفعت بصرها للكاهن الذي وقف على مقربة قائلاً "لقد علمت بالضجة التي أقيمت في جنبات الجيش بسبب الترقية التي حصلت عليها، ولا بد أن قاث قد تجاوز الصلاحيات التي يملكها لترقيتك بشكل استثنائي لسببٍ وجيه.."

قالت جود بضيق "ليست ترقية استثنائية.. لقد استحققت تلك الترقية لكل جهودي التي قمت بها طوال سنواتي الماضية.."

علق الكاهن قائلاً "هذا ما تظنينه.. لكن ليس هذا ما يعتقده بقية قادة الجيش، ومجلس الكهنة بالمثل.. سيكون طريقك صعباً لنيل رضى الكاهن الأعظم ومجلس الكهنة.."

عاد القلق لعيني جود وهي تفكر في هذا الأمر.. بدت نبرة الكاهن أكثر تعاطفاً وهو يستدير ويقف خلف كرسيها قائلاً "لا أدري ما أخبرك به القائد قاث بخصوص المقابلة المحددة لهذا اليوم.. لكن إليك عرضي أنا.."

ووضع يديه على كتفيها وهو يميل قرب أذنها وقال بخفوت "إن تمكنت من نيل رضاي، فأمر هذه المقابلة سيكون محسوماً لصالحك، ولصالح قاث دون أي شك.."

تساءلت جود بحيرة "ماذا تعني؟.. هل يمكنك التأثير على الكاهن الأعظم لصالحي؟"

أجاب الكاهن بابتسامة متسعة "بالطبع، بل يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك بشكل لا تتخيلينه.. فقط عليك إطاعتي.. ولعلمك، لستُ صعب الإرضاء مطلقاً.."

انتابت الحيرة جود لما قاله الكاهن، لكن حيرتها لم تطُل وهي تراه يمد يده متلمساً ما ظهر من جسدها من عنق قميصها.. عقدت جود حاجبيها باستنكار، لكن في الآن ذاته لم تُبدِ حراكاً والكاهن يزداد جرأة في

التطاول عليها.. لم تكن جود تعبأ بجسدها وما يجري له، ولم تكن تحمل همّ شرفها كامرأة وغيرها من هذه المصطلحات التي لم يكن لها معنىً في ذهنها.. كل ما أدركته في تلك اللحظة أن اعتراضها قد يجعل الكاهن يغضب ويعتبر ها إهانة، وهذا سيجعله يعاملها بعدائية كما حصل سابقاً مع رامين وغيره ممن حاولوا التطاول عليها.. وهذا معناه الوحيد أنه سيقف كعقبة في طريق حصولها على موافقة المعبد وتثبيتها في منصبها الجديد.. وهذا أمرٌ لم تكن لتسمح به بأي حال، مهما كانت التضحية.. لا يمكنها أن تفشل الآن، مع ما قد يتبع ذلك من خذلان للقائد قاث وما قد يلاقيه بسببها.. لذا التزمت الصمت بدون أي انفعال على وجهها لما يفعله الكاهن بها..

تجرأ الكاهن أكثر في تطاوله عليها وهو يبتسم ابتسامة هازئة مغمغماً "هذا جيد.. من الطبيعي أن تكون جندية مثلك أقل تشبثاً بالشرف وذاك الكلام الفارغ.. ترىٰ، كم يداً عبثت بك من قبل؟.. وهل كان لقائدك أي نصيب فيك؟"

قطبت حاجبيها وراودتها رغبة قوية في لكمه لتطاوله على قائدها، لكنها صمتت وهي تحدجه بنظرة جامدة.. ترىٰ، لو كان ياسان هنا، ألن يعترض كعادته على صمتها هذا؟.. ألن يثور لأنها أعلَت قيمة المهمة فوق قيمة نفسها؟..

تسللت يد الكاهن تحت ملابسها، فيما التمعت ذكرىٰ ياسان في ذهن جود وهو يقول لها بعينين تعكسان قلقاً بالغاً "إياك أن تتهاوني فيما يخصّ جسدك يا جود.. إياك.."

عندها، تلقائياً، امتدت يدها بسرعة خاطفة وأمسكت عنق الكاهن الواقف خلفها بقوة.. صدرت من الكاهن حشرجة وعيناه تتسعان بصدمة، وحاول إبعاد قبضتها عن عنقه وهو يدمدم بكلمات لم تفهمها.. وبعد أن أبعد يده عنها، أطلقته جود فتراجع خطوات قبل أن يرتطم بطاولة جانبية خلفه.. وقف للحظة يلهث وينظر لها بغضب واستنكار، ثم صاح "تعساً لك أيتها الوضيعة.. هل تحاولين قتلي؟"

قالت بهدوء "لن أتردد في ذلك لو حاولت المساس بي مرة أخرىٰ.."

أطلق الكاهن ضحكة عصبية وقال "أتدعين البراءة؟.. الكل يعلم أنك ألعوبة للجند.. وعليك أن تكوني شاكرة لأني قد أوليتك بعض الاهتمام.."

ثم أشار لها بإصبعه غاضباً وقال "عودي لقاث.. أخبريه أنك قد فشلت، وأن الكاهن الأعظم والمعبد كله

رافض لوجودك ذاته في هذا العالم.. عودي إليه بفشلك، ولنرَ العقاب الذي سينزله قاث بك بعد ما جرىٰ.."

كان هذا أكثر مما تطيق.. التطاول عليها أمرٌ، والإخلال بالاتفاق وتخييب أمل قائدها الذي تعتز به أمرٌ آخر.. حاولت حل الأمر سلمياً، لكن لهجة التهديد طغت علىٰ نبرة صوتها رغماً عنها وهي تقول له "لا يمكنك ذلك.."

قال الكاهن بسخرية "هل تحاولين تهديدي؟"

واستدار نحو مكتبه للوصول للجرس الذي يستدعي به حراس المعبد، لكن جود كانت قد وصلت له بخطوة واسعة وأمسكت عنقه من جديد وهي تقول بغل "وتظن أنني سأسمح لك بذلك؟"

كانت تعتصر عنقه بالفعل وهو يقاومها بضراوة.. تزايد الغل في صدرها لكل ما يجري لها بلا ذنب.. لمَ عليها أن تتحمل الإهانات والمعاملة الدونيّة؟.. لمَ عليها أن تخذل الرجل الذي منحها ما لم يمنحها حتىٰ أبويها من رعاية ورغد عيش، فقط لأنها رفضت المهانة بيد هذا الكاهن؟.. ومع الغضب الذي اعتمل في صدرها، لم تدرك أنها استخدمت قوتها كاملة إلا عندما فوجئت بالكاهن يتهاوىٰ عند قدميها بصمت.. نظرت له بذهول للحظة، ثم انحنت تتفحصه بقلب واجف.. من الوهلة الأولىٰ أدركت أنه قد مات، لكنها تمنّت أن يخيب ظنها ولو لمرة.. لكن أكد لها فحصها السريع لجسده أنه قد مات بالفعل..

نهضت جود واقفة علىٰ الفور بتوتر، وقد أراحها أنه لم يستخدم الجرس بعد.. هذا يعني أن الحرس لن يدخلوا الغرفة دون إذن كما طلب منهم قبل لحظات.. لكن حتىٰ متىٰ سيدوم ذلك الصمت؟.. لن يتجاوز الوقت أكثر من ساعة قبل أن يأتي بعض الحرس لاستكشاف هذا الصمت الغريب، ولن تقدر علىٰ الخروج من الباب دون أن تفضح أمرها.. هل تدّعي عند خروجها أن الكاهن لا يرغب بأن يقاطع أحدٌ خلوته؟.. قد يمنحها هذا بعض الوقت، لكن هل سيزيح الشبهات عنها حقاً وهي آخر من رآه حياً؟..

سمعت جلبة خفيفة قرب الباب، عندها ضاعت منها تلك الأفكار وهي تهب لنافذة قريبة وتفتحها متسللة منها بعد أن تأكدت من عدم وجود أي حارس قربها.. الآن، بهروبها هذا، فإنها قد أقرّت بالجرم الذي ارتكبته، وأصبحت المتهمة الوحيدة لما جرىٰ لذلك الكاهن الوضيع.. الحل الوحيد أمامها أن تغادر هذا المعبد قبل أن يقبض عليها أحد الحرس وتسعىٰ للعودة لقاث وشرح الأمر كاملاً له.. لابد أنه سيعينها

كعادته، ولا بد أنه سيجد لها مخرجاً من هذه الورطة الجديدة.. إنها لم تكن مخطئة.. ليس الذنب ذنبها دون شك.. لكن لِمَ تشعر بقلبها يغوص في صدرها وبمشاعرها مثقلة؟.. ألأنها تتخيل نظرة قاث المحمّلة بالخيبة؟..

سارت جود بخطوات في ظاهرها الثقة لكي تبعد عنها الأنظار، وهي تسلك طريقاً يبعدها عن تلك الساحة القريبة من غرفة الكاهن حاكد.. لكن نجاتها لم تدُم طويلاً، إذ سرعان ما تعالت صيحات من ذلك الاتجاه وقد اكتشف بعض الحراس جثة الكاهن، وبدا جلياً أنهم سيبحثون عن الفاعل، وقد يغلقون أبواب المعبد منعاً إياها من الفرار.. فتسارعت خطوات جود وهي تحاول التخفي عن الأنظار قدر استطاعتها.. اختبأت في زاوية أحد المباني حيث تخفيها شجرة كبيرة ظليلة عن الأنظار، ثم نظرت لتلك الشجرة العالية بأنفاس متسارعة.. وسرعان ما شرعت بتسلقها للفرار من البحث المحموم الذي ابتدأ في ساحات المعبد ومبانيه..

وقرب أعلى أفرع الشجرة، رمقت ما خلف السور المقارب لها والمرتفع ارتفاعاً ملحوظاً عن بقية جدران وأسوار المعبد.. كان ذلك السور يحيط بجزء داخلي من المعبد أصغر حجماً من باقي أجزائه، تعلوه الأسوار العالية التي تمنع نور الشمس عن كثير من زواياه، ويجري النهر الذي يقطع المدينة تحت أرضه ويدور حوله مع جسرين من خشب أحمر اللون نصبا على طرفيه.. زفرت جود وهي تراقب الهدوء والسكون في ذلك الجزء من المعبد مقارنة بحركة الحراس الدؤوبة في الجانب الآخر.. ربما من الخير لها الاختباء في هذا المكان حتى حلول الليل.. عندها، قد يحالفها الحظ وتتمكن من التسلل خارجة بوسيلة ما دون أن يتم القبض عليها من قبل حراس المعبد..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

بدا جسد هيما الضعيف والواهن بشكل باهت في تلك القاعة المظلمة التي لا يكاد نور الشمس يصلها إلا بشكل ضئيل أثناء النهار.. فذلك الجزء من المباني التي تسمى بالمعبد السامي معزولة عن بقية أجزاء المعبد بشكل شبه كامل بأسوار وجدران عالية تكاد تحجب نور الشمس ذاته.. بني جزء كبير من المعبد السامي

على جسر حجري يقع فوق مجرى النهر الذي يخترق المعبد شاقاً إياه لنصفين، فيمر النهر تحت أكبر ساحات المعبد وبعض مبانيه، قبل أن يبدو واضحاً للعيان حيث يجري بسخاء تحت المعبد السامي المرتفع عن الأرض ارتفاعاً بسيطاً قبل أن يصل لحافة الأرض ويهوي نحو السماء العالية في مجرى أبدي لا يكاد يتوقف في يوم من الأيام..

في ذلك المعبد الأكثر خصوصية في المكان، كان عدد الكاهنات المسخّرات لخدمته والعبادة فيه لا يتجاوز أصابع اليدين.. وفي قلب أكبر قاعات المعبد السامي، كانت هيما راكعة على ركبتيها أمام لوح ضخم احتل جانباً كاملاً من تلك القاعة، وقد نحتت عليه كلمات الكاهن الأول الذي أسس عبادتهم هذه ووضع تعاليمها الأولى.. كانت ركبتاها قد آلمتاها لطول ركوعها على الأرض الحجرية القاسية، في صلاة طويلة لا يبدو أنها ستنقضي بسرعة.. ورغم أن هذه من مهامها اليومية ككاهنة سامية، لكن هيما في الواقع كانت تصلي لأجل كابو الذي لم تعلم بما حلّ به منذ تركته ذلك اليوم في حضرة الكاهن الأعظم.. لقد استمتعت بيرن بنظرات القلق في عينيها وهي تخبرها بنبرة متشفية أن كابو قد طرد من المعبد، ورغم أن أمره لم يصل للعامة ولن يصيبه ما حاق بذلك الحارس الذي طرد سابقاً من المعبد، لكن هذا لم يكن أقل مدعاة للقلق في نفس هيما.. فما الذي جرى له بعد طرده؟.. كيف لها أن تعرف أخباره؟.. بل كيف لها أن ترسل له اعتذارها العميق لكل ما جرى له بسببها؟.. ليتها استمعت لنصائحه، وعملت بها قبل أن يفوت الوقت وقبل أن تقع الفأس على الرأس..

انشغلت هيما بصلاتها العميقة لأجل كابو، بعد أن خلا المكان إلا منها وبقية الكاهنات ينشغلن بأمور أخرى تاركينها لشأنها.. رغم محاولات الكاهنة السامية الأولى إجبارها على الخضوع للقوانين في الأيام القليلة الماضية، إلا أن حماستها تلك سرعان ما تبخرت مع شخصية هوائية كهيما.. لم تكن هيما عنيدة ولم تفرض نفسها بالقوة، لكن شخصيتها اللامبالية كانت عصيّة على أقوى الإرادات في المعبد.. ورغم أنها كفت عن مغامراتها السابقة، لكن هذا لا يعني أنها أصبحت أكثر انضباطاً وطاعة من السابق..

لم تقطع هيما صلاتها إلا عندما سمعت ذلك الصوت الذي تعالى بشيء من الخفوت من مكان قريب.. فتحت عيناً ورمقت ما يجري من النافذة القريبة، التي تطل على الساحة الداخلية للمعبد السامي بأشجاره السامقة وشجيراته المزهرة كما أغلب ساحات المعبد، وإن كانت هذه الساحة أصغر حجماً وأقل عرضة

لنور الشمس..

لاحظت هيما ذلك الجسد الذي بدا أنه هبط من إحدىٰ الأشجار، وسرعان ما اشتعل فضولها مع رؤية ذلك الشخص الذي تلفت حوله بتوتر ظاهر وهو يحاول تجاوز الساحة بخطوات مرتبكة.. نهضت هيما متجاوزة آلام ساقيها مع صلاتها الطويلة تلك، وأسرعت تغادر تلك القاعة عبر الباب الذي يصلها بالساحة.. وعلىٰ النور الضعيف القادم من أعلىٰ الجدران العالية، التقت العينان وذلك الشخص يبدو أكثر توتراً وارتباكاً لرؤيتها مما كان عليه سابقاً.. فاتسعت عينا هيما وهي تهتف "أهذه أنتِ؟"

أدركت جود هوية الكاهنة التي تقف عند مدخل الساحة في المعبد الداخلي الذي وجدت نفسها وسطه.. ولما فتحت هيما فمها لتهتف بأمر ما، أسرعت إليها جود وكممت فمها وهي تقول بعصبية "هلاّ صمتّ ولو للحظة؟.."

اتسعت عينا هيما بدهشة لتصرف جود التي تلفتت حولها، ثم جذبت هيما لجانب من الساحة تغطيه الأشجار وينأىٰ بهما عن النوافذ المطلة علىٰ المكان، وقالت بعد أن رفعت يدها عن فمها "لا تصدري أي ضجيج لئلا تضطرّيني للقيام بتصرف لا أحبه.."

قالت هيما بتعجب "ما الذي جرىٰ؟.. ما الذي جاء بك لهذا المكان المنعزل، ومن فوق الأسوار العالية لا غير؟.. هذا تصرف يثير الريبة بالفعل.."

زفرت جود بحدة وهي ترمق ما حولهما بتوتر، ثم قالت مبتعدة خطوات "هذا ما لا شأن لك به.. عليك الصمت فقط مقابل ألا أؤذيك.."

تشبثت هيما بملابسها بقوة شديدة قبل أن تتمكن جود من الابتعاد وقالت بانفعال "أنت هاربة، ألست كذلك؟.. لا يمكنك الرحيل وتركي هنا.. لو حاولتِ ذلك، فسأفضح أمرك للجميع فور رحيلك.."

كانت جود مدركة أن هيما لا تعلم بما جرىٰ بينها وبين الكاهن، فقالت مقطبة "تفضحين ماذا؟.. ما الذي تظنين أنني قد فعلته؟"

قالت هيما بإصرار "لا أدري.. لكن تسللك مستترة بالظلام لهذا الجزء المحظور من المعبد، ونظرة الارتباك الواضحة في عينيك، تدلني علىٰ أنك هاربة.. والجرم الذي ارتكبتِه سيتضح طال الوقت أم قصرُ.. لذا، من الأفضل لك عدم تجاهل أمري.."

سمعتا صوت صيحة صدرت من بعيد، من خلف الأسوار العالية للمعبد السامي.. اقتربت جود ناظرة من نافذة قريبة تطل على الساحة بحذر بحثاً عن أي عين قد تلمحها، وتمتمت "يبدو أنني ورطت نفسي بالفعل.."

فقالت هيما بلهفة "لن تجدي خيراً مني يدلك على مخابئ المعبد ودهاليزه.. يمكنني إخراجك من هذا المكان بكل سهولة دون أن تضطري لمواجهة حرس المعبد.. بشرط أن تصطحبينني معك.."

نظرت لها جود مقطبة وعلقت "ما دمت تعرفين وسيلة للخروج، ما حاجتك إليّ؟"

صمتت هيما للحظة، ثم قالت "لم أفكر مطلقاً بالهرب خشية العقاب، رغم أنني خططت له مراراً وتكراراً في ذهني.. لكن الآن، وحراس المعبد منشغلون بأمرك، لن يعبأ شخص بهروبي.. وهذا قد يمنحني بضع ساعات للابتعاد قبل أن يدركوا اختفائي ويبدؤوا البحث عني.."

لم تقتنع جود بقولها، فأضافت هيما بابتسامة "كما أن وجود من يساعدني على الهرب دون أن يخشى على نفسه ليس أمراً سيئاً مطلقاً.."

علقت جود "لستِ هينة أبداً.. لكن ما سبب رغبتك بالخروج؟.. وما الذي دعاهم لتقييد حريتك في هذا المكان؟"

قالت هيما "تلك حكاية تطول.. سأخبرك بها بعد أن نخرج من هنا.."

لم تملك جود إلا أن ترضخ لهذا الأمر، وتستعين بهيما الأكثر علماً بالمعبد ودهاليزه وأماكن تواجد الحراس فيه.. لقد ساءت أمورها في هذا المعبد أكثر مع كل لحظة تمضي، وما عاد بإمكانها التهاون في خروجها منه دون أن تصل أيدي الحراس إليها.. عليها العودة لقاث، مهما استلزم ذلك منها القيام بأمور تنكرها في المعتاد..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

لم تكن جود تظن أنها قد تسلك تلك الممرات الأكثر سرية في المعبد المقدس الذي يجهل العامة خباياه وزواياه.. لم تكن تلك ممرات سرية بالتحديد، بل ممرات غير مطروقة ومهملة بحيث يصبح الاختباء بين

ثناياها سهلاً يسيراً مع بعض الحذر والتخطيط.. سارت هيما بنشاط وخفة أمام جود التي لم تكف عن التلفت حولها بتوتر ظاهر خشية أن تراهما إحدى الكاهنات أو أحد الحرس الذين غابوا عن هذا الجزء من المعبد دون أن تدرك خاصية المكان الذي هي فيه.. وبعد خطوات، سمعت هيما تهمس لها "كفي عن التلفت.. أنت تثيرين توتري.."

قالت جود "بل أنا متوترة بالفعل.. كيف لنا أن نخرج دون أن نقع في أيدي الحرس ونحن في أعمق جزء من هذا المعبد؟"

قالت هيما بثقة "لأنك لا تعرفين شيئاً عن هذا المعبد.. لقد سبرت أغواره منذ كنت في السابعة من عمري، وأعرف الكثير عنه مما يجهله غيري.."

ثم أضافت بعد لحظة صمت "في الواقع، لقد أمضيت اليومين الماضيين أخطط لهروبي المؤقت من هذا المكان.. كنت أرجو أن أتمكن من الرحيل، ومن لقاء كابو الذي طرد من المعبد بعد الحماقة التي ارتكبتها في السوق ذلك اليوم.."

أدركت جود أن هيما تعني العامل التابع للمعبد الذي رأته برفقتها في السوق منذ عدة أيام.. لكن لم تكن تملك ترف الشفقة على حاله وهي في وضعٍ أسوأ مما جرى له بمراحل.. وجدت هيما بعد عدة ممرات وحذر كبير تقودها نحو درجات تخترق السور وتنخفض عدة أمتار أسفله حيث الرؤية أصعب والظلمة أشدّ مما هي عليه على سطح الأرض.. علقت جود متلفتة حولها "الأفضل لنا أن نعثر ما نضيء به طريقنا.."

قالت هيما بسرعة "بل الأفضل أن ننتظر حتى تعتاد عيناننا على الظلام.. استخدام أي نوع من الأضواء سيدلّ على موقعنا بسهولة تامة.."

كانت الدرجات تنخفض لمسافة غير قصيرة، ومع كل متر تقطعانه، كانت جود تنتبه لذلك الصوت الذي يتردد بخفوت يعلو مع كل لحظة تمضي.. وعند نهاية الدرج الحجري، أدركت أن ما كانتا تتجهان إليه هو مجرى النهر الذي يسير في موضع منخفض تحت المعبد السامي وتحت أجزاء عديدة من المعبد المقدس قبل أن تتهاوى قطراته عبر الحافة نحو الفضاء ونحو الأرض الدنيا في شلال دائم لا يعرف الهدوء..

وقرب المجرى، امتد طريق حجري ضيق لم تتردد هيما في السير عليه وهي تقول بصوت خفيض "هذا الطريق يقودنا عبر مسافة لا بأس بها من المعبد.. لن نواجه أي حراس أو كهنة هنا.. لكن علينا الحذر

عندما يرتفع مجرى النهر ليصل لمستوى سطح الأرض، عندها سنغدو ظاهرتين لأي عين تترقبنا دون شك.."

لم تمانع جود في السير خلف هيما دون أن تشك في نواياها ولو للحظة.. مع التماع عينيها ولهفتها الواضحة، أدركت جود أن تلك الفتاة كانت تنتظر الخلاص بأي وسيلة ممكنة.. ولما تمثّل لها الخلاص بهيئة جود الهاربة من مصيرها الأسود، فإن هيما تشبثت بها بشكل لا يمكن تصديقه ورفضت أن تمنح تلك الفرصة وسيلة للهرب من أصابعها الملهوفة..

طال بهما السير وقتاً طويلاً في المجرى المنخفض للنهر، حتى وصلتا لموضع ينحسر فيه السقف عن النهر ويكشف السماء التي أصبحت صفراء زاهية مع اقتراب الشمس من الأفق الغربي، وساحات المعبد القريبة تبدو بوضوح حيث الحراس المترصدون لجود يملؤون المكان.. ولم يكن من سبيل لتجاوز تلك المساحة إلا بوقوف هيما مراقبة فيما تتسلل جود عبر النهر غامرة جسدها في مياهه ومتمسكة بالطريق الحجري بأطراف أصابعها.. وعند اقتراب أحد الحراس، وبإشارة سريعة من هيما، كانت جود تنخفض وسط النهر لتختفي تحت مياهه وتكتفي بالإمساك بحجارة جوانبه المغمورة بالمياه.. ولحسن الحظ، انشغل الحراس بتأمل جوانب المعبد وساحاته وغرفه عن التدقيق في مجرى النهر ورؤية من يختبئ في قلبه..

استغرق تجاوز هذا الجزء من النهر وقتاً طويلاً من جود حتى وصلت للجانب الآخر الذي يخفيه سقف منخفض عن الأعين.. وهناك، بدأت جولة جديدة من المراقبة سامحة لهيما باللحاق بها بالوسيلة ذاتها.. لم تكن الاثنتان تملكان وسيلة أخرى للهرب من المعبد دون أن تلاحقهما الأنظار.. ولم تتوقع جود ولو للحظة أن هذه الوسيلة ستكون ناجحة بالفعل في إخراجها من المعبد دون أن تسقط في أيدي حراسه وكهنته وتلاقي مصيراً تبغض حتى التفكير فيه..

وبعد أن تجاوزتا أسوار المعبد العالية عبر مجرى النهر ذاته، وتضاءلت الأسوار مع ابتعادهما عنه مسافة آمنة، تجرأتا على مغادرة مجرى النهر والوقوف في ذلك الطريق الجانبي مبللتان متعبتان ترتجفان برداً وقلقاً..

تبادلت الاثنتان النظرات، ثم استدارتا وسارتا متخيرتان الطرق الجانبية متسللتين بين جنبات المدينة التي بدأت تلملم مشاغلها وتركن لهدوء الليلة القادمة.. وبعد أن غاب المعبد كاملاً عن عينيهما خلف المنازل والقصور المحيطة بالمنطقة، أطلقت هيما ضحكة سرعان ما تحولت لنوبة ضحك متواصلة.. نظرت لها جود

بتعجب وشيء من الاستياء.. الآن، مع هربهما معاً، أصبحت جود تحمل جريمة جديدة على عاتقها.. لم يكن أمر الكاهن حاكد كافياً لتجد نفسها متهمة بتهريب كاهنة مقدسة لا غير.. فحتى متى ستغوص في هذا المستنقع الآسن للمعبد؟.. ومن سيصدق ما قد تقوله عما جرى من تجاوزات بيد الكاهن المقدس وكون الكاهنة قد سعت للهروب بنفسها بإصرار؟.. من الأسهل للعامة تكذيب مثل هذه الحقائق والتشبث بفكرة أن تكون هي المذنبة الوحيدة.. خاصة مع تاريخ عدم الاستلطاف والكراهية المعلنة بينها وبين عامة الشعب منذ مجيئها..

ومع الشمس التي اقتربت حتى لامست أطراف الجبال التي تبدو عند الأفق الغربي وتذبذبت أشعتها بشكل ملحوظ، استطاعت جود أن ترى هيما بوضوح للمرة الأولى.. فلم تملك نفسها أن تساءلت بدهشة "ما الذي جرى لك؟.. تبدين أكثر ضعفاً ونحولاً من آخر مرة رأيتك فيها، رغم أن الفارق لا يعدو بضع أيام منذ لقائنا السابق.."

كفت هيما عن الضحك وغمغمت "أنت تبالغين.."

لم تكن هيما تملك ما تقوله إزاء مثل هذا التعليق.. هل تحدثها عن قلقها وذعرها الذي لم يخفت للحظة لمصير كابو الذي تركته مذنباً أمام مجلس الكهنة بسبب رعونتها ورغباتها الحمقاء؟.. هل تخبرها أن تلك الظلمة وذاك السجن يقتلها ببطء في كل لحظة تمضي؟.. أن الوحدة والسكون يخنقانها حتى أصبحت لا تشعر بالهواء يدخل رئتيها وتكاد تفقد وعيها كلما حل الظلام وساد السواد الحالك أرجاء ذاك الجزء المنعزل من المعبد؟..

نظرت هيما حولها بانشراح تام متجاوزة عن تلك الأفكار التي لا تجلب لها إلا الكآبة، ثم قالت لجود "والآن، ألن تخبريني بما فعلته حقاً في المعبد؟"

لم تجد جود غضاضة في البوح بجرمها، عالمة أن هيما لن تجد وسيلة لخيانتها الآن بعد ابتعادهما عن المعبد.. وبعد أن أبلغتها بما جرى بكلمات موجزة، للدهشة بدا الارتياح على وجه هيما وصاحت "هذا رائع.. كنت أعلم أن من هي مثلك لا يمكن أن ترتكب جرماً بغيضاً مطلقاً.."

قالت جود باستنكار "ألا تعتبرين قتل كاهن جريمة؟.. ما الذي يدعوك للثقة بي وأنت بالكاد تعرفينني؟"

قالت هيما بثقة "تصرفك معي وأنت تجهلينني في السوق أكبر دليل على طهارة سريرتك.. وما سمعته عنك

سابقاً من الكهنة ومن خدم المعبد دلّني أنك تبذلين جهوداً مخلصة لتحظي باحترام قائد مثل قاث، وهو المعروف عنه أنه لا يوالي الخونة والفاسدين.."

دمدمت جود بغير اقتناع "والكاهن....."

امتعض وجه هيما وهي تقول بسرعة "كان يستحق ذلك.. مع حقارته التي أبداها نحوك، لك أن تتخيلي أنه لم يوفّر خادمة ولا حتى كاهنة من الكاهنات المستجدات من أفعاله الحقيرة تلك.. الكل يعلم بحقيقته، لكن لا تجرؤ إحدى الفتيات على شكواه لمجلس الكهنة لأنه جزء منه، ولا يوجد ما يمكن إثباته من تلك الأفعال الخسيسة.."

تذكرت جود، مع ذكر مجلس الكهنة، أولئك الكهنة السبع الذين وقفوا أمامها وحاكموها في الليلة البائسة التي أورثتها كوابيس لعدد من الليالي بعدها.. هل كان حاكد ضمن ذلك المجلس في تلك الليلة؟.. هل رمقها باحتقار وخوّل تلك الجماعة من المعارضين التنكيل بها ورميها في النار تطهيراً عن الدنس الذي جلبته معها لهذا العالم؟..

الآن، مع ما سمعته من هيما، خفت إحساسها بالذنب حيال ما جرى، وبقي قلقها مما ستؤول إليه الأمور بعد الآن..

عادت هيما تتساءل بلهفة "وما الذي ستفعلينه الآن؟.. هل ستغادرين المدينة؟.. ما رأيك بأن نرحل معاً من هذه المدينة الكئيبة؟.."

تساءلت جود بدهشة "أليس الخيار الطبيعي هو عودتك لعائلتك؟.. أم أنك لا تملكين عائلة في هذه المدينة؟"

صمتت هيما للحظة، ثم قالت "بلى، عائلتي تملك قصراً من أكبر القصور في هذه المدينة وفي أقرب موضع من قصر الملك.. لكن عودتي إليهم حمقٌ لا يمكنني القيام به.."

تساءلت جود "أتخشين أن يعيدوك للمعبد؟"

هزت هيما كتفيها مجيبة "أخشى هذا، وأخشى ما قد أسببه لهم من متاعب مع كهنة المعبد.. ثم إنني لم أغادر أسوار المعبد لأجد نفسي خلف أسوار القصر.."

والتفتت لجود مضيفة بأمل "لنغادر معاً ونرى هذا العالم المتسع وحيدتين بعيداً عن الفساد والبغض الذي

يسكن قلوب أهل قانار.."

قالت جود عابسة "لا.. بل سأعود لقيادة الجيش، وسأصارح قاث بكل ما جرى.. إنه سيكون في عوني، ولن يسلّمني لكهنة المعبد مهما جرى.. لا يمكنني الرحيل الآن، وحياتي معلقة بهذه المدينة وهذا الجيش.."

قالت هيما باعتراض "ما الذي ستستفيدينه من هذه المدينة التي يشتمك أهلها ليل نهار؟.. صدقيني أنت أفضل حالاً بعيداً عنها مئات الأميال.."

هزت جود رأسها نفياً بإصرار.. لا يمكنها أن تتخلى عن مكانتها وعن سنواتها الماضية التي ذرفت فيها عرقاً غزيراً لتحصل على ما حصلت عليه.. لا يمكنها أن تتخلى عن الأفراد القليلين الذين تعرفهم في هذا العالم كله.. بدونهم، كيف لحياتها أن يكون لها أي طعم أو معنى؟..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

حينما رفع قاث بصره عن أوراقه التي انشغل بها انشغالاً كلياً، دهش لرؤية ذلك الواقف أمام مكتبه وكأنه نبت من الفراغ.. تراجع قاث في كرسيه وشبك كفيه متسائلاً "ما الذي جرى؟.. ليس من المعتاد رؤية أحدكم في مكتبي دون إعلامي بهذا مسبقاً.."

لم يجبه الرجل المسربل بالظلام الذي هيمن على أغلب جوانب الغرفة ما عدا مصباحاً جانبياً وضع على طاولة المكتب حيث نثر قاث أوراقه.. فأضاف قاث مقطباً "بل كيف تمكنت من تجاوز حارسي دون أن يبلغني بقدومك؟.."

قال الرجل وهو يميل على قاث "لم يكن أي أمرٍ ليمنعني عنك في هذه الليلة.."

نظر قاث لابتسامة الرجل التي بدت عندما ألقى المصباح ضوءه على جزء من وجهه، وعقله يعمل بسرعة للتكهن سبب هذه الزيارة المصحوبة بابتسامة هذا الرجل.. كانت الابتسامة مريبة للناظر إليها، ولم يكن قاث أحمقاً لتتوه منه تلك العلامات الواضحة.. فنهض بحزم وقال "إن لم تخبرني بسبب هذه الزيارة، فسآمر بطردك من مكتبي في الحال.. هذا ليس وقت زيارات، وقدومك ليس مرحّباً به في الوقت الحالي.."

علق الرجل بسخرية "وهل يستدعي ذلك طردي؟.."

وتقدم من قاث بثقة شديدة، لكن قاث لم يحرك ساكناً وهو يتأمل ما يفعله ذلك الرجل بحيرة.. لم يكن ذلك الرجل يتصرف بمثل هذه الثقة بالمعتاد، ولم يكن رجلاً يُعتدّ عليه في الأمور التي تتطلب حزماً وتصرفاً سريعاً.. لكن الآن، فإنه يرى أمامه رجلاً آخر.. رجلاً تمتلئ عيناه بثقة شديدة وكأنه هو صاحب القول الأعلى في هذا اللقاء، ويقترب منه بحزم وعزيمة واضحين وكأنه لا يهتم لكل ما يجري حوله..

مد قاث يده بخفة نحو مسدسه صغير الحجم الموضوع في فراغ خاص تحت طاولته قرب جسده وفي متناول يده، لكنه فوجئ بالرجل يقترب منه دفعة واحدة، فيرتطم به بخفة هامساً في أذنه بسخرية "لطالما وجدتك تثير الغيظ بثقتك التامة في نفسك وفي مكانتك.. ألم يدُر بخلدك يوماً أن هذا كله يمكن أن ينقضي في لمحة واحدة؟"

اتسعت عينا قاث بدهشة وصدمة شديدة، وتجمدت نظراته على ذلك الرجل الذي تراجع خطوة واحدة وهو يعدل رداءه العسكري، قبل أن يمنحه ابتسامة أخيرة ويغادر بصمت وسكون كما جاء..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

عندما بدا مركز قيادة الجيش لعيني الفتاتين من مبعدة، بكشافاته المبهرة وأنواره التي تجعله واضحاً في هذه الليلة مدلهمة السواد، وقفت هيما فجأة ونظرت لجود بتوتر قائلة "أأنت واثقة من قرارك هذا؟"

قالت جود بعزم وهي تواجه هيما "طبعاً واثقة.. لا يمكنني أن أندم للجوئي لقاث.."

غمغمت هيما "عندما تسقطين في ورطة مميتة، سيكون الوقت قد فات للندم.."

ثم أمسكت ذراعي جود قائلة بانفعال "أنا سأرحل من هذه المدينة.. لكني لن أفعل ذلك إلا عندما تفتح الأبواب مع فجر الغد.. وحتى ذلك الوقت، سأنتظرك.. سأقضي الليلة قرب البوابة الشمالية القريبة من قيادة الجيش.. وسأنتظرك حتى تطلع شمس الغد.. فإن غيرّت رأيك، أو واجهت أي مشكلة مع رجالات الجيش، فعودي وانضمي إليّ ولنغادر هذا المكان.."

قالت جود هازة رأسها "لن أفعل.. فارحلي ولا تقلقي لشأني.."

قالت هيما بإصرار "لكني سأنتظرك حتى ارتفاع الشمس، وإن حدث ذلك، فسأرحل دون إبطاء.. لذا،

انتبهي لنفسك، وكوني بخير سواء التقيت بك مجدداً أم لا.."

منحتها جود ابتسامة محدودة لم تعبر عن أي راحة أو سعادة.. من يدري ما الذي سيجري لكلتيهما حتى صباح الغد؟.. هل يمكنها أن ترجو نهاية أفضل لهما مع نهاية هذه الليلة الغريبة؟..

استدارت جود وتركت هيما واقفة تراقبها بقلق واضح.. كانت قد ارتاحت لجود رغم أنها لم ترها إلا لوقت قصير في كل مرة.. لو كان الأمر بيدها، لمنعت جود من العودة للجيش ليتم القبض عليها، وأجبرتها على الرحيل معها مغادرتين هذه المدينة الثقيلة على نفسها بعد كل ما جرى.. مع جود، يمكن لهيما أن ترحل دون أسف أو قلق لما سيجري لها في هذا العالم المجهول بالنسبة لها، فجود ستوفر لها الحماية الجزئية والأمان النسبي في هذه الرحلة.. أما الآن، فهي مجبرة على الرحيل وحيدة مع الضعف الذي تشعر به في التعامل مع ما تجهله..

أما جود، فقد سارت نحو مركز القيادة وعقلها تتناهبه الأفكار.. لم تكن واثقة بما جرى في قيادة الجيش بشأنها، وإن كان ما جرى في المعبد قد وصل للقيادات العليا أم لا.. هل أصدروا أمراً بالقبض عليها ومحاكمتها؟.. لا تدري، ولا تملك ترف السؤال.. لذا كان الحل الوحيد هو التسلل للقاعدة بعيداً عن أنظار الجند والحراس حتى تصل لقاث وتحتمي به.. لم يكن ذلك سهلاً ويسيراً، خاصة مع الحراسة المكثفة التي تتحلى بها القاعدة ليل نهار.. لكن الأمر بالنسبة لجود كان أكثر سهولة مما قد يتخيله المرء.. فهذا هو منزلها، والمكان الذي قضت فيه أغلب سنواتها الاثنتي عشر الماضية.. لقد جالت في القاعدة وتفحصت جوانبها وحفظت خباياها منذ صغرها.. لذا لم يكن صعباً عليها العثور على الثغرة التي تبيح لها التسلل بعيداً عن البوابة الرئيسية وعن الجند الذين يحرسونها.. وفور تجاوز ذلك النطاق، فإنها شدت جسدها وسارت بخطوات عادية متجنبة الأماكن التي تلقي عليها الكشافات بنورها مضيئة الساحة الواسعة التي تتوسط القاعدة والمباني حولها.. من مبعدة، لا يمكن التفريق بينها وبين بقية الجند.. وعليها أن تدور خلف المبنى الرئيسي حتى تصل للنافذة التي ستقودها إلى مكتب قاث..

لا تستطيع دخول المبنى حيث يراها الجند المناوبون بوضوح، وحيث فرصة القبض عليها كبيرة مع الأنباء التي وصلت للقاعدة بخصوصها دون شك..

دارت جود خلف المبنى الرئيسي متطلعة حولها حتى وصلت لنافذة عريضه تتوسط الجهة الخلفية منه،

وتطل على ساحة واسعة تقام فيها تدريبات الجنود في المعتاد.. اقتربت من النافذة وتطلعت عبرها بحذر.. كان الظلام شبه مخيم على غرفة المكتب التي تخص قاث، لكن النور الجانبي في الغرفة دلّها أن قاث لم يغادر بعد، أو أنه خرج لشأن بسيط وسيعود لمكتبه بعدها لإنهاء المعاملات الخاصة بالجيش قبل أن ينتهي يومه في الساعات الأخيرة من تلك الليلة..

تسللت جود من النافذة بخفة محاذرة إصدار صوت يجذب لها انتباه الحراس.. عليها مقابلة قاث قبل أن يقبض عليها أي جندي أو حارس.. فلو قبضوا عليها، لن يتمكن القائد من التصرف بشأنها لأن كهنة المعبد لهم الكلمة العليا في هذا الأمر، وهم لن يسمحوا لها بالفرار بفعلتها قط.. هذا يكسر الحاجز الذي وضعه الكهنة بينهم وبين الشعب، والذي يمنحهم حصانة كبيرة ضد القانون.. لكن بمقتل فرد منهم، ستتحطم تلك الحصانة ويدرك الشعب أن الكهنة ليسوا فوق البشر.. لذا عليهم الرد بقوة، وعليهم الرد بسرعة ودون رحمة لمحو تلك الفكرة قبل نشوئها في عقول أفراد الشعب العادي..

لكن من الغريب رؤية غرفة مكتب القائد مظلمة في هذا الوقت.. هو معتاد على السهر لساعات طوال في الليالي التي يقضيها في القيادة، ولا يأوي لغرفته الخاصة في مبنى القادة إلا قبل الفجر بقليل، ليعود بعد ساعات قليلة ليمارس عمله بكل نشاط قد لا يملكه الأكثر شباباً منه.. والأكثر غرابة من هذا الظلام المهيمن على غرفة المكتب، رؤية ذلك الكرسي الذي سقط جانباً بعبث غريب على هذا المكان، حيث لا يقبل القائد إلا النظام والترتيب..

شعرت جود بقلق أكبر وهي تتلفت في المكان بحثاً عن أثر لقاث، ثم تقدمت من أحد جوانب الغرفة الذي يحجزها عنه خزانة خشبية عريضة ملئت ببعض الكتب المتنوعة، والتي تفصلها عن باب جانبي يضم خلفه حماماً واسعاً يليق بمنصب قائد الجيش..

لكن لم تكد جود تقترب من الخزانة، حتى لفت نظرها جسدٌ مختبئ قرب مكتب القائد، فاستدارت بسرعة وقد اختلت ضربات قلبها للحظة.. من الذي يترصد لها في مثل هذا الوقت وهذا المكان؟.. وعندما ألقت نظرة ملية على ذلك الجسد تهاوت جود أرضاً فاقدة الإحساس بجسدها وبساقيها تحتها وهي تحدق بالمنظر أمامها.. فعلى بعد أمتار قليلة، وجدت قاث أمامها.. لكنه لم يكن هو.. لم ترَ جود، طوال سنواتها السابقة، قاث وقد تخلى عن انتصاب قامته وثبات وقفته.. لم ترَه قط وقد تهاوى أرضاً بهذا الشكل المزري.. لم ترَه قط

وقد غزا الشحوب وجهه وتبعثرت خصلات شعره واختلّ هندامه المرتب عادة.. لم تره قط وقد سالت الدماء وأغرقت جسده وجانباً من وجهه مندفعة من ذلك الجرح الذي اخترق صدره في أكثر من موضع..

بدأ جسد جود بالارتجاف وهي ترمق ما أمامها بعدم فهم تحول لاستيعاب تلاها ذعر عارم ووحشة غريبة غزت مشاعرها بشكل لم يكن بإمكانها أن تطيقه.. بدأ عالمها يتهاوى منذ اللحظة التي قام قاث فيها بترقيتها لمنصبها الجديد.. فهل تحققت مخاوف دارو بالفعل؟!..

شعرت جود بتهاوٍ في حياتها كعجلة تدور بلا توقف.. ولكن.. بدون هذه الحياة، لا حياة لها.. وبدون قاث، لم يعد للحياة أي معنى..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

الفصل السادس
أرض الهوام: من هي؟

لم تكن محاولات رادال، برفقة غيدان سابقاً ووحيداً الآن، ناجحة في كثير من الأحيان.. كان نقل سكان القرية الذين لا يقل عددهم عن ٣٠٠ شخص أمراً ليس بالهين، خاصة مع هذه الأرض الطينية التي تعج بالمستنقعات وحيث الرحيل عبرها لا يقل خطورة عن خوض تلك الغابات الكثيفة بحيواناتها الضارية.. كان على رادال إيجاد موقع ملائم للعيش، بعيداً عن أي قرى قريبة تفادياً للمشاكل التي قد تنشأ بين المجموعتين، بالإضافة لتحديد أنسب وسيلة لنقل هذه الجموع في أقصر وقت ممكن قبل الموسم المطير الذي أوشك على الحلول.. كانت زخات المطر الخفيفة التي بللت شعره وملابسه في هذا اليوم، وبللت فراء الشاس بشكل كامل، خير دليل على أن ذلك الموسم لم يعد بعيداً جداً..

في ذلك اليوم اتخذ طريقه جنوباً ماراً بالنهر ومتجاوزاً الغابات التي تليه محتلة رقعة واسعة من تلك الأرض.. ومع انتصاف النهار، وصل لمنطقة مسطحة عبارة عن سهول واسعة عشبية مع بعض التلال التي تحيط جوانبها وبعدد محدود من الأشجار الباسقة في عدة أماكن منها.. وفي أكثر من موقع، جرت جداول مائية متوسطة الحجم مانحة المكان مصدراً مائياً مضموناً.. بينما بدت التربة التي تفحصها عن قرب رطبة كفاية للزراعة لكن لم تكن طينية بلزوجة مشابهة للأرض التي يعيشون فيها..

تأمل رادال الموقع بانشراح عالماً أن بحثه على الأغلب قد وصل لنهايته، ثم امتطى ظهر الشاس ليقوم بدورة واسعة حول المكان.. كان يريد التأكد من جميع البقاع المحيطة بالسهول خشية وجود قرى قريبة قد تنازعهم المكان.. لكنه لم يعثر إلا على طريق ترابي يقطع جانب السهول، ولاحظ قافلة صغيرة من العربات تقطع ذلك الطريق بهدوء.. فلم يتردد في الهبوط بالشاس في موضع قريب من تلك القافلة، واقترب من أصحابها مستفسراً عن أقرب القرى أو المدن من هذه السهول..

كان ذلك الطريق الترابي يقودهم لإحدى القرى المعروفة في المنطقة، كما أوضحوا له، والتي تمر بها القوافل في طريقها لمدينة تبعد عن هذه السهول عدة أيام.. عندها شدّ رادال رحاله لتلك القرية مستطلعاً ومتفحصاً

كي يقرر إن كان بإمكانه إبلاغ غيدان وأيصر بأمر هذه البقعة أو صرف النظر عنها.. عثر على القرية المنشودة بسهولة من موقعه العالي، ولاحظ أنها لا تختلف كثيراً عن قريته.. فالمزارع تنتشر على جوانبها، وبعض حيواناتها قد انطلقت ترعى في التلال المحيطة بها، ولا يبدو للناظر إليها أنها قرية قد تثير نزاعات مع جيرانها بسبب المراعي أو المياه أو لأي سبب آخر..

مع بحثه وتدقيقه في القرية وحواضرها، لم يتمكن رادال من العودة لقريته إلا بعد مضيّ عدة ساعات من هذه الليلة.. كانت هذه هي المرة الأولى التي تطول فيها رحلته حتى هذا الوقت، لكن النتيجة تستحق.. الآن، يمكنه أن يحمل الأنباء السارة لغيدان وأيصر، ويبدأ معهما الجزء الثاني من الخطة بإقناع أهل القرية بالرحيل للموقع المنشود والخلاص من هذا المكان غير مأسوف عليه..

بعد أن أودع الشاس في الحظيرة، سار يجر أقدامه بتعب وإرهاق عائداً لكوخه.. سيحمل الأنباء السارة إلى غيدان، لكن بعد أن يحصل على نوم طويل وعميق دون مقاطعة.. ويتمنى في هذا اليوم أن يحظى بالهدوء اللازم لذلك.. لكن أمنيته تلك كانت بعيدة عن التحقيق، وهو يرى سيرا جالسة أمام باب كوخه ونظراتها تكاد ترمي بشرر يحرق الكوخ وما فيه..

زفر بضيق وهو يتقدم منها مرغماً.. لم تكفّ سيرا يوماً عن إذهاله باستماتتها وإلحاحها المزعج.. تلك الفتاة تتفوق على نفسها في كل مرة، ولا يبدو أن عزيمتها ستخفت رغم مرور السنوات..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

قبل ثلاث سنوات

تشبثت سيرا بذراع رادال قائلة بتوسل "ولمَ لا يمكنني المجيء معكم؟.. ألست كبيرة كفاية؟"

قال رادال بضيق وهو يسحب ذراعه من يدها "لا.. قطعاً لست كبيرة كفاية.. والآن عودي للقرية يا سيرا ولا تعرضي نفسك للخطر بالبقاء وحيدة هنا.."

لاحظت سيرا نظرات الفضول والتعجب من جماعة الرجال التي صاحبت رادال في رحلة الصيد هذه، لكنها لم تعبأ لما قد تبدو عليه أمامهم وهي تتمسك بقميص رادال بشدة صائحة "لا.. لن أسمح لك بتركي كما تفعل في كل مرة.. سأصحبكم هذه المرة، ولن أكون عالة على أحد.."

قال رادال بشدة وحنق "سيرا.. إن لم تعودي الآن فلن أتردد في عقابك على عصيان أمري.. عودي الآن ولا تستثيري غضبي.."

ودفعها خطوة للوراء ثم استدار مبتعداً دون أن يلتفت مجدداً.. وقفت سيرا محتقنة الوجه شاعرة بنوع من الإهانة، قبل أن تركل الأرض بغضب وتستدير عائدة للقرية القريبة مدمدمة "لمَ تصدّني في كل مرة؟.. لمَ؟"

فور أن أكملت الجماعة من الرجال سيرهم مبتعدين عن القرية، تنحّى غيدان برادال قائلاً بابتسامة "لمَ تمنعها من القدوم معك في كل مرة؟.. ألا تشفق عليها؟"

قال رادال بغيظ "أتمزح يا غيدان؟.. كيف أحضر فتاة معنا لرحلة صيد خطرة كهذه؟.. وفوق ذلك أن تكون مجرد طفلة.."

ابتسم غيدان معلقاً "لم تعُد طفلة كما أرى.. لقد أصبحت في سنّ مناسبة لتتعلق بك شغفاً كما هو واضح.. فلمَ تسعى لصدّها مثيراً غضب وحسد بقية الرجال؟"

قال رادال مقطباً "أتظنني يمكن أن أضع يدي عليها عابثاً دون هدف؟.. لست حقيراً لهذه الدرجة.."

ضحك غيدان قائلاً "لم أظنك بريئاً بهذه الصورة.. الكل يعلم أنك لا تتمنع عن النساء عادة، وهن يرتمين عند قدميك كالفراش يرتمي في النار دون خوف.. فلمَ اختلف الحال مع هذه الفتاة وهي أجمل من وقعت عيناي عليه ومن طينة مختلفة قطعاً عن بقية النساء؟.."

صمت رادال مقطباً باستياء، ثم قال "المختلف أنها لا تسعى للعبث.. تشبثها العميق بي يوحي بأنها ستقودني لحياة ألتزم فيها بها.. وليس هذا ما أسعى إليه.."

قال غيدان باستنكار "وهل هناك أجمل من الالتزام بفتاة صغيرة السن وباهرة الجمال كهذه؟"

قال رادال عابساً "ليس هذا ما أسعى إليه يا غيدان.. وأنت خير من يدرك ذلك.."

صمت غيدان للحظة متفكراً فيما قاله رادل، ثم تمتم "ألم تيأس بعد؟"

قال رادال بسرعة "لا.. قطعاً لا.. وأنا واثق أن السماء سترسل لي الخلاص الذي أسعى إليه.."

فعلق غيدان ساخراً "أخشى أن يسقط الخلاص على رأسك فتلقى حتفك بالتبعية.."

ثم ابتعد تابعاً بقية الرجال وهو يقول ملوحاً بيده "أرجو أن تصدّ الفتاة بصراحة لكي تكفّ عن نسج الآمال حولك.. لعلها تلتفت لأحدنا وتتعطف عليه بدل تضييع شبابها خلف شخص أحمق مثلك.."

✻✻✻✻✻✻✻✻✻

في فجر اليوم السابق، تسللت سيرا نحو الحظيرة القريبة قبل طلوع الفجر، وقادت الشاس الخاص ببارا بعيداً نحو جانب من جوانب القرية.. أطعمت الشاس أرنباً اصطادته في اليوم السابق، وقامت بعد ذلك بوضع اللجام في حلقه تهيئة لامتطائه والانطلاق مع مطلع الشمس.. ظلت واقفة ترمق الحظيرة التي تبدو لها من مبعدة، بانتظار رؤية رادال وتأهباً للحاق به خلسة ومعرفة ما يفعله في رحلاته التي أصبحت تتكرر بشكل غريب هذه الأيام وتدوم ساعات النهار بطوله..

عادة لا يستغرق رادال سوى ساعات معدودات في رحلات الصيد التي يقوم بها، كما أن رحيله باستخدام الشاس ينفي عنه هذا الأمر تماماً.. فلماذا يتغيّب في هذه الأيام ليوم كامل دون سبب معقول؟.. لكنها أخيراً اكتشفت السر.. أو أن هذا ما تسعى إليه..

لِمَ يصرّ رادال على صدّها في كل مرة تحاول التقرب منه فيها؟.. لِمَ يحبط محاولاتها للفت نظره بمعاملتها كأنها طفلة تستحق الشفقة؟.. ربما كانت طفلة بالفعل قبل عدة سنوات، لكن لا يمكن لأي امرئ أن يشك بذلك الآن.. إنها في أزهى سنوات عمرها، التاسعة عشر، وهي مكتملة الأنوثة، بل بأنوثة طاغية لو صح القول.. نظرات الرجال من حولها في القرية تدلها على ما تمتلكه من جاذبية ومن جمال يدير الرؤوس، وهو أمرٌ تحسدها عليه بقية الفتيات.. لكن الفتيات من سكان الأرض هذه لا يمكن أن يمتلكن جمالاً كجمالها المشعّ بهاءً.. فهي من العالم العالي.. العالم السامي حيث اختصّها ذلك العالم بكل ما تلذ له العين وتشتهيه النفس.. تشتهيه نفس أي رجل إلا رادال..

رادال أيضاً من العالم السامي، وسيرا موقنة أن هذا هو السبب الذي منحه جاذبية طاغية لعينيها لا تكاد تقاومها.. إنها لا تملّ من النظر في عينيه، ولا تملّ من تأمل ملامح وجهه وتفاصيل جسده القوي.. وتتمنى في يوم من الأيام أن تحقق حلمها بأن تكون زوجته ورفيقته.. لكن رادال حطم آمالها مرة بعد مرة.. إنه لا يكاد يراها، ولا يكاد يعيرها اهتماماً إلا بما يخص معيشتها في القرية وتدريباتها التي لا تكاد تنقطع.. فما السبب الذي يجعله عزوفاً عنها وقد كان بإمكانه نيلها منذ أمد طويل؟..

السبب الأكيد كما تظن سيرا هو في رحلاته الغريبة هذه.. لا بد أنه يلاقيها.. تلك المرأة التي سلبت لبّه

وأعمته عن جمالها.. لابد أنه يعشق امرأة غيرها، ويلاقيها سراً بعيداً عن أعين الآخرين..

لكنها ستراها.. وستعرفها.. والويل له ولها عندها..

انتبهت لقدوم رادال في تلك اللحظة، فاشتعلت حواسها وهي تخفي نفسها خلف جدار الكوخ القريب مربتة على أنف الشاس لئلا يصدر صوتاً يجذب له الأنظار.. تقدم رادال من الحظيرة وفتح بابها، فلاحظت سيرا وقوفه للحظة عند مدخل الحظيرة متلفتاً حوله بتقطيبة.. ربضت في مكانها بحذر وهي تراقبه عاقدة حاجبيها الجميلين.. في البدء، ستنتزع شعر تلك المأفونة من جذوره، ولنرَ كيف يمكن لرجل أن يحب امرأة أبشع من دجاجة بلا ريش.. وبعدها، لن تتردد في قتلها ودفنها في هذه الأرض الطينية.. ولو حاول رادال الدفاع عن تلك المأفونة فلن تتردد سيرا في اقتلاع عينيه عقاباً له على تجاهلها..

لا.. لن تجرؤ على إيذاء رادال ولو قليلاً.. فلنتناسى أن سيرا لا تقدر على إيذائه حتى لو رغبت بذلك، ولنركز على العاطفة القوية التي تشعر بها وهي تراقب ملامحه.. إنها واثقة أنه سيعود إليها.. لابد أن يعود إليها بعد أن يزول كل ما يفرّق بينهما.. وتلك المرأة المخادعة هي من يحول بينها وبينه دون شك..

دخل رادال الحظيرة، فربضت سيرا في موقعها بانتظار خروجه مع الشاس الخاص به.. لم يكن بقاؤه في الحظيرة لبعض الوقت مستغرباً، لذا لم تساورها الشكوك وهي تمتطي ظهر الشاس بتأهب وشيء من اللهفة.. لكن طال بقاؤها أكثر من اللازم، حتى لمحت الشمس تشرق عند الأفق ونورها يضيء القرية وجوانبها لتبدأ حركة القرويين ظاهرة مع بداية ذلك النهار..

ترجلت سيرا من ظهر الشاس، وركضت نحو الحظيرة بقلق لتفتح بابها وتطل باحثة عن رادال.. ما الذي سبب تأخره هذه المرة؟.. لكن كانت الإجابة واضحة أمامها في الحظيرة الخالية إلا من الشاس الخاص بغيدان، وبضع خراف وماعز بالإضافة لقليل من الأحصنة والأبقار التي عزلت في جانب الحظيرة.. دارت سيرا في أرجاء المكان بعينيها، ولم يكن لها ألا تلاحظ اختفاء الشاس الخاص برادال واختفاءه معه دون أي أثر.. عندها أدركت أن رادال قد غادر الحظيرة من الباب الآخر، الذي لا يستخدم عادة، وإن لم تلمح طيران الشاس بعد خروجهما من الحظيرة أثناء مراقبتها في الوقت السابق.. هل غفلت عنه وهي تحدق في باب الحظيرة المقابل لها؟..

غادرت مسرعة عائدة للشاس، وامتطت ظهره وهي تلكز بطنه لتدفعه للارتفاع.. ضرب الشاس الهواء

بجناحيه، وارتفع سريعاً نحو السماء لتقوده سيرا في دورة واسعة حول القرية والحظيرة المقامة في جانبها.. بحثت بعينيها سريعاً عن هدفها، ثم رفعت بصرها نحو الأفق وبحثت عن أي أثر قد يدلها للجهة التي رحل إليها.. أين أختفى؟.. كيف رحل بهذه السرعة دون أن تلاحظه؟.. هل أدرك أنها تراقبه، أم أدرك أنها تسعى للحاق به؟..

وبعد عدة محاولات وفشل ذريع، عادت غاضبة حانقة للقرية التي لم تكن بعيدة عنها كثيراً.. وبالطبع، لم يعُد رادال هذه المرة إلا في وقت متأخر من هذه الليلة، وكأنه تعمد التأخير نكاية بها..

كانت سيرا تقضم أظافرها قرب باب كوخه وتهز قدمها بعصبية طوال ساعات تلك الليلة بانتظار عودته ومواجهته بالحقائق التي تظن أنها اكتشفتها، رغم كل محاولات بارا لإعادتها لكوخها والكفّ عن انتظاره.. لكنها في كل مرة تطرده مكررة ألا شأن له بما يجري.. لقد سئمت هذه الألعاب الصغيرة التي تدور بينها وبين رادال.. لن تسمح له بالاستهانة بها.. ولن تسمح له باستغفالها بأي صورة.. من يظنّ نفسه؟.. كيف له أن يفضّل امرأة أخرى عليها؟.. كيف له أن يتجاهلها بهذه الصورة؟.. لقد طفح الكيل، وضاق صدر سيرا حتى كادت تنفجر في بارا في آخر مرة أتى لثنيها عن البقاء قرب كوخ رادال..

وبعد أن التهمت سيرا نفسها غيظاً وحنقاً، لمحت رادال يقترب من كوخه دون أن يحمل صيداً على كتفه، ودون عذر ملائم لتأخره ذاك.. هبّت سيرا واقفة أمام باب الكوخ معترضة طريقه وهي تعضّ شفتها السفلى بغيظ وقهر.. ولما لاحظ رادال وجودها تساءل بهدوء "ما الذي تفعلينه هنا يا سيرا؟.. القرية قد خلدت للنوم، وأنت مصرّة على انتظاري في مثل هذا الوقت؟"

قالت بحدة "وكيف لي أن أخلد للنوم مع غيابك المريب هذا؟.. أتهزأ بي؟"

قال رادال باستياء "وهل طلبت منك الانتظار؟.. ما الذي دفعك لذلك دون سبب معقول؟"

صاحت بحنق بعد أن فاض بها الكيل "لقد كنت أنتظر عودتك، لأعرف ما تفعله.. لأعرف من هي تلك التي تتركني لأجلها.."

وقف رادال للحظة بحيرة ظاهرة، لكن حيرته ساءت سيرا أكثر وهي تشك بأنه يحاول إيهامها بعكس ما تراه بعينيها.. فقالت بغضب "من هي؟.. من تكون تلك المرأة التي تتركني لأجل قضاء بعض الوقت معها بعيداً عن الأعين؟"

زالت حيرة رادال شيئاً فشيئاً حتى ندّت عنه ضحكة صغيرة، قبل أن يقترب من كوخه قائلاً "فلتكن من تكون.. وما شأنك بذلك؟"

حاول العودة لكوخه وتجاوزها، لكنها جذبته من ذراعه وأجبرته على مواجهتها صارخة "أنا لن أسمح لك بذلك.. رادال، أنت تستهين بي وتظنني طفلة.. لكني لن أسمح لك باختيار امرأة أخرى غيري.. لو كنتُ قبيحة، أو قميئة الشكل لكان الأمر مفهوماً.. لكن أن ترفضني رغم كل ما أمتلكه، فهذه وقاحة منك لن أقبلها قط.."

حدق بها رادال بحدة وقد انفعل بشدة لقولها، وقال بغضب "أنت مجرد طفلة، وإلا ما رفعتِ نفسك فوق الأخريات فقط لأجل جمال وجهك.. من تظنين نفسك؟.. أتظنين أنك تستطيعين إجباري على الانصياع لك فقط لأسعدك؟.."

صمتت سيرا مع غضبه المفاجئ، لكنه لم يتوقف بل صاح محتداً "إن ظننت أنني سألتفت لطفلة فارغة العقل سيئة التصرف وفوق ذلك لزجة كذبابة، فأنت واهمة.. من أختاره ومن أرفضه هو شأنٌ خاصٌ بي.. وأمرك لا يهمني في شيء البتة.."

تراجعت خطوة منصدمة لما قاله، وهي المرة الأولى التي يتعمد الإساءة إليها فيها.. المرة الأولى التي يصفها بتلك الصفات القاسية، وهو أمرٌ لم تتمكن من ابتلاعه بسهولة..

كادت دموع سيرا تتدافع من عينيها للقهر الذي تشعر به وهي ترى رادال يتعمد إهانتها.. يتعمد تصغيرها والاستهانة بها، حتى ظنت في لحظة أنه سيصفعها على وجهها لشدة الغضب البادي على وجهه.. لكنه لم يفعل، واكتفى بتلك الإهانات التي صبّت على رأسها جاعلة إياها ترتجف غضباً وحنقاً..

استدارت سيرا وركضت مبتعدة بغضب تاركة رادال يغمغم زافراً "عسى أن تكفّ عن الإلحاح بعد هذا.. يا لها من عنيدة.."

ودخل كوخه يجرّ قدميه متعباً، فيما اندفعت سيرا إلى الحظيرة عوضاً عن العودة لكوخها الذي لم يكن بعيداً عن كوخ رادال.. لم تنتبه لبارا الذي كان يراقب شجارهما بصمت من نافذة كوخه، لكنه لم يستطع الاستمرار في صمته وهو يراها تندفع إلى الحظيرة فتقود الشاس خارجاً وتمتطيه دون لجام.. لحق بها بارا صائحاً "مهلاً.. إلى أين ستذهبين وحيدة في هذا الليل؟.."

لكن سيرا لم تجبه وهي تتشبث بعرف الشاس وتدفعه للتحليق بها متجاوزة بارا والكوخ والقرية كلها نحو الأفق متجاهلة اعتراضات بارا الحانقة.. كانت بحاجة لبعض الوقت تقضيه وحيدة بعيدة عن هذه القرية.. بحاجة لاستعادة هدوئها والتفكير ملياً في حياتها.. بل بالأحرى بحاجة لنزع رادال من قلبها ومن عقلها.. تباً له.. من يظن نفسه؟..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

اقتحم بارا كوخ رادال دون أي يعبأ برد فعل الأخير على ذلك، فوجده يتناول بعض الطعام مما تتركه بعض النسوة في القرية على طاولته عادة.. رفع رادال بصره قائلاً دون أن يخفي استياءه "ما الأمر؟.. الوقت متأخرٌ جداً على الشجار، وأنا أكثر إنهاكاً للخوض فيه.."

قال بارا بحنق "ينطبق هذا القول عليك أنت.. لمَ تتشاجر مع سيرا في مثل هذا الوقت؟.. وها هي قد غادرت بالشاس دون أي اعتبار لما قد يجري لها.. عليك اللحاق بها.."

علق رادال بضيق "وما الذي يجبرني على ذلك؟.. هل أنا من يلاحقها بعصبيتها وغضبها غير المبرر هذا؟"

صاح بارا حانقاً "لكنها غادرت في هذا الوقت المتأخر وحيدة.. من يدري ما الذي قد يحدث لها وهي بعيدة عن القرية؟.. ألم يمكنك تطييب خاطرها بأي كلمة حتى لو كانت جوفاء وتجاوز هذه المشكلة التي تتكرر كل يوم بشكل ممل؟.."

قال رادال زافراً "عليك أن تقدّر أنني الأكثر مللاً من أيكما.. لديّ مشكلة سيرا التي ترفض الاقتناع بكل ما أقوله، ولديّ مشكلتي معك وصراخك الموجه نحوي كلما جاءتك سيرا باكية.. فمتى سننتهي من هذا؟"

انتبه بارا في تلك اللحظة إلى خطئه في توجيه غضبته نحو رادال.. ليس له الحق في إجبار رادال على إطاعة نزوات شقيقته، وليس له الحق في لوم رادال على نوبات عصبية سيرا ومزاجيتها.. عندها تراجع بارا عن هجومه وإن لم يملك نفسه أن تساءل عابساً "ما الهدف من رحلاتك اليومية هذه؟.. أنت تتعامل بسرية تثير شكوك أي شخص يرى ما أنت عليه الآن.."

قال رادال وهو يعود لتناول عشاءه "ليس من شأنك.."

تساءل بارا بإلحاح "بل هو كذلك.. أين تختفي في كل يوم تغيب فيه عن القرية؟.. لا أرى معك أي صيد يذكر، لذا لا تحاول استعمال هذه الحجة.."

قال رادال ساخراً "لست بحاجة لاستعمال أي حجة.. ولو كنت مصرّاً للحصول على إجابة، فانطلق إلى أيصر.. قد يكون بالمزاج الكافي لتحمل إلحاحك والإجابة على أسئلتك.."

دهش بارا لذكر اسم أيصر في هذا الموضوع.. راودته الشكوك بخصوص أي أمر قد يقوم به رادال إلا أن يكون متعلقاً بذلك الرجل الذي يدير القرية منذ زمن بعيد.. عندها لم يتردد في مغادرة الكوخ دون كلمة أخرى والتوجه لكوخ أيصر للحديث معه مع ثقته بأنه لم يخلد للنوم بعد.. رادال لا ينشغل بتوافه الأمور، فما الأمر الجلل الذي شغله بهذه الصورة؟..

وأمام أيصر، باح بارا بكل شكوكه وتساؤلاته دون تردد.. لم يكن أيصر عصبي المزاج ليخشاه أحد، ورغم ذلك كان حازماً بما فيه الكفاية لتيسير أمور القرية، مستعيناً بخبراته وعمره الذي قارب السبعين إلا قليلاً..

ولما فرغ بارا من حديثه، ابتسم أيصر ابتسامة خفيفة معلقاً "وما الذي يهمك في شأن رادال لتبحث فيه بهذه الصورة؟.. أنت ما فتئت تصرّح أنك تبغض ذاك الرجل، فما سبب بحثك في أموره؟"

قطب بارا مجيباً بتبرير "أنا أبغض تصرفاته، لا أبغضه هو شخصياً.. ثم إنني أشعر أنه يخفي عنا أمراً جللاً، ولولا أنه ذكر اسمك فيما يخص هذا الأمر، لظننت به الظنون دون ريب.."

غمغم أيصر "يبدو أنك تبغضه حقاً.."

ثم رفع بصره نحو بارا مضيفاً "لكن ما لا تعرفه، أن بغضك هذا ليس خالصاً.. هناك مشاعر عديدة تتناهبك في الأوقات التي تتعامل فيها مع رادال، لكن عقلك الواعي يستنكر مثل هذه المشاعر ويهيؤها بهيئة خلاف ما هي عليه حقيقة.."

علق بارا باستياء "ما الداعي لكل هذه الألغاز؟.. ألا تنوي الإجابة عن سؤالي؟.."

لم يكن أيصر يملك ما يمنعه من إجابة السؤال، وكان يثق ببارا وبعقله الواعي الذي يحكّم الأمور قبل التصرف بها.. لذا، لم يجد غضاضة في إخباره بكل ما دار بينه وبين رادال وغيدان في ذلك اليوم، وبسعي الرجلين للبحث عن موضع آمن للقرية لولا أن تناهبت الحمى جسد غيدان وأقعدته عن مواصلة البحث حتى هذه اللحظة..

لم يعلق بارا إثر سماعه حقيقة ما يجري، لكنه شعر بشيء من السوء لصراخه على رادال قبل قليل.. صمت خافضاً رأسه للحظة، ثم قال بعد انتهاء أيصر من حديثه "ولِمَ لم يطلب رادال عوني؟.. أنا أملك شاساً مثله، ويمكنني توسعة رقعة البحث وإنهائه بأسرع مما يمكن لفرد واحد أن يفعل.. فلمَ استثناني من هذا الأمر؟"

قال أيصر بابتسامة "وهل كنت ترغب بمعاونته حقاً؟"

رفع بارا بصره إليه مجيباً "كنت أريد معاونة هذه القرية التي آوتني وأحسنت إليّ طوال السنوات الماضية.. لست جاحداً لهذه الدرجة"

ربت أيصر على كتفه وقال "لو كنت كذلك، لاعترفت بفضل رادال عليك.. ورغم ذلك، أظنك بحاجة للحديث معه بخصوص معاونته في البحث.. ولا أظنه يرفض ذلك مع غياب غيدان.."

ثم لوّح بإصبعه مضيفاً "ولا تنسَ إبقاء الأمر سراً في هذه الأوقات.. لا نريد الاستعجال في طرح الأمر على القرويين قبل موعده.."

هز بارا رأسه موافقاً وخرج من الكوخ بشيء من الضيق.. لمَ يصرّ الجميع على الانحياز لرادال؟.. ما الذي فعله ذلك الرجل القاسي لهم ليجعلهم يكنون له هذه المشاعر وهذا الامتنان؟.. هذا شيء ربما لن يفهمه بارا قط..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

لم تكن الشمس التي تبدو في بعض الأحايين وسط الغيوم المتكاثفة بشكل أبدي قد أشرقت بعد عندما غادر رادال كوخه.. كان قد حظي بنوم هادئ وعميق طوال ساعات الليلة الماضية، مما أشعل جسده نشاطاً وحماساً مع استيقاظه هذا الصباح.. لم ينتبه لغياب سيرا عن القرية وهو يتوجه نحو كوخ أيصر بحماس واضح.. كان الصمت الذي ساد كوخ بارا قد أوحى له بأنها قد عادت ليلاً دون شك، وإلا لأشعل بارا المكان ضجيجاً قلقاً عليها.. وأمام أيصر، وغيدان الذي حضر الاجتماع مع تعافيه بشكل جزئي من الحمى التي أصابته، أدلى رادال بعرضه واصفاً الأرض التي اختارها كمقر جديد للقرويين ومركز جديد للقرية.. أسهب في وصف السهول وما يحيط بها، وتفصيل الموارد التي يمكنهم الحصول عليها من تلك الأرض

التي تختلف اختلافاً كلياً عن الأرض التي يعيشون عليها.. قد يكون ذلك المكان بعيد بعداً تاماً عن مجرى النهر، لكن ذلك يعدّ نعمة لا نقمة في حالتهم هذه..

فكان تعليق أيصر على ذلك القول حذراً وهو يقول "الأجدر بنا تفحص المكان بصورة أوفر وأشمل.. نقل هذا العدد من البشر ليس سهلاً، وتنطوي عليه مخاطر كبرى أفضل عدم التعرض لها دون تأمين الطريق والمكان تأميناً تاماً.."

قال غيدان بحماس "لكن تلك السهول قد تكون هي مرادنا فعلاً بعيداً عن هذه البقعة التي تعجّ بكل المخاطر التي قد يتعرض لها بشري.. أرى ألا نتأخر في عرض الأمر على القرويين واتخاذ الخطوات اللازمة للرحيل بأسرع ما يمكن.."

هز أيصر رأسه معترضاً، فألح غيدان قائلاً "لا تنسَ أن موسم الأمطار قد هلّت بشائره بالفعل.. ولن يطول الوقت قبل أن تنهمر المياه غزيرة على رؤوسنا.. ألن يكون ترحالنا أكثر صعوبة وسط تلك الأجواء؟"

أجاب أيصر "هذا هو السبب الذي يدفعني للتريث في هذا الأمر.. ليس من مصلحتنا الرحيل في هذا الجو العاصف، وما يتبعه من أجواء قارسة عندما يحل الشتاء.. علينا المكوث في موقعنا الآمن هذا حتى نتجاوز هذين الموسمين ويهلّ الربيع وهو الموسم الأكثر ملائمة لمثل هذه الرحلة.."

اعترض غيدان بسرعة "هذا وقت طويل جداً.. لا أريد أن أنتظر لرؤية ما يحل بالقرية في الموسم المطير.. علينا الرحيل في أسرع وقت ممكن، الآن أو غداً على أكثر تقدير.."

بدا الاستنكار واضحاً على وجه أيصر، فقال رادال متوسطاً بين الاثنين "ما رأيكما بأن أصطحب أيصر معي لرؤية ذلك الموقع بعينيه؟.. عندها قد يكون أكثر اطمئناناً لما ستمر به القرية في هذه الرحلة ويزول القلق عن نفسه.."

هز غيدان رأسه موافقاً بشدة، فيما قال أيصر مفكراً "لا أرى مانعاً من ذلك.. لكن عليكما أن تلتزما بحكمي بعدها دون اعتراض.."

لم يملك الإثنان الاعتراض على ذلك، وسرعان ما اصطحب رادال أيصر على الشاس الخاص به، وأصرّ غيدان على مصاحبتهما باستخدام الشاس الآخر رغم كونه لم يتعافَ بعد بشكل كلي من مرضه..

وصل الثلاثة للسهول بعد رحلة طويلة وقد انتصف النهار وتغلغلت أشعة الشمس بقوة بين الغيوم.. وفور هبوط الشاس، وقف أيصر على الأرض الندية التي تختلف عن أرضهم الطينية اللزجة، وتأمل المكان الواسع الزاهي بالألوان المشرقة.. كان الهدوء تاماً في الموقع، وحفيف الأوراق على الأشجار القريبة بفعل نسمة هادئة مرت بهم أجمل ما لامس أسماعهم.. ولم يكن أمام أيصر إلا أن يعجب بهذا المكان الهادئ وباختيار رادال.. اعتراضه الوحيد كان على بعد المكان.. فالمسافة التي قطعوها في بضع ساعات على ظهر الشاس ستستغرق أياماً سيراً على الأقدام..

ورغم أن الثلاثة قد عزموا على أن لا تطول رحلتهم هذه إلا ليوم واحد، لكن استغرقهم تفحص الأرض وتقرير أنسب المواقع للقرية المستقبلية يومين كاملين، ومع فجر اليوم الثالث، أعلن أيصر أنه قد قرر أخيراً العودة مع وعد بأن يحدث أهل القرية بجدية حول الانتقال لهذا المكان الأوفر في المعيشة والأمان..

ابتسم رادال برضىً، خاصة مع الانشراح البادي على وجه غيدان بعد أن تحققت جهوده أخيراً بعد عناء.. ولما امتطى غيدان الشاس، قال رادال "اصطحب معك أيصر وعودا للقرية.. سأقوم بجولة واسعة في المكان قبل أن أتفحص الجزء الشرقي من النهر والمستنقعات القريبة.. أريد الاطمئنان أن منسوب المياه لم يرتفع لمستويات خطيرة بعد خاصة مع الأمطار التي بدأت بشائرها في الأيام الماضية.. وفور عودتي، أتمنى أن أجد القرية كاملة قد اتفقت على رأي واحد واستعدت للرحيل.."

قال غيدان بحماس "لا تُطل غيابك.. مع انقضاء هذا اليوم، ستكون كل الأمور قد تحددت وموعد مغادرتنا القرية قد أزِف.."

غمغم أيصر "أنت متفائل.."

فقال رادال "لن أبطئ عليكم كثيراً.."

ارتفع الشاس بغيدان وأيصر تاركاً رادال وسط السهول.. وفيما راقب رادال رحيلهما بصمت، كان مدركاً في نفسه أن غيدان كان شديد التفاؤل مقارنة بالواقع.. لن يكون الانتقال سهلاً، والأصعب من ذلك هو إقناع القرويين بالرحيل..

ستكون أياماً صعبة.. لكن المحاولة تستحق دون شك..

✻✻✻✻✻✻✻✻✻

لم تكد سيرا تكف عن البكاء منذ جلست وحيدة على فرع تلك الشجرة السامقة في الليلة التي هربت فيها بالشاس الخاص ببارا.. كانت قد وصلت لموقع بعيد من القرية، خشية لحاق الآخرين بها ورؤيتهم لما حلّ بها.. ووسط هذه الغابة الشاسعة ذات اللون الأخضر الكئيب المقارب للسواد، هبطت بالشاس غير آبهة لخطورة بقائها في هذا المكان وهذه الساعة.. وتركته يبحث عن طعام يتغذى عليه وهي واثقة أنه لن يبتعد عنها وسيظل قريباً حتى تقرر العودة.. إن قررت ذلك بالفعل.. ففي هذه اللحظة، كانت العودة للقرية تعني أن تلقى نظرات الضيق والاستياء من رادال، أو تستمع لتقريع بارا بخصوص سوء اختيارها ورفضها السابق اتباع نصائحه بهذا الشأن.. لا.. ليس في مقدورها المرور بهذا ولو بعد عام..

ورغم كره سيرا للبكاء، وما ينتج عنه من انتفاخ في عينيها واحمرار أنفها وتبعثر جمالها، لكن الدموع ما فتئت تنحدر على خديها بإصرار.. والضيق الذي يعتصر صدرها لم يخفت حتى مع مرور الساعات عليها وهي جالسة في ذلك الموقع وحيدة.. ما الذي ستفعله الآن؟.. كيف لها أن تتناسى كل السنوات التي لاحقت فيها رادال بعينيها؟.. كيف لها أن تزيح هذا الحب القوي من صدرها؟.. إنها لا تقدر على كرهه، حتى لو حاولت ذلك.. تريد بالفعل أن تكرهه، وأن تبغضه من أعماق قلبها.. لكن الحب الكبير الذي يملؤها لا يمكن أن يتحول لبغضٍ بين ليلة وضحاها.. لا يمكن أن تأمل أن يتغير حالها بين ساعة وأخرى..

بعد ساعاتٍ طويلة لم تغمض فيها عينيها، وهي تتناوب بين البكاء بحسرة والصمت بكآبة شديدة، نظرت للسماء التي بدأت تشرق بالنور وهي تتنهد بمرارة واضحة.. كيف لها أن تعود بعد أن تبعثرت كرامتها بقسوة؟.. بل هل سيعبأ أي شخص لغيابها، عدا عن بارا الذي يشعر حيالها بمسؤولية كونها شقيقته؟.. هل أدرك رادال في الساعات الماضية أنها ليست في القرية، أم أنه أمضى ساعاته سعيداً لتخلصه منها ومن إلحاحها؟.. ومع كل تلك الأفكار، كان بؤس سيرا يزداد والدموع تترقرق في عينيها من جديد..

انتبهت سيرا من أفكارها مع أولى ساعات الصباح على صوت صفيرٍ حاد يعلو في المكان.. عقدت حاجبيها وهي تستمع للصفير، ونوعاً ما راودها خاطر أن يكون رادال هو صاحبه.. هل يحاول معرفة موقعها من الشاس الواقف قريباً منها؟..

وقفت في مكانها تتلفت حولها بحثاً عن أثر من رادال على ظهر الشاس الخاص به، والصفير يتردد بإلحاح شديد.. قطبت سيرا محاولة فهم ما يجري دون أن ترى أثراً من رادال أو حتى بارا يقترب منها.. ولما تعالى الصفير للمرة الرابعة، فطنت أن الصوت يأتي من موقع ما فوقها.. رفعت بصرها بدهشة مغمغمة "من الأعلى؟!.."

لم تكد تتمّ جملتها حتى سمعت الشاس يصدر صيحة ملبياً الصفير، ورفرف بجناحيه بقوة.. فهتفت سيرا "مهلاً.."

لكن الكائن ارتفع برشاقة في الجو وحلق بسرعة خاطفة من بين الأشجار قبل أن يفرد جناحيه ويطير بسرعة فائقة نحو صاحب الصفير، ونحو الغيوم التي تشكل غطاءً كثيفاً في السماء، تاركاً سيرا تقف على فرع الشجرة شاحبة نوعاً ما وهي تهمس "تباً.. ما الذي فعلتَه؟.."

ونظرت حولها للغابة السوداء التي تعجّ بكافة أنواع الحيوانات المفترسة، والتي تدرك سيرا مخاطر وجودها قربها وحيدة دون حيوانها الأليف، ودون سلاح إلا خنجر صغير لا يفارق حزامها.. عضّت شفتها السفلى حتى أدمتها وهي تحاول رؤية الشاس الخاص بها من بين الغيوم الكثيفة، ومحاولة معرفة سبيلها للخلاص من الورطة التي أوقعت نفسها فيها دون قصد..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

(الفصل السابع)
مملكة الغمام: مصير فتاة ووطن

لم تكد جود ترفع بصرها عن وجه قاث وهي تحدق به ذاهلة.. لا تدري كم لحظة، كم ساعة، كم يوماً مر عليها وهي تحدق في وجهه بصدمة عنيفة وعقل غائب.. ورغم الضجة التي أثيرت خارج باب المكتب، إلا أن جود لم تفقه ما يجري حولها ولخطورة بقائها في موقعها صيداً سهلاً لمن يلاحقها..

مع الصدمة التي هزت بدنها لرؤية مصرع قاث، ومع الارتياع الذي غمرها وهي ترىٰ جسده الصريع، فإن إحساسها غاب عما حولها حتىٰ عندما فتح باب الغرفة بشيء من الضجيج، ولم تنتبه حتىٰ عندما قبضت عليها الأيدي بقوة وقسوة وصياح أحد الجنود يصلها باهتاً ضعيفاً "ما الذي ارتكبته أيتها اللعينة؟.."

مع ذلك التساؤل، عاد لجود بعض إحساسها بجسدها، فتنصّلت من قبضته بتخبط واقتربت من قاث منحنية علىٰ جسده الدامي، وحاولت أن تتفحصه بحثاً عن أي نبض أو خفقة في صدره.. ورغم أن ذلك الجندي قد جذبها خلفاً بقسوة، إلا أن اللحظة التي تمكنت فيها من لمس قاث جعلتها تدرك أن شكوكها لم تكن مخطئة..

لقد رحل قاث.. رحل الرجل الذي استندت عليه مقاومة ضعفها لسنوات طوال.. تعساً لمن ارتكب مثل تلك الجريمة.. تعساً لمن تجرأ علىٰ تحطيم هذا الرجل العظيم..

وجدت جود عدة أذرع تمسكها وتوقفها قبل أن تجد قيداً حديدياً يحيط يديها خلف ظهرها، فيما ظهر أحد قادة الكتائب بعد أن قام أحد الجنود باستدعائه ورمق جود قائلاً بنبرة كارهة "الكلب القذر يعود ليعضّ يد مولاه.. وأنتِ لستِ أكثر من كلبة قذرة.."

استعادت جود إحساسها بما حولها، ونظرت لقائد الكتيبة هاتفة "أظننتم أنني من فعل هذا؟.. محال.. أنا لم أرتكب إثماً قبيحاً كهذا.."

قال القائد بسخرية "ومن يمكنه أن يثبت ذلك؟.. ألم تقتلي ذلك الكاهن قبل بضع ساعات لا غير؟"

أدركت أن الأخبار قد وصلت قيادة الجيش بما جرىٰ في المعبد، وجاء مقتل قاث كضربة قاضية لها.. فيما

الذي تستطيع فعله لإثبات براءتها؟.. صاحت منفعلة وهي تحاول التخلص من قيودها "هذا أمرٌ آخر.. ذاك الكاهن الحقير استحق الموت.. أما قاث، فلا يمكن أن تمتد يدي إليه بسوء.. إنه من رعاني، وأنا...."

فوجئت بلطمة تصيب وجهها وقائد الكتيبة يقول بغيظ "لهذا السبب بالذات تستحقين القتل.. نسيتِ كل ما فعله قاث لأجلك وتجرأت عليه.. هل هددك بأن يعتقلك بسبب قتلك الكاهن؟.. لا بد أن هذا هو السبب.."

صاحت جود "لا.. لم يحدث.. لم أصل إليه إلا بعد موته.. لو أنني كنت هنا قبل تلك اللحظة.. لو أنني كنت جواره، لقتلت ذلك المعتدي قبل أن تمتد يده لقاث بالأذى.."

أشار قائد الكتيبة للجنديين القابضين على جود عابساً، فاقتاداها بعيداً وهي تقاوم وتصيح بحنق.. لكن صياحها لم يجدِ نفعاً وهي تجد نفسها مرمية في غرفة صغيرة دون نوافذ والباب يقفل عليها بإحكام.. ظلت تضرب الباب بقبضتها تبحث عمن يخرجها ويستمع لحججها مانحاً إياها بعض الثقة.. لكن لم يكن قربها من يمكنه أن يمنحها ذلك، وأدركت جود أنهم قد حبسوها بانتظار أن يبتّ القادة في أمرها..

أخيراً، انزوت جود جانباً دافنة وجهها بين ذراعيها وقد تداعت مشاعرها لكل ما جرى.. جاءت ميتة قاث كلطمة من حيث لا تحتسب في أشد الأوقات سوءاً.. لا تدري أتبكيه وهي لا تدري إن كانت ستلحق به قريباً بعد كل ما جرى؟.. أترثيه أم ترثي نفسها؟.. أتقسم على الانتقام له وهي لا تملك من أمر نفسها شيئاً؟.. ما الذي بيدها فعله إلا ابتلاع غصتها ومرارتها ودموعها العصيّة على النزول؟..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

عندما استيقظ ياسان فجراً على رنين الهاتف، لم يظن للحظة أن يسمع خبر مقتل قاث.. ظل ذاهلاً وهو يحمل الهاتف بيد ويقف وسط منزله الواقع في حي غير بعيد عن مركز قيادة الجيش.. ولما أخبره كارون أن عليه الحضور بسبب حالة الطوارئ التي أقامها الجيش مع مقتل قائده، فإنه ختم قوله بذكر اسم جود واتهامها بأنها قد تكون المتسببة بموت قاث.. عندها، تهاوى الهاتف من يد ياسان وهو يسرع لارتداء ملابسه بشيء من الارتباك المذهول.. لم يستوعب عقله ما سمعه من معلومات، ولم يتمكن من ابتلاع ما

سمعه حتى تعالى سؤال أمه القلق من تصرفاته المضطربة "ما الذي جرى يا بني؟.. ما الذي أخبرك به قائدك؟"

وقف ياسان جامداً مذهولاً للحظة، ثم قال "قاث مات.. وجود هي المتهمة بقتله.."

وضعت الأم يدها على فمها بصدمة، ثم قالت مدهوشة "جود؟.. لا يمكن أن يكون ذلك.. لا بد أن في الأمر لبساً ما.. تلك الفتاة الطيبة لا يمكن أن تمتد يدها بالسوء لقاث.."

قال ياسان بتوتر "وهذا ما أنا واثق منه.."

وغادر بشكل عاصف نحو مركبته القريبة من المنزل، فقام بتشغيلها وقيادتها بسرعة وتهور بشكل يخالف قيادته الهادئة في المعتاد.. لا يدري ياسان كيف قطع الطرقات القليلة التي تفصله عن قيادة الجيش، ولكنه طوال الطريق جلس في مركبته بعقلٍ خاوٍ لا يفكر في شيء.. لا يدري لِمَ كف عقله عن التفكير طوال الوقت وقد عجز عن استيعاب ما قيل له.. لم يكن من عادة كارون المزاح، وإلا ظنها مزحة ثقيلة منه لا مكان لها في مثل هذه الساعة.. لكن ذلك الظن كان عصيّاً على التصديق، ككل أمر سمعه هذا النهار..

اقترب ياسان من بوابة مركز قيادة الجيش، حيث الحراسة أكثف من المعتاد لسبب لا يدريه.. أهو بخصوص جود؟.. أم بسبب موت قاث القائد الأعلى للجيش؟.. لم يكن موت قاث ليخلّ بالجيش فبقية القادة الخمس متأهبون دوماً لاستلام القيادة منه عند غيابه لأي سبب من الأسباب.. ولم يكن موت قاث إلا سبباً آخر لا يعني الكثير عند القادة..

لاحظ ياسان قرب البوابة فتاة مرتبكة تواجه جماعة من الجند برداء الكهنوت وهي تجادل بعصبية.. كان وجودها غريباً، في هذا الجزء من المدينة حيث لا يقترب العامة إلا لسبب قوي.. خفف ياسان سرعة مركبته للخضوع للتفتيش كعادته كلما دخل القاعدة، ولم يكن التفتيش أفضل حالاً من الأيام السابقة وهو يضطر للوقوف بجوار مركبته فيما يدور أحد الجنود حولها متفحصاً بتدقيق لا يختل..

تناهى لسمعه جزءٌ من الحديث الدائر بين الجنود وبين الفتاة، عندما أطلق أحد الجنود ضحكة وهو يقول "تدافعين عن من؟.. أأنت حمقاء؟"

قالت الفتاة بهتافٍ ملحّ "أخبرتك أنني أبحث عن المجندة جود.. لقد سمعت أنها قد ألقي القبض عليها بسبب قتلها الكاهن حاكد وتهريبها لإحدى الكاهنات.. وقد أتيت للتحدث لأحد القادة عن هذا الأمر..

فأدخلني أرجوك.."

التفت ياسان باهتمام لتلك الفتاة الغريبة، فيما مد الجندي يده ودفع هيما في كتفها قائلاً بسخرية "حتى لو جاء الكهنة كلهم للشفاعة لها، فلن يعفيها هذا من المسؤولية.. ما ارتكبته تلك الحقيرة أسوأ من مجرد قتل كاهن.."

قالت هيما بإصرار "دعني أدخل.. لا يحق لك أن تمنعني من الدخول بهذه الطريقة.."

همّ الجندي بطردها من جديد، لكنه سمع صوت ياسان الذي اقترب قائلاً "دعها.. سآخذها معي.."

التفتت هيما لياسان بأمل ظاهر، فيما قال الجندي وهو يقف باحترام "لا يمكنني السماح لهذه الغريبة بدخول القاعدة في مثل هذه الأوقات.. نحن نمر بحالة طارئة، والحذر مطلوب منا جميعاً.."

قطب ياسان بحزم غريب عليه وقال "هل تجرؤ على الاعتراض على أوامر مَن هم أعلى منك رتبة؟"

صمت الجندي عندها تماماً، فيما أشار ياسان لهيما قائلاً "اتبعيني.."

لم تتوانَ هيما عن اللحاق به، وركوب المركبة معه بعد أن فرغ الجندي من تفتيشها.. وفور أن تجاوزا البوابة تساءل ياسان عاقداً حاجبيه "من أنتِ بالضبط؟.. وكيف تعرفين جود؟"

أسرعت هيما تروي له كل ما جرى بينها وبين جود منذ التقتها في المعبد السامي وحتى افترقتا الليلة الماضية.. وأنهت هيما حديثها قائلة "كنت مختبئة في موضع قريب من البوابة بانتظار شروق الشمس، عندما بدأت أسمع بضع أخبار غريبة عن القبض على الفتاة الأرضية.. لم أركز كثيراً على الأخبار التي تناقلها سكان المدينة في كل زقاق وطريق، حتى سمعتهم يذكرون جود بشماتة واضحة.. لذا أسرعت بالقدوم إلى مركز القيادة آملة أن أتمكن من إنقاذ جود من تلك الاتهامات.."

ثم نظر ت لياسان برجاء قائلة "خذني لأحد القادة.. لا يمكنهم اتهام جود بتهريبي فأنا قد هربت بمحض إرادتي.. وذلك الكاهن الذي مات كان يستحق ما جرى له، فهو قد تجرأ على التطاول عليها كما فعل مع الكثيرات قبلها.. وهذا جزاءٌ عادل لما فعله.."

ظل ياسان مقطباً وهو يقود المركبة حتى أوقفها في جانب الساحة الرئيسية، ثم زفر قائلاً "من كان يظن أن تحدث كل هذه الأحداث منذ افتراقي عنها اليوم الماضي حتى الآن؟.. وكأن الأمور تضافرت عليها بشكل ما.."

ثم نظر لهيما مضيفاً "ربما يفيد دفاعك هذا قليلاً في معاونة جود، لولا ما جرىٰ ليلة البارحة.. لذا لا أظن جود قادرة علىٰ النجاة من هذه الورطة الآن.."

قالت هيما بقلق "لماذا؟.. ما الذي جرىٰ البارحة؟"

أجاب ياسان بضيق "لقد قتل قائد الجيش قاث.."

ظلت هيما تنظر له بعدم استيعاب، ثم قالت بانفعال "أهو ذلك القائد الذي ساعد جود منذ مجيئها للعالم السامي؟.. كيف؟!.. لقد تركتني جود علىٰ أمل اللجوء إليه والحصول علىٰ حمايته قبل أن يتم القبض عليها.. فكيف قتل؟.. ومن فعل ذلك؟"

أجاب ياسان هازاً رأسه "للأسف، فإن جود هي المتهمة.."

صاحت هيما "محال.. أتظنها هي من فعل ذلك حقاً؟"

عبس ياسان قائلاً "لا أدري ما أظنه حقاً.. لكن تلك الفكرة أكثر جنوناً من أن يتم تصديقها.."

سادهما الصمت للحظات وكل منهما يفكر بهذا الخبر الغريب الذي لم يتوقعه أحد في القاعدة ولا في المدينة كلها.. ثم زفر ياسان أخيراً، ونظر لهيما قائلاً "سآخذك لأحد القادة، عسىٰ أن يفلح حديثك في إزاحة الاتهام عن جود.. لابد أن يعلموا أنها لم تكن موجودة وقت اغتيال قاث، وأنها وصلت متأخرة لتجده قد قتل بالفعل.. هذا هو الحل الوحيد الذي سيعفيها من....."

قطع حديثه مع ذلك الصوت العالي الذي تردّد في المكان.. تجمد الجنود في الساحة في أماكنهم وهم يسمعون الصوت الذي تعالىٰ من الأعمدة التي حملت مكبرات الصوت علىٰ رؤوسها، وتكرر كنذير شؤم في القاعدة التي بدا أنها قد تجمدت بشكل واضح..

كان ذلك صوت الإنذار الخاص بالجيش، وقد مضت عقود طوال منذ آخر مرة سمعه أحد الجند في هذا المكان..

ولم يكن ذلك الصوت إلا ليزيد التوجس في صدر ياسان ويصيب هيما بالذعر دون أن يدرك أحدهما سببه ومغزاه..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

سار أناري، قائد الحرس الملكي الخاص، بخطوات واسعة تملؤها الثقة وسط ممرات القصر الفخمة وعلى الرخام الفاخر الذي التمع بضوء الشمس الوليدة وعبق برائحة عطرة كما كل شيء في هذا القصر.. ألقى أناري نظرة عابرة على حرسه الموزعين بعناية في ممرات القصر وأمام أبوابه، قبل أن يكمل طريقه نحو قاعة العرش دون إبطاء.. كان يعلم أن الملك يكون في مجلسه في مثل هذا الوقت المبكر، قبل حتى أن يصل إليه كبير الوزراء أو مجلس الكهنة.. وهذا يناسبه كثيراً في الوقت الحالي..

قبل ساعات قليلة من هذه اللحظة، تلقى أناري اتصالاً سرياً عبر قناة اتصال خاصة، وصاحب الاتصال يقول بتوتر واضح "لقد أنجزتُ الجزء الخاص بي بنجاح تام.. الآن، بقيت خطوة أخيرة من جانبك قبل أن يكون الطريق ممهداً لـ....."

قال أناري بحزم "اصمت.. أأنت أحمق؟!.."

اعترض الصوت بارتباك "لكن.... هذه قناة خاصة.."

قال أناري "فلتكن كذلك، ذلك لا يعني أن تتحدث بحرية تامة مهما كانت الظروف.."

تنهد الصوت بتوتر ظاهر وقال "أأنت واثق أننا سنكون بأمان؟.."

أجاب أناري بسرعة "هل شهد شخصٌ على ما فعلته؟"

أسرع الصوت يقول "لا.. مطلقاً.. كل أجهزة المراقبة كانت مصابة بعطل مؤقت رتبت له مسبقاً.."

فقال أناري "إذن لا تقلق.. كل الأمور ستسير كما نريد لها.."

قال الصوت "لكن.. لا تتنصّل مني مهما جرى.. إياك!.. ولا تنسَ المكافأة التي وعدتني بها.."

ابتسم أناري ابتسامة ساخرة لم تبدُ في صوته وهو يقول "لا تخشَ شيئاً.. سيصلك الجزاء على صنيعك هذا قبل أن تزول شمس هذا النهار.."

طال الصمت للحظات قبل أن يقول الصوت بتردد "أتظن الأمر سينجلي بهذه السرعة حقاً؟.. لا أظن هذا سيكون بهذه السهولة.."

تنهد أناري بضيق، ثم قال بصرامة "ترددك وقلقك هذا هو ما سيطيح بك.. كن واثقاً من نفسك يا رجل.. ما تم التخطيط له لسنوات لن يفشل بين ليلة وضحاها.."

وأنهى الاتصال دون أن يسمع الرد من الجانب الآخر.. والآن، مع سيره وسط ممرات القصر حيث يؤدي له الحرس التحية، ويتراجع الخدم والوصيفات جانباً سامحين له بالمرور دون اعتراضات، فإن ثقة أناري كانت تتزايد مع كل خطوة يخطوها.. وعزمه يشتد مع تلك الثقة على السير قدماً في المهمة المنوطة به..

وعندما وصل لقاعة العرش، فتح الحراس الباب المزخرف أمامه سامحين له بالمرور دون تساؤل.. كاد أناري يطلب من حراسه عدم مقاطعة أي امرئٍ لخلوته بالملك، لكنه فوجئ بالصوت العالي الصادر من القاعة مما دله أنها لم تكن خالية بالملك كما هي العادة..

سار أناري عبر القاعة الواسعة بالأعمدة الحمراء بزخارف مذهبة وأرضية بيضاء ناصعة مع عرش تزينه الأحجار والزخارف الذهبية حيث يقع على ارتفاع بضع درجات عن باقي مستوى القاعة.. وقرب العرش، رأى أناري الملك يتجادل بحدة مع الوزير الأول وولي العهد يقف قربه مقطباً بصمت يستمع لما يقال.. ولما تردد اسم قاث، أدرك أناري السبب في هذا الاجتماع المبكر الذي لا يحدث في الأيام المعتادة..

اقترب أناري من الثلاثة الذين يشكلون أعلى سلطة في البلاد، فتلقاه ولي العهد الأمير سابار قائلاً "هل سمعت بالجريمة التي ارتكبت في حق القائد الأعلى قاث؟"

قال أناري بهدوء "بلى.. تلقيت اتصالاً من أحد القادة بهذا الشأن، وهذا ما جاء بي في مثل هذه الساعة للقاء الملك والتباحث بما يمكننا فعله بهذا الخصوص.. حتى تستقيم أمور القادة والجيش، عليّ الاهتمام بحماية الملك والقصر من أي بلبلة قد تحدث.."

قال الوزير بسرعة "لن تكون هناك أي بلبلة.. القائد بارِت سيتولى قيادة الجيش منذ اليوم، فهو الأصلح لهذا الدور وهو نائب قاث السابق.. لذا، لا داعي لهذا القلق.."

قال الملك بحنق "مثل هذه الجريمة لا يمكن السكوت عنها.. من الذي يجرؤ للتطاول على قاث مع منصبه ذاك؟.."

علق أناري قائلاً "ربما كان المجرم يحمل ضغينة خاصة نحو قاث لسبب نجهله.. سمعت أنهم قبضوا على الفاعل بالفعل، وأنهم بسبيل محاكمته هذا النهار.."

علق الأمير سابار "لا أدري.. لا يبدو الأمر مقنعاً.. قيل إنهم عثروا على الفتاة الأرضية قرب جثته، وأنهم قبضوا عليها دون مقاومة.. هل يمكن لمجرم ارتكب هذه الجريمة أن يستسلم بسهولة؟.. لماذا لم تهرب قبل

القبض عليها؟.."

قال أناري "ربما كانت مذهولة من الجرم الذي جرؤت على ارتكابه.. قد لا تكون تعمدت قتله، بل كان ذلك حادثاً وليد اللحظة.."

قال الملك مقاطعاً نقاشهما "هذا لا يهم.. أريد أن يتم إعدام الأرضية المشؤومة في التو واللحظة.. وليأتِ بارِت إليّ كي أقوم بتنصيبه رسمياً كقائد أعلى للجيش.. يجب أن يدرك سكان المملكة أن الأمور مستقرة وأن الجيش لا يفتقد لقائد يقوده قبل حلول هذا المساء.. لا يمكن أن نسمح لعبث عابثٍ أن يردم الأمن الذي عشنا في ظلاله سنوات طوال.."

وبإشارة من يده، انحنى أناري للملك باحترام قبل أن يستدير لتنفيذ أمره.. اتخذ طريقه مغادراً القاعة ويده تقبض على السيف الرفيع الذي يحتفظ به بشكل دائم في حزامه.. لقد تعطلت أموره في الوقت الحالي.. لكنه ليس قلقاً.. كل شيء سيسير كما يريد ويتمنى، والوقت كفيل بحل كل المعضلات التي قد تواجهه في هذا اليوم المجيد..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

لم تشرق شمس النهار على جود التي ظلت حبيسة تلك الغرفة الضيقة والضيق يكاد يكتم أنفاسها فتسقط في موقعها دون حراك.. عجز عقلها عن استيعاب فكرة موت قاث، بأكثر من إدراك الورطة التي سقطت فيها.. تمنّت للحظة أن تراه يدخل من باب الغرفة بحزمه المعروف، حتى لو كانت الضمادات تحيط صدره في موضع جراحه تلك.. لكن أملها ذاك خاب بسرعة عندما فتح باب الغرفة ودلف منه جنديان اقتربا من جود بحزم.. ضيّقت جود عينيها بسبب النور الذي فاجأها بعد الظلمة التي كانت فيها، فيما أنهضها الجنديان بشيء من الغلظة وأحدهما يقول "لا تحاولي أن تقومي بأي تصرف لا يعجبني، فأنا مخوّل بإطلاق النار عليك لأي سبب كان.."

فوجئت به يقيد يديها خلف ظهرها بقيد حديدي، قبل أن يدفعها أمامه والجندي الآخر يسبقها بخطوات دون أن يتخلى أحدهما عن حذره وعن غلظته.. حاولت جود التخلص من قيدها والاعتراض على معاملة

الجنديين لها، لكنهما لم يفلتاها وهما يخرجان بها من ذلك المبنى وسط أنظار العديد من الجنود والضباط الذين تجمعوا في جانب الساحة.. سار بها الجنديان قاطعين الساحة بخطوات سريعة، وإلى الجانب البعيد منها الذي تقل عنده المباني وتنكشف الأرض على الفراغ التام وعلى طوق الغيوم الذي تعلوه الأرض السامية.. قيدها أحد الجنديين إلى أحد أعمدة الإنارة القريبة، فقالت جود بحدة وهي تجذب يديها من القيد بقوة "ما معنى هذا؟.. لمَ أحضرتموني لهذا المكان؟.."

لم يجبها أحدهما وهما يقفان على جانبي المكان بصمت وتحفز.. حاولت جود التخلص من قيدها عبثاً وتصايح بعض الجنود في جانب الساحة يصلها بوضوح.. بدا أن مقتل قائد الجيش لن يمر دون أن يسبب بلبلة بين الجند، وعليها أن تهرب قبل أن تلاقي المصير الذي يعدونه لها..

سمعت صوتاً يتعالى من جانب المكان، فرفعت وجهها بتوجس لترى فرقة من الجنود لا تقل عن عشرة أفراد يتقدمون منها.. وأمامهم، سار بارِت القائد الثاني للجيش بعد قاث، والمرشح الأكبر لتولي منصب القائد الأعلى من بعده.. وفور وصوله إليها، ودون أن ينبس بأي أمر لجنوده، وجدت جود الجنود يشكلون نصف دائرة حولها رافعين بنادقهم نحوها بتهديد ظاهر..

حاولت جود فك قيودها وهي ترى الجنود يواجهونها ببنادقهم والغضب ظاهر على الوجوه.. الحمقى.. أيظنون حقاً أنها قادرة على ارتكاب مثل هذا الجرم؟.. كيف لها أن تمد يدها نحو قاث بأذى أو تسبب له الألم؟..

سمعت بارِت يقول بصرامة "المفترض أن تقام لك محاكمة على ما اقترفته يداك.. لكن جرمك لا يمكن السكوت عليه.. ويستحق الجزاء الملائم في التو واللحظة.."

صاحت جود "لكني لم أقتله.. الكل يعلم أنني لا يمكن أن أرتكب جرماً كهذا.. ولو عثرت على الفاعل، لقتلته بيدي دون انتظار حكم أحد عليه.."

قال بارِت بابتسامة قاسية "وهذا ما سنفعله الآن.."

واعتدل بصرامة قائلاً "لكن في البدء أريد أن أعرف ما كنت تهدفين إليه.. ما الذي تنوين تحقيقه بقتل القائد الأعلى للجيش؟.."

قالت بحنق "أنا لم أقتله.. ولا أملك ي أهداف مما قد يدور بخلدك.."

قال بارِت "التنصل لن يعفيك من العقاب.. أجيبي تساؤلاتي، وعندها قد أتعطف عليك وأجعل موتك أقل عذاباً وإيلاماً.."

كادت جود ترد عليه بشتيمة حانقة، لكنها سمعت هتافاً في تلك اللحظة، ورأت دارو يركض من بعيد متجهاً نحوهم.. شعرت جود ببعض الأمل برؤية دارو الذي لن يشك بها حتماً.. لا بد أنه يدرك براءتها، ولا بد أنه سيسعى لإنقاذها من هذه الورطة التي وجدت نفسها فيها.. رأت دارو يقترب بعجلة من القائد بارِت ويقول له بقلق "سيدي.. سمعت أنكم تتهمون جود بقتل قاث.. فهل هذا حقيقي؟.."

قال القائد بهدوء دون أن يلتفت إليه "كما ترى.. لقد تم القبض عليها بالجرم المشهود، ولا مناص من أن تتحمل المسؤولية.."

صاحت جود "لكني لم أقتله.. لا يمكن أن تمتد يدي بالسوء يوماً لمن انتشلني من القاع ورفعني للقمة.. لست بهذه الحقارة.."

قال بارِت بجمود "بل هذا يدل على الأصل الوضيع الذي لا يمكنك إنكاره.. خستّك هذه ليست أمراً غريباً على من هم مثلك.."

صرّت جود أسنانها بغيظ للإهانة التي ما فتئت تلاحقها منذ طفولتها.. وكأن أصلها هو الجرم الذي يتيح لهم احتقارها بكل الصور الممكنة.. فيمَ قال دارو مؤيداً قولها "سيدي.. جود لا يمكنها أن تكون القاتلة بالفعل، وهي ممتنة للقائد ووفية له أكثر من أي فرد منا.. لا بد أن هناك لبساً ما، وحتى نحلّ هذا الإشكال، أرى أن نسجنها حتى نتوثق من...."

قاطعه بارِت قائلاً بشدة "ترى؟.. وهل هناك رأيٌ لك بعد قولي يا دارو؟.. من تظن نفسك؟!.. أنت لست من القادة الخمس للجيش، ولا يحق لك إلا السمع والطاعة لقادتك.."

اعتدل دارو باحترام في وقفته، وقال "لك مني كل الاحترام يا سيدي القائد.. لكن ليس من العدل تنفيذ الحكم على المجندة جود دون الأخذ برأي بقية القادة ودون محاكمة عادلة.. هذا ما تنص عليه القوانين في الجيش، وهو ما أراه وما سأردده مهما كانت عواقب قولي هذا.."

نظر له بارِت بعبوس شديد، ثم نظر لجود التي حملت ملامحها بعض الأمل، وقال بحزم "لن يكون رأي القادة مخالفاً لرأيي.. ومن العدل أن تنال الخائنة جزاءها فوراً نظير تجرؤها على مثل ذاك العمل المقيت.."

وشدّ جسده مضيفاً بصرامة "هذا ليس تطاولاً على القادة فحسب، لكنه عمل يهدف لنشر البلبلة في صفوف الجيش وتفتيت وحدته وبنيانه.. وهذا ما لا يمكن السكوت عليه.."

وإزاء إشارة من يده، رفعت فرقة الجنود بنادقها في وجه جود التي زمّت شفتيها بشدة ثابتة في موقعها دون أن يبدو أي ذعر أو يأس على وجهها.. لو كانت ستموت في هذه اللحظة، فلن تجعل أحداً يشمت بها بعد موتها.. التذلل لن يغيرّ الحكم الواقع عليها، والرجاء لن يجد أي صدىً لدى القائد وبقية الجنود.. لذا، ستَثْبُت أمامهم، وستُثبت لهم أنها أقوى وأكثر صلابة مما يتوقعونه..

لاحظت نظرة القلق التي رماها عليها دارو، وأدركت أنه بالفعل لا يملك من أمرها شيئاً.. فصمدت أمامه دون أن تضعف لئلا يشعر بالذنب لما سيجري لها.. من المؤسي أن يراها في لحظة إعدامها غدراً من قادتها، وليس بحاجة لمزيد من الأسى بشعوره أنه قد تخلى عنها في مثل هذه الأوقات..

سمعته يقول للقائد رغم الرد الذي حصل عليه "سيدي.. مع احترامي لقرارك، لكني أود أن تعيد النظر فيه للحظة.. أن يقال إن القائد تراجع في أمره، خيرٌ من أن يقال إنه أعدم فرداً من أفراد الجيش بتهمة ظالمة.."

قال بارِت بسخرية "أيها الأحمق.. أن يقال إن القائد قد تراجع عن قراره لهو أقبح ما يمكن أن يتردد عني.. نحن في الجيش، ولسنا هنا لنلهو ونلعب.."

حاول دارو الاعتراض دون يأس، فقاطعه بارِت بصرامة وحدة "أحذرك من التفوه بأي كلمة أخرى، وإلا أوقفتك معها.."

ورفع يده ليتأهب الجند ببنادقهم، فيما جذبت جود نفساً عميقاً محدقة بالقائد بحدة وثبات.. اللعنة على الظالمين.. لم تكن خائفة في اللحظات الأخيرة من حياتها.. بل كانت غاضبة.. حانقة.. مصدومة.. لم تكن حالتها النفسية تسمح لها بالخوف على حياتها أو الذعر لموتها.. كان كل ما تتمناه أن ترى قاتل قاث، وأن تقتله بيديها قبل أن يختطفوا منها ما بقي من عمرها..

وعندما تعالت صيحات الجنود الواقفين أمامها ببنادقهم المعدّة لإعدامها، رفعت بصرها إليهم بغضب وتحدٍ واضحين وكأنها تسخر مما ينتوون فعله بها.. لكن ما رأته في أعينهم أزال ذلك الغضب بلحظة.. فالصيحات لم تكن موجهة لها، والأعناق الممتدة والرؤوس المرتفعة كانت تنظر للأعلى لموقع ما خلفها في

موقف غريب لم يستوعبه عقلها لوهلة..

دهشت جود لما تراه، فلم يكن خلفها إلا الفراغ التام مع وجودها في جانب القاعدة القريب من حافة المملكة التي تطل على السماء.. حاولت جود أن تلتفت خلفاً لرؤية ما يجري، عندما دوى صوت الإنذار العالي في جنبات القاعدة مثيراً إزعاجاً كبيراً وتوجساً عارماً لم تشهد المدينة مثله.. لم يسمع شخص هذا الصوت منذ عشرات السنين، ومن سمعه سابقاً لم يبقَ حياً مع تطاول المدة.. تعالى الصوت الحاد والمزعج في المكان كنذير شؤم جعل الجند يتجمدون في مواقعهم بنظرة مبهوتة في أعينهم.. وقبل أن تفلح جود في رؤية ما يرونه، ومعرفة سبب هذا الإنذار المتعالي الذي لم يسبق لها سماعه قط، سمعت صوتاً خافتاً صدر من السماء خلفها، وفي اللحظة التالية دوّى انفجارٌ كبير في موقع ما خلفها نثر الصخور والغبار وانتزع عمود الإنارة الذي ربطت إليه بعنف ليسقط على بعد عدة أمتار من موقعه الأصلي..

صاحت جود متألمة بعد أن سقطت مع العمود الذي كاد يسحقها تحته، لكن لحسن حظها فإن جانبه قد علق في جزء من جدار منخفض يحيط بأحد الأبنية في القاعدة، مما جعلها معلقة بالعمود ومحشورة بينه وبين الجدار.. ورغم أنها نجت من السحق، لكنها أصيبت إصابة قوية في كتفها وجانبها الأيمن أورثتها آلاماً عنيفة..

تردد طنين قوي في رأسها وهي تغالب وعيها لئلا يتسرب منها، وتسعل بقوة مع الغبار الذي ساد المكان كغمامة صفراء كثيفة.. ومن مواقع أخرى من القاعدة، سمعت تصايح بعض الجنود الممتزج مع الإنذار الذي استمر بإلحاح ودون يأس.. ولم يلبث انفجارٌ آخر أن اندلع في جانب بعيد من القاعدة مسبباً أضراراً لا يُعلم مداها في تلك اللحظة..

من الذي جرؤ على مهاجمة قاعدة الجيش الرئيسية؟.. لم تملك جود ترف التفكير في ذلك وهي تشعر بيدين تحلاّن قيدها ببساطة ليتهاوى جسدها أرضاً.. لكن صاحب اليدين لم يتهاون وهو يجذبها بعيداً عن ذلك العمود وخلف الجدار المنخفض إتقاءً لأي ضربة جديدة قد تستهدف هذه البقعة بالذات.. رفعت جود عينيها الدامعتين بفعل الغبار والإصابة، فرأت وجه دارو قريباً منها وهو يسألها بقلق "أأنت بخير؟.. هل تقدرين على الهرب؟"

غمغمت جود وهي تعتدل جالسة "بخير.. لا تقلق.."

ونظرت للخراب حولها بفعل الضربة الأولى التي أصابت القاعدة، دون أن يفوتها مرأى النيران التي اشتعلت في جانب مبنى سكن الضباط وقادة الكتائب في الجانب البعيد من المكان.. عندها تساءلت محاولة ابتلاع صدمتها العنيفة "ما الذي جرى هنا؟.. من الذي يهاجمنا؟"

قال دارو بتوتر "لا نعلم حتى الآن.. رأينا عدداً من الطائرات المقاتلة لا يقل عن عشرين تقترب من القاعدة في عرض السماء، وبادرت بالهجوم علينا دون إبطاء.. لابد أنهم يدركون هوية هذا المكان، وبادروا للهجوم عليه قبل أن يحاول جنودنا منعهم.."

عاونها على النهوض مضيفاً "عليك الهرب من هنا قبل أن يتمالك الجنود أعصابهم ويقبضوا عليك مجدداً.. هذه فرصة لن تتكرر مرة أخرى.."

سمعا صوت القائد بارِت وهو يصرخ بجنوده محاولاً تجاوز ارتباكهم وإعادتهم لرشدهم، فيما سمعت جود صوتاً متوتراً من جانب آخر يقترب منها.. وسرعان ما انبثقت سحابة الغبار حولهما عن جسدين اقتربا منهما بسرعة لتتبين فيهما جود ياسان تتبعه هيما بارتباك وذعر.. لم يتساءل دارو عن سبب وجود ياسان، ولا عن هوية هيما، بل قال بسرعة "ياسان، ابتعد بجود عن هذا المكان بسرعة.. عليك أن تهرب بها لموقع آمن.."

قالت جود محاولة تمالك آلامها "لا.. سأبقى في القاعدة، وسأعاون في مقاومة هذا الهجوم.. لا يمكنني التخلي عن واجبي في مثل هذه الأوقات.."

قال دارو بصرامة "وجودك لن يفيد أحداً.. فور أن يراك أحد القادة، سيأمر بزجّك في أحد السجون، وستقبعين هناك حتى ينهار المبنى فور رأسك إن أصابته إحدى قذائف تلك الطائرات.."

أخرج خنجراً من حزامه ودسّه في يدها قائلاً "ارحلي خيراً لك.. لقد تنصّلوا منك في أشد لحظات احتياجك لهم، فلن يلومك أحد لو قابلتهم بالمثل.."

وشدّ على كتفها، قبل أن يستدير ويهرع عائداً لمركز القيادة في القاعدة ليعاون في صدّ الهجوم الذي لم يتوقف ولو للحظة.. فيما قال ياسان بقلق "ما الذي يجري هنا؟.. من أين أتت تلك الطائرات ومن هم أصحابها؟.. إنها ليست تابعة لجيش مملكتنا.. فمن الذي يجرؤ على الهجوم علينا بهذه الصفاقة؟"

قالت جود متلفتة حولها "لا نعلم.. ولكن لن يطول الوقت قبل أن تصلنا أخبار كل ما جرى وسيجري من

هذا الهجوم.. هيا بنا، لا نملك وقتاً نضيعه هنا.."

احتفظت بالخنجر في جانب مخفي في ردائها للدفاع عن نفسها، ضد الأعداء أو الزملاء على حد سواء فما عاد هناك فارقٌ بينهما لها في حالتها هذه.. سار الثلاثة مبتعدين عن موضع الهجوم الأخير، وعن بقية الجنود في الساحة خشية أن يقوم أحدهم بمنعهم من الهرب، قبل أن يوقفهم الهدير المتعالي الذي اقترب منهم بسرعة مزلزلاً الأرض من تحتهم.. وقف الثلا ثة للحظات رافعين أبصارهم للسماء وهم يرون تلك الطائرات السوداء التي مرقت من فوق رؤوسهم متوزعة بين جهات القاعدة الأربع وهي لا تكف عن إطلاق قذائفها الضوئية بغزارة غير معهودة.. لم تكن تلك طائرات الجيش، ولم يدرك أحدهم هوية تلك الطائرات مع طيرانها السريع من فوقهم.. بدا أن جنود القاعدة لا يملكون الفرصة للرد مع هذا الهجوم السريع، ولا للمّ شتاتهم وتنظيم صفوفهم.. ولم يبدُ أن الطائرات ستكف عن إمطارهم بقذائفها حتى تسوّي القاعدة ومن عليها بالأرض..

عندها، التفت ياسان إلى جود وهيما قائلاً "ابتعدا عن هذه القاعدة وابحثا عن موقع آمن.. أنا سأعود لرفاقي وأمد يد العون لهم حتى نتخلص من هذا الهجوم الغادر.."

ابتسمت له جود ابتسامة متوترة، وقالت "هذا نِعمَ القرار يا ياسان.."

بينما اعترضت هيما قائلة "ستموت يا أحمق.."

قال ياسان بتصميم "فليكن ذلك.. لن يغيرّ هروبي من واقعي شيئاً....."

فوجئ الثلاثة في تلك اللحظة بانفجار عنيف يندلع من موقع قريب بسبب مقذوفة ضوئية أطلقتها إحدى الطائرات السوداء.. تطايرت الحجارة نحوهم، ووجدوا الانفجار يدفعهم بقوة هائلة للخلف ويرميهم أمتاراً عدة.. أغمضت جود عينيها وحمت رأسها بذراعيها وهي تثني جسدها لتخفيف الإصابات التي قد تصاب بها من تطاير الحجارة ومن السقوط العنيف المتوقع.. لكنها لم تشعر بذلك الارتطام، بل بدأ جسدها يهوي لما لا نهاية بشكل دفعها لتفتح عينيها دفعة واحدة.. تمكنت عندها من رؤية الدخان والصخور المتطايرة من موقع الانفجار وسط الساحة.. لكن للغرابة، كان الانفجار والساحة ذاتها يبتعدان عنها ابتعاداً سريعاً، واستغرق الأمر من جود وهلة لتستوعب الأمر.. لكن صياح هيما حاملاً ذعرها مما يحدث أفاقها بلحظة وهي تستدير مواجهة السماء حولها والغيوم التي كوّنت جداراً سميكاً تحتهم..

كانوا يسقطون.....

الانفجار القريب دفعهم بقوة من فوق الحاجز القصير الذي يحجز ذلك الجانب من القاعدة عن الفراغ، ولم يعترض طريقهم شيء يوقف سقوطهم أو يحميهم من هذا المصير الذي لا يقل بؤساً عما قد يلاقونه من ذاك الهجوم..

ورغم الذعر البادي على وجه ياسان وصراخ هيما الذي لا ينقطع، لكن جود كانت أكثر معرفة منهما بمقدار الخطر الذي هم فيه.. لم يكن ياسان وهيما يتخيلان ما قد يحدث لهما جراء هذا السقوط، وقد خيّل إليهما أنهما سيهويان في هاوية مظلمة بلا قاع.. لكن جود تدرك أن أحدهما لن يبقى على قيد الحياة فور أن يصل الأرض التي تبدو بوضوح من بين الغيوم الكثيفة..

اتخذت جود التصرف الوحيد الذي طرأ لذهنها.. لقد مضت اثنتا عشرة سنة منذ أرغمت على مغادرة ذلك العالم، لكنها لم تنسه قط.. مدت جود يدها والريح تضربها بقوة، فجذبت هيما نحوها وصاحت بها "تمسكي بي جيداً.."

نظرت لها هيما بنظرة مذعورة لا تكاد تستوعب ما يقال لها، فصاحت جود محتدة "تمسكي بي جيداً يا هيما.."

سارعت هيما للالتصاق بجود والتمسك بها بقوة دون أن تفتح عينيها، فيما شعرت أن قلبها سيتوقف عن الخفقان في أي لحظة.. أما جود فقد مدت يدها وأمسكت بذراع ياسان القريب صائحة "أمسكني ولا تفلتني مهما حدث.."

قال ياسان بذعر ويأس "وما الذي ستفعلينه؟"

لم تجبه وهي ترى الغيوم ترتطم بهم فيخترقونها بسلاسة والرؤية تتضاءل بشكل كبير.. قبل أن ينجلي كل شيء ويغادروا طوق الغيوم ليروا المنظر كما هو حقيقة.. فأسفل منهم، بدت الأرض الواسعة اتساعاً مذهلاً بلونها الأخضر القاتم الذي يخالطه سوادٌ كثيف، وبدت لهم حقيقة ارتفاعهم الشاهق وسقوطهم المتسارع الذي لا يوقفه شيء.. بدا لهم أنهم سيستغرقون دقائق طويلة قبل الوصول للأرض، لكن تلك الدقائق التي تسبق ارتطامهم بالأرض القاسية قد تكون مرعبة أكثر مع عجزهم عن فعل أي شيء..

اتسعت عينا ياسان بذعر أكبر وهو يتخيل ما سيحدث لحظة الارتطام.. هل كان يتخيل عند استيقاظه هذا

الصباح أنه سيغادر عالمه الآمن ويسقط نحو عالمٍ مظلم ليفقد حياته دون أمل بالنجاة؟..

لكن جود لم تيأس.. تمسكت بياسان بقوة، وبيدها الحرة وضعت إصبعين في فمها وأطلقت صفيراً قوياً عالياً.. استمرت تصفر حتى انقطع نَفَسها، فأخذت شهيقاً قوياً وصفرت من جديد بإلحاح وقوة دون كلل.. قلبت بصرها في الأرض، وياسان يصيح بيأس "ما الذي تحاولين فعله؟.. هل هذا ما سيمنعنا من الموت؟"

لم تجد جود الوقت لإجابته وهي تكرر الصفير مرة بعد مرة.. وفي كل مرة تزداد توتراً ومرأى الأرض التي تقترب منهم بسرعة تثير قلقها مع كل لحظة تمضي.. هل سيخيب رجاؤها؟.. هل هم سيؤوا الحظ لهذه الدرجة؟.. هل تضافرت كل العوامل لتعلن فشلهم وموتهم في هذا اليوم بالذات؟..

صفرت مرة أخرى بأقوى ما تملك وفكرة تلح على عقلها.. لابد من وجود واحدٍ في موقع قريب.. لابد أن موتهم لن يكون قريباً.. لا يمكنها أن تموت بكل بساطة..

لا يمكنها أن تموت قبل أن تنتقم لموت قاث..

لابد أن تنجو.. وأن تعود.. وأن تنتقم....

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

(الفصل الثامن)
أرض الهوام: الأرض الدنيّـة

دَنَتْ الأرض بسرعة ساحقة لعيني جود التي دمعت لقوة الهواء الذي يضربها.. رفضت في تلك اللحظات أن تغمض عينيها، مكتفية بتضييقهما بما يسمح لها بحمايتهما من الهواء المندفع.. كانت ترفض أن تسلّم أمرها لما يجري، وترفض أن تبقى في الظلام حتى اللحظة المحتومة.. وبينما أغمضت هيما عينيها بقوة وهي تبكي بفزع واضح، فإن ياسان شارك جود في النظر للأرض المتسارعة نحوهما بذعر لم يخفت للحظة.. سمعته يصيح بارتعاب "يا رب السماء.. سنموت.."

لكن جود لم تعلق بكلمة على ما قاله، ولم تتلطف بأي تعليق يخفف واقعهما السيء بالفعل.. اللحظات تمر، وهي عاجزة عن الحصول على استجابة لمحاولاتها اليائسة.. لكنها لم تتوقف عن المحاولة رغم ذلك وهي تطلق صفيراً بأقوى وأعلى ما تملك وعيناها تتنقلان من موقع لموقع ببحث محموم لا يهدأ..

وبعد أن انقطع نَفَسها وهمّت بأن تشهق وتبدأ محاولتها الأخيرة، ومعالم الأرض القريبة قد أصبحت أكثر وضوحاً وإفزاعاً لعينيها، رأت ذلك الجسد الأسود الذي مرق من بين الأشجار الكثيفة وارتفع نحوهم دون هوادة.. اختلج قلب جود بقوة، وأطلقت صفيراً متقطعاً وهي تراقب ذلك الجسد الذي لم يتمهل في طيرانه حتى وصل إليهم..

ولما أصبح قاب قوسين أو أدنى، مدت جود يدها نحوه بلهفة وفعل ياسان المثل، وتشبثا بذلك الجسد بقوة وهو يرتطم بهم ويدور بشيء من العنف بفعل صدمة لقائه بأجسادهم المتسارعة في سقوطها.. دام الأمر للحظات وقلوبهم تخفق بقوة لذلك التغيير الذي حدث في غمضة عين.. ثم استقر في طيرانه شيئاً ما وهم يحاولون التشبث به بقوة وعدم إفلاته رغم تدلي سيقانهم في الهواء.. وجد ياسان أنهم استقروا على جسد حيوان غريب لم يرَ له مثيلاً قط.. كان جسده يشبه جسد نمر، وقرونه وأنيابه البارزة لم تجعله أقل وحشية لعيني ياسان وهيما، فيما كان جناحاه العريضان يرفرفان بقوة دافعاً الهواء حوله ومحاولاً التوازن بعد هذا اللقاء العنيف.. ورغم نجاتهم من الموت المحتم، لكن النمر الطائر بدأ يتثاقل في تحليقه حاملاً أوزانهم،

وبدأ طيرانه يختل شيئاً ما وهو يهبط للأسفل بشيء من السرعة.. فصاح ياسان "سيسقط بنا.."

قالت جود بثقة "لا.. بل سيهبط بنا.."

تأملت هيما الأرض تحتها وهي تتشبث بعرف الكائن دون أن يخفت انفعالها أو تزول الصدمة من وجهها.. لقد أرادت طوال سني حياتها أن تغادر ذلك المعبد الكئيب.. لكن من قد يشك في يوم من الأيام أنها ستصل لهذه الأرض المنبوذة؟..

ظل النمر يتخبط في طيرانه وهم يتشبثون بفروه بقوة محاولين ألا يسقطوا من فوق ظهر هذا الكائن الغريب.. رمق ياسان الأشجار الكثيفة تحتهم التي لم يرَ مثلها قط، والتي يتجه إليها هذا الكائن في طيرانه المتخبط.. من حسن الحظ أنه لا يزال يحتفظ بمسدس صغير في حزامه، فلابد أنه سيحتاجه وبشدة في هذا العالم الوحشي..

أخيراً، لاحظت جود أن النمر قد بدأ الهبوط نحو نهر أصفر اللون تكدرت مياهه حتى ما عاد بالإمكان رؤية ما تحويه بقلبها.. وتكاثفت الغابات على ضفتيه مكونة شريطاً ضيقاً من الرمال والحجارة يفصلها عن النهر.. وفور وصولهم لتلك الضفة الضيقة للنهر، سقط النمر أرضاً بتثاقل، رامياً الثلاثة من فوق ظهره بشيء من العنف.. صاحت هيما متألمة، بينما نهضت جود فور سقوطها وتفحصت رفيقيها لتطمئن عليهما.. ثم قالت بوجه مشرق لياسان "أرأيت؟.. لم نمت بعد.."

قال ياسان وهو ينهض واضعاً يده على مسدسه ليطمئن على وجوده "ما كنت لأصدقك قبل لحظات.. لكن من قال إن وصولنا لهذا المكان نجاة؟.. خاصة بوجود هذا النمر الذي لا يبدو أليفاً.."

قالت جود وهي تربت على النمر الذي اعتدل جالساً "لا تقلق.. هذا ليس نمراً، هذا حيوان يدعى شاس، وهي حيوانات طيّعة، وأليفة يمكن ترويضها بسهولة.."

تساءل ياسان بحيرة "كيف علمتِ أنه سيهب لنجدتنا؟"

قالت جود بابتسامة واثقة "حيوانات الشاس معروفة في كثير من مناطق الأرض الدنيا.. وهي تستجيب للصفير وتهبّ لصاحبه مهما كانت هويته.."

وإزاء نظرات التعجب منهما لمعرفتها هذه المعلومة، قالت بعد لحظة صمت "هذا من القليل الذي لا زلت أذكره عن هذا العالم.."

سمعا في تلك اللحظة صفيراً طويلاً، فاستجاب الشاس بصيحة عالية وهو ينهض متأهباً للطيران.. لكن جود تشبثت به بتوتر ومسحت على مقدمة أنفه لتهدئته قائلة "يبدو أن له صاحب، وهو قادم بحثاً عنه.."

توتر ياسان وهو يحمل مسدسه متأهباً وقال "أحد سكان الأرض؟.. وهل هناك الكثير منهم؟.."

لم تجبه جود وهي تبذل جهدها لتمنع الشاس من الطيران، لئلا يفقدوا وسيلتهم الوحيدة لمغادرة هذه الغابة التي لن تكون أقل خطورة من سقوطهم من السماء.. بينما سارعت هيما لتختبئ خلف ياسان وهي تتلفت حولها قلقة..مع هذا الحيوان الشرس، لابد أن يكون صاحبه أكثر شراسة وغلظة ليتمكن من السيطرة عليه وترويضه.. لذا كان قلق هيما وياسان كبيراً وهما يتلفتان بحثاً عن صاحب الصفير والشاس.. وبعد أن تكرر الصفير، وتكررت استجابة الشاس له بصيحاته العالية، انشقت الأوراق الكثيفة القريبة من الضفة الأخرى لتخرج منها فتاة تماثل هيما في العمر..

وقفت الفتاة مشدوهة لمرأى أولئك الثلاثة غريبي الهيئة، فيما تدلى فك ياسان وهو يراقب الفتاة مذهولاً.. رغم أنه لم يرَ شخصاً من سكان هذا العالم عدا جود، لكنه توقع دوماً أن يكونوا مماثلين لها بالهيئة والصفات.. لكن أن يرى هذه الفتاة التي رغم بعض السمرة التي كستها، لكن هذا لم يخفف من بياض بشرتها التي بدت خالية من العيوب.. شعرها الكستنائي التمع بالنور فور أن غادرت ظلمة الغابة، ورغم بعدها عنهم لكن ملامحها بدت متناسقة وجميلة، وجسدها متناسقاً نحيلاً وإن لم يكن بطول جود..

همست هيما الواقفة خلفه "إنها لا تبدو لي متوحشة كما هو متوقع من سكان هذه الأرض.."

غمغم ياسان "متوحشة؟.. لو كانت هذه الفتاة من سكان ممالكنا، لكانت أميرة على قومها دون شك.."

نظرت جود مقطبة للفتاة التي لم تكن إلا سيرا، والتي رمقتهم بدهشة لا تقل عن دهشتهم، ثم رمت شعرها خلفاً وهي ترفع يدها بخنجر متوسط الحجم نحوهم قائلة بلهجة صارمة " من أنتم؟.. ولمَ تحتجزون الشاس خاصتي؟"

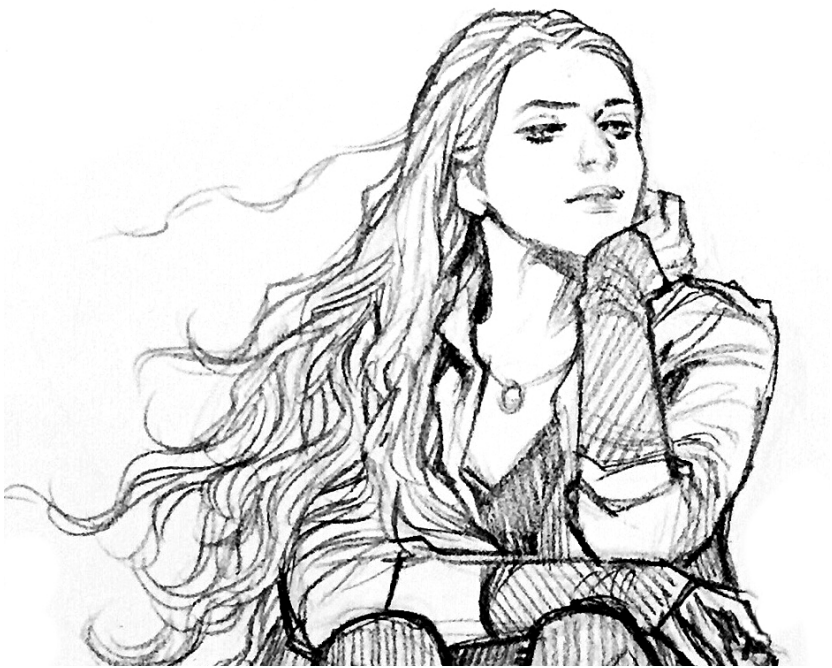

لم يفهم ياسان وهيما كلمة مما تقوله، بينما قالت جود التي فهمت لغتها الأصلية بوضوح، والتي لم تنسَ أغلب مفرداتها رغم تطاول المدة "نحن لا نحتجزه.. لقد أنقذنا من السقوط والموت على الأرض، وقد انتوينا إطلاقه بعد أن يتمكن من إخراجنا من هذه الغابة.."

رفعت سيرا حاجبيها بدهشة قبل أن تغير لغتها بسلاسة قائلة بتعجب "أنتم من سكان ذاك العالم؟.. هذا غريب.."

ازدادت دهشة ياسان وهيما مع تحدثها بلغتهم بلهجة لم تكن غريبة عليهما.. فقالت جود بتعجب "أنت تجيدين لغة ذلك العالم؟"

قالت سيرا رافعة ذقنها "ليس من شأنك.. لكن، أخبريني.. ما الذي جاء بكم للعالم السفلي؟.. ليست هذه السنة التي يرمي فيها أولئك الأوغاد القرابين للعالم السفلي، وأنتم أكبر من أن يتم اختياركم كقربان لمعتقداتهم البالية.."

أظهرت هيما نفسها من خلف ياسان وقالت بدهشة "هل تعرفين طقوس القرابين التي يقوم بها كهنة مملكة الضياء؟.. لا تقولي لي أنك منهم؟!"

أطلقت سيرا صيحة فرح فجأة، ثم هتفت مشيرة لهيما "أأنت كاهنة؟"

تعجب الثلاثة لانشراح ملامح الفتاة المفاجئ وهي تتعرف على ملابس الكهانة التي ترتديه هيما.. فغادرت هيما مخبأها الآمن خلف ياسان وقالت "بلى.. أنا كاهنة.."

قفزت سيرا في الهواء بفرح عارم، ثم صاحت "هذا غير معقول.. كأن السماء أرسلتك خصيصاً لتحقيق أمنيتي.."

ثم أشارت لجود قائلة "أطلقي الشاس.. سأعاونكم على الخروج من هذه الغابة.."

قطبت جود بارتياب للحظة لانفعالات سيرا التي انقلبت للنقيض في وقت قصير، فقالت سيرا بتأكيد "هيا.. لن أخذلكم بالتأكيد.. لا يمكنك تخيل السعادة التي أشعر بها لرؤيتكم هذا اليوم.."

ازدادت دهشة هيما وياسان، فيما اضطرت جود لإطاعتها مرغمة.. لم تكن تريد بدء عراك مع سكان هذا العالم، ولا تملك سبباً يدفعها للشك بكلام الفتاة التي تبدو مبتهجة بشكل يفوق التصور.. وفور أن أطلقت الحيوان، صفرت له سيرا، فرفرف بجناحيه وحلق بضع أمتار متجهاً نحوها دون إبطاء.. أسرعت سيرا

تمتطي ظهره فور هبوطه قربها، ثم جذبت عرفه لتوجهه نحو الثلاثة الذين وقفوا قرب الضفة الأخرى يراقبونها بشيء من القلق..

وعند هبوط الشاس قربهم، لم تترجل سيرا وهي تقول "فلتركب معي الكاهنة.. سآخذها لأقرب موقع مأهول وأعود لنقل بقيتكم.."

قالت جود بضيق "هذا غير مقبول.. من يضمن لنا أن تعودي؟"

قالت سيرا بحزم "ليس لكم إلا كلمتي.. سأعود بأسرع ما أستطيع.. سأحمل الكاهنة فهي الأخف وزناً، والحيوان منهك بالفعل بعد اضطراره لحمل ثلاثتكم سابقاً.. سأعود بعد إيصالها وأحضر معي شاساً آخر لحملكما معاً.."

ظلت هيما تقلب بصرها بينهم بقلق، فيما بدا الضيق والشك واضحاً في ملامح جود.. وليفصل ياسان الأمر بينهم، قال لهيما "هيا يا هيما.. لا داعي للانتظار أكثر لئلا تتأخر الفتاة في العودة إلينا.."

هزت هيما رأسها موافقة، وتقدمت من سيرا التي ساعدتها على امتطاء ظهر الشاس، ثم قالت لجود وياسان بابتسامة "انتظراني هنا.. وكونا حذرين، فالغابة تعج بكل ما لا يخطر على بال أحد.."

ولكزت الشاس الذي ارتفع بسرعة في السماء محمّلاً بصياح هيما المذعورة، فدار دورة واتجه لإ حدى الجهات متتبعاً النهر الذي يقطع هذه الغابة.. زفرت جود مقطبة والشك يملأ قلبها لسبب لا تدريه، بينما قال ياسان وهو يعيد المسدس لحزامه أخيراً "لنذهب.. الأفضل أن نلاقيها في منتصف الطريق.. فلا أحب أن يحل الظلام علينا ونحن في هذا المكان الموحش.."

لم تجادل جود وهي تجدّ السير تابعة النهر في ذات الاتجاه الذي اختفت فيه هيما مع الفتاة.. وعلى ظهر الحيوان الطائر، تلفتت هيما للخلف بقلق على رفيقيها، ثم تساءلت "هل المكان الذي سنذهب إليه بعيد؟"

قالت سيرا "تقريباً.. لن نستطيع الوصول إليه على الأقدام مطلقاً.."

تزايد القلق في صدر هيما وهي تقول "ومتى ستعودين لاصطحاب رفيقاي؟.. ألن يحل الليل قبل ذلك؟"

أطلقت سيرا ضحكة وقالت "لا تقلقي لا تقلقي.. كل الأمور تحت السيطرة.."

ولكزت الشاس دافعة إياه للطيران بسرعة أكبر وأشجار الغابة الكثيفة تتراكض تحت قدميهما دون أن يبدو لها نهاية..

في الوقت ذاته، بعد أن طال الوقت بجود وياسان وهما يسيران تابعين الفتاة وهيما دون أن يلمحا للفتاة أو للحيوان أي أثر، تساءل ياسان أخيراً بقلق "أتظنين أن الفتاة ستعود حقاً؟"

تساءلت جود بسخرية لم تملكها "أأنت خائف على هيما، أم خائف ألا ترى الفتاة مرة أخرى؟"

قال ياسان بتقطيبة "بل أخشى أن نضطر لقضاء الليلة هنا.."

صمتت جود حائرة للغيظ الذي داهمها ولم تعرف له سبباً.. هل ذلك لأن لعاب ياسان سال لرؤية أول فتاة جميلة متناسياً المكان الذي هم فيه؟.. أم أن للمكان الذي هم فيه نصيب من التوتر الذي يصيبها كلما مرت بهم الدقائق في سيرهم وحيدين وسط هذه الغابة الكثيفة؟.. أهو بسبب مغادرتها ذلك العالم الذي لم تتمنّ في أي لحظات عمرها أن تغادره؟.. أم لعودتها لهذا العالم الذي لطالما حاولت تناسيه ونبذه من عقلها وذكرياتها؟..

سارت جود دون تخاذل وياسان يحاول مجاراتها متجاوزاً كافة العوائق التي تمر بهما وهما يسيران محاذيينْ ضفة النهر تلك.. كانت الأشجار تزداد كثافة مع كل لحظة تمضي، ولم يبدُ بتاتاً أنهما قاربا على تجاوز الغابة رغم استمرارهما بالسير دون راحة.. كانت الغابة تتمدد أمامهما كبحر يموج بالأصوات والألوان والروائح التي لم يعرفا لها مثيلاً.. في حياتها السابقة في هذا العالم، كانت جود تعيش وسط أرض صخرية قاحلة، لذا لم تكن معتادة على كثافة الأشجار هذه ورائحتها القوية التي تزكم الأنوف.. ولم يكن ياسان ربيب المدينة بأكثر توجساً منها وهو الذي لم يرَ مكاناً موحشاً مثل هذا المكان في حياته..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

عندما هبط الشاس بالفتاتين بعد رحلة طويلة، لم تملك هيما دهشتها وهي ترى معالم المكان حولها.. كان الشاس يقف بهم في جانب النهر في بقعة انحسرت عنها الغابة وحلّ محلها سهل واسع بأرض طينية رطبة.. وأمامها، رأت هيما قرية متوسطة الحجم لم تتخيل رؤية ما يماثلها مطلقاً.. لم تكن كمدن العالم السامي، ولم تكن حتى كأصغر قرية من قرى ذلك العالم، لكنها كانت قرية متكاملة بأكواخها الحجرية وحظائر الحيوانات ومنصة خشبية وسط الساحة تدور المنازل حولها لتكون مركزاً لها.. لا يبدو أن عدد سكانها يزيد

عن ٣٠٠ شخص، وقد بدت ضاجّة بالحياة بشكل لم تتصوره هيما قط.. بعد أن ساد الاعتقاد أن سكان العالم السفلي، لو وجدوا، يعيشون حياة متفرقة كما تعيش الحيوانات، فإن هذه القرية المنظمة رغم بدائيتها قد حطمت ذلك الاعتقاد بكل بساطة.. ترى، كم بشرياً يسكن هذه الأرض في قرى مماثلة؟..

رأت سيرا تترجل عن ظهر الشاس بخفة، ومدت يدها لها لتعينها على الهبوط.. فلم تمانع هيما ذلك وهي تقول "متى ستعودين لإحضار رفاقي؟"

قالت سيرا بابتسامة "أهذا مهم؟"

نظرت لها هيما بدهشة، فجذبتها سيرا بشيء من القوة قائلة "الأهم من ذلك، هناك من أريدك أن تقابليه.. هناك شخص أمضى سنواتٍ عديدة يتحرق شوقاً للقائك.."

انتابت صدمة كبيرة هيما مع حيرة أكبر لمغزى ما تقوله الفتاة.. هل خدعتهم؟.. لمَ اختارتها هي من بينهم؟.. ومن ذاك الذي ينتظرها رغم أنها لا تعرف أحداً من هذا العالم؟..

جذبت ذراعها بشيء من التوتر قائلة "مهلاً.. ما الذي تعنينه بذلك؟.. عليك استعادة رفاقي.."

انعقد حاجبا سيرا لتنقلب ملامحها الجميلة لأخرى شرسة وهي تقول "من أنت لتأمرينني يا هذه؟.. يبدو أنك لا تملكين الاحترام الكافي لمن أنقذ حياتك.."

ولوت ذراعها خلفها وهي تدفعها أمامها مضيفة "لو بقيتِ ساعة أخرى في تلك الغابة، فلن تشهدي نور شمس الغد بالتأكيد.."

ارتعبت هيما لما تقوله سيرا، وللمصير الذي قد يلاقيه رفيقاها.. رغم أنها لم تعرفهما إلا من يوم واحد، لكنها نوعاً ما شعرت بالسوء لأنها قد نجت تاركة إياهما يواجهان مصيراً غامضاً في عالم غامض.. لكنها صمتت وكفّت عن التذمر آملة أن يعاونها الشخص الذي تقودها الفتاة للقائه.. كما أنها لا تعلم حتى الآن إن كان بالإمكان أن تعدّ ما جرى لها نجاة بالفعل..

أدخلتها سيرا بعد سير قصير وسط تلك القرية لأحد الأكواخ بسيطة المظهر والذي يتكون من جدران حجرية وسقف من القش، ونوافذه عليها بعض الستائر التي تغطيها وهي تخلو من أي نوافذ زجاجية أو مصاريع خشبية منقوشة.. وفي الداخل، لم يكن حال المنزل أفضل من خارجه، وبدا أنه قد تم إعداده وترتيب أثاثه البسيط كيفما اتفق.. وقد خلا من أي سجاجيد على الأرض أو زينة على الحائط، ولم تتحرج

سيرا من دخول المنزل بحذائها الملطخ بالطين وهي تصيح "بارا.. أأنت هنا؟"

لم تجد استجابة من أحد، فاقتادت هيما لجانب من جوانب الكوخ البسيط وربطتها بحبل خشن قائلة "ابقي هنا حتى أعود.."

ولوحت بإصبعها مضيفة "لو فكرت بالهرب، فسنطلق الكلاب خلفك.. لذا كوني مطيعة خيراً لك.."

التزمت هيرا الصمت رغماً عنها والقلق يبدو واضحاً في عينيها.. كانت مجبرة على الاستسلام.. لكن هل كان ذلك في صالحها؟.. ماذا لو لم يكن الشخص الآخر أكثر رفقاً في التعامل معها؟.. ماذا لو رفض معاونتها؟..

بعد وقت طويل قضته وحيدة مع وساوسها، رأت ذلك الشاب الذي دخل من الباب باندفاعٍ واضح ووقف قربه يتأملها بنظرات حادة.. كان الشاب لا يكبرها بالعمر، بملامح مقاربة للفتاة كثيراً مع اختلافات بسيطة وبوسامة مقاربة لجمالها الواضح، وإن اختلف بهيئته الأكثر جدية وعبوساً وهو يرمقها بصمت.. ازدردت هيما ريقها وقد أدركت أن الوصول لاتفاق معه لن يكون بالسهولة المرجوّة، بالنظر لعبوس وجهه.. فيما التفت بارا إلى سيرا قائلاً بضيق واستياء "ما الذي جرى؟.. لقد اختفيت للساعات الماضية تاركة إياي والجنون يغزو عقلي وأنا أبحث عنك في الأنحاء القريبة.. وتعودين الآن بحالٍ مختلفة عن التي رحلت فيها وتدّعين أنك تمكنت من تحقيق أمنيتي.. فمتى ستكفين عن جنونك هذا؟"

قالت سيرا مشيرة لهيما "لا يهم كل ما جرى.. انظر إليها.. هذه هدية من السماء إليك.. أنت كنت تتوق لرؤية أحد أولئك الكهنة، وقد جاءت هذه الكاهنة بقدميها إليك.. ألا يدلّك هذا أن السماء تؤثر بقاءك هنا عن إصرارك السابق للعودة لذاك العالم؟"

نظر بارا عابساً لهيما، ثم اقترب منها متسائلاً بجفاء "أأنت كاهنة؟"

هزت هيما رأسها بشيء من التردد.. لا يبدو أنه سعيدٌ برؤيتها، فما معنى ما يجري هنا؟.. ظل بارا يرمقها مفكراً، ثم قال بتقطيبة "منذ متى أصبح كهنة الشمس يتخذون النساء كاهنات؟.. هذا أمرٌ لم أعهده سابقاً.."

أدركت هيما ما يعنيه، فيما قالت سيرا بشيء من الضجر "وهل لهذه الأسئلة أي معنى؟.. أنت تريد الانتقام من الكهنة، فافعل ذلك بها بأي وسيلة تشاء.. وبعدها اصرف النظر عن انتقامك ذاك وارضَ بحياتنا هنا

معي.."

صدمت هيما لما قالته سيرا بكل هدوء.. الانتقام منها؟.. لمَ؟.. وما الذي يسعى إليه الشاب بذاك الانتقام؟.. أسرعت لتقول لتجلو سوء الفهم ذاك "أنا لست من كهنة الشمس.. بل من كهنة معبد إينار التابع لمملكة الغمام.."

رمقتها سيرا بشيء من الحنق، فيما قال بارا "أين عثرت عليها يا سيرا؟.."

تجاوزت سيرا سؤال شقيقها، وتقدمت من هيما حاملة خنجراً من جرابه المعلق في حزامها، فقالت بحزم وهي تضغط بالخنجر على عنق هيما المرتعبة "هل تريد أن أحقق أنا انتقامك ذاك؟.. أم أنك تريد الانتقام منها بصورة أخرى؟.. اخترْ ما يحلو لك يا بارا.."

كتمت هيما أنفاسها بارتعاب واضح، لكن بارا جذب يد سيرا وانتزع الخنجر من يدها قائلاً بحنق "هلّا كففتِ عن هذا وأجبتني؟.. من قال لك إنني أنوي الانتقام من هذه الفتاة؟"

قالت سيرا باحتجاج "وما الذي يمنع ذلك؟"

قال بارا بغضب "لأنها ليست من أهدفُ للانتقام منه.. انظري إليها، إنها لا تكاد تكبرنا في العمر.. أتظنين أن لمثلها يداً فيما جرى لنا؟.. ثم إنها ليست من كهنة الشمس مطلقاً.."

ورمى الخنجر على طاولة قريبة مضيفاً بنبرة غاضبة "لن أستسلم حتى أحرق ذلك المعبد على من فيه.. لن يطفئ غضبي العبث بحياة فتاة ولو كانت كاهنة.."

ارتجفت هيما بصمت مرتعب لما يقوله.. بدا لها أنه معارضٌ للانتقام منها.. لكن غضبه الواضح قد سبب لها قلقاً وذعراً مما قد يجري لها في هذا المكان الموحش.. ولم يكن أول شخصين قابلتهما هنا باللطف الكافي لرفع آمالها وتوقعاتها بشأن هذا العالم..

تساءلت هيما أخيراً بصوت يرتجف "ما الذي ستفعله بي؟"

نظر لها بارا عابساً، ثم قال "لا شأن لي بك.. فلست أسعى خلف حياتك.. سأطلقك وأتركك ترحلين بالطبع.."

وبدأ حل وثاقها رغم اعتراضات سيرا الحانقة.. ولما ضاق ذرعاً بمحاولاتها دفعه للانتقام، قال لها باستياء "عليك أن تكوني شاكرة أن رادال ليس في القرية اليوم.. لو رأى محاولاتك قتلها، لازداد بغضه لك أكثر

من السابق.."

قالت سيرا عابسة "وأين رحل رادال؟"

أجاب بارا مديراً وجهه جانباً "رحل برفقة أيصر وغيدان فور استيقاظه من النوم فجراً.. ولا أدري متى سيعودون.."

لم تعلق سيرا وإن بدا الاستياء على ملامحها الجميلة جراء غياب رادال.. أما هيما، ففور أن وجدت نفسها طليقة ورأت بارا يبتعد من طريقها، حتى سارعت لمغادرة الكوخ وكأنها تخشى أن تقبض عليها الفتاة من جديد أو تحاول قتلها بغفلة من بارا.. ولكنها فور خروجها من الكوخ وقفت بتوتر كبير وهي تراقب ملامح القرية الغريبة والوجوه الكالحة التي انتبهت لها وبدأت تتأملها بفضول ونظرات متمعنة لم تشعرها بأي راحة..

استدارت هيما لترى بارا يخرج من الكوخ بدوره تاركاً سيرا تتذمر حانقة، فقالت برجاء "هل تأخذني لرفيقيّ الذين افترقت عنهما؟.."

تساءل بارا "وأين هما؟"

أجابت هيما بسرعة "كنا وسط غابة عندما خدعتني شقيقتك وأقنعتني أنها ستنقذنا جميعاً.."

فلوح بارا بيده وهو يتجاوزها بخطوات قائلاً "انسي أمرهما.. الشمس تكاد تغيب، والغابة ليست بألطف مكان لقضاء الليلة فيه.. هما مقضيّ عليهما لا محالة.."

صاحت هيما بارتياع "هذا أدعى لأن تحاول استعادتهما.. فلنذهب بحثاً عنهما.. أرجوك.."

لكن لم يبدُ على بارا أي حماسة للقيام بذلك وهو يتوجه للشاس الخاص به والذي استلبته سيرا منه في الليلة الماضية.. اقترب من حيوانه الأليف وربت على عنقه وأنفه متأملاً الإنهاك الواضح عليه، فيما صاحت هيما بانفعال "ألن تفعل شيئاً؟"

نظر لها مقطباً وقال "لست ملزماً بذلك.."

فقالت هيما بحدة "إذن سأبحث عمن هو أقل دناءة منك ومن شقيقتك ليعينني على إنقاذ رفيقيّ.."

واستدارت مبتعدة، لكن بارا استوقفها قائلاً بدون اهتمام للإهانة التي رمتها في وجهه "لن تجدي شخصاً يتطوع للقيام بمغامرة خطيرة كهذه لإنقاذ غريبين.. خاصة أن أهل القرية لا يمتلكون شاساً كالذي أمتلكه

أنا.. وخوض الغابة سيراً على الأقدام هو حكم بالإعدام على كل من يتجرأ عليه.."

لم تهتم هيما لقوله وهي تهرع لأقرب رجل منها، وحاولت أن ترجوه ليعينها على إنقاذ جود وياسان، لتكتشف أنه لا يفهم حرفاً من لغتها هذه.. حاولت التحدث مع رجال ونساء عدة من القرية، ولم تجد إلا جواباً بلغة لا تفهمها ونظرات حذرة ترمقها وتحدق بملامحها وملابسها الغريبة.. لقد ظنت أن سكان العالم السفلي يجيدون الحديث بلغة العالم السامي، بالنظر لإجادة الشاب وشقيقته الحديث بها.. لكن بدا أنها حالة خاصة.. وقد باءت محاولات هيما بالفشل رغم عدم يأسها ورغم الرجاء الواضح في صوتها..

ومع مغيب الشمس بشكل كامل وغياب الشفق الذي أنار الغيوم بلونه الزاهي، وقفت هيما بيأس وسط القرية التي لجأ سكانها لأكواخهم تاركين الساحة خالية من أي روح.. سمعت هيما صوت بارا يقول لها "ألن تيأسي؟.. عليك العثور على من يؤويك في كوخه لهذه الليلة قبل أن تظلم السماء وتبدأ الحيوانات الضارية في البحث عن وجبة عشائها.."

ظلت هيما صامتة بيأس وهي ترمق جوانب القرية الخالية، وتحدق في الجهة التي تظن أنها تركت جود وياسان فيها.. ما الحل الآن وهي لا تعلم ما قد يواجهانه في هذا العالم الموحش؟.. كيف لها أن تصمت دون أن تعرف مصيرهما؟.. بل ما الذي يمكنها فعله وهي عديمة الحيلة في هذا العالم الغريب الذي لا يفقه حرفاً مما تقوله؟..

بعد بعض الوقت، وجدت بارا يجذبها لتتدلف كوخه محتمية به من الليل وأهواله.. ومع نظرات الضيق الدائمة من عيني سيرا، اضطرت هيما للانزواء في جانب الكوخ بتوجس وتوتر واضحين.. وقلق هائل لما يمكن أن تؤول إليه ليلتهم الأولى في هذا العالم الغريب الوحشي.. سواء بالنسبة لها وهي في هذا الكوخ مع من يسعى خلف عنقها لانتقام لا تدرك مغزاه، أو لرفيقيها وسط الغابة المجهولة..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

لم يكن قضاء الليلة في العراء بالسهولة التي توقعها ياسان، ولا بالهدوء الذي أملت به جود.. مرت ساعات تلك الليلة طويلة متباطئة مع ضجيج لا يمكن تصديقه من جنبات الغابة حولهما.. لم يتمكن أحدهما من

إشعال النيران بأي وسيلة كانت فالرطوبة تغمر كل شيء حولهما.. لذا اكتفيا بالصمت والانزواء في أحد جوانب الغابة قرب النهر في بقعة تتسع فيها المسافات بين الأشجار وتمنحهما مساحة لترقب أي هجوم غادر عليهما..

ولم يطُل بهما الوقت للركون لأي راحة، إذ اندفعت جود واقفة مع صوت تكسر بعض الأوراق والأفرع اليابسة أرضاً.. تحفز ياسان بدوره وهو يهمس قلقاً "من يكون هذا؟"

قالت جود بخفوت وهي تستخرج الخنجر من ثيابها "ماذا تتوقع؟.. حيوان يسعى خلف دمائنا بالطبع.."

لم يكن وجود الحيوانات الضارية بمستغرب في العالم السامي، لكن قلق ياسان في هذا العالم الموحش كان يضاعف من خوفه مما قد يواجهه من حيوانات وكائنات لا يعرف عنها شيئاً.. إن كان الشاس شرس المنظر حيواناً أليفاً في هذه البقاع، فكيف يكون شكل الحيوانات الضارية التي تختبئ في غاباتها الموحشة هذه؟..

أما جود، فلم تكن خائفة بقدر قلقها لما يجري لياسان وهيما في هذا العالم.. رغم أن سنوات طويلة تفصلها عن حياتها السابقة على هذه الأرض، ورغم أنها لا تعرف ما يختبئ في هذه الغابة من كائنات وليست لها خبرة بهذه البقاع، لكنها تشعر بأن حماية ياسان مسؤوليتها الخاصة.. وهي ترجو ألا يصيبه مكروه حتى تقوده لموقع آمن، إن كان بالإمكان العثور على واحد في هذا العالم الذي لطالما كان غريباً عليها..

لم يطل بهما الانتظار وهما يلاحظات تلك العينان اللامعتان اللتان ظهرتا من خلف بعض الأوراق الكثيفة.. تحفزت جود وهي تواجهه، فيما استخرج ياسان مسدسه وهمس "يا للسماء.. ما كل هذا؟"

انتبهت جود في تلك اللحظة أنهما لم تكونا عينان، بل عشرات الأعين التي حدقت بهما من كل موضع حولهما.. انشقت الأوراق عن عدد غير قليل من تلك الحيوانات التي لا ترعب الناظر إليها بحجمها الصغير، لكنها تثير توجساً كافياً بأعدادها.. كانت أقرب للثعالب بحجم صغير وذيل طويل لكن خالٍ من الفراء.. جسدها متضخم عند الصدر والذراعين، لكنه أصغر حجماً في باقيه.. أما الرأس، الذي يبدو أكبر من حجم الجسد نوعاً ما، فقد كان بفم طويل ذو أنياب صغيرة حادة، وأنف يهتز مع الزمجرة التي أصدرها، وعينان لامعتان وأذنان طويلتان بزاوية حادة.. وساعد لونها الداكن القريب من السواد على إبراز لمعة العينين الصفراوين ووضوح الأنياب المتحفزة..

تقدم بعض تلك الحيوانات من جود وياسان من جهات مختلفة، فيما لاحظا أن بعضها بدأ تسلق الأشجار القريبة بخفة والوقوف على الأفرع المنخفضة بتحفز.. تراجعت جود خطوة وهي تهمس لياسان "علينا الابتعاد عن هذه الغابة.. إنهم يحيطون بنا.."

تراجع ياسان معها بخفة وخطوات هادئة مع صوت الزمجرة الذي تعالى أكثر وأحد تلك الحيوانات يتقدم أكثر عن البقية.. فقالت جود بخفوت "هل تستطيع إصابة هذا الحيوان؟.. ربما يخيفهم صوت المسدس وهزيمة أشجع أفرادهم ويدفعهم للرحيل.."

صوّب ياسان مسدسه نحو ذلك الحيوان الذي تقدم دون خوف منهما، ولما أحكم التصويب، أطلق إحدى رصاصات مسدسه في اللحظة ذاتها التي قرر فيها الحيوان الهجوم عليهما.. لم ينجح ياسان في إصابة المتهجم عليهما، وإن أفزع الصوت العالي للمسدس بعض تلك الكائنات وهي تتراجع بقلق واضح.. أما ذلك الحيوان، فقد قفز على جود التي تلقته بضربة من خنجرها ورمته بعيداً مستغلة صغر حجمه مقارنة بها..

لم يكن الخنجر كافياً لقتل الحيوان، ولم يردع الصوت العالي للرصاصة التي أطلقها ياسان بقية القطيع إلا للحظات معدودة قبل أن يبدأ الهجوم الفعلي.. تدافعت الحيوانات نحوهما دون إبطاء، وبدأت جود تطوح خنجرها يميناً ويساراً وتلطم من تطاله بيدها الخالية بضربات قوية دون أن تمنحها الفرصة لغرز أسنانها في أي جزء من جسدها.. في اللحظة التي سيتمكن أحدها من أن يغوص بأسنانه في لحمها، ستكون اللحظة

التي يتكالب فيها البقية عليها لتغدو جود وجبة مشبعة في بطون هذا القطيع الجائع..

وفي الآن ذاته، أطلق ياسان رصاصاته محاولاً إحكام التصويب رغم ارتباكه.. كان مسدسه يحوي ما يقارب عشرين طلقة، نجحت بعضها في أن تردي تلك الحيوانات قتيلة.. ورغم أن ذلك أصاب البقية بتردد حيال الاقتراب منه، لكن ذلك لم يعنِ أنه قد نجح في التغلب عليها إذ سرعان ما تشجعت للتقدم من جديد وأحدها يباغت ياسان بالقفز عليه لترديه رصاصة جانباً وهو يقف لاهثاً بانفعال وعيناه تدوران حوله بتوتر كبير..

صاحت جود وهي تتراجع معه "وفّر رصاصاتك.. لا تطلق إلا إن كنت واثقاً من إصابتها.."

صمت ياسان وهو يبحث في جيوبه عن خزانة إضافية للرصاص، لكنه اكتشف خلو جيبه منها لسبب أو لآخر.. كان واثقاً أنه يحتفظ بثلاث خزائن ذات الحجم الصغير على الأقل في ردائه الرسمي، لكن جاء اكتشاف اختفائها في أسوأ الأوقات الممكنة..

لهثت جود بتعب وهي تقلب بصرها بين القطيع الذي لم يتهاون في التقدم رغم من سقط منهم قتيلاً وجريحاً.. وتساءلت في سرها عن المدة التي ستمضي قبل أن ينجح أحد الفريقين في نيل مراده.. فوجئت في تلك اللحظة بأحد الكائنات يقفز من فوق رأسها من الفرع القريب فاغراً فاه، فتلقته جود بخنجرها الذي أصاب بطن الحيوان وجعله يطلق صيحة متألمة.. عندها رمته جود جانباً وهي تتراجع أكثر بعيداً عن أشجار الغابة المتشابكة وأقرب للضفة التي ستمنحهما رؤية أفضل لمن يحاول مهاجمتهما..

سمعت صيحة من جانبها، ودهشت لرؤية ذلك الحيوان الذي أسقطته وقد نهض مفزوعاً بعد أن سقط وسط مياه النهر القريب التي بللته تماماً.. راقبت هروب الحيوان الذي فرّ نحو الغابة وقد ارتفع حاجباها وهي تفكر في مغزى هذا، عندما لاحظت أن ياسان القريب منها قد توقف عن إطلاق رصاصات مسدسه بعد أن كاد يفرغ دون طائل، وبدأ البحث حوله عما يدافع به عن نفسه، فيما اقترب منه ما لا يقل عن خمس من تلك الحيوانات الشرسة وقد تشجعت أكثر مع غياب ذلك الصوت الذي كان يفزعها.. فركلت جود أقرب حيوان منها وقفزت نحو ياسان عندما لاحظت تحفز الحيوانات للهجوم عليه.. ارتطمت بياسان وأسقطته معها نحو النهر القريب منهما، وسرعان ما هبّا واقفين بتأهب وتوجس وهما يسمعان الصياح المزعج والزمجرة المنذرة تتكرر من الضفة القريبة.. لم يكن يفصلهما عن الضفة إلا خطوات قليلة، ومياه

النهر الباردة تصل لمنتصف ساقيهما حيث وقفا وكل منهما يحمل سلاحه ويحاول معرفة الحيوان الذي سيبدأ الهجوم عليهما مجدداً لينهش من لحميهما ويشبع معدته الخاوية.. لكن الصياح تكرر لوقت غير قصير دون أن يجرؤ أحد تلك الحيوانات على الاقتراب منهما.. اكتفت المجموعة الأقرب إليهما بالصياح في وجهيهما وهي تقدم قدماً وتؤخر أخرى بقلق ظاهر.. اعتدلت جود في وقوفها وهي تدقق النظر في جنبات الغابة المظلمة متفحصة الأعين اللامعة، ثم زفرت قائلة "كما خمّنت، هذه الحيوانات تخشى المياه.."

قال ياسان بقلق ويدان ترتجفان "أأنت واثقة؟"

هزت رأسها لاهثة بتعب لم يقل عما يشعر به ياسان، ثم نظرت للنهر الذي خاضا فيه، وزفرت قبل أن تقول "ربما علينا اللجوء لهذا النهر.. هنا، سنكون بمأمن من هذه الحيوانات الضارية، إن لم نفاجأ بأنواع أخرى لا تخشى الماء وتملك عزيمة كافية للحاق بنا.."

قال ياسان بقلق "وماذا عن هذا النهر؟.. ألا يخفي في قلبه كائنات شرسة أخرى؟"

قالت جود وهي تستدير وتتعمق في سيرها وسط المياه "هذا ما سنعرفه بالتجربة.."

لم يعارض ياسان وهو يتبعها، متجهين إلى أرض صخرية ترتفع وسط النهر معترضة مجراه.. كانت صغيرة الحجم، لكن باتساع كافٍ لجلوسهما عليها معاً دون خطر.. وبشيء من المشقة، جلس ياسان عليها مسنداً ظهره لظهر جود وهو يقلب بصره في المياه التي تكاد تلمس طرف حذائه المبلل.. فيما أراحت جود رأسها على ذراعيها وغمغمت "علينا الحصول على بعض الراحة.. فغداً سيكون يومنا طويلاً.."

همس ياسان "القول سهل.."

لكن عيناه أغمضتا بسرعة لم يتخيلها قط مع جلوسه المتحفز ذلك.. كان نوماً خفيفاً متقطعاً، مع هواجس وكوابيس عن الأنياب التي ستغوص في عنقه فور استغراقه في النوم.. وكانت تلك الليلة تعيسة بما يكفي لإنهاء يومٍ ابتدأ بداية غاية في السوء..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

في اليوم التالي، اضطرت هيما للخروج من كوخ التوأمين بعد أن قضت ليلتها نائمة وهي جالسة بقلب

متوجس مذعور.. كانت كلمات سيرا لا تزال ترنّ في أذنيها، وعيناها اللامعتان بالرغبة في قتلها كانت تلوح لها كلما أغمضت هيما عينيها.. ماذا لو حاولت الفتاة قتلها؟.. بل لأي سبب تفعل ذلك وهي تعلم أنها ليست من كهنة الشمس؟..

رغم أن أحداً لم يتبرع لشرح الأمر لها، لكن هيما تيقنت أن هذين التوأمين من سكان العالم العلوي في الأصل.. ومن سكان مملكة الضياء بالتحديد.. لغتهما السلسة، وحديثهما عن كهنة الشمس، وهيئتهما المختلفة نوعاً عن هيئة بقية سكان القرية قد دلها على ذلك.. لكنها رغم كل شيء لم تتمكن من الاطمئنان لهما كلية..

في اليوم التالي، خرجت هيما من الكوخ رغبة منها في استنشاق بعض الهواء بعيداً عن رائحة الكوخ المشبعة بقتامة لم تفُتها في الليلة الماضية.. رمقت القرية التي عادت لحيويتها مع بدء هذا النهار، ثم سارت بخطوات مترددة بين جوانبها قاطعة طرقاتها الطينية التي غزتها طبقات كثيفة من الحشائش في جوانبها.. كانت القرية أبسط مما رأتها عليه في اليوم الماضي، وتبدو عشوائية بلا نظام ولا اهتمام بترتيبها أو بنظافة البيئة المحيطة بها.. بدا أن سكان القرية يعيشون حياتهم يوماً بيوم دون الاهتمام بتطوير معيشتهم أو استغلال بيئتهم بشكل أفضل..

وبالنسبة لهيما التي شبعت من البيئة النظيفة المحكمة حد الملل، كانت هذه القرية مكاناً يثير فضولها وشغفها بشدة.. ورغم قلقها المستمر على رفيقيها وهي لا تعلم كيف قضيا ساعات الليلة الماضية، لكن هيما لم تستطع كبح جماح طبيعتها المنطلقة كعادتها، وهي تستكشف جوانب القرية باهتمام متخلصة من بعض المخاوف التي استعمرتها إزاء سكانها الليلة الماضية..

كل شيء كان بسيطاً، مفعماً بحياة متقشفة إنما عنيدة ومتشبثة بالبقاء.. وهذا يروق هيما أكثر من البنايات المهندسة والحدائق العطرة والأسوار العالية..

راقبت هيما بعض النسوة اللواتي انشغلن بغسل الملابس في النهر القريب الذي كان أكثر عتامة وقذارة من ملابسهن، ولاحظت بعض الأطفال الذين تراكضوا شبه عراة قافزين في النهر بنشاط تلاحقهم الصيحات الغاضبة من أمهاتهم.. وفيما غاب أغلب الرجال من القرية للصيد كما استنتجت، فإن من بقي منهم انشغل بترميم أحد الأكواخ أو ببناء كوخ جديد بمواد بسيطة من البيئة حولهم وبدون الاعتناء بأي زخرفة أو

رفاهية في البنيان..

تجاهلت هيما أغلب النظرات الفضولية التي تتابعها، واكتفت بمراقبة ما حولها باهتمام ورغبة عارمة في التشبع بكل ما تراه.. كل شيء جديد.. كل شيء غريب.. كل شيء تغمره هالة قد لا يراها أصحابها، لكنها في عينيها هالة مبهرة مذهلة أعمت عينيها عن كل مساوئ هذا العالم وتعاسة أصحابه..

في الآن ذاته، جلست سيرا عند مدخل كوخها بملل شديد مع غياب رادال ليوم كامل، تراقب هيما بصمت وتعجب، ثم دمدمت "تلك الفتاة المرفهة تبدو أكثر تقبلاً لهذه الحياة القاسية مما توقعت.. ظننت أنها ستنفجر باكية بعد ساعات قليلة كأي مدللة.."

تذكرت بداية حياتها في هذا العالم، وكيف أنها كانت تنهار باكية في أغلب الأيام وهي تواجه قساوة هذا العالم وشدّة رادال في معاملتها ومعاملة بارا.. لا يمكنها لوم بارا لبغضه رادال بعد كل ما جرى.. لكنها ليست كذلك.. في الواقع، فإن سيرا شاكرة لقسوة رادال بقاءها على قيد الحياة حتى الآن..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

قبل اثنتي عشرة سنة

أطلقت سيرا صيحة متألمة وهي تسقط من على ظهر الشاس على الأرض التي لم تترفق بجسدها الهش.. وسرعان ما انخرطت في بكاء مرير للآلام التي شعرت بها في جسدها كافة مع هذا السقوط.. لكن رادال القريب سارع للإمساك بالشاس متجاهلاً الطفلة التي لم تتجاوز السابعة من عمرها ومتجاوزاً آلامها وبكاءها.. وبعد أن تمكن من تهدئة الشاس ومنعه من الطيران، التفت إلى سيرا قائلاً بصرامة "هيا انهضي.. هل يجب أن نسمع بكاءك وعويلك كلما أخفقت في تدريباتك؟.."

قالت سيرا باكية "لكني لا أريد.. أريد العودة للبيت.."

قال رادال هازئاً "أي بيت تعنين؟.. ذاك الذي يحلق فوق الغيوم ولن تطاليه مهما فعلت؟.. أم هذا الذي لا يؤوي بين جنباته جباناً متخاذلاً كما أنت الآن؟"

انطوت سيرا على نفسها باكية وهي تدفن وجهها في ركبتيها، بينما تعالى صياح بارا الحانق وهو يهبط بالشاس بعد جولة ناجحة من التحليق "ما الذي فعلته بها أيها البغيض؟"

سارع للقفز من على ظهر الشاس والركض نحو سيرا الباكية، فقال رادال معلقاً على ما يراه "هل ستهرع لجانب شقيقتك الباكية كلما ذرفت الدموع؟.. أنت لا تعينها على النجاح، ولا على أن تصبح أقوى.."

قال بارا بعناد "لا يهم ما تكون عليه سيرا.. أنا سأكون الأقوى، وأنا من سيحميها.."

تساءل رادال "حتى متى؟"

قال بارا بتقطيبة "ماذا تعني بذلك؟.. سأحميها طوال حياتي بالطبع.."

تقدم رادال خطوة وهو يحدق ببارا بنظرة حادة قائلاً "وكم ستطول حياتك في هذا العالم؟.. كم شهراً، أو كم سنة، ستبقى جوار الطفلة وتحميها؟.. بل من سيحميها إن فقدت حياتك لسبب أو لآخر؟"

عبس بارا بضيق وصمت، فقال رادال وهو يستدير مغادراً "إن أردت أن تموت شقيقتك بعدك مباشرة، فافعل ما تفعله الآن للنهاية.. أما إن أردت لها أن تعيش، حتى لو فقدت حياتك أنت، فعليك أن تقسو عليها قليلاً لتصبح أقوى.."

زفر بارا بصمت متفحصاً سيرا بحثاً عن أي إصابات ظاهرة، ولما اطمأن أنها بخير، قال بنبرة حاول كسبها الحزم المناسب "سيرا.. عليك أن تقاومي تخاذلك هذا وتحاولي بجدية أكبر.."

قالت سيرا باكية "لستُ متخاذلة.. أنا حقاً لا أقوى على ما يطلبه مني رادال.."

قال بارا بحزم "فكري في الأمر بهذه الصورة.. مع كل مجهود تبذلينه مهما كان مؤلماً، يزداد اقترابنا من تحقيق هدفنا والعودة لأمنا ولبيتنا الآمن.. ألن يكون هذا رائعاً؟"

لم يهدأ بكاء سيرا إلا قليلاً وهي غير مقتنعة بقول بارا، أو أنها لا ترى جدوى عودتها ما دام الكهنة سيرمونهما من ذلك العالم من جديد كما أقنعها رادال.. لكن بارا لم ييأس وهو يقول "سنعود يا سيرا.. يجب أن نعود.. وعندها، سنكف عن هذه التدريبات القاسية ونعيش حياة هادئة برفقة أبوينا.. ألا ترغبين بذلك حقاً؟"

لم تكن سيرا واثقة مما تريده في تلك اللحظات.. كانت تبغض هذا العالم مع التعب والإرهاق الذي تشعر به كل مساء.. وتخشى في الآن ذاته العودة لعالمها خوفاً من أن يقوم الكهنة بقتلها أو رميها نحو الأرض السفلى من جديد.. فما الخيار الأفضل بالنسبة لها؟.. لا تدري.. ولا يبدو أنها ستدرك ذلك قبل مرور وقت طويل جداً على هذه الأرض..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

بعد نوم متقطع وأحلام مزعجة، استيقظ ياسان في الصباح التالي بأعضاء مضعضعة للألم العارم فيها، ووجد نفسه يستلقي على تلك الحجارة القاسية التي شكلت جزيرة ضئيلة وسط النهر الجاري.. انتبه أول استيقاظه على صوت الصفير الذي تردد وسط الغابة الكثيفة قرب الضفة.. اعتدل جالساً بحثاً عن جود، حتى لمحها فوق إحدى الأشجار المرتفعة تطلق صفيراً عالياً وهي تقلب بصرها في الأفق.. ولما انتبهت لاستيقاظه، قالت له "أأنت بخير؟.. استعد نشاطك بسرعة، فعلينا الرحيل بأسرع ما يمكننا.."

هز ياسان رأسه موافقاً وهو يفرك رقبته بألم، وتساءل "ما الذي تفعلينه؟"

أجابت وهي تقلب بصرها في السماء "أبحث عن أي شاس قريب قد يعيننا على الانتقال بسرعة، لكن محاولاتي باءت بالفشل.. والآن علينا الرحيل على الأقدام مجدداً للحاق بهيما قبل أن تؤذيها تلك الفتاة المخادعة.."

قال ياسان بغير اقتناع "ربما لم ترغب بإيذائها.. بل ربما عادت بحثاً عنا لكنها لم تعثر علينا.."

قالت جود وهي تهبط من موقعها المرتفع "كفاك أحلاماً.. هذا العالم لا يتسع لهذه الآمال الوردية.."

لم يعلق وجود تقترب من الضفة وتتلفت حولها، ثم قالت "لنبحث عما نأكله بسرعة.. أمامنا عمل كثير.."

نظر لها ياسان باستفهام، فقالت مشيرة لبعض الجذوع الصغيرة الساقطة جانباً قرب الضفة مضيفة "الأفضل لنا صنع طوف بهذه الجذوع.. التنقل عبر النهر أفضل من السير على الأقدام وأكثر أمناً وسرعة بالتأكيد.."

علق ياسان وهو يحك رأسه "أنت أكثر تأقلماً مع هذا العالم مما ظننت.."

صمتت جود للحظة تتأمل الغابة التي لا تزال غريبة عليها، ثم قالت "ربما لأنني أمقت هذا العالم، لذا أسعى لأن أتغلب عليه بأي صورة ممكنة.."

وأضافت وهي تتوغل في الغابة "لن أفقد حياتي في هذا العالم البائس أبداً.."

غمغم ياسان بحيرة وهو يرمق السماء الغائمة فوق رأسه "وهل هناك وسيلة للعودة حقاً؟.."

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

في اليوم الثاني لوجودها في هذا العالم، وفي هذا القرية، كانت هيما شبه متناسية لمصير رفيقيها وهي تنغمس مع أهل القرية في شتى النشاطات التي يقومون بها.. لم تتوانَ عن رفع ملابسها الطويلة وربطها حول خصرها متجاهلة الطين الذي يغطي أغلب جوانبها.. ورفعت أكمامها حتى ثنتهما بإحكام أعلى ذراعيها، وخاضت في النهر بشيء من الحماس وهي تحاول اصطياد ما يؤكل في هذه المياه العكرة..

رغم قناعتها أن الأسماك لا يمكن أن تعيش في هذه المياه الملوثة، لكنها لم تتجاهل حماس الصبية الذين تراكضوا برماح مصنوعة يدوياً من بعض الأفرع اليابسة وبعض الحجارة ذات الزوايا الحادة التي تم ربطها في مقدمة الرمح.. شاركتهم نشاطهم وعبثهم رغم أنها لم تفهم كلمة مما يقولونه، وإن أصبحت في نهاية هذا اليوم قادرة على التقاط بعض الكلمات التي تكررت أمامها عدة مرات دون أن تكون متأكدة من معناها بشكل كلي..

ومع انتصاف النهار، وقفت خلف الفتيات اللواتي انشغلن بإشعال بعض النيران باستخدام بعض الأفرع الجافة، رغم أن العثور عليها صعباً في هذه البيئة الرطبة، مع كمية وافرة من روث الحيوانات المجفف الذي سيضمن للنار اشتعالها لأطول وقت ممكن.. ورغم الرائحة النفاذة التي تثير الغثيان، لكن لعاب الفتية سال مع رؤية الأسماك التي اصطادوها وهي تشوى على النار بعد أن وضعت في أعواد خشبية وغرزت في الأرض قريبة من اللهب.. ظلت هيما تراقب ما يقوم به الصبية والفتيات بفضول ظاهر، حتى قامت إحدى الفتيات بإعطائها سمكة صغيرة الحجم ببادرة كريمة لم تفهم هيما لها سبباً.. كان صيدهم شحيحاً، وقد تقاتل أغلب الصبية على الأسماك الأكبر حجماً، فيما تشارك البقية الأسماك بينهم.. فكيف يمنحونها إحداها وهي لم تتمكن من اصطياد أي واحدة رغم كل محاولاتها؟..

لم تقدر هيما على مقاومة جوعها، فتناولت أقل القليل من لحم السمكة اللذيذ، قبل أن تعيده للفتاة الصغيرة مربتة على رأسها بلطف.. جالت عيناها بين الأعين اللامعة والوجوه الملطخة بالطين والأطراف النحيلة شبه العارية.. كيف لمعاناة مرتسمة بهذا الوضوح والبؤس، أن تتوارى خلف فرحة تجلبها متعة صغيرة كهذه؟!.. كيف لوجوه كالحة أن تلتمع بهذا الجمال الذي قلما تراه بين جنبات ذلك المعبد المقدس الذي جمع

بين أسواره كل رغد الحياة؟..

لكن، ربما ما افتقده المعبد وكهنته طوال تلك السنوات هو بعض الحرية.. بعض الحياة.....

ومع حلول المساء، عادت هيما للكوخ الذي لا تعرف غيره في هذه القرية، وانطوت في جانب المكان بملابسها الملطخة بالطين وشعرها المبعثر دون عناية كما اعتادت طوال سنواتها الماضية ككاهنة، وخلال لحظات قصيرة غرقت في النوم دون إبطاء.. كان الشعور بالألم في أطرافها والإنهاك الذي لم تعرف مثله سابقاً يملؤها حبوراً وسعادة لم تشعر بمثلهما قط.. والطعام البسيط الذي يختلف عن ذائقة سكان العالم السامي كل الاختلاف، والذي حصلت عليه من إحدى النسوة مع نهاية نهارها الصاخب ذاك، يملأ معدتها بلذة جديدة لم تعرف مثلها مطلقاً.. وأمامها، وقفت سيرا باستنكار مدمدمة "تلك البلهاء أصبحت تعتبر هذا الكوخ منزلاً لها.."

همّت بركلها لإيقاظها، لكن بارا استوقفها معلقاً "ألستِ أنت من أبعدها عن رفيقيها؟.. عليك أن تتحملي المسؤولية إذن.. وحتى تقرر ما ستفعله في هذا العالم، علينا أن نؤويها في منزلنا ونمنحها الطعام والماء.."

قالت سيرا باستنكار "أأنت جاد؟.. ما الذي يجبرنا على ذلك؟"

أجاب بارا "ذات الشيء الذي أجبر رادال على حمايتنا وإيوائنا وإطعامنا سنوات طوال.. نحن في هذا العالم القاسي سواء.. ولا يحق لنا التنكر من أي شخص فيه.."

غمغمت سيرا حانقة وهي ترمي نفسها على أريكة قريبة "قتلها أسهل وأوفر لنا بالتأكيد.. ما الذي يدعوك للشفقة عليها بهذه الصورة؟.."

لم يجب بارا وهو يرمق وجه هيما الذي لا يبدو بالتعاسة المتوقع من شخص فقد عالمه في لحظة ووجد نفسه في عالمٍ قاسٍ بشع الهيئة والقالب.. عجيب أمر هذه الفتاة.. والأعجب منها هو وجودها، ووجود رفيقيها اللذين لا يعرف حالهما، في مثل هذا المكان، وفي وقت مغاير للسنة التي يتخذها الكهنة لاختيار قرابينهم المقدسة.. فما الذي رماهم لهذا العالم في هذا الوقت؟..

سمع سيرا تقول باهتمام وانزعاج واضح " هل عرفت السبب الذي دفع رادال للتغيب طوال الأيام السابقة؟.. إلى أين ذهب برفقة غيدان وأيصر؟"

صمت بارا عن الإجابة غير عالمٍ إن كان يجب عليه أن يخبرها بما أبلغه به أيصر قبل عدة أيام.. كان أيصر قد

شدد عليه ألا يصل هذا الأمر لبقية القرويين خشية إثارة قلقهم واعتراضهم على الأمر.. لكن سيرا لم تكن ممن يفشي الأسرار بسهولة، ولم تكن لها صداقات أو علاقات وثيقة مع بقية أهل القرية ليخشى من انفلات لسانها لأي سبب.. لذا، ومع نظراتها اللحوحة أكثر، قرر أن يخبرها بالأمر كله.. ربما، عندما تعرف الأمر ويتضح لها سبب تغيب رادال، قد تكف عندها عن الثورة والغضب بهذا الشكل الظاهر.. لم يكن رادال مهتماً بامرأة أخرى كما تهيأ لها سابقاً وكما صرّحت له في أحد الأوقات، ولذا قد تستكين سيرا أكثر وتكف عن إثارة الزوابع في حياته وحياة رادال في كل يوم يمضي..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

استغرق صنع الطوف وقتاً طويلاً من جود وياسان فاق ما توقعاه، مع غياب أي معدات ملائمة لتسريع عملهما إلا الخنجر الصغير الذي تحتفظ به جود.. لكن النتيجة كانت تستحق.. فمع نهاية ذلك اليوم، كان الإثنان يكملان طريقهما عبر النهر الذي كان أكثر هدوءاً وسلاسة من الرحيل على الأقدام، ودون مفاجئات كثيرة إلا بعض الصخور التي تعترض طريقهما، فيحاول الإثنان تفاديها بدفع الطوف جانباً باستخدام بعض المجاديف البدائية التي صنعاها من أفرع الأشجار.. ولم يقتربا من الضفة إلا للبحث عن طعام لهما متفاديينْ التوغل في الغابة كثيراً.. وكان النوم أسهل وأهدأ كثيراً على ظهر الطوف مع تناوبهما على مراقبة الوضع طوال الليلة التالية.. ومع فجر اليوم الثالث لهما في هذا العالم، أيقظ ياسان جود قائلاً بلهفة "لمحت أمراً في الأفق.. من الخير لك أن تريه.."

نهضت جود بنشاط بعد نومها الهادئ في النصف الثاني من تلك الليلة، ورمقت الجهة التي أشار إليها ياسان ملاحظة أنهما قد تركا الغابة خلفهما، وبدأت الأرض تتحول لمساحات طينية تتخللها الأعشاب وبعض الأشجار في عدة مواضع.. وفي الأفق، لاحظت جود ذلك الخط من الدخان بوضوح والذي صعد بهدوء للسماء.. لم يكن خطاً واحداً، إنما عدة خطوط دلتهما أن ذلك الموضع يحوي قرية أو معسكراً لعدد غير قليل من البشر، وكان ملاصقاً لمجرى النهر الذي يعبرونه.. فقال ياسان بأمل "أتظنين أنها هي القرية المنشودة؟.."

أجابت جود وقد انفرجت أساريرها "أظن ذلك.. هذا هو الاتجاه نفسه الذي رحلت إليه الفتاة مع هيما.."

غزا الترقب نفسيهما وهما يدفعان الطوف لتجاوز المسافة القليلة بالعصي التي يملكونها.. كانت المسافة غير قليلة، لكنهما قطعاها بسهولة تامة وبعد أقل من نصف ساعة وصل الاثنان لمشارف القرية الصغيرة التي امتدت لمسافة غير قليلة في هذه الأرض المسطحة السهلة.. فهتف ياسان بفرح ظاهر "أخيراً.. كان ذلك شاقاً، لكن النجاح حليفنا أخيراً.."

غمغمت جود وهي تدفع الطوف للرسو قرب الضفة القريبة "من يدري إن كانت هذه القرية المنشودة أم لا؟.."

قال ياسان دون أن يزول حبوره "لا بد أن تكون هي.. فحولنا لا يمكننا أن نرى أي أثر لحياة غير هذه القرية.. ولولا أعمدة الدخان التي ترتفع من مداخنها لما تمكنا من العثور عليها.."

لم ترغب جود بتحطيم آماله، وإن تمنت في سرها أن ينتهي بحثهما أخيراً.. المبيت لثلاث ليالٍ في العراء كان أكثر مما يمكنها احتماله.. هبطا على الأرض الطينية، فتوجهت جود من فورها نحو أحد الرجال الذي توقف عن عمله على سطح كوخٍ قريبٍ من الضفة ورمقهما مستغرباً، فسألته جود باللغة المحلية عن فتاة غريبة جاءت للقرية على ظهر شاس تملكه فتاة ربما تنتمي لهذه القرية، ووصفت له ملامح سيرا كما تذكرها.. لم تكن جود بحاجة لوصف هيما للرجل، إذ سرعان ما أخبرها أن فتاة غريبة الأطباع قد وصلت للقرية بالفعل قبل يومين برفقة سيرا.. وأشار للكوخ الخاص بها في موقع غير بعيد عنهما.. عندها سارت جود بخطوات واسعة نحو الكوخ وهي تقول لياسان "هذه القرية هي مرادنا بالفعل.."

لم يتمهل ياسان في اللحاق بها وتنهيدة ارتياح تصدر منه.. كانت القرية تستيقظ للتو، وقلة منهم من انشغل بالفعل في أعماله الدائمة التي لا تكاد تنقضي.. ارتقت جود الدرجتين اللتين تفصلانها عن باب الكوخ، ولم تتردد في فتحه بقوة وخشونة عندما سمعت صيحة من خلفها.. التفتت خلفاً لترى سيرا تقترب من جانبٍ آخر من القرية وترمقها بنظرات دهشة حقيقية وهي تقول "كيف وصلتما لهذا المكان؟!.."

لم تتمهل جود وهي تندفع نحو سيرا وتلطمها رغم تراجع الأخيرة، فرمتها بقوة لطمتها على الأرض الطينية.. عندها أسرعت جود لقلبها على بطنها والحد من حرية ذراعيها بلفهما خلف ظهرها.. صاحت سيرا بألم وغضب وهي تحاول الإفلات، وقد تزايد بغضها لهذه الفتاة التي تعاملها بغلظة وتحط من قدرها

بكل صورة ممكنة.. كيف تجرؤ على دفن وجهها في الطين؟.. بل كيف نجت من تلك الغابة خلال اليومين الماضيين؟.. كيف؟!..

سألتها جود بعد أن أحكمت وثاقها "والآن، هل ستخبرينني بما فعلته بهيما وسبب اختطافك لها؟"

صاحت سيرا غاضبة "ما الداعي لكل هذا؟.. ها هي الكاهنة تنام نوماً هنيئاً في كوخي دون أن يصيبها أي سوء.."

سمعت جود شهقة في تلك اللحظة، فرفعت رأسها لترى هيما تقف عند باب الكوخ تنظر لها ولياسان غير مصدقة لرؤيتهما حيين.. عندها اندفعت هيما نحو جود وارتمت عليها دامعة العينين وعانقتها بقوة..

تعجبت جود لانفعال هيما، وتساءلت بقلق "أأنت بخير؟.. ما الذي فعلته بك هذه الحقيرة؟"

نهضت سيرا بغيظ بعد أن أفلتتها جود، فيما نظرت هيما لجود وياسان متسائلة بعينين دامعتين "أأنتما بخير؟.. كيف نجوتما رغم بقائكما وحيدين في العراء؟.."

علقت جود بابتسامة "لا تستهيني بقدراتي في هذا العالم.."

فقال ياسان وهو يحك شعره بتعب واضح "ورغم ذلك، يمكن القول بثقة إننا نجونا بأعجوبة.."

ابتسمت هيما بسعادة وهي تقول بصوت منفعل "سعيدة بعودتكما حيين.. لقد ظننت أنكما لن تعودا مطلقاً من ذلك المكان الموحش، وأنني لن أراكما مطلقاً....."

فوجئت بجود تدفعها جانباً وهي تستدير لتقبض على ذراع سيرا التي فاجأتهم بهجوم خاطف بخنجر في يدها.. لكنها لم تتمكن من مفاجأة جود التي قالت مقطبة "ما معنى هذا؟"

عبست سيرا بغضب وهي ترفع قدمها لتركل جود التي تلقت ركلتها بذراعها الأخرى.. ورغم الألم الذي نبض في ذراعها، لكن جود تجاهلته وهي تدفع قدمها بدورها لتركل ساق سيرا وتسقطها أرضاً من جديد.. ولما نهضت سيرا حانقة للهجوم من جديد، فوجئت بياسان يكتفها بذراعيه وهو يهتف "ألا يمكنكما الهدوء والتفاهم ولو قليلاً؟.. لا معنى لكل هذا الصراع بلا طائل.."

صاحت سيرا بغضب "أطلقني.."

أطلقها ياسان، لكنه وقف بينها وبين جود المتحفزة آملاً أن يتمكن من إيقاف هذا الصراع الذي لا يفهم سببه.. فأصلحت سيرا خصلات شعرها التي تبعثرت وهي ترمق جود بكره عارم، ثم قالت بنبرة جافة

"ما الذي تبغينه منا بالضبط؟.. ها هي الفتاة بخير حال.. خذاها وارحلا من هذا المكان دون إبطاء.."

تراجع ياسان بدوره بعد أن لاحظ أن سيرا قد كفّت عن محاولاتها للعراك مع جود، فيما قالت الأخيرة مقطبة "نرحل لأين؟.. أنت مدركة أننا بسقوطنا من العالم العالي قد أصبحنا بلا مأوى.. من العاقل الذي سيغادر هذه القرية ليبقى في العراء؟"

صمتت سيرا مفكرة للحظة، ثم اقتربت من جود دافعة يد ياسان الذي حاول إيقافها.. فقالت بصوت خفيض "ألا تبحثين عن وسيلة للعودة لعالمك؟"

نظرت لها جود والبقية بدهشة، ثم قال ياسان بلهفة "أتملكين وسيلة لنقلنا للعالم السامي؟"

كممت سيرا فمه ملقية نظرة على ما حولها، ثم قالت بتقطيبة "لا تحاولا جذب الأنظار إلينا.. مثل هذه الطائرة ستغري الكثيرين من سكان هذه القرية للرحيل عبرها للعالم العالي الأكثر أمناً ورخاءً من هذا العالم.. عندها، ستجدون أنكم قد فقدتم وسيلتكم الوحيدة للرحيل.."

قالت هيما بحماس رغم انخفاض صوتها "طائرة؟.. هل تملكين طائرة حقاً؟"

هزت سيرا رأسها إيجاباً، فيما قالت جود بشيء من عدم التصديق "ما الذي يجعلنا نصدق هذا الأمر؟.. لو أنك كنت تملكين طائرة منذ زمن، ما الذي أجبرك على البقاء في هذا العالم البائس؟"

قالت سيرا بسرعة "من قال إنني أسعى للرحيل؟.. هناك ما يمنعني من ذلك الآن.. كما أنني بلا خبرة للتحليق بطائرة كهذه كما لك أن تتخيّلي.."

لم يغادر الشك ملامح جود، فيما أضافت سيرا "علينا الذهاب إليها كي تصدقي قولي.. لكن أنصح بأن نذهب وحيدتين.. ذهابنا جميعاً قد يثير فضول البعض وقد يدفعهم للحاق بنا مع ما يتبع ذلك من مشاكل لا نرغب بها.."

تبادل الثلاثة النظرات بمزيج الحماس واللهفة والشك، ثم قالت جود "سأذهب معك أنا.. لا أثق بك بعد، ولا يمكنني أن آمن رفاقي معك مطلقاً.."

مطت سيرا شفتيها، ثم قالت وهي تستدير مغادرة القرية "كما تشائين.. لا يهمني إلا رحيلكم والخلاص منكم بأقرب فرصة.."

قالت هيما بخفوت لجود قبل ابتعادها "جود.. كوني حذرة منها.. أنا لا أثق بهذه الفتاة مطلقاً.."

قالت جود بلهجة حاولت طمأنتها بها "ولا أثق بها أنا أيضاً.. انتظراني هنا، وسأعود بأسرع ما يمكنني.."

وسارت لاحقة سيرا التي لم تلتفت لتتأكد من وجودها ولو للحظة.. لمست جود الخنجر الذي تخفيه في ملابسها عادة، وكأنها تطمئن لوجوده وللأمان الذي يمنحها إياه.. لكن، كيف لها أن تقلق من هذه الفتاة التي لا تبدو بالقوة ولا المهارة الكافيين للتغلب عليها؟.. جود قد خاضت تدريبات قاسية ومطولة لسنوات طوال لتتمكن من التغلب على خصوم أقوى وأشد خطراً من هذه الفتاة.. لذا، لا يوجد ما يدفعها للقلق على مصيرها في اللحظات القادمة مطلقاً..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

بعد سير قصير لم يتجاوز نصف ساعة، وقفت سيرا عند رأس منحدر صخري وهي تقول مشيرة للأسفل "هناك.. سيكون من الصعوبة بمكان الوصول إليها.. لكن لا أظنه مستحيلاً.."

تقدمت جود متخلية عن حذرها وهي تنظر من فوق المنحدر.. كان المكان في الأسفل عبارة عن مستنقع يغطي مساحة شاسعة، تتخلله بعض الأشجار التي غزتها النباتات المتسلقة حتى بدت خضراء بالكامل، فيما ارتفعت عن مستوى المياه الخضراء بجذورها وسيقانها حتى بدت كأشباح تسير فوق المياه الراكدة.. والمياه ذاتها يصعب رؤيتها للطحالب الخضراء التي تغطي سطحها حتى تبدو من الأعلى كمساحات عشبية واسعة.. لولا بعض الحجارة التي سقطت من تحت قدم جود للأسفل وغاصت في المياه مكونة دوامات محدودة سرعان ما تلاشت ليعود للمياه ركودها السابق..

دققت جود النظر في المكان ملاحظة خلوّه من أي جزئية شاذة تخلّ بالمنظر الطبيعي الموحش من حولها.. فقالت بحيرة "لكني لا أرى شيئاً.. أين تلك الطائرة؟.."

أضافت سيرا ببساطة "عليك أن تقتربي أكثر لترى الصورة كاملة.."

قطبت جود بحيرة من مغزى جملة سيرا، عندما فوجئت بتلك اللطمة التي أصابت ظهرها بيدي سيرا ودفعتها أمتاراً للأمام لتجد نفسها تسقط في الفراغ ونحو المستنقع الذي لا تعلم كم يبلغ عمقه.. ورغم أن المنحدر لم يكن مرتفعاً كثيراً، إلا أن سقطة جود كانت مؤلمة وهي تجد نفسها ترتطم بالأرض المغمورة

بالمياه.. اعتدلت شاهقة وهي تنفض رأسها من المياه، وصاحت "ما معنى هذا أيتها اللعينة؟"

تعالت ضحكات سيرا وهي تقف على طرف المنحدر وتنظر إلى جود بسخرية، وقالت "لا تقلقي.. ستنتهي معاناتك مع هذا العالم بأسرع مما تظنين.."

ثم أضافت بلهجة تشفٍ وهزء "هذا ما تنالينه لمعاملتي باحتقار ودونية.."

صمتت جود وهي تلاحظ ذلك التجويف الذي بدا لها تحت المنحدر، والذي لم يكن مجرد تجويف خالٍ كما ظنت لوهلة.. فمن قلبه، سمعت صوت حسيس خفيف منذر بالخطر، ولاحظت حركة خافتة لا تبدو للظلمة التي تهيمن على التجويف.. نهضت بسرعة وتوتر وهي تستخرج الخنجر المخفيّ في ملابسها لتدافع به عن نفسها، ملاحظة أن سيرا قد غادرت موقعها بعجلة ودون أن تنتظر لرؤية نتيجة ما سيجري.. وكأن الصراع محسوم سلفاً بين جود وغريمها..

تراجعت جود خطوات ممسكة بالخنجر بكلتي يديها، ووقفت به بتأهب بانتظار رؤية ما يهددها وإن كان سيفصح عن نفسه أم سيتوارى في الظلمة مدة أطول.. حاولت التراجع عدة خطوات بحذر، آملة أن يكتفي ذلك الكائن الذي لا تعرف هويته بإصدار ذلك الصوت التحذيري الذي يثير قشعريرة في جسدها.. لكن آمالها خابت بأسرع مما تتوقع.. فمن ذلك التجويف، ومن قلب الظلام المهيمن عليه، رأت ذلك الجسد الطويل الذي اندفع نحوها بسرعة خارقة عجزت عن تتبعها.. حاولت التجاوب مع ذلك الهجوم بأسرع ما تستطيع مطوّحة بالخنجر بأقوى ما تملك، لكن ذلك الجسد مال جانباً بليونته الشديدة متفادياً تلك الضربة وسرعان ما التفّ حولها وبدأ يضيّق الحلقة أكثر فأكثر..

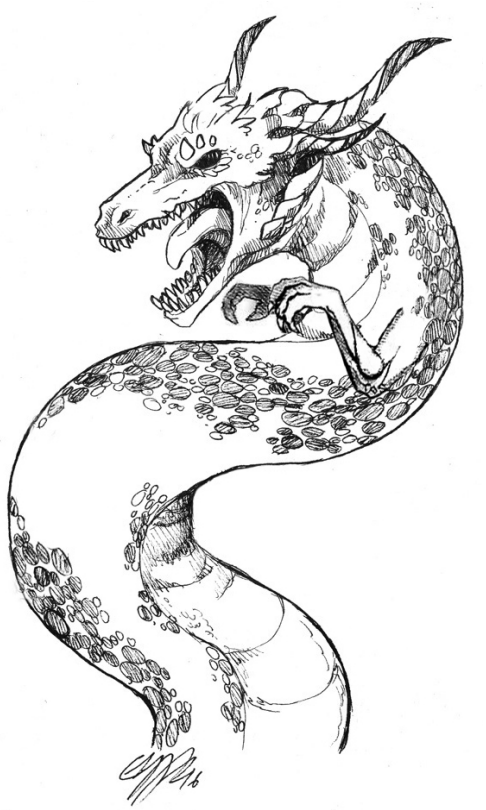

وخلال لحظة، وجدت جود الخنجر يسقط من يدها بعد أن أحاط بها ذلك الجسد، ووجدت أطرافها الأربعة مقيّدة بقيد قوي ولينّ في الآن ذاته، ووجدت نفسها تحدق في الوجه الطويل الذي تكسوه حراشف سميكة، والعينان الخضراوان المشقوقتان طولياً، والقرنان الملتويان في أعلى الرأس، فيما الفم ذو الأنياب البارزة ينفرج ليتسلل منه لسانٌ أسود يصدر صوتاً

كالحسيس بتحذير واضح.. شهقت جود للمفاجأة، وبسبب الضغط الذي ضغط به ذلك الجسد عليها حتى كادت أنفاسها تنقطع.. كان ذلك الرأس لحيوان طويل الجسد أشبه بثعبان ضخم التفّ حولها بجسده واعتصرها بقوة، وإن لاحظت يدان قصيرتان بمخالب طويلة وساقان مشابهتان في جزئيه العلوي والسفلي مما جعله أشبه بتنين منه لثعبان..

تعالى الحسيس بحدة وغضب أكبر وكأن هذا الحيوان حانق لقطعها خلوته واقترابها من وكره، وازداد الضغط على جسدها حتى احتقن وجهها وبدأت تشعر أن فقرات ظهرها ستتكسر وهي عاجزة عن الإتيان بحركة.. عاجزة حتى عن تحريك إصبع من أصابعها أمام هذا الهجوم..

وكأن ذلك لم يكن كافياً، إذ وجدت الجسد يميل وينزل بها حتى وجدت نفسها مغمورة وسط مياه المستنقع الآسنة، حيث لا يمكنها أن ترى أبعد من شبر واحد لركود المياه.. ولم يمنحها ذلك الحيوان الشرس أي وسيلة للمقاومة وإنقاذ نفسها من هذا الهجوم الغادر.. ورغم تخبطها ومحاولاتها اليائسة للإفلات من هذا الوضع الخطر، إلا أن الأنفاس التي تحتجزها في صدرها تسللت من فمها رغماً عنها.. وعجزت عن كتم أنفاسها أكثر من ذلك وغمامة سوداء تغشي عينيها وعقلها.. وقد أدركت ووعيها يتسرب منها أنها قد لا تفتح عينيها مرة أخرى.. لكن لم تكن تملك حيلة لما يجري لها في تلك اللحظات..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

(الفصل التاسع)
مملكة الغمام: خيانة الآثمين

لم يكن ذلك اليوم الذي طلع على عاصمة المملكة بأفضل يوم ممكن.. فأصوات التفجيرات والهجوم على مركز قيادة الجيش يصل لجوانب المدينة حتى أبعد أحيائها، وأخبارٌ عن الهجوم الصادم تتالت بعشرات ومئات الأفواه وإن لم يتضح لسكان المدينة المتوجسين حتى الآن هوية أصحاب ذلك العدوان.. من يتجرأ للهجوم على عاصمة المملكة مباشرة؟!.. من يكسر ذلك الأمان الذي ساد لقرون وقرون دون أن يخلّ به أي أمر؟!.. بل من يكسر المعاهدة السارية بين الممالك الأربع حتى لو كانت شفوية وغير مكتوبة؟..

وفي قصر الملك، الذي تم إعلامه بذلك الهجوم في اللحظة ذاتها التي دوّت فيها صفارات الأنذار في مركز القيادة والأحياء القريبة منها، صاح الملك بغضب "ما الذي يجري هنا؟.. ألن يشرح لي شخص هذا الأمر؟.. كيف لمثل هذا الهجوم أن يصل لقلب المملكة ولعاصمتها الحصينة دون أن يصلني خبر واحد عن هذا الأمر من الجيش؟"

قال كبير وزرائه بقلق "سيدي، ليس الوقت ملائماً لحديث مفصل عن هذا الأمر.. علينا الرحيل بك وبالعائلة المالكة لمخبأ الطوارئ.. لا ندري أين سينتقل الهجوم في هذه اللحظات، وربما تم استهداف القصر الملكي بعد قيادات الجيش مباشرة.."

قال الملك بعصبية "ألا تثق أن الجيش سيتمكن من صدّ هذا الهجوم؟.. ألهذه الدرجة جيشنا ضعيف ومتخاذل؟.. إذن ما كان معنى كل تلك الأموال التي تُصرف على تسليحه سنوياً؟.."

قال كبير الوزراء بارتباك أكبر "لست أقرر هزيمة الجيش كواقع بعد، لكن لا يجدر بنا الركون لهذه الثقة دون اتخاذ احتياطاتنا.."

دمدم الملك بغيظ "أقسم أنني سأعدم قادة الجيش الخمس في احتفال علني فور أن ينجلي هذا الهجوم.."

ثم صاح بحنق "أين أناري؟"

أتاه صوت أناري الهادئ من جانب المكان قائلاً "أنا هنا يا مولاي.. بدون أن تقوم باستدعائي، قمت بما

عليّ القيام به بأحسن صورة ممكنة قبل أن أهرع إليك.."

قال الملك بحنق "ما الذي قمت به بالتحديد وأنا حتى الآن بانتظار معرفة هوية أصحاب هذا الهجوم؟.. في أي فوضى نرتع هذه الأيام؟"

قال أناري بحزم "جئتك بجميع الإجابات التي تطلبها يا مولاي.. ولكن، كما يقترح الوزير، علينا أن نتخذ احتياطاتنا لتأمينك وتأمين ولي العهد قبل أن نفاجأ بهجوم مباغت على القصر.."

نفخ الملك بحنق لكن دون اعتراض هذه المرة، ثم تساءل "إذن، من الذي تجرأ للهجوم علينا؟.. قل لي إنهم شرذمة نجحت في الاستيلاء على بعض الطائرات من جيشنا العتيد، فهذا أقصى ما يمكنني ابتلاعه الآن من أخبار.."

أجاب أناري "للأسف، لا توجد أي شراذم تمتلك القدرة على فعلٍ كهذا.. لقد هوجمنا من قبل عدو آخر.. عدوٍ لم يخطر على بال أحدنا قط..... مملكة الضياء.."

جحظت عينا الوزير بصدمة فيما صاح الملك "كيف؟.. كيف جرؤ سوريم على تسيير الجيوش لمملكتي متغاضياً عن كل المعاهدات المكتوبة وغير المكتوبة بيننا؟"

قال الوزير بانفعال "لقد حذرنا قاث من حشد مملكة الضياء لجيوشها قرب حدودنا.. يبدو أنهم كانوا يستعدون لهذا اليوم، وقد غفلنا عن أهدافهم هذه حتى سقطت قذائفهم فوق رؤوسنا.."

صمت الملك مقطباً وأناري يضيف "علينا الرحيل يا مولاي.."

قال الملك عابساً "ألهذا السبب قتل قاث في هذه الأوقات بالذات؟.. معنى هذا أن الهجوم كان مرتباً له منذ زمن، وربما بمعاونة أشخاص في هذه المدينة بالذات.."

ظل أناري صامتاً يراقب الملك، فيما قال الوزير وهو يدور في القاعة عاجزاً عن البقاء في موقعه لتوتره "أتعني أن هناك خونة في عاصمة الملك ذاتها يا مولاي؟.. هذا اتهام خطير، واكتشاف أخطر من أن يتم التغاضي عنه.."

تقدم أناري خطوة وهو يقول بحزم "مولاي.. الوقت يمضي بسرعة.. أعدك فور أن تنجلي هذه الغمة أن أجد أولئك الخونة، وأن تتم محاكمتهم في محاكمة علنية وإعدامهم بأبشع وسيلة ممكنة.. أما الآن، فالحفاظ على حياتك وحياة العائلة المالكة يحتل اهتمامنا بشكل رئيسي.."

هز الملك رأسه موافقاً، ورمى معطفه الملكي الذي يجعل حركته أثقل وأبطأ مكتفياً بردائه العادي الذي يتوسطه حزام عريض يحمل شعار المملكة.. وسار بخطوات واسعة أمام أناري متجاوزاً الدرجات التي تقوده للعرش، ومتجهاً نحو باب جانبي أصغر من باب القاعة الرئيسي.. التفت أناري إلى الوزير المرتبك قائلاً "سأتأكد من إيصال الملك سالماً للمخبأ.. عليك تولي أمر الملكة والأمير الصغير.."

هز الوزير رأسه موافقاً وهو يغادر من باب آخر.. فيما أسرع أناري خلف الملك مجتازين ممراً جانبياً قادهما لبعض الصالات الواسعة والشرفات الزجاجية التي تطل على الحديقة البهيجة حول القصر.. انتحى أناري بأحد أخلص حراسه، وأوكل إليه أمر حراسة القصر ومنع أي كائن كان من الخروج أو الدخول، ثم عاد للالتحاق بالملك الذي لم يخفف خطواته ولم يتمهل في سيره ولو للحظة..

سار الملك بخطوات سريعة عبر الطريق الذي يقوده للمخبأ، وإن احتفظ بانتصاب هامته ولم يُظهر انفعالاً لما يجري.. كانت عاصمته تتهاوى، وهو مضطر للاختباء في قبو القصر متأهباً للهروب بإحدى الطائرات الملكية لو طال الهجوم هذا القصر.. لكن هذا لم يمنعه من السير بالشكل اللائق بملك مملكة عظيمة.. ومن خلفه، سار أناري بصمت وهو يحدق بظهر الملك قبل أن يدير بصره فيما حوله للحظة.. كانا قد وصلا إلى جانب معزول من القصر، حيث خفتت الحراسة بشكل تام، بعد أن رفض أناري أن يصاحبهما أحد خوفاً على الملك على حد قوله.. وبعد بعض الصمت، جمع أناري عزيمته، واستل سيفه الرفيع من حزامه ممسكاً إياه بيده بقوة.. استدار الملك على الفور للصوت الذي صدر عن السيف عند استلاله، ونظر مقطباً لأناري قائلاً "ما الذي تفعله يا أناري؟"

ابتسم أناري ابتسامة باهتة وأجاب "أتأكد من أمنك وسلامتك يا مولاي.."

وقبل أن يقوم الملك بأي تصرف، كان أناري قد غرز السيف في صدره بقوة في موضع القلب.. غاص النصل الرفيع بسهولة تامة مع حركة يد أناري السريعة والقوية، فشهق الملك متألماً ونظراته المصدومة مثبتة على وجه أناري الهادئ فيما خرج النصل من الجهة الأخرى والدماء تغمر ملابس الملك الغالية وبقعة لا بأس بها من الأرضية الرخامية اللامعة.. ولما تهاوى جسده أرضاً، سحب أناري سيفه بسرعة ونظر للجسد الساكن للحظات دون أن تتغير ملامح وجهه.. وبحركة سريعة، نفض الدماء عن سيفه وأعاده لحزامه قبل أن يمد بصره عبر النافذة الواسعة القريبة منه.. وأمامه، كان يرى بوضوح تلك الطائرات السوداء التي

تجاوزت مركز قيادة الجيش وبدأت تتغلغل لجوانب المدينة كلها.. بدا واضحاً أن الهجوم الناجح قد حطم دفاعات الجيش ونجح في تعجيزه عن صدّ تلك الضربات.. وبدأت القذائف تتتالى على عدة أحياء من المدينة دون تمييز.. ولن يطول بها الوقت قبل أن تصل للقصر الملكي وتردمه على من فيه..

استدار أناري دون إبطاء وغادر المكان نحو جانب آخر من جوانب القصر.. هناك مهمة أخرى عليه القيام بها قبل أن تفتت القذائف هذا القصر.. فما يزال ولي العهد طليقاً.. وما تزال عائلته حية ترزق.. وهو قشة يجب أن يسحقها قبل أن يتشبث بها شعب المملكة ضد هذا العدوان الذي يرمي لمحو المملكة كاملة عن خارطة الممالك السامية..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

ركض دارو بعد مفارقته جود وياسان وسط ساحة القيادة متفادياً جماعات الجنود التي تراكضت بفوضوية تامة.. سمع بارِت يصيح ببعض الجنود وقادة الكتائب ملقياً أوامره، لكن دارو لم يقف ليرى ما سيجري وهو يدلف مسرعاً من بوابة المبنى الرئيسي للاتصالات ويتوجه للقاعة الرئيسية مباشرة.. كانت الأمور هناك على أسوأ حال، ووصله صوت كارون بعصبية قبل أن يصل لمدخل القاعة بالفعل "كيف تصل عشرون طائرة مقاتلة للقاعدة وتهاجمها قبل أن تبدو على شاشات أجهزتكم؟.. أما كان المفترض أن يخبرنا مركز المراقبة بها قبل عدة أميال من موقعنا هذا؟"

اقترب دارو من القائد كارون ليسمع جواب أحد خبراء الاتصالات الذي قال بارتباك "إنها لم تظهر على شاشاتنا حتى اقتربت منا وكادت تبدأ الهجوم على مركز القيادة.. أقسم لك على ذلك.."

قال كارون بحنق "احتفظ بقسمك لنفسك.. ما الذي سينفعني به الآن والقيادة تكاد تهوي للجحيم؟"

تساءل دارو "سيدي.. ما الذي سنفعله الآن؟"

قال كارون باستياء "ما يجب أن نفعله بالطبع.. طبقوا خطة الطوارئ بسرعة.. عليك يا دارو أن تتأكد من قيام جميع الكتائب بمهامها بأسرع ما يمكن.."

واستدار نحو أحد رجال الاتصالات قائلاً بحنق "أين اختفى ياسان في مثل هذه الأوقات؟.."

لم ينتظر دارو ليسمع المزيد وهو ينطلق لتنفيذ أمر القائد.. كانت القاعدة تعيش أسوأ حالاتها منذ قيامها، ويصعب في هذه اللحظات السيطرة على جنودها أو تنفيذ خطة ناجحة لصدّ مثل هذا الهجوم.. الأسوأ من ذلك أن انشغالهم بهذا الهجوم يعجزهم عن معرفة أبعاده، وإن كانت طائرات أخرى قد تقدمت من جهات أخرى من قانار محاولة السيطرة عليها وربما الهجوم على قصر الملك..

انتبه دارو لجماعة من الجنود تجمهرت في جانب الساحة محتمية بأحد جدرانها وهم يتجادلون بعصبية.. فحوّل دارو سيره نحوهم وركض محاولاً عدم التعرض لوابل القذائف الذي يسقط على رؤوسهم.. وهناك، صاح بهم "ما الذي تفعلونه؟.. عودوا لكتائبكم ولتلقّي الأوامر من رؤسائكم.. لا تجعلوا هذا الهجوم يبلبلكم فينجح المعتدي في هزيمتنا بكل سهولة.."

التقت الأعين عنده بصمت متوتر، ثم بادر أحد الجنود يقول "القائد بارِت..... قد قتل.."

صمت دارو بدهشة للحظة، ثم قال بسرعة "هذا متوقع مع هجومٍ كهذا.. لكن لدينا ما هو أهم من الحزن على موت رفاقنا الآن.."

أسرع الجندي يقول "لكنه لم يمت بسبب تلك القذائف...."

سقطت قذيفة جديدة في موضع قريب منهم مسببة ضجيجاً عالياً وسحابة من الغبار عمّت المكان.. اضطر دارو للانحناء لتفادي تلك القذيفة والصخور المتطايرة عن انفجارها، ولما هدأ الصوت قليلاً وخفت تساقط الحجارة من حولهم، سمع دارو الجندي يضيف بصوتٍ عالٍ ليعلو على ذلك الضجيج "لقد قتل بطلقة بندقية في صدره.. ولا نعلم حتى الآن من المتسبب بذلك..."

اتسعت عينا دارو محاولاً استيعاب ما قيل.. أيمكن أن يكون ذلك بسبب خطأ من أحد الجنود؟.. لكن لِمَ قد يطلق الجنود رصاصاً في هجومٍ مثل الذي يواجهونه؟.. هناك أمرٌ يستعصي على فهمه، لكنه أثار فيه توجساً عارماً جعله يقول للجنود "مهما يكن.. عليكم العودة لكتائبكم وتنفيذ تعاليم قادتكم دون إبطاء.. لا تدعوا تدريب السنوات الماضية يضيع هدراً في أول مواجهة حقيقية.."

واستدار مغادراً بحذر كما جاء.. كانت القذائف تنهال عليهم من كل صوب، لكن عدداً من طائرات الجيش قد بدأت بالرد وهي تحلق بسرعة من مهبطها شمال القاعدة.. وبدأت المناورات العصيبة بين الفريقين في سماء القاعدة..

لكن فارق التوقيت كان عاملاً حاسماً بالفعل، فمعظم طائرات القاعدة قد تم تدميرها في بدايات الهجوم لمنع الجيش من استخدامها.. وما أقلع من المهبط كان يواجه خطورة كبيرة بالقذائف التي تلاحقه قبل حتى أن يستقر في طيرانه.. ومنها ما انفجر بالفعل قبل أن يرتفع عدة أمتار عن الأرض..

أسرع دارو عائداً لغرفة الاتصالات، ولكارون الذي لم يغادر موقعه وهو يحاول لملمة ما تشتّت من الجيش من ذلك المكان الحساس.. وفور أن وصل إليه دارو، اقترب منه متلفتاً حوله.. ثم قال للقائد بصوت خفيض "سيدي.. نحن نواجه مشكلة.."

قال كارون بسخرية عصبية "حقاً؟.. هل أدركت هذا الآن؟"

هز دارو رأسه نفياً وقال "ليس الهجوم ما أعنيه.. بل خيانة.."

صمت كارون وهو يرمقه بشيء من الدهشة، فأضاف دارو وهو يدقق في الجنود من حوله "هناك خائن بيننا، وأغلب الظن أنه من قتل قاث في الليلة الماضية كي يسبب مثل هذه البلبلة.. وربما كان ينوي القيام بأكثر من ذلك، لكن الوقت لم يسعفه.."

قطب كارون متسائلاً "كيف خمّنت ذلك؟.. ألم تكن تلك الأرضية التي قتلت قاث؟"

قال دارو بسرعة "لا، ليست هي.. وهناك ما هو أسوأ.. لقد وجدت بارِت مقتولاً برصاص بندقية قبل قليل.."

رفع كارون حاجبيه بدهشة، ودارو يضيف "ولا ندري من قد يستهدف الخائن بعده.. قد يكون كل القادة مستهدفون، وأنت منهم يا سيدي.."

التفت كارون إلى أحد المسؤولين عن أجهزة الاتصالات، وقال له آمراً "حاول الوصول إلى قاشيم أو معاونه.. وإلى تادار أيضاً.. اطلب منهما القدوم إليّ بأسرع ما يمكن.. وإن تعذّر عليهما ذلك، أبلغهما أن يتخذا احتياطاتهما ضد أي هجوم من خائن مندسّ بيننا.."

تساءل المسؤول بقلق "خائن؟.. أأنت واثق يا سيدي؟"

قال كارون محتداً "نفذ ما طلبت منك ودع الأسئلة لما بعد.."

علق دارو قائلاً "أرى أن تتخذ احتياطاتك أنت أيضاً يا سيدي القائد.. بموت القادة تباعاً، يخسر الجيش الفرصة الضئيلة التي يملكها لصدّ الهجوم عن المدينة.."

قال كارون عابساً "هل كان هذا ما ينقصنا؟.. ما الذي قد يجنيه أي شخص من خيانة وطنه؟.. هذا ما لا أفهمه.."

سمعا مسؤول الاتصالات يقول بتوتر "سيدي.. لقد أجابني معاون قاشيم.. للأسف، فإن القائد قاشيم قد مات بطلقة رصاص.. عثروا على جثته في إحدى غرف مبنى القادة.."

توتر دارو بشدة وهو يلتفت إلى كارون، فيما صاح الأخير "من الذي قتله؟.. ألم يروه؟"

هز مسؤول الاتصالات رأسه مجيباً "لا.. كما أخبرتك، عثروا على الجثة بعد موته بالفعل.."

دوّى انفجار في موقع قريب من المبنى هز أركانه وأجبر من فيه على الانحناء بحذر وقلق من تهاوي المبنى على رؤوسهم والأضواء تذبذب للحظات، ولما هدأ كل شيء، اعتدل كارون واقفاً قائلاً بحنق "لا نملك الوقت الكافي لمراجعة أجهزة مراقبة المباني.. وإلا لعرفنا هوية ذلك الخائن.."

وفي اللحظة التالية، تعالى الانفجار التالي أقرب إليهم مما يتوقعون، والقذيفة الضوئية تهدم جانب المبنى وتردمه على رؤوس مَن فيه دون تمييز..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

لم تكن ساعات قليلة قد مضت منذ بدأ الهجوم على قانار وعلى قاعدة الجيش فيها، عندما وجد سكان المدينة تلك الطائرات التي تجاوزت القاعدة المدمرة وبدأت تحلق فوق الأحياء السكنية متجهة نحو القصر الملكي الذي انقطعت أخبار من فيه عنهم..

كانت القلوب قد بلغت الحناجر بالفعل قبل ظهور تلك الطائرات، من أصوات التفجير العالية التي صدرت من قاعدة الجيش الرئيسية ذات الحماية والحصانة التي لا يشوبها شائبة.. فإن سقطت تلك القاعدة بسهولة، كيف لسكان المدينة أن يأملوا بالنجاة من ذلك الهجوم الذي لا يعرفون دوافعه، ولم يتخيلوا حدوثه قط طوال تاريخهم المديد؟..

حلقت تلك الطائرات متوزعة في أرجاء المدينة، ومتخيرة بعض المواقع التابعة للجيش والتي تواجدت في عدد من الأماكن المتفرقة، دون أن يعرف شخصٌ كيف استدلت على مواقعها بدقة، ودون أن يدور في ذهن

أحد من سكان المدينة أن خائناً من قلب الجيش قد زوّد العدو بالمواقع الدقيقة وبإحصاءات مفصلة عن القوات الموزعة لحماية المدينة..

وبينما اشتبكت طائرتان مع إحدى الحاميات التي تشرف على سور المدينة، والتي تنبهت للهجوم واستعدت لصدّه رغم غياب أي تعليمات من القيادة، فإن عدة طائرات قد توجهت نحو القصر الملكي بتهديد واضح، ونحو معبد أناري الذي يقع غير بعيدٍ عنه..

عندما حلّقت الطائرات المعادية فوق سماء المعبد المقدس، سرت بلبلة كبيرة بين الكهنة والكاهنات وحرس المعبد مع ذلك الانفجار القوي الذي اندلع من وسط المعبد، ومن قلب المعبد السامي الذي احتفظ بعزلته وأمنه لقرون خلت.. تهاوت الألواح التي حملت تعليمات الكاهن الأول، والتي تعامل بتقديس يناسب أهميتها للكهنة ولمعبد إينار.. وتساقطت جدران المعبد السامي على رؤوس كاهناته مخلفة الكثير منهن قتلى وقلةٌ جرحى محصوراتٍ بين صخوره..

لحسن الحظ، لم يفتح المعبد أبوابه للزوار بعد، لذا لم يواجه ذلك الهجوم فيه إلا الكهنة والكهان وبعض الحراس والخدم، والذين عجزوا عن معرفة ما عليهم فعله في تلك اللحظات.. هل الهرب هو أفضل خيار؟.. إنقاذ من يمكن إنقاذه من الحجارة المتساقطة والجدران المتهاوية؟.. أم إنقاذ الكتب الثمينة الخاصة بالمعبد والتي تحمل تاريخه وتاريخ كهنته؟..

وأين يكمن أثمن ما في المعبد؟.. في كتبه؟.. في الألواح المعلقة؟.. أم في كهنته وخاصة ذوي المناصب العليا منهم؟.. ووسط البلبلة التي سادت المعبد، وقفت الكاهنة الكبرى تصرخ "لا تهربوا.. عودوا.. عليكم إنقاذ ألواح إينار قبل أن يطمسها الركام.. أين تذهبون؟.."

لمحت بيرن التي ركضت خارجة من إحدى الغرف القريبة بعينين متسعتين وهي تضمّ صرّة ملأى إلى صدرها.. فاستوقفتها الكاهنة الكبرى صائحة "بيرن.. إلى أين تذهبين؟"

ألقت بيرن عليها نظرة زائغة دون أن تتوقف، فاعترضت الكاهنة الكبرى طريقها وتشبثت بها صارخة "أين تهربين في مثل هذا الوقت؟"

حاولت بيرن دفعها وهي تصيح "اتركيني.. سيهدمون المعبد على رؤوسنا.."

قالت الكاهنة الكبرى بحنق "وفي مثل هذه الأوقات يظهر إيمان الصادق منكم والكاذب.. أين تحاولين

الهرب نابذة تعاليم إينار دون اهتمام؟.."

دفعتها بيرن بقوة صائحة "اتركيني أيتها الشمطاء....."

تشبثت بها الكاهنة الكبرى أكثر، مسببة سقوط الصرة التي تحملها بيديها بحرص كبير.. ومع سقوطها على الأرض الحجرية، تناثرت القطع الذهبية والفضية حولهما تاركة الكاهنة تراقبها مذهولة، فيما هوت بيرن خلفها تجمع ما يمكنها جمعه وهي تدمدم "بعد كل تلك السنوات التي قضيتها في خدمة المعبد، تتوقعون مني أن أغادر خاوية الوفاض؟.. أم تريدون مني أن أفقد حياتي لإنقاذ كلمات جوفاء نحتها رجلٌ لا يملك من هموم الدنيا شيئاً؟.."

قالت الكاهنة الكبرى بصدمة "من أين جئت بكل هذا؟.. أهذه نقود المعبد؟.."

صاحت بيرن بشراسة "ومن أين لنا بنقودٍ غيرها وأنتم لا تمنحوننا راتباً عن كل ما نبذله من جهدٍ هنا؟.."

ظلت الكاهنة الكبرى تنظر بصدمة لما تفعله بيرن، فيما ظل صياح الكهنة والحراس مستمراً في جوانب المعبد والهجوم لا يكاد يتوقف للحظة.. وبعد أن جمعت بيرن ما جمعته من نقودها، نهضت قائلة بعجلة "سأرحل.. قبل أن أفقد حياتي دفاعاً عن قضية لا تعنيني في شيء.."

واستدارت مغادرة بعجلة وهي تتلفت حولها خشية أن يوقفها شخصٌ آخر.. لكنها لم تكد تبتعد عن عيني الكاهنة الكبرى حتى وجدت ذلك الانفجار الذي يصمّ الآذان يندلع في موضعٍ قريب مطيحاً بعدد من الغرف والجدران العالية، ومطوّحاً أشلاء الكهنة والكاهنات بعيداً في دائرة واسعة والدماء تكاد تغرق الأرض تحتها وتسيل من بين الحجارة المتهاوية كجدولٍ قانٍ بشع المنظر..

تجمدت الكاهنة الكبرى مذعورة لهذا المنظر، ثم تمتمت وهي تتراجع خطوة "يا للسماء.. لقد ضِعنا.."

ثم رفعت بصرها للأعلى لترى تلك الطائرات التي مرقت من فوقها، ومقدمة إحداها تضيء لوهلة كلمحة بصر.. ولم يكد الضوء يخبو حتى أصاب الانفجار الموضع الذي تقف فيه الكاهنة، مسبباً دماراً جديداً وناثراً المزيد من الأجساد والأشلاء في بقعة أوسع مما سبق..

ولم تتوقف الطائرات مع دمار المعبد على من فيه واشتعال الحرائق في أكثر من موضع، بل أكملت تحليقها نحو جوانب أخرى من المدينة حاملة الدمار في قنابلها الضوئية التي لا تبدو إلا كومضة ضوء ساطعة قبل أن يبدو أثرها في انفجارٍ قوي يصيب جانباً من جوانب المدينة أو حياً من أحيائها السكنية.. مدمراً ما

يدمر.. وقاتلاً من يقتل.. ومشرداً من يشرد..

فهذه هي الحرب.. حيث أرواح البشر لا تزيد أهميتها على أهمية الحجارة التي تأوي إليها..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

تعالى الصياح من تلك الغرفة الملكية الفاخرة في قصر الملك وسط قانار، ورغم ذلك لم يجرؤ أي حارس أو خادم على دخول الغرفة ورؤية ما حلّ بأصحابها.. خاصة مع جثة وزير الملك التي سقطت عند بابها والدماء تنزّ من ثقبٍ في رأسه.. ووسط تلك الغرفة، التي تعادل في حجمها منزلاً صغيراً من منازل العامة، وقفت الملكة على ركبتيها بملابس مبعثرة وهي تصرخ بجنون تام وتضمّ الأمير الصغير بين ذراعيها محاولة أن تخفيه عن أنظار أناري الواقف أمامها ببرود..

وقف عدد من الحراس خلف أناري، لكن أسلحتهم كانت موجهة للملكة عوضاً عن الرجل الذي خان وطنه ومليكه واغتاله بكل برود.. وقد صرخت الملكة في الحراس بكل جنون "ما الذي تفعلونه؟.. لِمَ جمَدّتم في مواقعكم وارتضيتم الفرجة على ما يفعله ذلك الخائن؟.. اقتلوه.. اقتلوه وأعدكم أنني سأغفر لكم ما فعلتموه.. خلصوا مملكتنا منه ومن أمثاله.. هيا....."

لكن الحراس ظلوا في أماكنهم وأسلحتهم مشهرة في وجهها دون لمحة تردد.. ظلت الملكة تقلب بصرها

الزائغ بينهم باحثة عن لمحة تردد أو ندم على جرأتهم بالوقوف في وجهها والتعدّي على جناحها الذي لا يدخله خادم أو حارس دون إذن.. لكن هيهات.. لم تعلم الملكة كم حارساً تمكن أناري من تطويعهم لمساندته، لكن ما أدركته أنه تمكن من السيطرة على القصر في وقت وجيز جداً لا يكاد يصدق.. ومن جرؤ على الاعتراض لما يجري تمت تصفيته بكل سرعة وسهولة..

رأت أناري يتقدم رافعاً سيفه الرفيع المضمخ بالدماء وقال "ألا تكفّين عن هذا الإزعاج؟.. لا أصدق أنني اضطررت لمداهنة امرأة مثلك طوال السنوات الماضية.."

تلفتت الملكة حولها زائغة، ثم صاحت "يا حراس.. إليّ أيها الحراس.. أيها الخدم.. فليأتِ إليّ أحد....."

ابتسم أناري بسمة ساخرة وقال "وفّري صوتك المزعج هذا يا مولاتي.."

شدّت الملكة يديها على الأمير بقوة وصاحت بتوسل وهي تتراجع على ركبتيها "أناري.. أرجوك أن تكفّ عما تفعله.. أعدك أنني سأجزل لك العطايا.. أعدك أن أرفع منصبك.. ستحصل على كل ما تريده.. فقط كفّ عن إيذائي وإيذاء ابني.."

وضمّت الصبي إليها بشدة صائحة بصوت مرتجف "لا تؤذه.. أرجوك.. لا تؤذِ ابني.."

أطلق أناري ضحكة قصيرة قائلاً "هل جننت يا حمقاء؟.. هذا بالتحديد ما أتيت لفعله، وما سأنجزه دون شك.."

وأشار للصبي الساكن بين ذراعيها بحد سيفه مضيفاً بسخرية "أنتِ حتى لم تدركي أن الأمير قد مات بالفعل..."

ارتمت الملكة مغطية الأمير بجسدها، دون أن تعبأ بالجرح الذي يتصبّب دماً من ظهره في موضع قلبه.. ظلت تصرخ بيأس وحسرة.. ظلت تحاول حماية الأمير وصرخاتها تعلو في المكان حتى غاب نصل السيف في مؤخرة عنقها ليخرج من الجهة الأخرى.. سحب أناري سيفه وهو يرى جسد الملكة يرتجف مسلماً الروح بعد أن توقف صياحه العالي.. فتأفف أناري وهو يستخرج منديلاً ويمسح به سيفه "أخيراً.. كان الأحرى بي أن أقتلها هي منذ البداية.. أصابتني بالصمم بصوتها المزعج ذاك.."

اعتدل الحرس حوله خافضين فوهات بنادقهم بعد أن ساد الصمت في المكان، وقال أحدهم بتردد "سيدي.. أأنت واثق من صحة ما نفعله؟"

نظر له أناري بابتسامة جانبية، ورمى المنديل الملطخ بالدماء عليه مجيباً "هل ترى رأياً يخالف رأيي؟.. أنا مستعدٌ للاستماع لك.."

كان ذلك تهديداً واضحاً للحارس الذي خفض بصره بسرعة مجيباً "لا.. أنا واثق منك يا سيدي وسأتبعك للنهاية.."

اتسعت ابتسامة أناري الساخرة وهو يعيد سيفه لحزامه، ويعدّل ثيابه التي حرص على بقائها نظيفة رغم كل ما جرى في هذا اليوم.. ثم التفت إلى الحرس القريبين قائلاً "ابحثوا عن سابار.. أحضروه إليّ بأسرع ما يمكن.. لا يجب أن نسمح له بالهرب ومغادرة القصر قبل أن نتخلص منه كما فعلنا بالآخرين.."

استجاب ثلاثة من الحرس لأمره وهم يتفرقون في طرقات القصر بحثاً عن ولي العهد الغائب عن هذه الأحداث.. فيما غادر أناري جناح الملكة بخطوات واسعة تتبعه تلك الفرقة من الحرس الخاص بصمت.. وخارج الجناح، لمح قائد الحرس بعض الخدم الذين وقفوا مذعورين لمعرفة ما جرى في جناح الملكة، والذين سرت نفضة في أجسادهم مع نظرة أناري الباردة لهم.. لكنه تجاهلهم بشكل تام عالماً أن أحدهم لن يجرؤ على الوقوف بوجهه في هذه اللحظة.. فهو لم يكن ليجرؤ على المساس بالملك والملكة قبل تأمين القصر بشكل كامل، وضمان ولاء أكبر عدد من الحرس ممن سيعينونه في هذه المهمة ضاربين عرض الحائط بولائهم للملك وللمملكة..

ووسط قصر الملك، أعلى سلطة في قانار وفي مملكة الغمام، سار أناري بثقة تامة وسلطة مطلقة لا ينافسه فيها أي منافس..

✻✻✻✻✻✻✻✻✻

لم تكن أنباء الهجوم قد وصلت للمدن والقرىٰ الشمالية قرب حدود المملكة الشمالية الغربية، عندما فوجئ سكان تلك القرىٰ في ذلك النهار بذلك الجيش العرمرم الذي سار في الأودية متجاوزاً الحدود الجبلية بين المملكتين، ومبيداً الحامية المقامة علىٰ الحدود ليندفع في السهول والوديان ويتجاوز الغابات دون رادع يذكر.. وبعد سيرٍ لا يتجاوز يوماً واحداً، انقسم ذلك الجيش لثلاث أقسام.. الجناح الأيسر بدأ التغلغل في الجانب الشمالي من المملكة مطيحاً بالقرىٰ ومحاصراً المدن المحصنة ليسقط حامياتها ودفاعاتها بسرعة قبل أن يتوجه لأخرىٰ ثم أخرىٰ دون أن يجد صداً حقيقياً مع غياب التعزيزات في تلك المدن..

الجناح الأيمن يقوم بعمل مماثل في جنوب المملكة.. أما الجناح الأوسط فيزحف نحو قانار ليسيطر عليها سيطرة تامة.. ويدعم القوات الجوية التي واصلت هجومها عليها ليل نهار.. وبوصول تلك القوات نحو قانار، وعندما تنجح بالسيطرة عليها وسحق الجيش فيها، فإن مملكة الغمام ستكون قد سقطت بشكل رسمي، ومحيت من خارطة الممالك محواً تاماً..

وفي طريقه نحو قانار، تواجه ذلك الجيش مع جيش تمّت تهيئته علىٰ عجل بواسطة والي مدينة ميركان بعد أن وصلته أخبار الهجوم، ومع الصمت المستمر من أغلب القيادات الرسمية في قانار.. كان الوالي يعلم أن سقوط قانار يعني سقوط مملكة الغمام رسمياً.. ولأنه يحكم أكبر مدن وسط المملكة والتي تحوي أكبر قاعدة في البلاد بعد قاعدة قانار، فإن الوالي كان متفائلاً بصدّ الهجوم بأسرع الوسائل حتىٰ يتمكن الجيش في قانار من لملمة نفسه والا ستعداد لتحرير المملكة وصدّ المعتدي.. دون أن يعلم أن أغلب قيادات الجيش قد اغتيلت، ودون أن يصل إليه خبر موت الملك وسيطرة أناري علىٰ القصر ليعدّ المدينة لا ستقبال العدو استقبال الفاتحين..

خرج أكبر جيشٍ عرفته ميركان في حماس لا يقاوم لصدّ ذلك الاعتداء الذي لم تروي كتبهم مثيلاً له قط.. ربما كانت الخبرة المعدومة في مثل هذه الحروب هي السبب، أو ربما كان الإعداد الطويل الذي خضع له جيش مملكة الضياء مقابل العجلة التي تم بها إعداد جيش مملكة الغمام.. قد يكون أحد هذين السببين أو

كليهما، لكن الهزيمة المرّة التي ذاقها سكان مير كان لم يكن لها مثيل، والمرارة التي تجرّعوها لم تدُم طويلاً وهم يجدون الجيش المعادي يقتحم المدينة ويحطم دفاعاتها قبل أن يبدأ التدمير والحرق والسلب والنهب.. طال بقاء الجيش في المدينة عدة أيام، وهي أطول مدة قضاها في إحدى بقاع المملكة.. وربما كان بقاؤه الطويل نسبياً والجرائم التي تم ارتكابها بدمٍ بارد هو نوعٌ من العقاب لسكان المدينة على محاولتهم صدّ ذلك الاعتداء.. وبعد أن صارت المدينة أشبه بكومة رمادٍ لا يرتجى منها أي حياة، غادرها الجيش مجدداً في سيره الحثيث نحو قانار..

وفي هذه المرة، لم يجد الجيش المعادي أي مقاومة تذكر من أي مدينة مرّ بها، بعد أن وصل صيت ما جرى لمير كان إلى كل المدن الكبيرة في المملكة.. بما فيها قانار التي ظل أهلها قابعون في منازلهم يواجهون الأمرّين.. الهجوم المستمر للطائرات التي لا تكاد تتوقف عن تدمير جانبٍ من جوانب المدينة حتى تنطلق لجانبٍ آخر.. وترقّب الجيش المعادي الذي يحمل وعيداً بعذابٍ لا يحتمل.. وهوانٍ لا يمكن ردعه..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

عندما التقى الأمير سابار بأناري، في إحدى القاعات الجانبية للقصر في اليوم الأول للهجوم، لم يكن قد علم بعد بدخول جيش مملكة الضياء حدود المملكة، ولم يكن يعلم بما سينتج عن ذلك في الأيام القادمة.. كل ما كان يهمه في تلك الأوقات هو مواجهة أناري الذي ابتسم ابتسامة هازئة حيث وقف وسط فرقته من الحرس قائلاً "مرحى لك أيها الملك المستقبلي.. لقد هربت متخلياً عن عرشك وعن الملك وعن أمك الملكة أيضاً.."

قال سابار بغضب وهو يستلّ سيفه "لم أهرب.. كنت أتابع أنباء ما يجري في مبنى الاتصالات الملحق بالقصر، موقناً أن القصر آمنٌ بيد حراسه.. ولم أدرِ أن الخونة يرتعون فيه ويعبثون بكل حرية.."

تقدم أناري خطوة قائلاً "يا لك من مجتهد.. ولكن، لم يكن وجودك ليؤثر في مصير الملك.. أو الملكة.. أو حتى الأمير الصغير.. كما لن تقدر على تغيير مصير المدينة الذي تحدّد منذ زمن.."

أمسك سابار سيفه بيديه الاثنتين وهو يقول بغضب "أيها الحقير.. ما الذي فعلته بهم؟.. أخبرني؟"

ضحك أناري معلقاً "هل تسأل عنهم الآن؟.. أين كنت عندما سقط الملك المبجل عند قدمي وثيابه الغالية تتشرب دماءه؟.."

ارتجفت يدا سابار بشدة لشدة غيظه، فمال نحوه أناري مضيفاً "أين كنت عندما عجز جسد الأمير الصغير من تحمل سيفي فسقط ميتاً على الفور؟.. بل أين كنت عندما بكت الملكة الموقرة ترجوني أن أطلق سراحها، وتكاد تقبّل قدمي لأطلقها وصغيرها؟"

قفز سابار بغضب نحو أناري محاولاً إصابته، لكن الأخير تراجع بخطوة واسعة مستلاً سيفه الرفيع، فانحنى متجاوزاً الضربة التي اقتربت من صدره، ومد سيفه بسرعة خاطفة نحو موضع قلب سابار.. تراجع سابار بدوره بتخبط حتى كاد يسقط خلفاً، وهجم من جديد على خصمه فور أن ثبّت قدميه على الأرض.. تبادل الإثنان ضربات السيف والمراوغة، وسابار يحاول استغلال ثقل سيفه وقوته مقابل سيف أناري الضعيف الذي يفضّله عن غيره من الأنواع.. فكان سابار يضع قوته في ضرب سيف خصمه آملاً أن يكسر نصله أو يتمكن من إسقاطه وتجريد أناري منه..

كان الأمير يتمنى في تلك اللحظات لو يتمكن من النيل من غريمه.. ولن يكفيه أن يقتله شرّ قتله.. يجب أن يذوق الحسرة على ما اقترفته يداه.. يجب أن يذوق مرارة الهزيمة.. ويجب أن يذوق الموت ألف ألف مرة..

لكن أناري الهادئ المبتسم كان يغيظه أكثر.. ومع تزايد غضبه، بدأ الأمير يفقد اتزانه.. بدأ يسدد الضربات دون تدبير، ورغبة عميقة تحدوه لأن يسرع في هزيمة خصمه دون تخطيط متقن.. وأناري يعلم ذلك أكثر ما يعلم.. لذا، منح غضب الأمير الوقود الكافي بابتسامته التي تعمّد أن تكون ساخرة هازئة، واحتفظ بهدوئه أثناء المبارزة التي لم تكن لتميل في صالحه لو أن الأمير احتفظ بهدوئه وحكّم عقله فوق قلبه..

وفي إحدى ضربات الأمير الغاضبة، وقبضتاه الممسكتين بالسيف بقوة تفضحان انفعاله، حانت الفرصة أمام أناري الذي دار نصف دورة متفادياً ضربة السيف التي هوت محاولة اقتناص عنقه، وبالمقابل مد سيفه الرفيع بخفة نحو جانب الأمير ليخترق النصل ثيابه السميكة وينفذ عبر جسده مخترقاً عدداً من أعضائه الحيوية.. شهق الأمير والألم يجمّده في موقعه، فيما دفع أناري النصل لمسافة أعمق مدمدماً بسخرية "أنت مازلت مبتدئاً.. من العار عليك مبارزة من هم أكثر مهارة منك.."

وسحب السيف بخفة ليوجهه بضربة خاطفة نحو عنق الأمير الذي لم يكد يتجاوز آلامه ليفكر بتجاوز

الضربة التالية.. وشق النصل الرفيع الهواء بخفة حاملاً عزيمة صاحبه التي لا تعرف التردد، لكنه لم يصل لهدفه الذي ارتمى جانباً بعد ارتطام جسد آخر به.. تراجع أناري خطوة رافعاً حاجباً، ليرى ذلك الحارس الذي ارتطم بالأمير ليسقطه بعيداً عن مرمى سيفه.. وعلى الفور، تأهب بقية الحرس الموالين لأناري ببنادقهم، فيما وقف الحارس أمام الأمير بحذر وتوتر قائلاً "ما الذي تفعلونه؟.. كيف تخونون وطنكم بهذه السهولة؟.. ولأجل ماذا؟"

قال أناري ببرود "كف عن هذه الخطابات والمثالية يا هذا.. لو واتتك الفرصة أيضاً، لما ترددت في اقتناصها.."

صاح الحارس "محال.."

ومد يده لا ستخراج مسدسه، في نفس اللحظة التي تأهب فيها الحرس لإطلاق رصاصاتهم عليه والتخلص منه، لكن قاطع هذه اللحظة الحاسمة انفجارٌ قوي اندلع قربهم هز أركان القصر.. فوجئ أناري ومن معه بالانفجار الذي أسقطهم للخلف والنوافذ القريبة تتفجر وشظاياها تتناثر في منطقة واسعة من هذه القاعة، بينما انحنى الحارس حامياً الأمير بجسده من ذلك الزجاج.. ولم يطُل به الوضع حتى فوجئ بتهاوي جزءٍ من الجدار وسقوط حجارته عليهما بكثافة دون أن يتمكن أحدهما من الهرب من هذا المصير..

وقف أناري نافضاً الغبار والزجاج عن معطفه، ثم ألقى نظرة سريعة على كومة الحجارة تلك التي لم تكد تستقر في مكانها بعد الهجوم.. ولما تأكد أن الأمير مدفونٌ تحت تلك الحجارة، قال بحنق "ما الذي يفعله أولئك؟.. كان الاتفاق ألا تتم مهاجمة القصر دون إشارة مني.. هل ينتوون قتلي؟"

استدار مغادراً بسرعة كبيرة نحو غرفة الاتصالات، عازماً على إجراء اتصالٍ سريعٍ بقائد هذا الجيش المعادي.. لقد تمّ تأمين القصر وتحييد من فيه، وأحكم أناري سيطرته عليه.. لذا ما من داعٍ للهجوم عليه بالقنابل الضوئية مع ما في ذلك من خطورة على أناري ومعاونيه من الخونة.. وخلفه، ظلت تلك القاعة ساكنة صامتة بعد ذلك الهجوم المدوي، ولم يأمل أي شخص ممن رأى نتائج ذلك الانفجار في نجاة الأمير أو منقذه الحارس من كومة ثقيلة من الحجارة كتلك التي تتكدس على ظهريهما..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

(الفصل العاشر)
أرض الهوام: العائدة والمنقذ

استعادت جود وعيها ببطء شديد وقد تراءى لها أن ما تشعر به هو مجرد حلم.. تذكر بوضوح أنها كادت تفقد حياتها بعد أن خدعتها تلك الحقيرة.. والآن، ها هي تشعر بوعيها، وتشعر بجسدها رغم أنها لم تتمكن من فتح عينيها بعد.. هل هي في حلم أم غيبوبة؟.. هل ستفتح عينيها لتجد أنها قد غادرت هذا العالم بالفعل؟.. أم أن كل ما تشعر به هو حلم يحاول عقلها به الهروب من واقعها؟..

إنها تشعر بجسدها يتأرجح بشكل واضح، رغم أنها لم تستعِد قدرتها على التحكم به بعد.. فأي حلم يسبب لها هذه الاهتزازات التي ليست بالرقة والرفق المتوقعين؟.. ولِمَ تشعر بالدماء تحتشد في رأسها بهذا الشكل؟..

فتحت عينيها دفعة واحدة عند هذا الخاطر، فلاحظت على الفور أنها لا تزال في تلك المستنقعات، وإن لم تكن بقلبها بل على ارتفاعٍ يقارب المترين عنها.. ولاحظت أنها بالفعل تتأرجح بشيء من القوة مع كل خطوة يخطوها ذلك الشخص الذي يحملها على كتفه وهو يخوض في المياه الآسنة.. يحملها؟!.. صدمت لهذا الخاطر وهي تحاول الاعتدال بسرعة رغم أنها قد تسقط بهذا التصرف.. انتبه ذلك الشخص لاستيقاظها فقال "لا داعي لهذه العجلة.. سنسقط معاً في هذه المياه الآسنة وهو فعلٌ لا أحبذ القيام به في الوقت الحالي.."

لكنها قالت بشدة وهي تدفعه بشيء من القوة "اتركني يا هذا.."

فوجئت به يتخلى عنها على الفور لتجد نفسها تسقط أرضاً ومياه المستنقع ذات الرائحة النفاذة تغمر جزءاً من جسدها والباقي تبلله برذاذها.. كانت الرائحة نفاذة وكريهة بالفعل، ولم يخفف الأمر كونها قد غُمرت بمياه المستنقع سابقاً والتي تغلغلت في ملابسها والتصقت رائحتها بها..

رأت ذلك الشخص يستدير نحوها بعد أن أسقطها بتلك الطريقة المهينة وهو يقول "يبدو أنك تعشقين هذه الرائحة النتنة.. ألهذا السبب فضّلت الانتحار في أحضان هذه المستنقعات وبيدي الكيراك لا غير؟"

رفعت بصرها له وهي تمسح المياه الخضراء عن عينيها وترفع خصلات شعرها التي التصقت بوجهها مدمدمة بحنق "من قال إنني كنت أنوي الانتحار؟"

قال بنبرة متعجبة "أليس هذا استنتاجاً طبيعياً مع رؤيتك في ذلك الموقع الخطر من المستنقعات والذي يتجنبه سكان القرى القريبة دون استثناء؟!.. أم أنك تهدفين لاصطياد الكيراك دون سبب مفهوم؟.."

لم تعلق وهي تنظر له مقطبة.. يبدو أنه لم يدرك، أو يخمّن، أنها من سكان العالم العلوي بسبب تحدثها معه بلغة الأرض الدنيا، وخصوصاً أنها من سكان هذا العالم بالأساس.. كان الرجل الذي وقف أمامها يبدو مثل جميع سكان الأرض السفلى، أرض الهوام، لكنه في الآن ذاته لم يكن يبدو كشخص عادي منذ الوهلة الأولى.. نظراته الحادة الواثقة، وهيئته التي رغم خشونتها لكنها لم تكن بدائية كما بدا على البقية في تلك القرية.. رغم أنه لا يختلف عن البقية ظاهرياً، لكن أمراً ما نبأها أنه ليس كما يبدو حقاً.. تشعر أنه ليس مجرد رجل من هذا العالم المتوحش.. فمن هو؟..

نهضت أخيراً دون أن تعلق على قوله السخيف.. ولما لا حظ صمتها قال "إذن.. أما زلت عازمة على اصطياد الكيراك أم كففتِ عن ذلك؟.. هل تريدين عوناً؟"

بدا لها أنه يسخر من عجزها عن التخلص من ذلك الحيوان الشرس، فقالت بجفاء "وما شأنك أنت؟.. هلا تركتني وشأني؟"

وخاضت في المياه التي تصل لركبتيها بشيء من العسر محاولة العودة من حيث جاءت.. أو هذا ما ظنت أنها تفعله عندما استوقفها الرجل قائلاً "أهذا الجزاء الذي ألاقيه على إنقاذ حياتك؟.. لحسن حظك قررت القيام بدورة تفقدية واسعة لهذه المستنقعات هذا النهار.. ولولا ذلك، لما مرّ بك مخلوق يمكنه أن يمد يد العون لك.."

وقفت جود لوهلة وهي تغالب استيائها من معاملته لتحاول شكره على الأقل.. فهي مدينة له بذلك بالتأكيد.. لكنها قبل أن تستدير إليه بالفعل وجدته يجذب قميصها من الخلف ويتجه بها في الاتجاه المعاكس قائلاً "وأنت تسيرين في الاتجاه الخاطئ.. بهذه الصورة ستتوغلين في المستنقعات أكثر حتى تسقطي في قبضة كيراك آخر.."

كانت جود رغم قوتها التي تتفوق على الكثير من الجنود، مثل ياسان، لكنها تجد أنها مجرد دمية لدى ذلك

الرجل الذي سحبها عنوة.. حاولت تثبيت قدميها في الأرض لإيقاف جذبه المؤلم والمهين لها، لكنها فشلت في ذلك مما اضطرها لتصيح من جديد بغضب "هلا كففت عن جرّي؟.."

ضربت يده ليفلت قميصها، فالتفت إليها قائلاً بعجب "أنت حقاً تريدين الانتحار؟!.."

ازداد استياؤها من معاملته فصاحت بغلظة "لا شأن لك حتى لو كنت كذلك.."

ظل الرجل ينظر لها بعجب وحيرة، وقال "لمَ يعاملني الآخرون باستياء وغضب كلما أنقذت حياة أحدهم؟.. لم أسمع شكراً صادقاً من أي امرئٍ طوال حياتي.."

بدا لها أن الرجل لا يعي سوء معاملته للآخرين وسبب غضبهم من ذلك، ويبدو أنه لا يعاملها هي وحدها بهذه الطريقة.. وهذا ساءها أكثر فقالت بغلظة وحدة "أنا لست ضعيفة، ولا بلهاء، ولست طفلة لتسيرّني كيف تشاء.. ابتعد واتركني لشأني.."

واستدارت متجاهلة أي رد فعل منه على ما قالته، وبعد خطوتين فقط فوجئت بالأرض تختفي من تحت قدميها وهي تغوص عميقاً في المياه الداكنة.. تخبطت للحظات محاولة العودة من حيث جاءت، لكن مع كل حركة كانت تغوص أعمق في المياه دون أن تتمكن من رفع رأسها أو الإحساس بالأرض تحت قدميها.. ومن بين تخبطها وتعثرها، استطاعت أن تسمع الضحكة العالية التي أطلقها الرجل لما جرى لها.. ثم بعد لحظة وجدته يجذبها من ذراعها ويجرّها نحو الأرض المستقرة دون أن تمانع جود ذلك..

سعلت للحظة وهي تبصق تلك المياه التي ابتلعت جزءاً منها، وحاولت تمالك الغثيان الذي داهمها للطعم القبيح الذي تسلل لحلقها، فيما ركع الرجل قريباً بابتسامة يتأمل معاناتها بصمت.. ثم قال "والآن.. هل ستتبعيني دون تذمر هذه المرة؟.."

لم يكن للغضب أي مكان في صدر جود وهي تشعر بأنها فقدت الطاقة للجدال معه.. فهزت رأسها إيجاباً وهي تنهض بتعب.. عندها قال الرجل "رائع.. اتبعيني.."

تقدمها بخطوات واسعة وفي مسار رأته جود عشوائياً، فسارعت للحاق به دون تذمر.. ما الذي يجعله يسير بهذه السلاسة وسط هذه المستنقعات فيما تسقط هي في الحفر بين كل خطوة وأخرى؟.. بالنظر لمساحة المستنقعات الواسعة التي تغطي عدة هكتارات، فمن المستحيل أن يحفظ السكان كل بقعة ومسار فيها كلها.. لا بد من علامة ما.. لكن لم تحاول جود البحث في هذا الأمر أكثر من ذلك، وفضّلت الصمت

وتسليمه القيادة لمرة واحدة على الأقل.. حتى تعود سالمة لياسان وهيما، وحتى تنتقم من تلك الفتاة المغرورة التي حاولت قتلها دون جريرة..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

كانت مفاجأة سيرا صاعقة لرؤية الشاس الخاص برادال يهبط وسط القرية، ورؤية جود تقفز من على ظهره صحيحة الجسد.. ما هذا الحظ الذي ساق رادال لإنقاذها؟.. فلا يبدو من هيئتها أنها تمكنت من الهرب من الكيراك بمفردها ودون سلاح، ناهيك عن معرفة الوسيلة الأمثل للعودة وسط تلك المستنقعات الخطرة..

توترت سيرا بشدة وهي واقفة قرب بارا أمام كوخهما، فيما تقدمت جود بخطوات واسعة حانقة حتى وقفت أمامهما وهي تقول بغضب "ما الذي حاولتِ فعله أيتها الحقيرة؟.. لِمَ تحاولين قتلي دون سبب؟"

نظر لها رادال متفاجئاً، فيما نظر بارا لسيرا متسائلاً "قتلها؟.. ما الذي يعنيه هذا؟.. ومن تكون هذه؟"

تجاوزت سيرا الأسئلة كعادتها عندما لا تروق لها، وقالت بجفاء "ما الذي تريدينه مني؟.. لِمَ تصرّين على تعكير مزاجي اليوم بكل صورة ممكنة؟"

نظرت لها جود باستنكار لجوابها البعيد كل البعد عن السؤال المطروح.. كيف لهذه الفتاة أن تحاول الخلاص منها دون أي شعور بالذنب؟.. وفوق ذلك تُظهر ضيقها من عودتها وكأنها ذبابة لزجة لا تعرف وسيلة

الخلاص منها!..

تقدم رادال متسائلاً "ما الذي يجري هنا يا سيرا؟.. أأنت من قادها لوكر الكيراك؟.."

أشاحت سيرا رافضة الإجابة، وبارا يقلب بصره بينهما، ثم قال موجهاً الحديث لرادال "الأمر لا يقتصر على هذا.."

التفتت إليه سيرا بغضب، لكن نظرة رادال المقطبة دفعتها للصمت وهو يتقدم تابعاً إشارة بارا التي تقوده للكوخ الخاص به وبسيرا.. وفي الداخل، كانت مفاجأة رادال أكبر برؤية هيما وياسان مقيدين.. فمع عودة سيرا وحيدة للقرية، وثورة ياسان متسائلاً عن سبب غياب جود، فإن سيرا لم تتردد في مغافلته وإفقاده وعيه ثم تقييده وهيما وتركهما في الكوخ حتى ترى ما يمكنها القيام بهما..

تساءل رادال بحيرة "من هما هذان؟.. لا يبدو من هيأتهما أنهما من سكان القرى الأخرى.. فأين عثرتما عليهما؟"

أجاب بارا "سيرا عثرت على هؤلاء الثلاثة في عمق الغابة، ولا نعلم حكايتهم معها وسبب هذا الخلاف بينهم.. فهي ترفض الحديث عن أي أمر كالعادة.."

دفعت جود سيرا التي حاولت اعتراض طريقها، ودخلت الكوخ متجاوزة رادال وبارا لتفك قيود هيما وياسان.. وفور أن فعلت، وقف ياسان بتحفز تتبعه هيما وهو يتساءل بحنق "ما الذي يجري هنا؟.. حديثهم بهذه اللغة الغريبة يورثني حنقاً عارماً لسبب لا يمكن لأحد أن يجهله، ولا تحاول تلك الفتاة أن تشرح لنا ما يجري وسبب تقييدها لنا بهذه الصورة.."

قلّب رادال بصره بين الثلاثة بعدم فهم واضح لما يجري أمامه.. ثم أمسك ياسان من كتفه بقبضة قوية قائلاً بدهشة "أأنتم من العالم العلوي؟"

نظر له الثلاثة بدهشة أكبر لتحدثه بلغة العالم السامي التي تحدث بها ياسان، وهو شيء لم يتوقعه أحدهم مع هيئته التي لا تدل على ذلك.. حاول ياسان التخلص من قبضة رادال التي آلمته وهو يقول "بلى، نحن كذلك.. أأنت من سكان العالم السامي أيضاً أم أنك قد اكتسبت لغة هذين الشابين؟"

تراجع رادال خطوة وهو يتأمل ملامح الثلاثة أمامه دون أن يكلف نفسه عناء إجابة السؤال.. ثم غمغم بدهشة "ما الذي أخرجكم من العالم العلوي؟.. أنتم لستم من مملكة الضياء، ولا يمكن أن تكونوا قرابين

قام الكهنة بالتضحية بها كما يفعلون عادة.."

قالت جود باستياء "ألا تعثرون في هذه الأنحاء إلا على قرابين مملكة الضياء؟.. وهل كوننا من مملكة أخرى يستدعي معاملتنا بهذه الطريقة؟"

قال بارا "لا.. ما فعلته سيرا هو تصرفٌ فردي منها، ولا نعرف له سبباً حتى الآن.."

أشاحت سيرا رافضة شرح الأمر للأعين التي التقت عندها.. لم تكن في البدء تهتم لأمر جود وياسان، وجلّ اهتمامها هو إقناع بارا بالكفّ عن أحلامه تلك عبر الانتقام من هذه الكاهنة.. لكن الآن، ومع معاملة جود التي تراها متعالية وتخلو من أي احترام لها، فإنها أصبحت تبغض هذه الفتاة وتتمنى التخلص منها بأي طريقة ممكنة..

سمعت رادال يسألها "ما الذي يجري هنا يا سيرا؟.. ما الذي جرى في الأيام القليلة التي غبت فيها عن هذه القرية؟"

قالت سيرا معترضة "هل ستنحاز لهم دون سبب يا رادال؟.. أنت تظلمني بهذا.."

علقت جود بضيق "ظلم؟.. أنت اختطفت هيما فور سقوطنا من العالم العالي، وتركتني مع ياسان وسط تلك الغابة الخطرة دون تفسير.. وفور وصولي للقرية حاولت خداعي ورميي بين براثن ذلك الحيوان الشرس دون سبب معقول.. فعن أي ظلم تتحدثين؟"

انبرت سيرا قائلة "أنتِ تهجمت عليّ وضربتِني دون سبب مفهوم، كما أنك دفنت رأسي في الطين على مرأى جميع أهل القرية.. أيفترض بي أن أصمت على هذا؟"

تزايد استنكار جود لتصرفات هذه الفتاة المشبعة بالأنانية والتحقير لمن يخالفها بأي صورة ممكنة، فيما قال رادال مقطباً "أنت مدينة لها بالاعتذار يا....."

قاطعته سيرا صائحة "محال.."

نظر لها بحدة وتهديد، لكنها رفضت الانصياع وهي تعقد ذراعيها على صدرها وتقابل نظراته بعناد.. تبادل ياسان النظرات مع جود وهيما، ثم غمغم "أنا أفضّل مغادرة هذا الكوخ والانتهاء من هذا الأمر.. ما عدتُ راغباً بالبقاء هنا أكثر من هذا.."

التفت إليه رادال وقد سمع قوله رغم خفوته قائلاً "مهلاً.. أنا بحاجة لطرح بعض الأسئلة عليكم.. لقد

انقطع اتصالنا مع العالم السامي منذ زمن بعيد، وأريد أن أعرف التطورات التي حدثت فيه في السنوات الماضية.."

تساءل ياسان بدهشة "أأنت من سكان العالم السامي؟"

أجاب رادال وهو يجلس جانباً "أجل.. وقد قام الكهنة بتقديمي كقربان لآلهتهم الشمس كما حدث مع التوأمين، لكن حدث ذلك قبل عقدين من الزمان على الأقل.. لذا، لم أعد أعرف إن كنت أنتمي لهذا العالم أم ذاك.."

بدت دهشة عميقة على وجهي ياسان وهيما مع مظهره الذي لا يدلّ على كونه من سكان ذاك العالم، فيما تمالكت جود دهشتها بسرعة وهي تجلس على أحد الأرائك غير عابئة بثيابها التي لم يجف الطين عنها، نكاية بسيرا التي حدقت بها بغضب دون أن تجرؤ على الاعتراض بوجود رادال.. الآن فهمت جود لمَ ساورها خاطر أن رادال يخالف مظهره الخارجي نوعاً ما.. تلك الخواطر التي دارت بذهنها عند رؤيته لأول مرة وجدت لها تفسيراً الآن بعد إقراره بكونه من العالم السامي..

تمالك ياسان وهيما ترددهما، وتقدما ليجلسا بدورهما على الأرائك القليلة في المكان فيما همست سيرا لبارا بحنق "اطردهم يا بارا.. لا يحق لهم البقاء في كوخنا دون رغبتنا.."

فقال بارا "الأفضل لك أن تكفي عن هذه التصرفات يا سيرا.. أصبحتِ تثيرين حنق الجميع.."

وجلس بدوره على كرسي جانبي، فيما رمقته سيرا باستنكار وانفعال.. راودتها نفسها أن تنزوي في غرفتها وتغلق بابها في وجوههم بعنف، لكن فضولها غلبها لمعرفة ما يريده رادال من هؤلاء.. أي أمر يخص رادال يهمها بشدة لتبتلع غضبها وتصمت وهي تقف جانباً مظهرة ضيقها ومخفية اهتمامها بما يقال..

تساءل رادال باهتمام واضح "ما دمتم لستم من مملكة الضياء، فمن أي مملكة أنتم بالتحديد؟.."

أجابت جود "من مملكة الغمام.."

وصمتت بعدها دون أن تذكر كونها من هذا العالم بالأساس.. لا ترغب جود بالمزيد من التعليقات المهينة من تلك الفتاة التي تظن نفسها فوق البقية.. وعلاقتهم بهذه القرية ومن فيها لن تطول كما توقن جود، لذا ليس المقام مناسباً لجلسات مصارحة.. وفور أن أنهت جملتها تساءل رادال بشيء من الخيبة "إذن ألا تعرفون شيئاً مما جرى في مملكة الضياء في العقدين الماضيين؟.. هل ما زالت الأمور مستقرة بين الممالك؟.."

كان سؤاله ذاك غريباً مع الهجوم الذي حدث على مملكة الغمام بشكل لم يتوقعه أحدهم قط.. فكيف لرجل عاش على هذه الأرض أن يخمّن ما قد يجري في عالمٍ بعيد عنه بعد السماء عن الأرض؟..

سألته جود مقطبة "وما الذي أدراك أن الأمور لن تكون مستقرة في العالم السامي بين الممالك؟!.. لطالما كان الأمن سائداً بينهم طوال قرون مضت.."

ابتسم رادال ابتسامة خفيفة معلقاً "هذا مجرد حدس.. لكن استجابتك له تعني أن أمراً ما قد حصل بالفعل.. أأنا مخطئ؟"

قال ياسان بانفعال "بل أنت مصيبٌ تماماً.. لقد هوجمت قانار عاصمة مملكة الغمام في اليوم الذي سقطنا فيه لهذا العالم.. وهذا بالتحديد سبب وصولنا لهذه الأرض.. كيف لك أن تعرف هذا وأنت غادرت ذلك العالم منذ زمن طويل؟"

صمت رادال للحظة قبل أن يجيب وهو يفرك أنفه "يمكنك أن تقول إنني سمعت أطرافاً من أحاديث شتى بهذا الخصوص قبل سقوطي.. فهذا الأمر لم يكن مستحدثاً، بل أظن أن الكهنة في معبد الشمس كانوا يعدون له العدة منذ زمن طويل.."

هبّت جود واقفة وهي تصيح "أتعني أن مملكة الضياء هي من قام بذلك الهجوم؟"

نظر لها رادال مجيباً "ألم تعرفوا بذلك قبل سقوطكم؟.. يمكنني أن أراهن على ذلك، فلا أظن أن إحدى المملكتين الباقيتين تملكان مثل ذلك الطموح.."

قالت هيما وهي تفرك يديها بقلق "ما معنى هذا؟.. لمَ قد يخطط كهنة معبد الشمس للاستيلاء على مملكة أخرى؟.. وكيف يطاوعهم الملك في هذا الأمر؟"

علقت جود مقطبة "ربما كان الأمر مجرد تخمين بالفعل.. لا يجب أن نركن لهذا القول قبل أن نتأكد من الأمر.."

قال ياسان بتوتر "لو كان الأمر محقاً، فنحن في مصيبة.."

نظرتا له باستياء وهو يضيف "مملكة الضياء هي الأقوى بين الممالك، ولا يوازيها في القوة إلا جيش مملكة الغمام.. ومع مقتل قاث، والبلبة التي رأيناها في قيادة الجيش قبل سقوطنا، فإن هزيمة جيشنا وسقوط مملكتنا قد لا يعني إلا أن السبيل ميسرٌ أمام جيش مملكة الضياء للاستيلاء على بقية الممالك بسهولة تامة.."

قالت جود بضيق "لا يهمني ما يجري للممالك الأخرى.. ما يهمني من هذا الأمر ألا تسقط مملكتنا بيد الأعداء.."

قال ياسان بخفوت "وكيف لنا أن نتحقق من هذا الأمر أو نمنعه فعلاً ونحن هنا؟"

زفرت جود وهي تصمت وتعقد ذراعيها على صدرها، فيما ظلت هيما تفرك يديها وخيّم الصمت على ياسان تماماً.. حتى سمعوا سيرا تقول ساخرة "أنتم تأخذون الأمر بجدية.. أيهم ما يجري للعالم العالي وأنتم هنا؟.."

لم تكلف جود نفسها الرد عليها، ملاحظة صمت رادال الذي ظل مطرقاً للحظات بتفكير عميق، ثم رفع رأسه وتساءل "أما زال توريك يحكم مملكة الضياء؟"

لم يكن معرفته بأمر الملك السابق مستغرباً بالنسبة لجود ورفيقيها، وإن كان السؤال عنه بالتحديد غير متوقع.. لكن لم يتساءل أحدهم عن مغزى هذا السؤال وياسان يجيب "لا.. لقد مات الملك توريك منذ سنة، وتولى الحكم بعده الملك سوريم فهو الوريث الوحيد للمملكة.."

وقف رادال فجأة وأخذ يدور في موقعه وهو يشدّ قبضة يده اليمنى بقوة قبل أن يرخيها ويشدّها من جديد.. كان عابساً بشدة، مما دفع ياسان ليتساءل بنبرة لم يتمالك قلقها "ما الذي جرى؟.. أهو غاضب؟.."

قال بارا بهدوء "لا.. إنه يفكر في أمرٍ ما.."

نظر ياسان لملامح رادال العابسة وهو يغمغم "إن لم تكن هذه ملامحه الغاضبة، فكيف يكون إن غضب فعلاً؟"

علقت سيرا بسخرية "أأنت خائف؟.. يا لك من جبان.."

همّ ياسان بإنكار هذه التهمة عنه.. يهمّه ألا ترى سيرا قلقه من تصرفات رادال.. لكن قاطعه رادال الذي نظر لهم مقطباً قائلاً "إذاً.. ما الذي تنتوون فعله الآن؟"

تبادل ياسان وهيما نظرات الحيرة، فيما انبرت جود قائلة بحزم "العودة طبعاً.. لا يمكننا أن نبقى هنا طويلاً.. ومملكتنا بحاجة إلينا في هذا الوقت الصعب.."

أطلقت سيرا ضحكة ساخرة وقالت "مملكتنا بحاجة إلينا؟.. أتظنين أن تلك المملكة تنتظر عودتك لتحظى بالأمان والسلام الذي تحلم به؟.. أي غرور هذا؟.."

تجاهلت جود تعليقها الساخر الذي لم تفهم له سبباً، فيما قال رادال وقد انفرجت أساريره شيئاً ما "رائع.. تعجبني هذه العزيمة والإرادة.. هذا يريحني من الكثير من العناء.."

بدا العبوس على وجه سيرا لقوله وهي ترمق جود بغيظ لم تفهم له سبباً أيضاً.. تلك الفتاة تكرهها، ويزداد كرهها لها مع كل لحظة تمضي.. فما الذي فعلته؟..

تساءل ياسان بتردد "عناء ماذا؟.. ما الذي تتوقعه منا؟.. ظننت أنك ستسخر من فكرة العودة مع استحالة ذلك في هذه الحالة.."

علق بارا قائلاً "أجل، هذه هي ردة الفعل الطبيعية.. أذكر سخريتك من هذا الأمر عندما طلبنا منك ذلك في أول لقاء لنا بك، ولم تتوقف سخريتك من كل محاولاتي طوال السنوات الماضية.. فما الذي تغيرّ الآن؟"

قال رادال بابتسامة جانبية "لأنني لا أظن الأمر محال الآن.. أو أن هذا ما أرجوه.."

نظروا له بدهشة وصمت، ثم انبرت سيرا تقول باعتراض "إن كنت تعني الشاس، فمهما حاولنا تدريبه لن يتمكن من تجاوز حاجز الغيوم.. بارا يحاول فعل ذلك منذ عدة سنوات دون نجاح يذكر.."

قال رادال بثقة "ومن تحدث عن الشاس؟.. اتبعوني.."

وغادر دون أن يلتفت للوراء ولو للحظة.. تبادلت المجموعة الصغيرة النظرات الصامتة التي تخالطها دهشة كبيرة.. ثم بادرت جود للحاق به بشيء من الأمل وهي تتساءل "هل تملك حلاً مناسباً يا هذا؟"

قال رادال "هل سمعك ضعيف لهذه الدرجة؟.. ألا تعرفين اسمي بعد؟"

قالت جود مقطبة "وهل هذا ما يهم؟.. أنا أريد العودة بأسرع ما يمكن، ولا أريد أن أتبع أملاً زائفاً وأضيّع وقتي دون فائدة.."

قال رادال ضاحكاً "وقتك؟.. وهل نملك هنا إلا الوقت؟.. لا تقلقي يا فتاة، ستجدين كل الوقت الذي ترغبين به لتحقيق مطلبك هذا.."

قطبت جود بشدة وهي تراه يراوغها في الإجابة، بينما سارع البقية للحاق بهما بفضول واضح، وسارعت سيرا للحاق برادال وهي تسير ملاصقة له رافعة رأسها دون أن تنسى أن تنظر لجود شزراً.. نظرت جود لتصرفات سيرا التي لا تفهمها، وغمغمت لنفسها "تلك الفتاة الحمقاء تكرهني.."

رأوا أنفسهم يقفون أمام عدد من حيوانات الشاس في إحدى الحظائر البدائية التي بنيت في جانب القرية..

فاقترب رادال من أحدها مربتاً على عنقه، وساقه لخارج الحظيرة ثم امتطاه دون سرج مكتفياً بلجام وضعه في فم الحيوان.. وبعد أن استقر فوق ظهر الشاس التفت للبقية قائلاً "فليصعد كل شخص منكم خلف أحدنا.. أمامنا طريق طويل لنصل لهدفنا.."

تساءلت جود بحيرة "وما هو ذلك الهدف الذي تقودنا إليه؟"

قال رادال "ألا تكفّين عن طرح الأسئلة؟.. هيا قبل أن تغرب شمس اليوم دون أن نحقق أي فائدة من هذا الوقت الضائع.."

تقدمت سيرا من رادال منتوية الركوب خلفه، لكن رادال استوقفها قائلاً "عليك أن تمتطي واحداً آخر لتتمكني من حمل إحدى الفتاتين خلفك.."

تراجعت سيرا بضيق، ثم استدارت متجهة إلى حيوان آخر مدمدمة "وما الحاجة بنا لإحضارهم معنا؟"

علق رادال "لولاهم لما أخذتك معي يا سيرا.. فأطيعي ما يطلب منك بصمت.."

رغم تزايد ضيقها، لكن سيرا لم تعترض وهي تمتطي حيواناً آخر خشية أن يتراجع رادال ويرفض اصطحابها معه، وهي تخشى اللحظة التي يقصيها رادال مما يفعله وينكر وجودها معه كلية.. فور امتطائها لحيوان الشاس، مدت يدها لهيما بدعوة صامتة، رافضة اصطحاب جود معها.. فيما ركب ياسان خلف رادال مدمدماً "هل عليّ ركوب هذه الحيوانات مجدداً؟"

علق رادال مبتسماً "ستعشق التحليق بها يا رجل.."

قال ياسان بغير اقتناع "لا يمكنني الوثوق بحيوان يمكن أن يرميني من على ظهره في أي لحظة.."

وجدت جود يد بارا تمتد إليها ليردفها خلفه فلم تتردد في الاستجابة له، وفور استقرارها خلفه ظلت تتلفت حولها متململة وهي تجد عسراً في البقاء على ظهر هذا الكائن.. كان من الغريب عليها امتطاء ظهر حيوان دون سرج، والاعتماد على فروه وعرفه للتشبث به فيما يمسك بارا باللجام، لكنها لم تتذمر وهي ترى الحيوانات تستعد للانطلاق.. ولما ارتفع الشاس عالياً في السماء بحركة سريعة، أسرعت هيما تتشبث بوسط سيرا بقوة آلمتها وهي تصيح "لِمَ تضغطين على جسدي بهذه الصورة؟.."

قالت هيما مرتعبة "أنا أخشى السقوط.. أعيديني للأرض أرجوك.."

دمدمت سيرا باستنكار "كيف يصدر هذا من فتاة تعيش في العالم العالي بالفعل؟.. كما أنها ليست المرة

الأولى التي تمتطين فيها ظهر الشاس.."

ولكزت الشاس لاحقة برادال وبارا دون أن تعير توسلات هيما أي اعتبار..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

بعد رحلة قصيرة استغرقت أقل من ساعة واحدة، وصل الفريق الصغير لجانب من الغابة الشاسعة التي تبدو كبحر أخضر اللون ممتد الأطراف بشكل لا يمكن حصره بالبصر فقط.. وفي موقع معين، بدا مميزاً من الأشجار التي تحطمت أطرافها العليا بشكل واضح للناظر إليها من الأعلى، هبط رادال بالشاس الخاص به والبقية يتبعونه بصمت وتعجب..

وفور اقترابهم من الهدف الذي قادهم إليه رادال، شهقت هيما بدهشة لرؤية تلك الطائرة متوسطة الحجم التي استقرت وسط الأشجار محطمة عدداً منها.. كانت تلك من طائرات العالم السامي دون شك، بشكلها الدائري المميز وتفاصيلها المعتادة، فلا يبدو أن هذا العالم قد بلغ التطور الكافي للحصول على مثل هذه التكنولوجيا.. وقد زاد الشعار الذي اتضح مع دورانهم حولها من ظنهم ذاك وهم يتعرفون على شعار مملكة الغمام المرسوم على جانب الطائرة..

ومع هبوط الشاس أرضاً، سارع رادال للنزول أرضاً بنشاط يتبعه بارا وسيرا بدهشة واضحة.. ولم تكن دهشة البقية أقل وهم يترجلون بشيء من العسر.. وبساقين مرتجفتين لعدم تعودها على التحليق بمثل تلك الارتفاعات على ظهر الشاس، وقفت هيما قرب جود وياسان وهي تغمغم "هل ما أراه حقيقي؟.. من أين جاءت هذه الطائرة؟"

قال رادال "يبدو أنها سقطت أرضاً قبل عدة أشهر.. عثرت عليها في إحدى رحلاتي، وقد دأبت على زيارتها بين وقت وآخر محاولاً معرفة كيفية تشغيلها وحافظت عليها من غزو الأشجار حولها.."

لم يملك بارا نفسه أن صاح باستياء "ولماذا أخفيت عني هذا؟.. أنت مدركٌ لمدى لهفتي للرحيل، وتوقي للقيام بأي شيء يمكنني من ذلك.. فلمَ لمْ تطلب عوني؟"

أجاب رادال بهدوء "لم أتمنّ أن أمنحك أملاً زائفاً قد ينجلي بسرعة.. لذا التزمت بالصبر، حتى هذه اللحظة

التي أيقنت فيها أن هذا قد يكون أملاً حقيقياً بالفعل.."

قالت جود بدهشة وهي تدور لترى شعار المملكة جانباً بوضوح "إنها تخصّ جيش المملكة.. يبدو أنها إحدى الطائرات التي فقدناها دون أن نعرف لاختفائها سبباً.. ما الذي سبّب سقوطها أرضاً بهذه الصورة؟"

فقال رادال بابتسامة "وهل هذا مهم؟.. المهم الآن أنكم قد تملكون وسيلة للرحيل.."

نظروا له بشيء من عدم الاقتناع، وياسان يعلق متأملاً الطائرة "لا تتوقع منها المعجزات.. لا يبدو أن هذه الطائرة صالحة لشيء بعد سقوطها العنيف ذاك.."

تساءلت جود بدورها وهي تتقدم من باب الطائرة المغلق "ماذا عن ركابها؟.. ألم تعثر عليهم؟"

أجاب رادال وهو يتبعها "لا.. لم ينجُ منهم أحد.."

في ظروف أخرى، كانت جود ستحزن لمقتل أولئك الجنود بسقوط الطائرة، لكن في هذه الحالة فهي شاكرة للصدفة التي جعلتهم يلتقون برجل قادهم لهذه الطائرة.. فباستخدامها، قد يتمكنون حقاً من استعادة بعض الأمل في العودة لعالمهم قبل فوات الأوان..

علق ياسان وهو يتبعهم بدوره "أتمنى ألا تكون قد تركت الجثث تتعفن في الطائرة.."

قال رادال "طبعاً لست بذلك الغباء.. لقد أخرجتها وتركت حيوانات الغابة الضارية تقوم بعملها.."

قالت هيما باستنكار "لمَ قد تفعل ذلك؟.. كان يفترض بك أن تدفنهم دفناً لائقاً.."

علق رادال ساخراً "دفنٌ لائق؟.. هذه الكلمة تصلح للعالم العالي الذي تهمّه هذه الأمور.. أما هنا، فكل شخص ميت يملك من الفوائد ما لا يمكنك تصوره لهذا العالم.."

لم تعلق جود وهي تفتح الباب وتزيحه جانباً رغم اعتراض بعض الشجيرات القريبة عملها.. وفور أن

فعلت استطاعوا أن يشمّوا الرائحة المكتومة للطائرة التي ظلت مهملة شهوراً طويلة.. لم يتردد رادال في الدخول، تتبعه جود والبقية بمزيج الدهشة والقلق والانفعال.. كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها بارا وسيرا طائرة حديثة من الداخل، فاكتست نظراتهما بالدهشة وهما يمعنان النظر في كل ما يمر بهم.. فيما بدت اللهفة على وجه ياسان وهو يقول "لا تبدو الطائرة بحالٍ سيئة كما ظننت في البدء.. إنها أقل ضرراً في الداخل مما بدا في خارجها.."

غمغمت جود "أتمنى أن يكون الواقع بحجم تفاؤلاتك هذه.."

تساءلت هيما وهي تقلب بصرها فيما حولها "ألن نعثر على حيوانٍ مندسّ في جانب من جوانبها؟"

لم يرد شخص على تساؤلاتها القلقة، فيما تذكرت جود للحظة تلك الطائرة التي اندسّت فيها قبل اثنتي عشرة سنة.. تذكرت وجه قاث، وهو الأول الذي تراه من ذاك العالم.. وهو الأول الذي رآها كبشرية تستحق الرعاية والحياة كما يستحقها سكان العالم العالي..

زفرت جود على الفور مزيحة تلك الأفكار قبل أن تتداعى مشاعرها أكثر من اللازم.. كانت قد أقصت قاث وما جرى له من ذهنها.. لم تكن تملك الوقت الكافي للبكاء عليه.. ولن تفعل حتى تنتقم ممن قتله بالفعل.. إنها لم تثق في أمرٍ من أمور حياتها أكثر من ثقتها بوصولها لانتقامها هذا.. مهما بدا الأمر مستحيلاً، فهي ستعود وستنتقم.. وعندها، ستبكي الرجل الوحيد الذي غزا حياتها وملأها إشراقاً وحبوراً غابا عنها مع غيابه..

لاحظت التفات رادال إليها وهي تسير خلفه، فرمت أفكارها تلك جانباً وهي تسمعه يقول "والآن، قوموا بالسحر الذي تتقنونه، ولنرَ إن كانت جهودي في الشهور الماضية في الحفاظ على هذه الطائرة تستحق قيامي بها.."

وخطا خطوة للجانب مانحاً جود والبقية الفرصة للتقدم في الغرفة الماثلة أمامهم.. كانت تلك غرفة القيادة الرئيسية، تحوي كرسيين متوسطي الحجم ولوحة تحكم عريضة مع الكثير من الشاشات والرافعات والأزرار، وبكمية لا يستهان بها من الدماء التي غمرت أجزاء عديدة من أجهزتها وكراسيها وتحولت للون الأسود الكئيب..

تراجعت هيما خطوة وهي تتخيل منظر الجثث على تلك الكراسي والدماء اللزجة تغمر كل ما في الغرفة..

وظلت واقفة بتحفز خارج الغرفة فيما تقدم البقية دون تردد وبارا يتساءل "أتظنون أنكم قادرون على تشغيلها بالفعل؟"

جلس ياسان متأملاً لوحة القيادة وجوانبها باهتمام، فيما علقت جود "سنقوم بتشغيلها لو كانت صالحة لذلك بالفعل.. سقوطها من ذلك الارتفاع لا يمكن أن يكون بلا أثر على بدنها وعلى صالحيتها للعمل.."

ثم التفتت لرادال متسائلة "لكن ما الذي دعاك للعناية بها بهذه الصورة؟.. مما فهمته، فأنت قد سقطت لهذا العالم منذ كنت صغيراً.. لذا من المحال عليك معرفة كيفية تشغيلها ناهيك عن الطيران بها بسلاسة.. فما الذي كنت تسعى إليه؟"

قال رادال بهدوء "جهلي باستخدام هذه الطائرة لم يكن ليعيقني حقاً.."

ومال نحوها مضيفاً بجدية "أنا أسعى للعودة لذلك العالم مثلما تسعون إليه أنتم.. لذا، ستعينوني على تشغيل الطائرة والطيران بها مقابل أن أسمح لكم بالركوب فيها في رحلة العودة.."

نظرت له المجموعة الصغيرة بدهشة خالطها ذهول من سيرا وبارا.. رادال، الذي لطالما أقنعهم باستحالة العودة وسخر من رغبتهم بتحقيق ذلك، لا يخشى من التصريح بأنه يسعى للأمر ذاته.. فما الذي غيّره بهذه الصورة؟.. ما الذي قلب أفكاره بهذا الشكل؟..

نهضت سيرا واقفة فور أن ألقى رادال جملته تلك وصاحت "لا يمكنك فعل ذلك.. أأنت جادٌ بهذا الأمر يا رادال؟"

لكن لم تكن نظراته توحي لها بأنه أحضرهم لمجرد العبث.. فقالت بغضب وهي تضرب الأرض بقدمها "أتنوي الرحيل لذلك العالم حقاً؟.. كيف لك أن تتخلى عن هذا العالم؟.. كيف لك أن تتخلى عني أنا؟"

قال رادال بهدوء "لك أن تدركي أن كلا الأمرين لا يهمّني كثيراً يا سيرا.."

ظلت سيرا تحدق في وجهه مبهوتة.. كان هذا رفضاً صريحاً لها ولمشاعرها.. لقد تخلى عنها قبل أن يرحل بالفعل.. والأسوأ أنه أظهر عدم اهتمامه بها أمام هذه الجماعة الغريبة والتي تسخر منها الآن ولا شك..

حاولت سيرا تمالك انفعالاتها المتداعية دون نجاح يذكر، وقبل أن تنهمر دموعها لهذا الإذلال الذي شعرت به صرخت بغضب "لن أسمح لك بذلك قط يا رادال.."

واستدارت مغادرة دون أن تنتظر سماع رده.. يكفيها ما حصلت عليه من إذلال، ويكفيها الحط من كرامتها

أمام أولئك الغرباء الذين لا تطيق رؤيتهم.. لماذا يكرهها رادال ويكره التلطف بأي كلمة نحوها؟..

رآها بارا تغادر بخطوات سريعة وتمتطي الشاس قبل أن تحلق به دون أن تنظر للوراء.. فقال بضيق "أترىٰ الوقت ملائماً لمشاكسة سيرا بهذه الصورة؟.. لقد رحلت بالشاس غير عابئة لأمرنا.."

هز رادال كتفيه معلقاً بغير اهتمام "يمكنك حمل الفتاتين معاً على الشاس الخاص بك.. فهو قادر على تحمل وزن كهذا لمسافة معقولة.."

غمغمت هيما بخوف ظاهر "لا أريد أن أجد أننا بقينا وسط هذه الغابة دون وسيلة للعودة.."

لم يعلق رادال على قولها وهو يولي اهتمامه لجود وياسان اللذان تفحصا الطائرة بكثب.. ربما كان رادال بالفعل غير مقتنع بأهمية عودتهم لذلك العالم سابقاً.. أما الآن، فقد اختلفت أمورٌ كثيرة.. الآن، أصبح أكثر إصراراً ولهفة من بارا للعودة.. ولن يسمح لأي شيء أن يقف في طريقه مهما كان..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

مضت عدة ساعات وهذه المجموعة مرابطة في الطائرة بانتظار أي نتائج من جود وياسان.. وبعد وقت طويل، تساءل رادال "إذاً؟.. هل ستتأملون أجهزة التحكم هذه لوقت طويل؟"

علقت جود بضيق "أترىٰ أننا لا نحاول كفاية؟"

قال رادال "مهما كان حجم محاولاتكم، فأنا لا أرىٰ أي تغيير يذكر.."

زفر ياسان قائلاً "لا يبدو أن الأمر سيكون بالسهولة المتوقعة.. إنها بالفعل ترفض الاستجابة لنا، ولا أرىٰ أي عطل واضح في أجهزة التحكم.."

تبادلت معه جود نظرة صامتة، فاستسلم ياسان قائلاً "ربما كان العطل في محركها.. سأذهب لرؤيته.."

كانت خبرة جود بمحركات الطائرات ضئيلة مقارنة بياسان، ففضّلت البقاء في غرفة التحكم متفحصة جوانبها لعلها تصل للسبب الذي يمنع تشغيل الطائرة.. هل فرغت من الوقود؟.. هذا محال مع الوقود المتطور الذي يدوم زمناً طويلاً ولا يتسرب من الطائرة حتىٰ مع سقوطها وتحطمها.. هل تحطمت الشاشات في لوحة التحكم؟.. هل انقطعت الأسلاك التي تصل بالمحرك وتدفعه للعمل بضغطة زر؟.. لم

تكف جود عن عملها أو يخفت حماسها ولو للحظة.. حتى عندما عاد ياسان قائلاً بتقطيبة ظاهرة على جبينه "أصيبت غرفة المحركات بضربة قوية وهناك تهتك في عدة أجزاء.. قد يكون من المستحيل علينا إعادة هذه الطائرة للعمل.."

قالت جود بسرعة "لن نكف قبل أن نحاول على الأقل.. ربما ليس الأمر بالسوء الذي يبدو عليه.."

تساءل رادال في تلك اللحظة "لا يبدو أنكما تحرزان أي تقدم.. أما زلتما واثقين مما تفعلانه؟"

غمغم ياسان "ربما....."

فقالت جود بتصميم "بل نحن واثقان.. السفينة مغايرة لما تعاملنا معه من طائرات، لكن التصميم ليس مختلفاً بشكل كبير.. سنتمكن من تحقيق بعض النتائج، بشرط أن تكفوا عن الإلحاح لرؤية أي تقدم.."

كان هذا إعلاناً لرادال بأنه يسبب لهما الإزعاج، لكنه لم يتزحزح من موقعه وهو يراقبهما بمزيج الأمل والفضول.. فيما سأل بارا هيما التي وقفت جانباً متململة "ألا تملكين أي خبرة بهذه الطائرات مثلهما؟"

قالت هيما بملل "لا.. أنا مجرد كاهنة، قضيت سنوات عمري سجينة جدران المعبد.. ولا أملك أي معرفة بما يفعلانه هنا ولا يهمني معرفته حقاً.."

تساءل بارا بدهشة "ألا تتوقين للعودة لعالمك بأسرع ما يمكن؟"

غمغمت هيما وهي تدير وجهها جانباً "بل أنا كذلك بالفعل.."

لكنها تخشى تلك اللحظة بالتحديد.. مع الحرب التي اشتعلت في وطنها، فإلى أين ستذهب؟.. لا تعلم مصير المعبد والكهنة فيه، ولا تعلم حتى مصير والديها وعائلتها التي تعيش في قانار.. فلمن ستعود ولأي وطن ستذهب؟..

طال الوقت بالثلاثة وهم يراقبون عمل جود وياسان بصمت وشيء من الخيبة لأن الطائرة ظلت صامتة كما كانت منذ شهور عدة.. ومع قرب مغيب الشمس، أعلن رادال ضرورة عودتهم للقرية وعدم بقائهم في هذا المكان لمدة أطول.. لم تمانع جود رغم شعورها أنهم يضيّعون أوقاتاً ثمينة بهذا التصرف.. لكنها لم تستطع معارضة الأمر مع التعب البالغ الذي حلّ بها فجأة بعد هذا النهار الحافل..

وبعد كل هذا وذاك، كانت جود تشعر براحة عميقة لاستقرار الأمور نسبياً.. لم تعد تخشى على حياتها، وعثرت على من يمكنه منحها بعض الدعم حتى عودتهم للأرض العليا.. صحيح أنها لا تعرف ما آل إليه

حال مملكتهم مع ذلك الهجوم الغادر المريب، لكن حتىٰ ذلك الوقت عليهم فقط التشبث ببعض الأمل والعمل بأقصىٰ طاقتهم لتجاوز هذه المحنة المؤقتة..

سار الجميع خلف بارا الذي قرر العودة بهم للقرية للحصول علىٰ بعض الراحة.. كانت أجسادهم المنهكة تصرخ بألم بعد العناء الذي مروا به، وقد سارعت هيما ومن خلفها ياسان للحاق ببارا شاكرين له عرضه باستضافتهم في كوخه حتىٰ صباح الغد.. أما جود، فقد تبعتهم بصمت وهي بشك من صحة ذلك القرار بشأن مبيتهم مع تلك الفتاة المجنونة تحت سقف واحد.. وقبل أن تغادر الطائرة تابعة ياسان، رأت ساقاً تمتد أمامها قاطعة عليها الطريق، ولو كانت غافلة وغير منتبهة لتعثرت وسقطت علىٰ الأرض بسهولة..

نظرت بضيق لصاحب السابق لترىٰ رادال الذي وقف جانباً يقول لها بابتسامة جانبية "أنت لا زلت مدينة لي بالشكر لإنقاذي حياتك.."

كانت جود لا تنفي ذلك، ووقر في ذهنها أنها ربما لن تشعر بالراحة حتىٰ تشكره بالفعل وتزيح هذا الأمر من ذهنها.. فابتدأت تقول "لا أدري سبب إلحاحك هذا للحصول علىٰ امتناني لما فعلته.... لكني بالفعل....."

قاطعها رادال بسماجة ملاحظاً ترددها "هل ستحاولين التقليل من شأن ما فعلته لك؟.."

نظرت له جود بدهشة لظنه ذاك، فقال ملوحاً بإصبعه "ضعي في ذهنك أن فتاة مرفهة مثلك لا يمكنها مطلقاً النجاة دون عون في هذا العالم.. فلا تستهيني بالحظ الذي ساقني إليك لأنقذك.."

تزايد استياء جود من كل ما يقوله هذا الرجل.. فقالت بجفاء "كنت أنوي شكرك بالفعل، لكني تراجعت عن فعل ذلك الآن.. فهذا لن يزيد إلا في غرورك وثقتك العمياء بنفسك.. وليكن في علمك، لست فتاة مرفهة منعمة.. أنا أنتمي لهذا العالم بأكثر مما تنتمي إليه أنت، ولست مغرورة بنفسي كما أنت قطعاً.."

واستدارت مغادرة باستياء، لكن رادال أمسك ذراعها وملامح دهشة حقيقية ترتسم علىٰ وجهه وهو يتساءل "ماذا تعنين؟.. أي عالم ذاك الذي تقصدينه؟.. هذا العالم؟.."

جذبت ذراعها من يده قائلة بضيق "بالطبع أعني هذا العالم.. هل أصبحت هذه اللغة عسيرة علىٰ فهمك الآن؟.."

أطلق رادال ضحكة ساخرة عالية، فيما تزايد الاستياء في نفس جود شاعرة أنه يسخر منها ومما قالته.. هي

حقاً من هذا العالم، لكن ابتعادها عنه لاثنتي عشرة سنة منذ كانت في العاشرة يجعلها جاهلة به وبخباياه كالبقية تماماً.. فما الذي حاولت تحقيقه بما قالته؟!..

قال رادال أخيراً بعد أن فرغ من ضحكاته الهازئة "هذه نكتة جيدة.. أتحاولين أن تبرهني على قواك وإنكار عجزك عن مواجهة هذا العالم الغريب؟"

قالت جود بحنق "بل أنا من هذا العالم بالفعل.. أتظنني أستمتع بالكذب عليك؟"

قال رادال مبهوتاً "كيف؟.. أنت تتقنين لغة ذلك العالم.. أولم تسقطي مع البقية كما قالت سيرا؟.."

قالت بضيق "لست مجبرة على قصّ حكايتي عليك، خاصة أنني لن أشعر بالراحة لذلك.."

وابتعدت لاحقة بالبقية، لكن رادال أوقفها من جديد ممسكاً ذراعها بقوة أكبر من السابق، ورغم تحديقها به بغضب وهي تحاول جذب ذراعها من قبضته، لكنها فشلت في ذلك فشلاً ذريعاً.. فيما قال رادال عابساً "أريد أن أعرف الحقيقة.. أبغض أن يتجاهلني الآخرون دون سبب مقنع.."

علقت جود هازئة "أنت بالفعل ترى نفسك فوق البقية.."

قال رادال بضيق "ليس هذا ما عنيته...."

صمت للحظة دون أن يفلت ذراعها رغم محاولاتها، ثم زفر مستعيداً هدوءه وقال "كيف لي أن أثق بقدرتك على إصلاح هذه الطائرة؟.. بل كيف لي أن أثق بنواياك وأنا أجهل من تكونين حقاً؟.."

أفلت يدها أخيراً، فعقدت ذراعيها على صدرها وكأنها تبعدهما عن مرمى قبضته وقالت ببرود "لكنك وثقت بي قبل أن تعرف هويتي، ولا أظنك فقدت ثقتك بياسان وهيما رغم ذلك.. فما الذي يجعلني أقل ثقة منهما فقط لأنني من الأرض الدنيا ولست من العالم السامي كما أنتم؟.."

لم يكن قولها يخالف الواقع، فرادال لم يشك للحظة برغبتهم في العودة للعالم العالي، لذا عرض أمامهم تلك الطائرة التي عثر عليها، والتي أخفى أمرها عن بقية أهل القرية بحرص شديد.. أما الآن، فاعتراف جود بحقيقتها قد جعله يتردد ولو للحظة في معاملتها كالسابق..

استند رادال على أحد جدران الطائرة المعدنية بظهره خافضاً وجهه بتفكير عميق.. وكأنه يغالب تردده فيما يخص الخطوة التالية.. ما الذي يدور برأسه حقاً؟.. سمعته أخيراً يقول "لم أعنِ ذلك بالتحديد.. كونك من هذا العالم أو ذاك سيحدد مقدار الثقة التي يمكنني أن أمنحك إياها.. لقد قابلت العديد من البشر في هذا

العالم طوال السنوات السابقة وفي مختلف الرحلات التي قمت بها.. وصدقيني، معرفتهم بكوني من العالم العالي يثير فيهم أطماعاً جمّة وأحلاماً لا يمكنني تحقيقها أو إنكارها.. يظنون أنني أملك حلاً سحرياً لنقلهم من تعاسة هذا العالم إلى عالمٍ آخر أفضل وأجمل كما يتخيلون.. ولكِ أن تتخيلي ما حاولوا فعله لتحقيق طموحاتهم تلك.."

ثم نظر إليها قائلاً "لا أدري منذ متى وأنتِ في العالم العالي، لكن لا يمكنني الثقة بخلوّ سريرتك من أي نوايا أو طموحات قد تسبب لي ولرفاقي الضرر.. ولا يمكنني إلا الاشتباه بمن لك علاقة بهم في هذا العالم وقد يسبّبون لنا مشاكل جمّة.."

قالت جود بعبوس "أنا لن أخلّ بأي اتفاق بيننا.. سنصلح هذه الطائرة، ونعود معاً للعالم العالي.. هذا كل ما في الأمر.. فلا داعي لأي قلق من جهتك.."

فقال رادال "وماذا عن أهلك وعشيرتك في هذا العالم؟"

هزت رأسها مجيبة "صلتي بهم انقطعت منذ اثنتي عشرة سنة.. أنا لا أعرفهم ولا يهمني معرفة ما جرى لهم.. انتقلت للعالم العالي منذ كنت في العاشرة، ولا أملك أي نوايا فيما يخص هذا العالم وسكانه.."

صمت رادال مفكراً وهو يتأمل ملامحها وكأنه يبحث فيها عن لمحة كذب أو خداع.. فثبتت جود بثقة أمامه دون أن تخشى شيئاً.. لم تكن تملك ما تداريه في حياتها، ولم تكن تخشى منه ولو للحظة.. سمعته يتساءل بتردد "لكن كيف لي أن أسلّمك هذه الطائرة وأنا لا أعلم إن كنت ستصلحينها أم تزيدينها دماراً؟"

قالت جود بثقة "أنت لا تعلم عني شيئاً.. أنا لست مجرد فتاة من هذا العالم أو ذاك.. أنا كنت مجندة في جيش مملكة الغمام، وأصبحت قائداً لإحدى فصائل الجيش مؤخراً.. أنا وياسان نملك من الخبرة الكافية ما لن تجده في سكان هذا العالم أجمع بخصوص هذه الطائرة.."

ابتسم رادال معلقاً "يبدو أنك فخورة بنفسك.."

استاءت جود من قوله رغماً عنها وهي تدرك أنه لم يقله كنوع من الإطراء، ثم قالت بضيق "والآن، هل زالت شكوكك بشأني أم أنني لازلت محل اتهام؟"

أجابها "لا.. أظنني أستطيع الثقة بك.. في الوقت الحالي على الأقل حتى يتبيّن لي أمرك.."

قالت باستياء "عليك أن تكفّ عن أوهامك هذه.. لا يمكنك أن تسيء الظن بالآخرين دون سبب.."

اعتدل رادال واقفاً وقال بابتسامة جانبية وحاجب مرتفع "أتظنين أنك تقدرين على إجباري؟.. اهتمي بأمر الطائرة هذه كما تشائين، ودعي أمر الثقة هذه لي أنا.."

اغتاظت من ثقته تلك، فقالت باستياء وحنق "إذن ما الذي يدعوني للثقة بك كما لا تثق بي أنت؟.."

واستدارت مغادرة دون أن يحاول إيقافها هذه المرة.. غادرت الطائرة واتجهت للموقع القريب حيث ربط البقية حيوانات الشاس لئلا تفر هاربة.. وعندما وصلت لذاك الموقع، لم تجد إلا الشاس الذي يملكه رادال.. لقد رحل البقية وتركوها وحيدة في هذا المكان.. ومع ذلك الشخص البغيض من بين كل سكان هذا العالم.. زفرت جود بضيق وهي تقلب بصرها في السماء، فيما قال رادال الذي اقترب خلفها "يبدو أنهم لم يكونوا بالصبر الكافي لانتظارنا.. هيا بنا.. علينا العودة قبل أن يحل الليل علينا في هذا الموقع النائي.."

امتطى الشاس الخاص به بعد أن فك رباطه من الشجرة القريبة، ثم مد ذراعه والتقف جود الواقفة قريباً ليردفها خلفه.. التزمت جود الصمت التام رافضة التمسك برادال طوال الرحلة رغم طيران الشاس السريع وشعورها بعدم الثبات على ظهره.. كان ضيقها السابق منه ومن تعليقاته التي لا يترفق بها مع من حوله قد تحولت لاستياء ونفور واضح منه، وفضّلت الكف عن الدخول في نقاشات عقيمة معه لن تخرج منها إلا خاسرة..

وعند وصولهم للقرية، بعد أن غربت الشمس بالفعل وعمّ الظلام إلا من نور المصابيح المنبعثة من النوافذ التي أسدلت الستائر عليها، ترجلت جود من على ظهر الشاس دون أن تنتظر عون رادال ووقفت وسط القرية الهادئة بحثاً عن ياسان وهيما.. كانت المنازل متشابهة بشكل كبير، وهي لم تلبث في القرية إلا وقتاً قصيراً، لذا لم تعرف أي كوخ هو ذاك الخاص بالتوأمين.. لبثت في موقعها لبعض الوقت حتى عاد رادال بعد أن أدخل الشاس للحظيرة البعيدة، فتوجه لأحد الأكواخ مشيراً إليها لتتبعه.. لم تتردد جود في ذلك ملاحظة الظلام المخيم على ذلك الكوخ.. أين البقية؟.. دخلت من باب الكوخ خلف رادال، ورأته يشعل مصباحاً زيتياً ويضعه على طاولة وسط الغرفة الواسعة التي تشغل أغلب مساحة المكان.. وكان ذلك المصباح رغم خفوت ضوئه كافياً لتجد جود المكان خالياً من أي روح.. فالتفتت إلى رادال مقطبة وتساءلت "أين البقية؟"

قال رادال رامياً جسده على إحدى الأرائك وضيعة المنظر "في كوخ التوأمين.. أما هذا، فهو كوخي أنا.."

قالت جود باستياء أكبر "وأين هو كوخهما؟.. لمَ لمْ تدلّني عليه فور وصولنا؟"

أجاب رادال بابتسامة جانبية "لا أظن بقاءك مع سيرا في كوخ واحد أمرٌ جيد.. قد تحاول الخلاص منك مجدداً، ولو كنت أجهل سبب كرهها العميق لك.."

صاحت جود بحنق رغماً عنها "إنها لن تخيفني.. كما أنني لم أقبل عرضك لأن أبيت هذه الليلة معك في هذا الكوخ.."

علق رادال بسماجة "لمَ؟.. أتخشين على نفسك مني؟"

قالت بهزء واضح "بل أخشى عليك من قبضتي لو قمت بتصرف لا يعجبني.."

واستدارت مغادرة الكوخ متجاهلة الضحكة التي أطلقها رادال تعليقاً على قولها.. ووسط الأكواخ، وقفت جود صائحة بأعلى صوتها "ياسان.... ياسان أين أنت؟"

لم يكن الطرق على الأبواب بحثاً عنهم وارداً، وكذلك المبيت في العراء وسط الرطوبة واللزوجة والحشرات التي لا يمكن رؤيتها والتي بدأت بقرص جلدها بوضوح وسط الظلام.. ومن أحد الأكواخ، رأت ياسان يطل متسائلاً "ما الأمر؟.. ما بك تأخرت في العودة هكذا؟"

سارت نحو ذلك الكوخ باستياء لأن أحدهم لم يقلق لتأخرها في العودة معهم، فيما قالت سيرا بجفاء واضح فور دخول جود من الباب "أما كان من الخير لك الاحتفاظ ببعض عزة النفس والمبيت في العراء؟.. أنت تدركين أن وجودك غير مرحب به.."

تجاهلتها جود بشكل تام وهي تجلس جانباً زافرة قرب هيما التي بدت أكثر راحة بوجودها ووجود ياسان عما كانت عليه بدونهما في الليلتين السابقتين.. عندها نهضت سيرا بعصبية مدمدمة "أصبح هذا الكوخ زريبة حيوانات.."

دخلت غرفة قريبة وأغلقت الباب خلفها بقوة، فيما استدارت جود نحو بارا دون اهتمام بغضبها قائلة "والآن، ما هي حكاية تلك الطقوس التي يقوم بها كهنة معبد الشمس؟.. هل لها سبب معين أم أن الاختيار يتم عشوائياً على سكان مملكتكم؟"

قال بارا وهو يجلس بدوره "ألا يملك معبد مملكة الغمام طقساً مشابهاً؟.."

انبرت هيما قائلة "لا.. لا يفعل كهنتنا مثل هذا الأمر مطلقاً.."

زفر بارا وهو يتأمل جوانب الكوخ بصمت للحظة، ثم شرح لجود أمر تلك الطقوس المقدسة التي تقام في معبد الشمس كل خمس سنوات بشكل حتمي لا يمكن الحياد عنه مهما كان الأمر.. وحكى لهم ما جرى له ولسيرا فور سقوطهما من العالم السامي وكيف أنقذ رادال حياتيهما بمعجزة.. كانت تلك هي المرة الأولى التي تسمع فيها جود بهذا الأمر، و بدا لها عبثياً وقاسياً بشدة.. إنها تدرك أن كهنة معبد إينار ليسوا أقل سوءاً، لكنها لا تعرف لهم طقساً مشابهاً لذلك الطقس الوحشي الذي يتمثل في رمي الأطفال من ذلك الارتفاع الشاهق بقسوة ودون رحمة.. فما الهدف الذي قد يبرر تلك القسوة؟.. ما المغزى السامي الذي يبيح للكهنة أن يفجعوا آباءً وأمهاتٍ بأبنائهم وبناتهم بشكل دوري زاعمين أن الهدف هو استدامة الأمان لمملكتهم بتلك الصورة؟.. وأي أمانٍ قد يهدفون إليه وهم من بدأ الحرب التي لغت تلك الفكرة تماماً بين سكان العالم السامي؟..

ولما أنهى بارا حديثه، تساءلت هيما بإشفاق "لابد أن ذلك كان قاسياً.. لكن كيف ستعودان لمملكة الضياء وللعاصمة بهذه الصورة؟.. ألن يتصرف الكهنة معكما بطريقة شرسة بعد أن أخللتما بالقربان الذي قاموا بتقديمه للشمس؟.. لا أظنهم سيسمحون لكما أن تعيشا حياة آمنة في تلك المدينة بعدها.."

ابتسم بارا ابتسامة قاسية قائلاً "ومن قال إنني أنوي العودة لأحيا حياة آمنة.. سأعود لأنتقم.. لأهدم ذلك المعبد على رؤوسهم وأدمر تلك الطقوس الوحشية التي لا تعرف الرحمة.. ولن أهنأ بالاً حتى أرمي أولئك الكهنة من العالم السامي كما فعلوا بعشرات الأطفال في السنوات الماضية.."

قال ياسان بغير اقتناع "تلك أحلامٌ عسيرة على التحقيق.. كيف ستفعل ذلك وأنت وحيد؟.. أم أنك تظن أن يساندك رادال في هذا الأمر؟"

قال بارا مقطباً "لا يهمني رادال ولا أريد عونه.. أعرف كيف أحقق انتقامي ذاك.. لقد قضيت السنوات الماضية كلها أخطط لهذا الأمر، ولن أتوقف أو أسمح لشيء أن يوقفني عن تحقيقها.."

زفرت جود وهي تسترخي في الأريكة مدمدمة "حظاً موفقاً في ذلك.. أما نحن، فلنا سبيلنا الذي سنسعى إليه فور عودتنا.."

علق بارا بعد أن سادهم الصمت من جديد "ما الذي تنوون فعله عند العودة؟.. هل تنتوون خوض تلك الحرب وأنتم لا تعلمون ما الذي رست عليه خلال الأيام الماضية؟"

لم يجب ياسان بحيرة شاركته فيها هيما، فيما أغمضت جود عينيها في مكانها وهي تعقد ذراعيها على صدرها وتسند رأسها لظهر الأريكة.. لا يهم ما تريده أو لا تريده هي.. هل ستكون محاولاتهم مع تلك الطائرة ذات فائدة حقاً؟.. وهل سيفيد وجودهم في تلك الحرب التي لا يعلمون إلامَ آلت في الأيام القليلة الماضية؟..

وقت قصير مضى منذ غادروا العالم السامي.. لكن هذا الوقت القصير قد يكون كافياً لقلب الموازين وإنجاح كفة مملكة على أخرى بلمح البصر.. ولشدّ ما تخشى أن تعرف الكفة الراجحة بين المملكتين المتصارعتين..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

لم يتمكن رادال من النوم في تلك الليلة مع ذلك الصوت الخافت الذي تناهى إليه من جدران كوخه.. نهض مغادراً غرفته بصمت وفتح الباب الخارجي ليرى سيرا جالسة على إحدى الدرجات أمام كوخه وهي مستغرقة ببكاء خافت وقد دسّت وجهها بين ذراعيها وكتفاها يهتزان بخفة.. كان رادال في المعتاد يرد بردود جافة أو حانقة على غضبها وعصبيتها في محاولة منه لإبعادها.. كان يكره تصرفاتها تلك، وإلحاحها الشديد.. لكنه لم يكن يكرهها.. جلّ ما يرغب به أن تتركه وشأنه.. والآن، لا يقدر أن يتركها وشأنها وهو يراها باكية كما لم تفعل منذ زمن طويل أمامه..

جلس على الدرج بدوره ووضع يده على رأسها بصمت.. لا يعلم ما يفعله بها.. لطالما حلمت سيرا بمن يمنحها حياة هادئة وادعة، وهو لا يقدر على ذلك.. والآن، مع تلك الطائرة التي تحمل لهم وعداً بالعودة للعالم العالي، ستصبح أيامه أكثر انشغالاً واضطراباً من السابق.. فكيف له أن يقنعها بذلك؟..

سمعها تقول من بين دموعها "كيف لك أن تفعل ذلك بي؟.. كيف تقدر على تحطيمي مرة تلو الأخرى دون أن يرف لك جفن ندماً على ما تفعله بي؟.."

علق بابتسامة جانبية "تحطيمك؟.. لكنك تعودين إليّ في كل مرة صحيحة بدون سوء.."

رفعت بصرها أخيراً قائلة بحرقة "أتهزأ بما أشعر به؟.."

كانت في أسوأ حال ممكن، وهذا جعل رادال يشعر بالسوء لأجلها ولما تشعر به.. لكن كيف له أن يرضيها دون أن يضطر للتنازل عما يسعى إليه؟.. مد يده ومسح دموعها التي لا تكف عن الانهمار قائلاً "أنت لم تعودي طفلة يا سيرا.. عليك أن تفهمي أن رأيي بك لن يتغير ببضع كلمات أو بملاحقتي طوال الليل والنهار.. أما آن لك أن تلتفتي لنفسك وتبحثي عمن يستحقك؟"

قالت بصوت متهدج "ما الذي يجعلك تصدني في كل مرة؟.. ما الذي تبغضه فيّ؟.. ألست جميلة كفاية؟.. هل عمري هو السبب؟"

تنهد رادال وهو يزيح خصلات شعرها الكثيفة عن وجهها، وقال "لا.. ليس الأمر متعلقاً بأي مما سبق.. لا يهمني جمالك، ولا عمرك.. ولا أكره أي شيء فيك.. لكني ببساطة لا أحبك كما تتمنين.."

قالت سيرا بضراعة "لكن هذا يمكن أن يتغير.. أنت تبعدني عنك دون أن تحاول مطلقاً.. ربما تدرك أنك تحبني حقاً لو أنك كففت عن صدي وإبعادي في كل مرة.."

هز رادال رأسه نفياً وقال "لا.. الأيام القادمة لن تجعل لي وقتاً لاختبار ذلك.. حياتنا لن تعود كما كانت فور أن نعود للعالم السامي.. وفكري مشغول بما هو أكثر من علاقة حب تجمعني بامرأة.."

تمسكت به سيرا هاتفة باحتجاج "لا ترحل لذلك العالم يا رادال.. أنا أبغضه، ولا أريد العودة إليه.. أريد البقاء هنا، وأريدك معي.."

وتوسلت إليه مضيفة "أرجوك ابقَ معي يا رادال.."

صمت رادال وعيناه تدوران في القرية الساكنة الصامتة حوله.. لطالما عاش في هذه القرية موقناً أنه لن يعود.. أنه انسلخ عن تلك الحياة التي أصبح الضباب الكثيف يغلفها في ذكرياته.. لطالما هزأ بمحاولات بارا المستميتة، وشعر أن العودة لذلك العالم هي مجرد خيالات لن تتحقق في يوم من الأيام.. لكن الآن، أصبح هناك بصيص ضوء ضئيل ينير تلك الأمنية.. لم يعد الأمر مستحيلاً، وقد تتغير حياتهم بين ليلة وضحاها..

الآن، أصبح يملك هدفاً أكبر من مجرد قضاء أيامه في هذه الأرض بسلام، وإنقاذ من يمكن إنقاذه من قرابين العالم السامي..

الآن.. تغيّرت أمورٌ كثيرة تجعله أشد الموجودين إصراراً على العودة..

الآن.. انبثق ضوء ضعيف لا يكاد المرء يراه، لكن رادال مصرٌّ على التشبث به بكل ما يملك..

وفي عينيه، أدركت سيرا الجواب دون أن يتفوه به.. عادت دموعها تسيل بصمت، وظلت متشبثة بذراعه وكأنها تخشى أن تفلته فيختفي من أمام عينيها.. نظر لها رادال دون أن ينطق بكلمة، وربت على رأسها بخفة قبل أن يعود لكوخه ويغلق الباب تاركاً إياها والصمت يكسوها وحشة لا تطاق.. لم تكن سيرا تطيق ذلك العالم الذي تخلى عنها بكل قسوة.. والآن، لا تظنها ستطيق هذا العالم بدون رادال.. فأي عالم سيؤويها بعد ذلك؟..

✻✻✻✻✻✻✻✻✻✻

(الفصل الحادي عشر)
مملكة الغمام : العرش المفقود

كم يوماً مضى؟.. ما الذي حلّ بالمدينة؟.. ما الذي فعله المعتدون؟.. كل هذه الأسئلة دارت في ذهن الأمير سابار في اللحظة التي عاد إليه فيها وعيه وفتح عينيه.. ليطالعه السقف الحجري المنخفض مع صوت رتيب لقطرات مياه تصبّ في زاوية من زوايا المكان بضوئه الخافت.. تلفت سابار بدهشة، ملاحظاً آلاماً جمّة في جانبه الأيسر ورأسه ومواضع متفرقة من جسده.. ما الذي جرى؟.. آخر ما يذكره كان ذلك الانفجار الذي غطّى على كل ما عداه.. والظلمة التي أحاقت به في لحظة مع الضربات القوية التي أصابته من تساقط الصخور وحجارة الجدار على رأسه.. فكيف له أن يكون حياً بعد كل هذا؟..

حاول الاعتدال جالساً، شاعراً بالألم القوي في جانبه، بالإضافة لألمٍ آخر اندلع من جانب رأسه يتردد بوتيرة متصاعدة.. رفع سابار يده لرأسه متأوهاً للصداع الذي ألمّ به في تلك اللحظات، وانتبه للضمادة التي أحاطت غالب رأسه.. ثم تلفت حوله في المكان الذي لم يسبق له رؤيته.. كان في مكانٍ أشبه بالقبو، أو بالسجن تحت الأرض.. أرضه وجدرانه وسقفه من مادة واحدة رمادية اللون زريّة المنظر، والرطوبة تغزو جوانبه وزواياه مع إعتامٍ واضح في الرؤية لنقص النوافذ.. وأمامه، بابٌ حديدي كئيب المنظر، وإن كان مواربا بلا إغلاق.. انتبه الأمير لذلك السرير الحديدي الذي رقد عليه، والذي لم يرَ في بؤسه قط، عندما سمع خطوات تقترب منه بسرعة في تلك اللحظة.. عاد لذهنه وجه أناري الساخر وزمرة الحرس الذين وقفوا خلفه مشاركينه في الخيانة.. فبحث سابار بسرعة عن سيفه حوله ليردّ على من يحاول الاعتداء عليه مجدداً.. لكنه لم يعثر لسيفه على أثر، وإنما رأى أحد حرس القصر يقترب منه بصمت، دون أن يتمكن سابار من معرفة أين يقع ولاؤه في هذه الأوقات العصيبة.. لكن الحارس كفاه تلك التساؤلات وهو يقول "مولاي.. لا تقلق.. أنا معك وولائي للمملكة وللملك الراحل لم يتغير ولو قدر شعرة.."

تساءل الأمير بريبة "وأين أنا؟.. ما الذي أحضرني هنا؟"

أجاب الحارس "أنت في قبوٍ تحت القصر، قليلٌ ممن يعرف بأمره من الخدم والحرس.. لقد تمكنتُ بمعاونة

قليلٍ من الحرس المخلصين من إنقاذك قبل أن تقضي نحبك تحت الركام، ثم أتيتُ بك لهذا المكان هرباً من الخونة وما قد يفعلونه لو أدركوا أنك لازلت على قيد الحياة.."

تساءل سابار "وما الذي حدث للحارس الذي أنقذني؟"

أجاب الحارس بأسى "كانت الحجارة التي سقطت فوق رأسه أكثر مما يطيق، فقضى نحبه بضربة قوية على مؤخرة رأسه.."

صمت سابار بمرارة لذلك الخبر، وغمغم "لم يكن ذلك ليحدث لولا ذلك الانفجار.. ولولا ذلك الخائن الذي أصابني بهذه الإصابة.."

وعبس مضيفاً "ذلك الخائن أناري.. ما الذي جرى له؟"

ونظر للحارس متسائلاً "ما الذي جرى للملك وللملكة؟.. كيف عجزتم عن القضاء على ذلك الخائن وزمرة الخونة معه؟"

قال الحارس بأسف "تشتت الحرس بين الهجوم الذي حدث خارج القصر وبين هجوم قائد الحرس الخاص الذي يعرف كل كبيرة وصغيرة في التحصينات الأمنية الخاصة بالقصر.. أصبحنا بين المطرقة والسندان، خصوصاً أن قائد الحرس قد باغتنا واتخذ خطواته بأسرع من استيعابنا.. فوجئنا بأخبار موت الملك، والذي اكتشفه أحد الخدم في ممر غير مطروق من هذا القصر.. ثم فوجئنا بعدد كبير من الحرس يهاجموننا ويجبرون العديد منا على نزع أسلحتهم والوقوف جانباً مكتوفي الأيدي، بينما ينشغل أناري بقتل الملكة والأمير الصغير دون أن يقدر أحدنا على التفوه بكلمة.."

صاح سابار "كيف استسلمتم له وهو يقتل أمي بكل بساطة؟"

اندفع الحارس يقول "كنتُ في مكانٍ بعيد من جناح الملكة، ولم أعرف بما جرى إلا بعد انقضائه بالفعل.."

ثم خفض بصره مضيفاً "ورغم ذلك، لا تعفينا أي أعذار عن عجزنا التام عن حماية من أوكلنا لحمايته.. فسامحني يا مولاي.."

أشاح سابار بوجهه قائلاً بمرارة "من كان يتخيل أن يحدث كل هذا بتخطيط ومشاركة أناري، الحارس الشخصي للملك وأعلى سلطة أمنية في البلاد؟.. هذه صدمة عنيفة لم أتوقعها قط.. لكن الخطأ خطئي بالنهاية.. كان عليّ السعي لتأمين الملك والملكة وأخي الصغير فور بدء ذلك الهجوم.. ما كان عليّ تضييع

الوقت في مبنى الاتصالات ملاحقاً أخباراً لن أتمكن من تغييرها قط.."

وخفض بصره مضيفاً بصوت متهدج "ترى، ما الذي قاله أبي وهو يجد الخائن ينفرد به ويغتاله دون سندٍ من ابنه ووريث عرشه أو أحدٍ من حراسه؟.. ما الذي دار في ذهن أمي وهي تواجه الموت دون أن تجد عوناً وحماية مني وأنا ابنها الأكبر وعضيدها المفترض؟.."

أمسك سابار عن الكلام وصوته يخونه، وصوت أناري الساخر يتردد في عقله واصفاً ما جرى لأمه ولأخيه الصغير.. ومع البؤس الذي شعر به وشعوره بخذلان أقرب الناس إليه، تسللت دمعة من عينه سارع لمسحها بيده وهو يشيح بوجهه عن الحارس لئلا يراها.. فيما خفض الحارس بصره تأدباً لئلا يرى لحظات ضعف مولاه، وقال بخفوت "ما جرى قد جرى.. والأسى لن يعيد من ذهبوا.."

ساد الصمت للحظات والأمير يحاول تمالك حزنه وأساه العارم لما جرى لعائلته، والحارس صامتٌ بدوره ليمنح الأمير فرصة للملمة حزنه.. وبعد وقت قصير، رفع الحارس بصره قائلاً "مولاي.. الآن، علينا أن نتطلع لما يجب فعله في الأيام القادمة.. اليأس سيودي بنا للهاوية.. والمخاطرة لا محلّ لها مع مجريات الأحداث التي داهمتنا على حين غرة.."

تساءل سابار بقلق "ما الذي جرى للمدينة في الساعات الماضية؟"

خفض الحارس بصره للحظات، ثم قال "المدينة على مشارف الهزيمة بالفعل، ولا نملك وسيلة لاستعادة السيطرة عليها مع تمكن الخونة من اغتيال قيادات الجيش كلهم في ساعات معدودة.. والأسوأ من ذلك بعض المعلومات التي وردت إلينا عن اقتحام جيش من مملكة الضياء حدود مملكتنا الشمالية، وتقدمه في ربوع البلاد دون أن يجد رادعاً حقيقياً.."

ظل الأمير يستمع إليه مبهوتاً.. لم يتخيل قط أن تصل الأمور لما هي عليه في ساعاتٍ قليلة فقط.. فهبّ واقفاً مزيحاً الغطاء عن جسده قائلاً "علينا التصرف بسرعة قبل أن تصل الإمدادات للخونة.."

انثنى على نفسه بألمٍ وعبوس وجهه يدلّ على ما يعانيه.. فأعاده الحارس قائلاً "مولاي.. ليس هذا أنسب تصرفٍ بالنسبة لك.. عليك الرحيل من هذا القصر قبل أن يعثر عليك أناري.."

انتفض سابار هاتفاً "محال.. لن أغادر كالجبناء.. سأبقى.. وسأزيح ذاك الخائن من قصري.. بل من مملكتي كلها.."

لكن لم يكن ذلك متاحاً مع ما بدا على وجه الأمير من معاناة.. فأعاده الحارس لفراشه قائلاً "مولاي، موتك لن يفيد إلا في تثبيت أقدام الخونة والغزاة في مملكتنا.. يجب أن تبقى أنت، بأي شكل من الأشكال، كي نرجو أن تعود مملكتنا لسابق عهدها وتطرد الغزاة شر طردة.."

قال الأمير بعبوس "ما أنا إلا واجهة.. ولست الروح الحقيقية لهذه المملكة.. لو تخليت عن شعبي، فأنا أتخلى عن مملكتي ذاتها بكل ما تعنيه تلك الكلمة.."

قال الحارس بإصرار "من قال إنك ستتخلى عنهم؟.. أنت ستبذل جهداً يفوق البقية بالفعل، فور أن تستعيد قواك بشكل تام.. لذا، أرجوك يا مولاي أن تثق بي هذه المرة وتسلّمني حياتك.."

صمت سابار بمرارة وهو يستلقي في فراشه.. ما كان الخيار الأمثل؟.. تسليم حياته لذلك الحارس المخلص الذي يدعوه للهرب بكل خزي وجبن؟.. أم مقاومة الخونة ليفقد حياته ذاتها بعد أن انقلبت موازين القوى في عالمه على حين غرة؟..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

رغم كل العزم الذي تحلّى به الأمير، وانعدام صبره للنيل من الخائن الذي قضى على حياة عائلته واغتال المملكة كاملة بتسهيل الغزو الغادر، إلا أنه لم يتمكن من القيام بحركة واحدة في سبيل تحقيق تلك الرغبة العارمة.. إذ أقعده جرحه البالغ، ومنعه من الحراك لعدة أيام، بالإضافة للحمى الشديدة التي داهمته وجعلت جسده يرتجف كما لم يفعل قط، والدماء التي نزفت بغزارة في اليوم الأول ولم يجد وسيلة لتعويضها لا بالعلاج ولا حتى بأنواعٍ معينة من الطعام.. ورغم كل محاولات الحرس لتوفير بعض الغذاء الذي قد يعاونه على التعافي، إلا أن جلّ ما تمكنوا من الحصول عليه كان باختلاس الطعام المخزن في المطبخ الخاص بالخدم في الجانب الذي غدا مهملاً في القصر.. فقد قام أناري بعزل القصر بشكل تام عن باقي المدينة، حتى يستتبّ الأمر فيها لمملكة الضياء ويتمكنوا من كسر مقاومة الجند لهم.. لذا لم يتمكن الحرس من تهريب الأمير من القصر بأي طريقة، ولم يتمكنوا من علاجه بأي صورة كانت..

وبعد عشرة أيام، ومع تزايد ارتباك الحرس وقلقهم على حال الأمير الذي لم يتعافَ بعد رغم كل محاولاتهم،

قرر قائد تلك الفرقة الصغيرة من الحرس التي ظلت على ولائها للملك السابق أن يقوم بتهريب الأمير رغماً عنه.. وفي الواقع، لم يكن الأمير بأي حالٍ ليعترض على ما يراد له.. ولو بقي في مكانه دون علاج لأيامٍ أخرى، لربما أراح الخونة من همّة وقضى نحبه ببساطة قد لا يتوقعها أحد..

وفي تلك الليلة، حمل حارسان جسد الأمير الغائب عن الوعي عبر الممرات التي تقطع ذلك القبو الواسع أسفل القصر.. يقودهما قائد الحرس بتوتر وهو يتلفت حوله بحذر شديد.. مع الحظر المقام حول القصر، كان من المستحيل عليهم المغادرة بالأمير بأي حال من الأحوال.. لكن لحسن الحظ هناك وسيلة وحيدة لم يحاول أناري تأمينها ومنع الأمير من استخدامها.. وربما كان السبب لذلك هو ظنه أن الأمير قد قضى نحبه بالفعل.. لذا سار الحرس بالأمير عبر الطرقات الرطبة هابطين بعض السلالم قبل أن يصلوا لممرٍ واسع أكثر تطوراً ونظافة من ذلك القبو، قادهم بعد مسافة محدودة إلى قاعة واسعة عالية السقف تنتهي ببابٍ معدني ضخم.. ووسط تلك القاعة، ربضت ثلاث طائرات حديثات الصنع بأحدث التقنيات التي يعرفها جيش المملكة، والمهيأة لتهريب العائلة المالكة عند أي طارئ.. رغم أن أحدهم لم يظنّ يوماً ولو للحظة أن مثل هذا الأمر الطارئ قد يحلّ بالفعل..

وقرب أقرب الطائرات للمدخل، أشار القائد لرفاقه بالانتظار، وتقدم من الطائرة ليفتح بابها بواسطة شفرة لا يعرفها إلا قلة قليلة بين بعض الحرس الأعلى مقاماً في القصر.. وفور أن فتح باب الطائرة بسلاسة، حتى أشار القائد لرفاقه بإدخال الأمير لقلبها ووقف يراقبهم بتوتر وهو يقبض على بندقيته بحذر..

لم تكن الطائرة تحوي أي أسرّة، بل كراسي فخمة وثيرة، فترك الحرس الأمير على أحد تلك الكراسي، وقام أحدهم بربط أحزمة الأمان حوله بحذر لئلا يؤذي جرحه الملتهب أكثر مما هو فيه.. تراجع الحرس بسرعة خارج الطائرة مع نداء القائد لهم، واجتمعوا حوله وهو يقول لهم بتوترٍ ظاهر "ما زلنا بحاجة لمفتاح الطائرة، وقد وكّلت أمره لإحدى الوصيفات التي وعدت بمعاونتي في هذا الأمر بغفلة عن أناري.."

تساءل أحد الحرس بقلق "كيف تأمنها على ذلك؟"

أجاب القائد بسرعة "لم أخبرها أنني أنتوي تهريب الأمير، كما أنها أصرّت على المغادرة معنا والهرب من هذا السجن الإجباري الذي فرضه أناري.."

ثم قلب بصره بينهم مضيفاً "سنتوزع في الممر وما خلفه للمراقبة، وفور حصولنا على المفتاح سنتراجع ونغادر دون أي إبطاء.."

هز الحرس رؤوسهم موافقين، وسارعوا لتنفيذ أمره، فيما استدار القائد لأحد الحرس قائلاً "سأتركك برفقة الأمير يا قاهين.. كن حذراً، ولا تأمن لأي شخص على حياة الأمير.."

هز قاهين رأسه موافقاً، وتراجع عائداً للطائرة بانتظار عودة رفاقه والهرب من هذا القصر والجحيم الذي يضمّه بين جنباته.. انشغل قاهين أثناء فترة الانتظار بتأمين الأمير الغائب عن الوعي وإحكام ربطه بالكرسي الذي يجلس عليه.. قد لا يكون إقلاعهم سلساً، وقد يواجهون بعض المتاعب.. لذا من الأفضل تأمين الأمير حتى لا يتعرض لأي أذى حتى يصلوا لموقعٍ آمن بعيداً عن عين أناري ومن يواليه من الأعداء والخونة..

تعالت ضجة مفاجئة من مكان ما خارج الطائرة، فتوقف قاهين عما يفعله واتجه بخطوات حذرة ومتوترة نحو المدخل ليطمئن على ما يجري خارجاً.. وهناك، لم يكن قلقه ليهدأ مع أصوات الضجيج وبعض الصياح الذي تعالى من الممر المؤدي لهذه القاعة.. تردد قاهين قليلاً بين استطلاع ما يجري أم التراجع وتأمين الأمير من أي اعتداء.. لا يمكن أن يكون ذلك الضجيج من صنع رفاقه، مع ما في ذلك من خطورة قد تؤدي لكشف أمرهم للخونة.. لكن شكوك قاهين قد صارت واقعاً وهو يرى قائدهم يتراجع راكضاً للسفينة حاملاً بندقيته بتأهب وهو يصيح "قاهين.. قم بتشغيل السفينة وغادر بأسرع ما يمكنك.. لقد كشف الخونة أمرنا.."

تضاعف توتر قاهين أضعافاً مضاعفة، لكنه ثبت في موقعه وهو يمد يده لرفع قائده نحو المركبة.. لكن القائد لم يقبل عرضه ذاك، بل رمى المفتاح الخاص بالطائرة نحو قاهين، وأدار ظهره للطائرة بتحفز وهو يصيح "غادر دون إبطاء.. سأحاول تأخيرهم قدر استطاعتي.."

هتف قاهين باعتراض "ولكن...."

تزايد الصياح القادم من ذلك الممر، فصرخ القائد بحنق "دماء الأمير، بل الملك الحالي لمملكة الغمام، معلقةٌ بك يا قاهين.. غادر ولا تجعلني أندم لثقتي بك.."

تراجع قاهين خطوة بقلق وهو يرى توتر القائد بوضوح.. لو رحل، فسينقذ الأمير.. لكنه سيتخلى عن

رفاقه ويسلّمهم للموت بكل بساطة.. فهل يقدر على ذلك؟..

نظر له القائد بنظرة حادة غاضبة، عندها شدّ قاهين عزمه وأدى التحية لقائده باحترام، ثم تراجع وهو يغلق باب الطائرة ويركض عائداً لغرفة القيادة.. كان بمقدوره أن يسمع الضجيج من موقعه بوضوح، وتعالت بضع طلقات في القاعة دوّى صوتها في أذنيه، لكنه لم يتمهل وهو يقوم بتشغيل الطائرة باستخدام المفتاح الخاص بها، وبالشفرة التي أملاه إياها القائد في وقت سابق.. لم يكن يملك الكثير من الوقت للإعداد، مع الطلقات التي تكاثرت وبعضها يصيب جسد الطائرة المعدني.. فأمسك قاهين المقود وجذبه بقوة ليرتفع عن الأرض بالطائرة بحركة حادة.. لم يكن يملك مهارة كبيرة في القيادة، إنما حصل مثل بقية الحرس على تدريبٍ مبسط عند تعيينهم للعمل في القصر تأهباً لأي وقت قد يحتاجون فيه هذه المهارة.. وأي وقتٍ أنسب لاختبار قدراته من مثل هذا الوقت؟..

تمايلت الطائرة للحظة، لكن الطلقات لم تتوقف عن إصابة جسدها للحظة بأمل إسقاطها ومنعها من الهرب بحمولتها المهمة.. لكن قاهين لم يتردد وهو يدفع المقود للأمام بحذر محاولاً موازنتها للخروج من البوابة الكبيرة أمامه والتي تقع موازية للنهر القريب وفي أخفض نقطة من الأسوار العالية المحيطة بالقصر.. كان تقدير حجم الطائرة مقارنة بتلك البوابة من الصعوبة بمكان بالنسبة لقاهين، لكنه صرّ على أسنانه وهو يندفع عبرها بقوة وجناحها يرتطم بأحد جوانب البوابة مما سبّب تمايل الطائرة ودورانها حول نفسها للحظة.. لكنه سرعان ما تمالك نفسه وهو يجذب المقود بقوة ليرتفع بالطائرة قبل أن تهوي في النهر، ومتجاوزاً بها مباني قانار ونحو أقرب نقطة من الفراغ التام الواقع شرق المدينة..

وقرب البوابة التي غادرتها الطائرة، وقف أحد الحرس ببندقيته يراقب هروب الأمير، ويصيح بأحد أجهزة الاتصال "ذلك الحارس قد تمكن من تهريب سابار في إحدى الطائرات.. الحقوا بهما قبل أن يتمكنا من الهرب من قانار والاختفاء عن الأنظار.."

سمع صوتاً مشمئزاً يقول من خلفه "يا لك من فأرٍ حقير.."

التفت خلفاً ليرى قائد الفرقة من الحرس الموالية لسابار، والتي قبض عليها رفاقه وأسقطوهم أرضاً بعد أن انتزعوا أسلحتهم.. فقال الحارس بسخرية "من الفأر هنا؟.. ألم تمضوا الأيام السابقة في ذلك القبو الرطب مع أميركم السامي؟.."

قال قائد الحرس بحنق "كيف طاوعك عقلك على خيانة وطنك قبل خيانة مليكك؟.. أليس هذا الوطن الذي شربت ماءه وأكلت طعامه وعشت على أرضه هانئاً مطمئناً طوال سنوات عمرك؟"

قال الحارس بسخرية "بلى.. وتجرعت مياهه الآسنة حتى الثمالة.."

ورفع بندقيته نحو قائد الحرس مضيفاً "لكنك لن تفهم كلمة مما تقال لك مع مثاليتك هذه.."

وأطلق عدة طلقات نحو رأس القائد ورؤوس رفاقه دون أي تردد أو لمحة ندم.. ثم ألقى نظرة نحو السماء ملاحظاً عدة طائرات حلقت من قلب القصر متجهة نحو الشرق بدورها بسرعة.. فابتسم الحارس مضيفاً "ولن يطول الأمد بمولاكم السامي قبل أن يلحق بكم عما قريب.."

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

في جانب آخر من جوانب المدينة، قريباً من بوابتها الغربية التي خلت من الحراسة بشكل كامل بعد هجومٍ جرى منذ أيام أطاح بجزءٍ كبيرٍ من سور المدينة، تسلل بضع رجال عبر الطرقات الخاوية موجهين أنفسهم نحو ثغرة في السور الضخم الذي ظن بانوه أنه قادرٌ على حماية المدينة ومن فيها من أي معتدي..

من يرى أولئك الرجال، يظنهم يرمون للهرب من المدينة ودمارها والغزاة الذين هبطت بهم الطائرات في عددٍ من أحياء المدينة ليجوبوا طرقاتها.. لكنهم بدل الهرب عبر تلك الثغرة، تسللوا عبر بابٍ جانبي قادهم لسلّمٍ داخلي في السور يقودهم لأعلى موضع منه.. كان ذلك السور العالي مكوناً من عدة أدوار تتخللها ممرات وبعض الغرف الموزعة هنا وهناك لتسهيل عمل حراس المدينة والجند المكلفون بحمايتها.. وفي أحد تلك الأدوار، في غرفة خالية إلا من رجلين جلسا بتوتر واضح وعبوس في الملامح، اجتمعت الجماعة القادمة من المدينة المدمّرة بالرجلين وأحد أفراد الجماعة يقول باستياء "ما الذي يدعونا للاختباء بهذه الصورة؟.. علينا أن نلملم شملنا، ونردّ على أعدائنا بهجومٍ أقوى لا يقدرون على صدّه.. لا أن نختبئ في جنبات المدينة كالفئران.."

قال آخر "أرى ذلك أيضاً.. لقد هبطت الطائرات أخيراً، وكفّت عن رجم أحياء المدينة بقذائفها الضوئية.. ومهاجمة الجنود أسهل بكثير من مهاجمة طائرات في عرض السماء دون شك.."

انبرى الثالث ليقول "لكن بعددنا هذا، وبالخسائر التي حاقت بنا في الأيام الأولى، من الصعوبة بمكان القيام بهجوم كهذا.. كما لا ننسى نقص أسلحتنا الواضح واستحالة الحصول على معداتٍ جديدة من أي مراكز الجيش التي يقوم الجيش المعادي بحراستها رغم تدميرها.."

قال الأول بحنق "أنت تريد الفرار بحياتك يا بيراك.. أليس كذلك؟"

قطب بيراك قائلاً "قطعاً لا، ولم أتهاون في المقاومة معكم طوال الأيام الماضية.. لكني أريدكم أن تستمعوا لصوت العقل بدل الانجراف خلف غضبكم وحماسكم هذا.."

والتفت خلفاً مضيفاً "ألستَ ترى رأيي ذاته يا دارو؟.. أنت كنت نائب قاث، ولابد أنك تقدّر خطورة ما نحاول القيام به خيراً من أيّنا.."

اقترب دارو لينضمّ للمجموعة، بذراعٍ مجبّسة ودماءٍ وبقعٍ سوداء على قميصه من أثر نزفٍ أصيب به في الانفجار الذي أصاب مبنى الاتصالات في مركز القيادة.. والذي لم ينجُ منه إلا بحظٍ كبير وبمعاونة بعض الجند الذين شهدوا ذلك الانفجار وعاونوا من أمكنهم معاونته من تحت تلك الأنقاض.. فقال دارو بعد أن تعلقت به الأبصار "أنا أوافق بيراك بالطبع في ما قاله.. لكني لا أعارض ما قلتموه سابقاً.."

قال بيراك بحيرة "كيف يكون ذلك؟.. أتوافقهم على الجنون الذي ينتوون القيام به؟"

أجاب دارو "لا.. كل ما أريده أن نحتفظ بحماسنا ورغبتنا العميقة هذه للرد على أعدائنا وإخراجهم من قانار ومن المملكة كلها.. لكن، أريد أن يتم هذا ببعض التأني والخطوات الصحيحة.."

سمعوا صوت أحد الرجلين اللذين التقوا بهم في هذه الغرفة يقول "لا أظن الوقت ملائماً لكل هذا الحديث.. فهناك أمورٌ أخرى علينا البتّ فيها.."

تساءل أحد الرجال بضيق "وأي أمورٍ أهم من هذا الاعتداء السافر على وطننا يا حاكين؟"

زفر حاكين قائلاً "هناك أمرٌ استدعيتكم لإبلاغكم به، ولتكونوا متأهبين له.. رغم أن ذلك محالٌ بشكل كليّ.."

نظروا له بحيرة وعدم فهم، فاستدار حاكين مع رفيقه وغادرا الغرفة بصمت ودعوة واضحة.. وسرعان ما تبعهما دارو مع المجموعة التي صاحبته نحو أحد السلالم الذي يقطع السور من أسفله لأعلاه.. فقادهم حاكين عبر السلالم لسطح السور الشاهق الذي يتجاوز في ارتفاعه ارتفاع أعلى المباني في قانار.. وهناك،

وقف مع رفيقه قرب حد السور متطلعاً للغابة المحيطة بالمدينة قائلاً "هذا ما أريد إخباركم به.. وما أخشى حدوثه بشدة.."

نظرت المجموعة بدهشة من فوق السور للغابة والمساحات المحيطة بها من جبال وأشجار وبعض السهول المنبسطة.. وخلف الغابة كثيفة الأشجار، لم يكن لدارو ورفاقه ألا يلاحظون تلك الأعلام ويسمعون صوت الجحافل التي تسير ببطء إنما بشكل حثيث مقتربة من المدينة.. فعلى مد البصر، تمكن الجنود من رؤية جيشٍ لا يقل عدد أفراده، حسب أقل تقدير، عن سبعين ألفاً من الجنود.. يحمل أعلاماً حمراء بشمس صفراء في وسطها، ويقترب من المدينة وأصوات أقدام أفراده تكاد تدك الأرض دكاً رغم بعد المسافة..

همس أحد الجنود بارتياع "يا إله السماء.. متى حدث كل هذا؟"

أجاب حاكين مقطباً "منذ اليوم الأول للهجوم ولا شك.. لا تنسوا أننا نعلم بوجود ذلك الجيش الحاشد عند حدودنا الشمالية، لكن أغلب القادة عارضوا القيام بتصرفٍ ملائم لذلك التهديد معتمدين على معاهداتٍ شفوية مضى عليها مئات السنين.."

غمغم دارو مراقباً المنظر المروع الذي يقترب منهم "ولا ننسَ أن قاث قد قتل قبل الهجوم بساعات معدودة.. هذا يعني أن من قتله قد خشي من تدخله، فقام بالتخلص منه ومن بقية القادة دون تردد.."

قال بيراك بحنق "لكن من يكون هو؟.. كلنا ظننا أنها الأرضية، بالنظر لوجودها في مكتب قاث وقت ارتكاب الجريمة.. لكنها لم تكن موجودة عندما قتل بقية القادة.. فمن الفاعل؟.. وكيف تسلل للقيادة بكل سهولة لارتكاب جريمته تلك؟"

انبرى دارو متسائلاً باهتمام "لقد عثروا على جثة قاشيم وبارِت أثناء الهجوم، وكارون قتل في ذلك الانفجار.. فهل عثر أحدكم على تادار؟"

أجاب حاكين "لا.. ربما فرّ بجلده قبل أن يتمكن القاتل منه، أو ربما قتله ورمى به نحو الأرض الدنيا بغفلة منا.."

صمت دارو مفكراً بعمق، فيما قال أحد الرجال "ما الذي نستطيع فعله مع هذا الجيش الذي يزحف نحونا؟"

قال بيراك بأسى وهو يرمق السور المهدم في أكثر من جزءٍ بشكل لا يمكن إصلاحه "وما الذي يمكننا فعله

إلا الصلاة لمن بقي في المدينة ولم يمت تحت ركامها؟.. تباً لمملكة الضياء.. لمَ اختاروا مملكتنا للهجوم من بين الممالك الأربع؟"

لم يعثر أحدهم إجابة على هذا السؤال.. فيما وقف دارو يراقب المدينة التي تحترق من فوق السور المتهدم.. الدخان يتصاعد من جوانبها بكثافة غير عادية رغم مرور ما لا يقل عن عشرة أيام منذ بدأ ذلك الهجوم.. الصياح يتعالى من أكثر من موضع.. الدفاعات تتهاوى بشكل سريع.. وكان يعلم أن هذه ليست النهاية.. بل هي بداية هجوم كبير لن يبقي ولن يذر.. الجيش الذي يقترب لن يستكين حتى ينال نصيبه من القتل والسلب والنهب لتسقط المدينة تحت أقدامهم دون رحمة..

فمن الذي سبّب كل ذلك الدمار؟.. من الذي طاوعته نفسه على خيانة وطنه وشعبه وأقرب الناس إليه؟.. من الخائن الذي سلّم بلاده وشعبه ليد المعتدي؟.. من الذي رضي بإزهاق عشرات الأرواح لأجل تحقيق غايات وأحلام أشخاص لا ينتمون له ولا يعبؤون لأمره؟..

لشخص مثل دارو، يبدو هذا الأمر عصيّاً على التصديق..

ومع ملامح الدمار والخراب الظاهرة أمامه، أدرك دارو أن النصر قد لا يكون قريباً كما يتمنى أحدهم..

وأن العالم السامي لن يتمتع بالرخاء والسلام اللذين عرفا عنه لقرون خلت..

✻✻✻✻✻✻✻✻✻

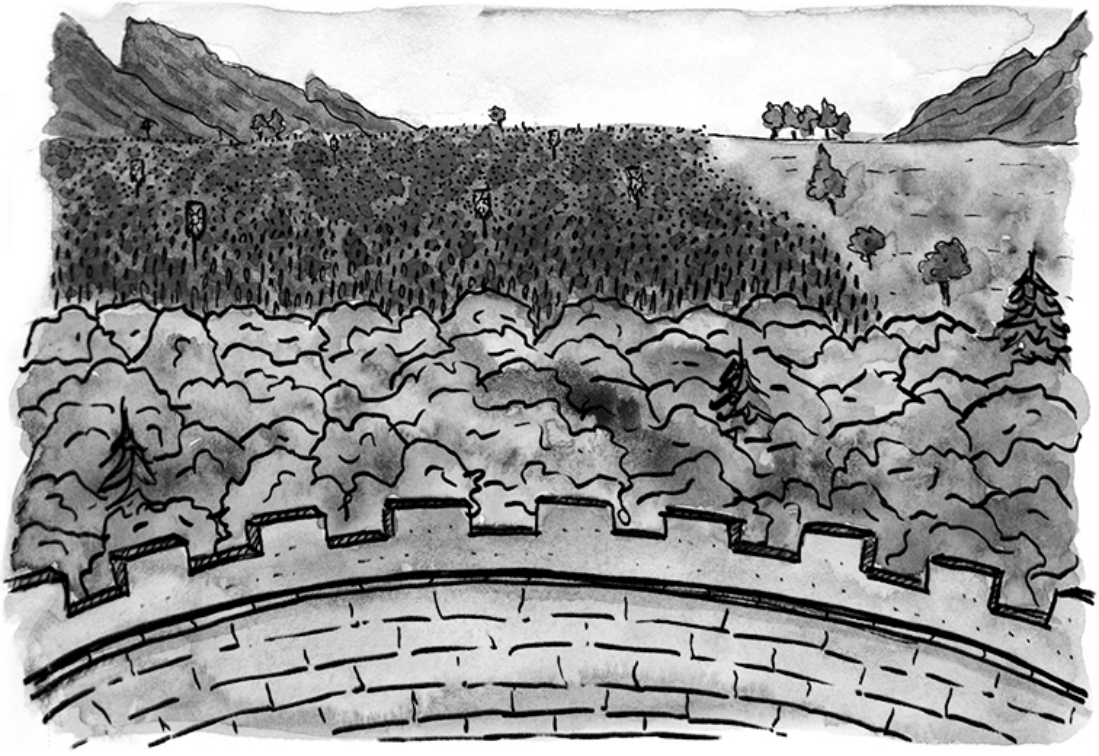

(الفصل الثاني عشر)
أرض الهوام: آمالٌ ونهايات

لم تهنأ جود بنومها في كوخ التوأمين، رغماً عن سيرا وتجاهلاً لكل اعتراضاتها، إذ سرعان ما أيقضها صوت ضجيج وصياح تعالى من خارج الكوخ.. اعتدلت على الأريكة التي نامت عليها وتثاءبت بتعب ظانة أن الأمر معتاد في هذه القرية، لكنها انتبهت وطار النوم من عينيها عندما رأت بارا يغادر الكوخ باستعجال تتبعه سيرا دون تريث.. أدركت من اندفاعهما نحو الضجيج أن الأمر يتجاوز المعتاد، لذا نهضت بسرعة وتوجهت لباب الكوخ لترى ما جرى ولتطمئن أن مصيبة جديدة لم تحلّ عليهم في هذا العالم.. وعبر الباب، أمكنها أن ترى تلك المنصة الخشبية التي نصبت وسط القرية لا يفصلها عن كوخ التوأمين إلا عدد قليل من الأكواخ.. كانت تلك المنصة بارتفاع متر عن الأرض الطينية، يقف عليها عدد قليل من الرجال فيما تجمع العديد من القرويون في الساحة مشكّلين حلقة واسعة حول المنصة..

لاحظت جود بين الرجال على المنصة رادال، برفقة رجل في عمر مقارب لعمره وآخر اشتعل الشيب في رأسه.. كان الجدال محتدماً بينهم وبين عدد من رجال القرية، فيما تعالت التعليقات الحادة من جوانب الساحة جاعلة فهم الأمر من هذا الموقع مستحيلاً.. سمعت جود هيما التي أيقظها الضجيج بدورها تتساءل "ما الذي يجري هنا؟"

أجابت جود وهي تعود للكوخ "لا أعلم.. هناك اجتماع بين القرويين ونقاش حاد لم أفهم منه شيئاً.."

توجهت لجانب من جوانب الكوخ وضعت فيه جزءاً من ملابسها بعد أن غسلتها في الليلة الماضية، مكتفية بقميص داخلي وبنطالها الذي لم تستطع استبداله.. ارتدت ملابسها النظيفة، ثم عادت لياسان الذي لم يستيقظ من نومه فأيقظته قائلة "هيا أيها الكسول.. أمامنا عمل كثير هذا اليوم.."

استيقظ ياسان بعسر وهو يتثاءب، فيما نهضت هيما من الكرسي الذي انطوت عليه متألمة وقالت "وما الذي سنفعله؟.. هل سنذهب لمعرفة ما يجري للقرية في هذا الصباح الباكر؟"

أجابت جود بسرعة "لا.. ما يجري في القرية لا شأن لي به.. سنذهب للطائرة ونحاول إصلاحها بأسرع ما

يمكننا.. هذا هو كل ما يهم في هذا العالم.."

قالت هيما بقلق "ولكن..."

فأكملت جود مقاطعة قولها "وعنيتُ أن أذهب أنا وياسان.. أنت لا تقدرين على معاونتنا في هذا الأمر.. لذا يمكنك البقاء في القرية كما تحبين.."

لم يكن هذا الاستثناء سبباً لضيق هيما، فهي كانت متوجسة من عودتهم لتلك الغابة مجدداً مع ما حكته لها جود سابقاً عما واجهوه فيها في ليلتهم الأولى.. لذا أراحها أن تبقى وسط هؤلاء البشر وفي هذه القرية التي ستمنحها قدراً من الأمن والمتعة كافٍ لملء أوقات فراغها في هذا اليوم..

فور مغادرة جود وياسان الكوخ، لاحظت رادال الذي اقترب منهما تاركاً الساحة ضاجّة بالأهالي وصياحهم يصل لسمع جود بوضوح.. تساءل رادال فور رؤيتهما "هل ستعودان للطائرة الآن؟.."

هزت جود رأسها إيجاباً، فيما قال ياسان متثائباً "ما الذي قد يجري لو منحتني ساعة أخرى للنوم؟.. نحن لسنا ملتزمان بأي عمل يجبرنا على الاستيقاظ باكراً، وهذا من حسنات هذا العالم دون شك.."

لم تعلق جود ورادال يقول "حسناً، سيأخذكما بارا إليها.. لكن على أحدكما أن يمتطي الشاس بمفرده.. أنا مضطر للبقاء في القرية لحلّ المشكلة القائمة بين الأهالي وبين رئيسها.. وقد لا أتمكن من اللحاق بكم حتى وقت متأخر.."

اتسعت عينا ياسان وقال بتوجس "هل نحن مضطرون لذلك؟.. لا أظنني أحبذ ركوب ذلك الحيوان بمفردي.."

فقالت جود بسرعة "سأركب واحداً بنفسي، وأنت اذهب مع بارا.."

زفر ياسان بارتياح وغادر بحثاً عن بارا، فيما استوقف رادال جود متسائلاً "أنتِ لم تخبريني باسمك بعد.. نحن نعرف اسمي رفيقيك من ندائك لهما في اليوم الماضي، لكني لم أعرف ما هو اسمك بعد.."

أجابت باقتضاب "اسمي جود.."

فقال رادال "حسناً يا جود.. أنت لا تملكين خبرة مطلقاً في ركوب الشاس.. أأنت واثقة من قدرتك على امتطائه؟"

قالت جود بثقة "لا تقلق.. لن يعجزني هذا الأمر.."

فابتسم رادال معلقاً "لا بأس.. لا تسمحي للشاس بالطيران على هواه، وإلا لن يطيعك بعدها.. وحاذري أن تثيري توتره بأي انفعال مفاجئ، كي لا يلقيك من على ظهره.."

ولوح بيده مغادراً تاركاً جود مقطبة بضيق.. هل هي مجرد نصائح أم أنه يحاول إخافتها؟.. لِمَ شعرت بأنه بالفعل يسعى لإفزاعها من نظرات عينيه؟..

غادرت بدورها نحو الحظيرة تاركة الجموع التي توسطت القرية وبعض الصياح يصل لأذنيها بوضوح "لا يمكننا أن نتخلى عن هذه القرية دون سبب مقنع.."

"ما الذي قد يحدث لنا أثناء الرحيل؟.. ماذا لو تعرضنا لمخاطر لا نستطيع دفعها عن أطفالنا ونساءنا؟.. من سيتحمل مسؤولية مثل هذه الكارثة؟"

"كيف لنا أن نبني منازل جديدة لقرية كاملة في ذلك الموقع؟.. هذا سيتطلب شهوراً طويلة، والشتاء على الأبواب.. لا نريد قضاء ذلك الموسم في العراء.."

كانت تلك بعض الاعتراضات التي سمعتها جود، ودلتها على سبب الصراع الدائر في القرية.. لكنها لم تعبأ لما يجري ولنهاية مثل ذلك الجدال وهي تصل للحظيرة لتجد ياسان وبارا بانتظارها..

في البدء، كان على جود أن تنال اعتراف الشاس بها كقائدة وليست مجرد راكبة.. ولم يكن ذلك عسيراً فالشاس لم يكن حيواناً عنيد المزاج.. وفور أن امتطت ظهره ولكزت بطنه، ارتفع الشاس بسلاسة وجود تجذب اللجام لتسيرّه في الاتجاه المناسب خلف بارا وياسان.. لاحظت نظرات القلق التي يلقيها عليها ياسان بين دقيقة وأخرى، وأدركت قلقه من سقوطها من هذا الارتفاع.. فابتسمت له مطمئنة وقادت الشاس بثقة أكبر وهي تقلب بصرها في الأفق الذي أنارته الشمس المغيّبة خلف الغيوم بنورٍ هادئ..

لولا كل ما يشغل فكرها، لاستمتعت جود بهذه التجربة خير استمتاع دون شك..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

اقتربت هيما من الجموع التي تمركزت حول المنصة بتردد وهي تسمع الصياح الحانق والنظرات القلقة على الوجوه.. كانت لا تفهم كلمة مما تقال أمامها، فاكتفت بالوقوف جانباً ومراقبة ما يحدث بصمت.. كانت

هذه هي الحادثة الأولى التي تجري في القرية منذ مجيئها.. أهذا اجتماع طارئ أم عادي يتكرر دائماً؟.. وهل ذاك الرجل أشيب الشعر واللحية هو رئيسهم كما بدا لها من اهتمامهم به؟..

لاحظت الأطفال الذين تفرقوا بين الأكبر سناً من أهل القرية، بعضهم بدا الشغف والحماس في عينيه، وبعضهم أظهر قلقاً واضحاً وذعراً مما يجري حوله.. عندها لم تتردد هيما في الاقتراب من بعض الصبية الذين أظهروا قلقهم من الثورة القائمة حولهم، ورغم ضعف حصيلتها من الكلمات بدأت التسرية عنهم واللعب معهم لتشغلهم عما يجري.. تجد هيما أن من المؤسف جرّ الأطفال في شؤون الكبار وإثارة ذعرهم بما لا شأن لهم، لذا حاولت شغلهم بما يمكنها وشغل نفسها عما يجري حولها..

في تلك الأثناء، عاد رادال إلى المنصة التي وقف عليها أيصر برفقة غيدان وبعض أهم رجال القرية.. كان النقاش لا يزال محتدماً بين الجموع حول قرار أيصر الانتقال للموضع الجديد.. ولم يكن رادال يلومهم، فالموسم المطير ومن بعده الشتاء هما أسوأ المواسم للقيام بمغامرة غير محسوبة العواقب مثل هذه..

سمع أيصر يقول لمن قربه من الرجال "في السنة الماضية، خسرنا ثلاثة أكواخ على الأقل بسبب فيضان النهر، وعشرات الماشية بالإضافة لبعض محاصيل الأراضي المزروعة القليلة التي نملكها.. وفي السنة التي قبلها كان الضرر أقل من ذلك بكثير.. الأمور تزداد سوءاً في كل سنة عما قبلها.. من منكم يضمن نفسه وأهله وماله في الموسم القادم حتى قدوم الصيف؟.."

قال أحد الرجال باعتراض "هذه حياتنا، وقد عشناها لعشرات السنين وعاشها آباؤنا وأجدادنا قبلها لعقود.. ما الذي يدفعنا لتغيرها بسبب ثورات النهر؟.. تلك أمورٌ اعتدناها، ويمكننا تجاوزها ببعض الإصلاحات.."

تدخل غيدان قائلاً "لن تكون سعيداً بقرارك هذا لو كان كوخك معرضاً للخطر مثل البقية.. منزلك يقع في أعلى نقطة من القرية بعيداً عن النهر، لذا لا يهمك ما يجري للأكواخ الأقرب للنهر والأكثر عرضة لخطره.."

علا صوت الرجل قائلاً باستياء "لا تتطاول عليّ بالكلام يا هذا.. لسنا هنا للشجار.."

قال غيدان بسرعة "ولستُ أنوي الشجار كذلك.. عليك أن تفكر في صالح الجميع بدل التركيز على نفسك ومالك فقط.. حال القرية البائس لن يتحسن مع عنادكم وتصلب آرائكم هذه.."

احتدم النقاش بين رجال القرية في هذا الأمر بين موافق ومعارض.. وكان أغلب المعارضين هم من أصحاب المزارع الذين لا يرغبون بتركها وخسارة محاصيلها، وأصحاب الماشية كثيرة العدد الذين يخشون على ماشيتهم أن تنفق أثناء تلك الرحلة..

تدخل رادال بعد أن طال الجدال قائلاً "هناك حل وسط، لكنه يصبّ في صالح الانتقال للموقع الجديد بالتأكيد.."

أولاه أيصر وغيدان وبعض الرجال القريبين اهتمامهم وهو يضيف "يمكننا أن نبدأ بنقل مجموعة من القرويين لا تتجاوز الثلث أو أقل من ذلك.. سننتقل بهم للموقع الجديد، حيث يمكنهم البدء بالتجهيز للقرية الجديدة وبناء بعض الأكواخ لأهل القرية.. وبعد استقرارهم، سنبدأ نقل مجموعة أخرى ثم تأتي المجموعة الأخيرة لتستقر في الموقع الجديد وتعاون في بناء القرية.. سيطول الأمر أكثر من اللازم، لكن ذلك خيرٌ من ألا نبدأ بالفعل.."

قال أحد الرجال بضيق "وما الذي يضمن لنا ما قد يجري لهذا الجزء أو ذاك أثناء الانتقال؟.. هذه مخاطرة كبيرة.."

فقال رادال "لذا سنبدأ بمجموعة مكونة من أقوى شباب القرية وأشجعهم.. لو سار الأمر على ما يرام حتى نصل للجانب الآخر، فسيغدو الطريق ميسراً لانتقال البقية.."

عندها قال أيصر "ما يهمني هو كيفية عبورنا للنهر.. لا نملك أي زوارق، وليس في المنطقة أي جسور يمكننا عبورها للجانب الآخر.."

كانت تلك مشكلة بالفعل، بالنظر للمجرى العريض للنهر ومع عمقه الذي لا يمكن تجاوزه.. تبادل الرجال النظرات بحيرة، قبل أن ينبري أحدهم قائلاً "يمكننا استغلال هذا الوقت في بناء أطواف عريضة تنقل أهالي القرية للجانب الآخر.."

قال آخر باعتراض "سيجرفها النهر.. لن نقدر على مقاومة التيار بطوف خشبي.."

فقال الرجل "هناك حل بسيط لكنه مثالي.. نشدّ فوق النهر حبلاً متيناً، أو أكثر من حبل للثبات، ويتم تعليق الطوف بهذا الحبل حتى لا ينفلت عن مساره.. بذا، نضمن ألا يتدخل النهر في مسار الطوف حتى يصل للجانب الآخر بسلام.."

علق رادال "يمكنني أيضاً استغلال الشاس في جذب الطوف بسرعة أكبر عبر النهر.."

ونظر للبقية مضيفاً "هكذا ترون أن أي صعوبة يمكن تجاوزها ببعض الإصرار والتفكير الجماعي.. لن نقدر على فعل شيء بمفردنا لو تخلّيتم عنا.. ولن نقدر على معاونتكم لو أصررتم على البقاء في هذا المكان مع خطورة ذلك.."

تبادل الرجال نظرات القلق والحيرة، ثم قال أحدهم "لا بأس.. سنتشاور في هذا الأمر.. لا يمكننا البتّ بقرار هام كهذا في ساعة واحدة.."

بدأ الجمع يتشتت عائدين لأعمالهم المعتادة، فيما قال رادال بانشراح "مضى الأمر بأسهل مما نظن.."

ربت غيدان على كتف رادال معلقاً "أحسنت صنعاً يا رادال.. لقد قمت بعمل رائع في إقناع الرجال.."

فقال أيصر "هذه القناعة قد تزول عند أقل خطورة تعتري خطتنا هذه.. لو فشلت الرحلة الأولى التي سيقوم بها الرجال للموقع الجديد، فعلينا أن نصرف النظر عن هذه الفكرة كلياً، ونجابه لوم القرويين وغضبهم عندها.."

ونظر لرادال مضيفاً "لاحظت انشغالك في اليوم الماضي بالغرباء يا رادال.. نحن بحاجة إليك، فلا تتخلّ عن واجبك تجاه القرية.. ولا تنسَ ما تدين به لها.."

فقال رادال وقد غابت ابتسامته "لن أنسى ذلك يا أيصر.. لا تقلق.. لن أتخلى عن واجبي حتى تصبح القرية بمأمن في موقعها الجديد.. لستُ ناكراً للجميل.."

قلّب غيدان بصره بينهما، ثم ابتسم قائلاً بمرح مفتعل "هيا بنا.. أمامنا عمل طويل لنبدأ اختيار الفرقة الأولى ونقنعهم ببدء الرحلة.. كما أن تلك الأطواف لن تصنع نفسها بنفسها بالتأكيد.."

وغادر المنصة يتبعه رادال صامتاً.. كان بالفعل يسعى لما فيه صالح القرية قبل عدة أيام.. لكن جاء ظهور أولئك الغرباء في حياته كلطمة أيقظته من غفلته السابقة ودفعته للتفكير بجدية في أمر عودته للعالم العالي.. والآن، يلمّح له أيصر أن انشغاله بعالمه يعدّ خيانة لهذه القرية التي يدين لها بالكثير.. فهل هو ناكر للجميل حقاً؟.. عليه أن يثبت له، ولنفسه، أنه ليس كذلك مطلقاً.. رغماً عنه، ستتأجل مخططاته للعودة للعالم العالي حتى يفرغ من نقل القرية لموقعها الجديد، مهما طال به الزمن لتحقيق ذلك..

هو واثق مما عليه فعله، لكن هل سيطيعه أولئك الغرباء في هذا الأمر؟.. لشدّ ما يخشى معرفة ذلك..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

طالت ساعات هذا اليوم بجود وياسان وهما يحاولان إصلاح ما يمكن إصلاحه في هذه الطائرة.. بينما شغل بارا نفسه بصيد بعض الطرائد في بدء ذلك الصباح، على أن يقوم بسلخها وشيّها عند انتصاف النهار كطعام لهم ريثما ينشغل الآخران بتلك الطائرة التي ظلت ساكنة سكوناً تاماً رغم كل المحاولات..

ومع مرور الظهيرة في هذا اليوم، وبينما استلقى ياسان جانباً للحصول على بعض الراحة بعد عناء محاولاتهم الدؤوبة، دخل بارا قائلاً "أظن أن علينا العودة للقرية.. لا يبدو أن الوضع سيتحسن عما سبق، وأنا قلق لما جرى في القرية مع الجدال الدائر صباحاً.."

اعتدل ياسان متثائباً وقال "وأنا أوافق على ذلك.. التعب يكاد يحطم جسدي تحطيماً.."

أسرعت جود تقول "سأبقى هنا لبعض الوقت ثم ألحق بكما.."

قال بارا "محال.. لا يمكنني تركك هنا مع خطورة ذلك.. علينا الرحيل معاً، وسنعود غداً لإكمال ما بدأتموه.."

قالت جود بحزم "بل سأبقى.. أظنني توصلت لشيء ما ولا أريد الانتظار حتى نهار الغد للتحقق منه.."

علق ياسان قائلاً "إن كان الأمر يخص توصيلات المحرك، فاصرفي النظر.. أكاد أجزم أن هذا ليس حلاً ملائماً لمشكلتنا.."

فقالت "لا بأس، لكني لن أغادر رغم ذلك.. ارحلا دون تأخير واتركاني لشأني.."

وإزاء نظرات الضيق من بارا، أضافت "لا تقلق.. أعدك أن أعود خلال ساعة على الأقل.. ما يزال مغيب الشمس بعيداً عنا، ولن أنتظر حتى حلول الليل في هذه الغابة.."

غمغم بارا وهو يستدير "كما تشائين.."

فقالت قبل أن يغادرا "تأكدا من ربط الشاس الآخر لئلا يفر هارباً ويتركني وحيدة هنا.."

قلب ياسان بصره بين جود وبارا الذي غادر الطائرة بصمت.. ثم قال بعجلة "لا تتأخري يا جود.. كوني عند وعدك وعودي خلال ساعة.."

غمغمت جود وهي منشغلة بما بين يديها "لا بأس لا بأس.. ارحل الآن.."

غادر ياسان دون إبطاء لاحقاً ببارا، فيما استسلمت جود للصمت الذي حل بالمكان وهي تزفر متأملة لوحة التحكم أمامها.. كانت تجلس على الأرض، وقد فتحت صندوقاً جانبياً يتحكم بجميع أسلاك وتوصيلات لوحة التحكم.. كان الأمر عسيراً مع خبرتها الضئيلة في هذا المجال، لكن من قال إن هذا يجعلها أقل إصراراً على الخوض فيه؟..

لا تدري كم طال بها الوقت، دون أن تتحرك من موقعها أو تيأس مما تفعله.. حتى فوجئت بعد بعض الوقت بصوت أقدام تدخل الطائرة وتقترب منها.. لم تقلق لأمر هذه الأقدام فهي موقنة أنها لأحد رفاقها دون شك فلا يبدو أن أي بشري يمكن أن يمر بهذه الغابة الكثيفة.. لذا لم تلتفت حتى وصلها صوت رادال الذي قال باستياء "ما معنى هذا؟"

نظرت له بتساؤل دون أن تغيّر موقعها، فيما وقف رادال قرب مدخل الغرفة واضعاً يديه على خصره بضيق واضح وهو يقول "ما الذي دعاكِ للبقاء وحيدة في هذا المكان؟.. أخبرني بارا أنك ستعودين للقرية بعدهما بقليل، وقد مرت أكثر من ساعة ونحن ننتظر عودتك دون أن نلمح لك أثراً.."

علقت جود وهي تعود للوحة التحكم "هل كنتم تنتظرونني على العشاء؟.. لم أطلب منكم انتظاري حقاً.."

لم يعلم رادال إن كانت جادة أم هازئة، فقال بحدة "لِمَ لمْ تطيعي بارا عندما طلب منك العودة؟.. بقاؤك هنا وحيدة فيه مخاطرة كبيرة عليك.."

رمقت جود السماء خارجاً مجيبة "لم تغرب الشمس بعد.. وأنا لم أكن أنوي البقاء حتى حلول الليل.. فما الداعي لكل هذا القلق؟.. الطائرة توفر لي حماية كافية أثناء وجودي هنا.."

قال رادال بحنق "هذا ليس مقبولاً.. ألا تخافين مما قد يجري لك؟"

نظرت له بجمود قائلة "لا.. لست ضعيفة لأهرع للقرية مذعورة خشية بقائي وحيدة لبعض الوقت.. كنت بحاجة لمزيد من الوقت لتفحص الطائرة، وهما رفضا البقاء معي.. فلمَ تلومني لذلك؟"

فقال رادال بلهجة حاسمة "لا يمكنك أن تفعلي ذلك.. عليك أن تلتزمي بما يقال لك.. فأنا لن أهرع للحاق بك في كل مرة كهذه المرة.."

ظلت جود صامتة للحظة حتى شك بأنها ستثور في وجهه الآن، لكنها ابتسمت ابتسامة جانبية وأدارت وجهها مغمغمة "سأفعل ذلك في المرة القادمة.."

مرة أخرى لا يعلم إن كانت تهزأ به أم لا، وبدا أنها لا تنوي أن تستجيب لقوله في هذه اللحظة.. فتقدم وجذب ذراعها قائلاً "هيا بنا.. سنعود الآن.."

سحبت جود ذراعها من قبضته وهي تقول بضيق "أنت مصرّ على رفض رأيي دون سبب؟.."

قال رادال بحنق رغماً عنه "لقد تركت عملي في القرية عندما علمت بغيابك وأتيت هنا لإعادتك.. لا تجعلي الأمر أكثر صعوبة علي، فأمامي الكثير لأفعله.."

فتحت جود فمها للاعتراض، فقال رادال بتهديد "إن تفوهت بكلمة اعتراض فسأفقدك وعيك وأعيدك للقرية رغماً عنك.."

لم تجد جود ما تقوله بعد هذا، وهي مندهشة من إصرار رادال الذي لا يقبل أي حجج.. ولما تقدمها خارجاً من الطائرة، تبعته جود بصمت نحو الشاس وامتطته دون اعتراض.. ارتفع رادال بالشاس الخاص به، وتبعته جود بالشاس الآخر جاذبة لجامه ليحلق خلف رادال عائدين للقرية.. لا تدري سبب لحاق رادال بها، ولِمَ لَمْ يكتفي بإرسال بارا لاستعادتها.. كان ذلك مع انشغاله بالقرية يبدو عناءً لا داعي له.. في الواقع، تلاحظ في كثير من الأحيان أن رادال ينشغل بأمور لا تعنيه انشغالاً تاماً قد يبدو غريباً لمن يراه عليه.. يكفي ما سمعته من بارا عنه وأنه سخّر نفسه في السنوات الماضية لإنقاذ من يمكنه إنقاذهم من قرابين مملكة الشمس كما حدث له في الماضي عند سقوطه من العالم العالي.. وإن لم تعثر في القرية على أحد ممن أنقذهم سابقاً، وهم قلّة، بعد أن فضّل نقلهم لمواقع أقل خطورة وأكثر أماناً من هذه القرية.. الوحيدان اللذان بقيا فيها هما التوأمان، وربما كان ذلك بسبب سيرا بالأساس، أو بسبب أحلام بارا بالعودة وعدم رغبته في الاندماج في هذا العالم..

وعند هذه الخواطر تجرأت لتسأل "لِمَ تفعل كل ما تفعله يا رادال؟.."

تساءل بلهجة عادية تخلو من ضيقه السابق "ماذا تعنين؟.. أتعنين إجباري لك بالعودة وعدم المخاطرة في مكان تجهلينه بشكل تام؟"

قالت بلهجة مندفعة "لعلمك، لم أكن بحاجة لك حقاً.. لقد أمضيت ليلتين في هذه الغابة عندما قامت تلك

الفتاة الأنانية بتركي مع ياسان فيها.. وها أنا أمامك صحيحة من غير سوء.. لذا كف عن هذا الغرور قليلاً.."

علق رادال ضاحكاً "لم تكوني بحاجة لإثبات وجهة نظرك لهذا الحد.. ما الذي كنتِ تعنينه إذاً؟"

تجاوزت عن ضيقها لطريقته في قلب الأمور على من يجادله، وقالت "بخصوص محاولاتك إنقاذ الأطفال الذين يتم رميهم من مملكة الشمس كقرابين.. كيف يمكنك أن تفعل ذلك؟.. وما الذي يدعوك لبذل مثل هذا الجهد مع ضنك العيش على هذه الأرض وصعوبة ملاحقة تلك القرابين دون أن تملك معرفة أوقات قيام تلك المراسم البغيضة.."

أجاب رادال بابتسامة "ليس الأمر صعباً كما تتخيلين.. في البدء، كوّن معلمي السابق فكرة غير محددة عن أوقات التضحية بالقرابين ومواقع سقوطها، ولم يكن الأمر عسيراً عندما كان موضع سقوطهم قرب القرية والغابة حولها.."

تساءلت جود بفضول "أتعني أن ذلك الموقع قد تغيرّ مع مرّ السنين؟"

هز رادال رأسه مجيباً "أجل.. هناك تغيير محدود يحدث كل مرة، وبمرور العقدين الماضيين أصبح سقوط القرابين في موقع بعيد عن القرية بعداً تاماً.. أظن السبب الوحيد لذلك هو في حركة العالم السامي في السماء العليا وتغيرّ موقعه بمر السنين والعقود.."

ونظر لجود مضيفاً "وربما سقوطكم في هذا الموقع هو أكبر دليل أن أرضنا هذه متوازية مع مملكة الغمام أو جزءٍ منها في الوقت الحالي.. وربما لن يطول الوقت قبل أن يصبح العالم السامي في موقع بعيد عن هذه الأرض، ويغدو من الصعوبة عليّ ملاحقة القرابين في الوقت الملائم.."

غمغمت جود "ألا تيأس؟.."

علق رادال "وهل أملك ما أفعله حقاً في هذا العالم؟"

قالت جود باحتجاج "لكن عشرون سنة وقت طويل جداً...."

قاطعها قائلاً "اثنتان وعشرون سنة.."

فقالت بسرعة "ألم تيأس بعد كل ذلك الوقت من ملاحقة أخطاء غيرك؟.. ألم تيأس من ذلك العالم الذي نبذك وتحاول أن تتأقلم مع حياتك الحالية؟"

تساءل رادال متطلعاً نحوها "وهل كنتِ ستصمتين لو كنتِ في مكاني وأنت تعلمين أنه في يوم معين، وفي ساعة معينة، يواجه طفل صغير لا يعلم من أمور الدنيا شيئاً خطر السقوط والتهشم على هذه الأرض لذنب لم يرتكبه؟.. هل ستتمكنين من النوم هانئة وذاك الطفل يرمق أرضنا برعب بانتظار اللحظة التي سيلاقي جسده الهش هذه الأرض القاسية ليمنح عالمه السامي بضع سنوات من الأمان المزيف؟.."

خفضت جود بصرها قائلة باستسلام "لا.. لا أظنني أفعل.."

اتسعت ابتسامة رادال بصمت دون أن يضيف كلمة أخرى، موقناً أن جود لا تختلف عنه بكثير.. من يمكنه أن يرمق طفلاً بريئاً ويرمي به من ارتفاع مئات الأمتار دون ذرة تردد وبقسوة غير معهودة؟..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

مضت عدة أيام قضتها جود مع ياسان في محاولات يائسة لإصلاح أي أعطال ظاهرة في الطائرة وإعادتها للعمل بأي صورة ممكنة.. كان إحباطهم يزداد مع كل يوم يمضي، لكن لأنها وسيلتهم الوحيدة للنجاة لم يجد الاثنان بداً من العمل باستماتة على الطائرة وعدم الاستسلام لليأس مهما كان قوياً.. وفي الآن ذاته، انشغل رادال بالقرية وشؤونها في تلك المرحلة الفاصلة، وبذل كل ما يملكه للمعاونة في تسيير الخطة كما يرتجي ويتمنى.. في البدء، قام عدد من الشباب بصنع بعض الأطواف العريضة باستخدام جذوع الأشجار وربطها بإحكام ببعضها البعض باستخدام حبال غليظة صنعت خصيصاً لهذه المهمة.. وفي الآن ذاته، قام رادال بمعاونة الشاس بمد الحبال بين ضفتي النهر وتثبيتها بإحكام بوتد طويل ضرب في شجرة قريبة من النهر ولفّ جذع الشجرة بتلك الحبال بقوة.. ومن ثم، كل ما كان عليهم فعله هو ربط الحبل بالطوف بحلقة واسعة من المعدن السميك، تمكنهم من تسيير الطوف بمجداف طويل دون الخوف من أن تجرفهم المياه في مجراها الذي لا يهدأ..

لم يكد رادال في تلك الأيام يجد وقتاً لمتابعة ما يفعله الآخرون في الطائرة، بل كان يكتفي ببضع كلمات من بارا يلخص له فيها الموقف مع نهاية كل نهار.. ولم تكن تلك الكلمات تتغير بين يوم وآخر والنتيجة واحدة لا اختلاف فيها رغم كل المحاولات..

هيما أيضاً فضّلت البقاء والمعاونة في القرية بدورها.. بدأت تتعلم القليل من لغتهم، وتشاركهم بكل صورة ممكنة مهما كان ما تفعله متعباً ومؤلماً، وفي الآن ذاته، بدأ بعض القرويين باستلطاف وجودها وإظهار السرور لما تبذله في سبيلهم دون مقابل.. كانت هيما تستمتع بهذه الحياة التي لم تعرف مثلها قط، وبدا أنها لم تعد تهتم لأمر الطائرة وما جرى لها أكثر من السابق.. أما سيرا، فقد انعزلت عن هؤلاء وأولئك ولم تحاول المعاونة في أي أمر مهما كان صغيراً..

وفي أحد الأيام، تركت جود الطائرة ودارت حولها في الغابة القريبة باحثة عن جزء من أجزائها قد يكون سقط في موقع قريب.. كانت قد تجاهلت اعتراضات ياسان وضيق بارا من رحيلها، وغادرت حاملة خنجراً لحماية نفسها ضد أي هجوم غادر.. لم تكن تخشى على نفسها مثلما يخشى ياسان، وقد ازدادت ثقتها مع كل يوم يمر بها وهي وسط هذه الغابة التي بدت لها أهدأ نهاراً مما رأتها عليه ليلاً.. وقبل أن تبتعد كثيراً لحق بها ياسان قائلاً وهو يتلفت حوله "أنت عنيدة بما فيه الكفاية لتتجاهلي كل اعتراضاتنا.. ماذا لو هوجمت من قبل حيوان شرس قد يرديك صريعة بضربة واحدة؟"

قالت جود ببساطة "الهروب لن يكون صعباً.. وحيوانات الشاس قريبة منا، لذا استدعاء أحدها لن يكون صعباً.."

لم يخفت توتر ياسان وهو يقلب بصره في جوانب الغابة، ثم غمغم "أترين أن هذا مجدٍ حقاً؟"

لم تعلق جود وهي تبحث ببصرها في الأرض كثيفة الأعشاب عن بغيتها، فقال ياسان بوضوح أكبر "ماذا لو كانت جهودنا هذه بلا فائدة؟.. هل يجدر بنا تضييع وقتنا في هذا العمل دون معنى؟"

قالت جود بضيق "أتعني أن علينا أن نستسلم بعد أيام قليلة فقط؟"

أسرع ياسان يقول "ما الذي يمكننا فعله بلا أدوات أو معدات لإصلاح الطائرة، وبدون قطع غيار أو أي وسيلة لاكتشاف العطل وإصلاحه؟.. ربما الأفضل لنا أن نبحث عن مدينة أو مكان أفضل، ونرى كيف سنعيش حياتنا في هذا العالم بعيداً عن هذا المكان الموحش.."

اعترضت جود "وستنسى عالمك بهذه السهولة؟.. لا تيأس بعد، فنحن ما زلنا في البداية.. من يدري ما الذي قد يحدث في الأيام القادمة؟.. ثم إن جهودنا لا بد أن تؤتي ثمارها طال الوقت أم قصرُ، فتحلّ ببعض الصبر.."

تبعها ياسان بغير اقتناع وهو مدركٌ أن ما يحرك جود ويدفعها للعمل دون توقف هي آمالها وأمانيها بالعودة لذلك العالم.. ربما بسبب حياتها السابقة في هذا العالم وما قاسته فيه فإنها أكثرهم إصراراً على العودة، حتى لو كان ذلك مجرد أحلام ترفض التخلي عنها..

رآها تتوقف فجأة، ثم تنحرف عن طريقها مما دفعه ليتساءل "هل عثرت عليه؟"

أجابته "لا.. لكني عثرت على ما سيعيد لي قليلاً من النشاط الذي بتّ أفتقده.."

رآها تتجه نحو بقعة منخفضة من الغابة تجمعت فيها مياه الأمطار بغزارة مكونة نبعاً متوسط الحجم بمياه أكثر صفاءً من مياه النهر الكالحة.. ولما رآها تخلع قميصها الخارجي قال باستنكار "ما الذي ستفعلينه؟"

أجابت ملتفتة نحوه "سأغسل ملابسي وجسدي من هذه الرائحة التي التصقت بها منذ قدومي لهذا العالم.. عُد لبارا وانتظرا عودتي، وإياك والتلصص.."

استدار ياسان على الفور نحو الجهة الأخرى قائلاً بحنق "هل تملكين من الوقت وفراغ البال ما يسمح بهذا؟.. لمَ لمْ تغسلي ملابسك في ذاك النهر المجاور للقرية؟"

أجابت جود وهي تخوض في المياه الباردة "لا أحب الاغتسال في تلك المياه العكرة، ومع عشرات الأعين التي تحدق بي من كل جانب.. أما عن الوقت، فهو كل ما نملكه في هذا العالم.."

رأت ياسان يبتعد مدمدماً بضيق لتجاهلها مخاطر وجودها في هذه الغابة بعيداً عن الآخرين.. لكن جود لم تعبأ لذلك وهي تخلع ملابسها موقنة أن ياسان سيلتزم بما طلبته منه ولن يتلصص عليها.. ورغم ذلك، فقد احتفظت بجزء من ملابسها أثناء الاستحمام خشية أن يواجهها أحد الحيوانات الضارية بهجوم مفاجئ، ولم ترغب جود بالهرب عارية دون أن تجد فرصة لارتداء ملابسها..

لم يكن غسل هذه الملابس في المياه يجعلها أفضل حالاً، لكنها حاولت غسلها بعناية بالفعل قبل أن تتركها على الأرض وتنشغل بغسل جسدها بسرعة قبل العودة لرفيقيها.. كان النهار قد بلغ منتصفه، ورغم برودة المياه فإن الدفء غمر الغابة كحالها معظم الأيام.. لم تكن جود تعرف شيئاً عن تضاريس هذه الأرض ومناطقها، ولم تعرف أين يقع موطنها الأول قبل أن تنتقل للعالم السامي.. لكن تلك المناطق كانت جافة صخرية مختلفة تمام الاختلاف عن هذه الأرض الرطبة المشبعة بمياه الأنهار والأمطار.. فأين يقع موطنها من هذا المكان؟.. لا تعلم، ولا تظن أنها ستكون بالحماسة الكافية للبحث عن تلك الإجابة..

لم تستغرق جود وقتاً طويلاً في الاغتسال، مدركة لمخاطر بقائها في هذا الموقع وحيدة.. عادت للضفة أكثر نشاطاً وانشراحاً من السابق، وشرعت في ارتداء ملابسها المبللة عالمة أنها لا تملك ترف انتظارها حتى تجف.. وبينما هي في غمرة أفكارها التي أخذتها جيئة وذهاباً، قطع هذه الأفكار صوت جاء من جانب الغابة في الجزء المواجه لها.. تحفزت جود وهي تمد يدها نحو حزامها الجلدي الذي ربطته حول فخذها واضعة الخنجر فيه لتحمي نفسها عند الضرورة.. لكن يدها تجمدت مع مرأى تلك الحيوانات التي تشابه الأحصنة وقد اصطفت أمامها في أعداد لا تقل عن العشرة.. كانت الأحصنة غريبة المنظر، شهباء اللون، بعرف غزير الشعر وذيل طويل كثيف، وبعينين صفراوين لامعتين، وفم انكشف عن أنيابه المدببة بشكل غريب عما تعهده في الأحصنة العادية.. وعلى تلك الأحصنة، التي تخلو من أي سروج أو ألجمة تلجمها وتسيرّها، رأت رجالاً غريبي الهيئة شعثي الشعور بملابس جلدية لا تكاد تخفي أجسادهم العضلية.. وأذرعهم الضخمة تمسك برماح وسيوف كبيرة الحجم حادة النصل، وفي أعينهم تلتمع ثقتهم البالغة بأنفسهم وبجماعتهم التي قد لا يجرؤ شخص على مناصبتها العداء..

لم تعبأ جود بالابتسامات الهازئة التي ارتسمت على شفاههم ولا بنظراتهم اللزجة التي تأملتها أثناء ارتدائها ما بقي من ملابسها، لكنها اهتمت بما قد يفعلونه بها بعد هذه اللحظة.. لو استدارت وحاولت الهرب، فسيلاحقونها على ظهور أحصنتهم ولن يعجزوا عن اللحاق بها.. هل يطمحون لقتلها بحثاً عما تملكه؟.. أم يطمعون في جسدها والمتعة التي قد يحصلون عليها منه؟..

لم يكن الوقت ملائماً لطرح الأسئلة أو انتظار تفسير لهذا التجمع حولها، ففضّلت الصمت وهي تتراجع خطوة فخطوة بهدوء كبير.. سمعت أحد الرجال يقول لها بصوت خشن وباللغة المحلية إنما بلكنة غريبة "من أين أنت يا فتاة؟"

قلبت جود بصرها بين الرجال الذين يراقبونها، وحركت قدمها خطوة أخرى وهي تجيب "لست أنتمي لأي مكان.."

قال الرجل بسخرية "هل سقطت من السماء إذاً؟"

كان هذا بالفعل ما جرى، لكن لم تكن جود تنوي شرح الأمر لهم، بل تساءلت "ومن أين أنتم؟.. وإلى أين تنوون الذهاب بكامل تسليحكم؟"

أجاب الرجل وهو يتقدم بحصانه خطوة "وهل يهمك ما ننوي فعله حقاً؟.. يمكننا أن نروي فضولك لو أتيت معنا.. وصدقيني، الحياة لن تكون مملة معنا أبداً.."

تبادل الرجال بعض الضحكات الساخرة على ما قاله رفيقهم، فيما استغلت جود هذه الفرصة، فاستدارت مطلقة صفيراً عالياً حاداً وهي تركض نحو مجموعة كثيفة من الأشجار قد تضلّل الأعين عنها ولو للحظات لتسمح لها بالهرب.. تصايح الرجال وهم يلكزون أحصنتهم ويدفعونها للحاق بالهاربة، وقد ازداد استمتاعهم بما يجري أضعافاً عما سبق.. أما جود، فقد أطلقت صفيراً تلو الآخر وهي مدركة أن الشاس قريب وسيسمع نداءها بالتأكيد.. بخلاف ذلك، فهي مقضيّ عليها في الحال.. ولن تكون هي الوحيدة التي ستضطر لمواجهتهم، فلا بد أن يعثروا على ياسان وبارا اللذان لا يبعدان عنها الكثير، وقد يقومون بقتلهما والاستيلاء على الشاس الذي يملكانه بالتبعية..

أطلقت جود صفيراً آخر وهي تشعر بالأرض تهتز تحت قدمها من ضربات الحوافر التي تركض نحوها متوزعة على عدة مسارات بين أشجار الغابة الكثيفة بتحدٍ بينهم وبين بعضهم حول من يصل إليها أولاً..

حاولت جود ألا تركض نحو الطائرة مباشرة بل ابتعدت عنها بمسافة معقولة وهي تطلق صفيرها من جديد، حتى رأت ذلك الجسد الذي انسلّ بين أشجار الغابة نحوها بسرعة كبيرة حتى توقف أمامها فجأة وهو يرفّ بجناحيه بقوة مثيراً التراب وبعض الأوراق الجافة.. جذب الرجال أحصنتهم لرؤية الشاس بهيئته الشرسة، والذي لا يبدو معهوداً لهم كما هو لأهل هذه القرية، وفيما أطلق بعضهم صيحات الدهشة، تأهب البعض الآخر للهجوم على الحيوان أو رد هجومه بالرد المناسب..

هرعت جود للتشبث بالشاس وهي تضربه بيدها لتدفعه للارتفاع، وقد رأت تأهب الرجال برماحهم وسيوفهم للنيل منه.. طار الشاس مرفرفاً بجناحيه بقوة وهو يصدر صيحة غاضبة وقد أثاره منظر السيوف الحادة وهيّجه، فيما حاولت جود التشبث به بقوة والوصول للجامه الذي تدلى جانباً.. دار الشاس حول نفسه محاولاً الخروج من بين أشجار الغابة الكثيفة ونحو السماء الشاسعة، وكادت جود تسقط عدة مرات والأفرع الكثيفة تصيبها في عدة أماكن من جسدها.. لكنها تشبثت بقوة بالشاس الثائر ورفعت نفسها حتى استقرت على ظهره وهي تسمع تصايح الرجال في الأسفل.. أخيراً استطاعت أن تمسك باللجام، وجذبته مديرة الشاس حتى انطلق بها نحو الطائرة التي لم تكن بعيدة عنهم..

كانت تأمل أن يكف الرجال عن اللحاق بها، لكن بدا أنهم مصرّون على ذلك آملين أن يوقعها الشاس من على ظهره أو أن تضطر للهبوط لسبب من الأسباب.. لذا، اضطرت جود للتحليق في اتجاهٍ مغاير كي لا تدلهم على موقع الطائرة القريب منهم.. تمنّت في تلك اللحظات لو تملك وسيلة اتصال لتخاطب ياسان وتطلب منه الهرب مع بارا قبل وصول تلك الجماعة المتوحشة من الرجال إليهم..

ولم يكن توقيت ياسان أسوأ من هذا وجود تسمع صفيراً عالياً يصدر من جانبٍ غير بعيدٍ عنها، ولاحظت ياسان الذي وقف على ظهر الطائرة محاولاً رؤيتها وهو يستدعي الشاس الذي تمتطيه بصفيره.. لم يكن ياسان مدركاً لما حاق بجود، وصادف وجوده خارج الطائرة في أسوأ الأوقات إذ اجتذب صفيره جماعة الرجال تلك وهم يتوقفون عن ملاحقة جود ويتلفتون حولهم بحثاً عن صاحب ذلك الصفير..

بدأ الشاس يصيح بصوته العالي متجاوباً مع الصفير فيما جذبت جود لجامه مانعة إياه من العودة وهي تغمغم بحنق "هذا أسوأ ما في هذه الحيوانات.. إنها تستجيب لصاحب الصفير أياً كانت هويته.."

لاحظت أن تلك الجماعة قد أدارت أحصنتها وبدأت التوجه لمصدر الصوت، موقنة أن ملاحقة هدف على الأرض أفضل من ملاحقة آخر في عرض السماء.. فلكزت جود الشاس عائدة للطائرة وهي تصيح "اهرب يا ياسان.. اهرب مع بارا على ظهر الشاس.."

صمت ياسان وهو يلوح بذراعيه بعد أن رآها تقترب منه، فيما حاولت جود دفع الشاس للإسراع وقلقها يتضاعف مع تصرفات ياسان المتساهلة التي تدلها أنه لم يدرك ما تحذره منه بعد.. كان الشاس بالتأكيد أسرع من الأحصنة، وسرعان ما وصلت للطائرة دون أن تهبط صائحة "استدعِ بارا واهربا على ظهر الشاس.. هناك جماعة متوحشة من الرجال آتية للنيل منا.."

تجمد ياسان للحظة، فيما صاحت جود "بارا.. غادر الطائرة بسرعة يا بارا.."

خرج بارا مستفهماً، فيما لاحظ ياسان تلك الحوافر العالية التي اقتربت منهم وأصوات الصياح الذي تعالى من أكثر من جانب.. عندها هتف بارا وهو يندفع للشاس القريب "ما الذي جرى؟"

أدارت جود اللجام لتهبط قرب ياسان هاتفة "حاول تعطيلهم يا بارا حتى نهرب.."

لم يتمهل بارا وهو يمتطي الشاس ويرتفع به بسرعة، فأدار اللجام على ذراعه اليسرى لئلا يفلته فيما تناول قوسه وكنانة السهام التي لا تكاد تفارقه في رحلاته.. لم يكن عدد أولئك الرجال بالقليل بالنظر للضجة

التي تصل لسمعه بوضوح، فاستعد بارا وهو يشدّ وتر القوس ويلقمه سهماً بانتظار رؤية أحدهم.. ورغم غرابة الهجوم وسببه في هذا الموقع النائي، لكن مثل تلك التصرفات لم تكن غريبة عن هذا العالم كثيراً..

وفي الآن ذاته، تململ الشاس المصاحب لجود بتوتر كبير عندما هبطت به على الطائرة وهي تصيح "هيا يا ياسان.."

عاونته على امتطاء الشاس خلفها، وهو يتساءل بقلق "من يكون هؤلاء؟.. ولِمَ يلاحقونك؟"

قالت بضيق "ولِمَ يلاحق الرجال امرأة برأيك؟.. لقد فاجؤوني في ذلك النبع، ولحقوا بي عندما حاولت الهرب منهم.. لا أعلم من هم، لكن لا يبدو أنهم ينتمون لقرية كاللتي كنا فيها.."

قال ياسان باستنكار "لابد أن يحدث ذلك عندما تقررين فجأة الاهتمام بنظافتك الشخصية والتعري وسط غابة مجهولة.."

فقالت جود "ليس الوقت مناسباً للّوم.. علينا الهرب.."

لمح ياسان تلك الجماعة من الرجال التي ظهرت من خلف الأشجار القريبة، والتي صدمت بدورها لرؤية هذه الطائرة الغريبة عن المكان.. لكنهم لم يترددوا في التقدم منها وهم يطلقون صيحات ترمي لبث الرعب في نفوس طرائدهم البشرية.. فكان أول من تصرف هو بارا الذي صوّب سهمه بإحكام من موقعه العلوي وأطلقه على أول المهاجمين مخمناً أنه قائدهم.. اخترق السهم عنق المهاجم وأرداه عن ظهر حصانه أرضاً أمام أعين رفاقه، فنتج عن ذلك بلبلة واضحة في الجماعة من الرجال الذين جذبوا أعنة أحصنتهم وداروا بأعينهم بين الثلاثة على ظهور الشاس باستنكار ووعيد.. لم تتأخر جود لحظة في الارتفاع بالشاس بعد أن أردفت ياسان خلفها، ووقر في ذهنها أن هروبهم سيكون سلساً بعد أن تحقق لهم الارتفاع عن سطح الأرض.. حتى رأت ذلك الرجل الذي كان أسرع من البقية في ردة فعله، وهو يرفع نحوها قوساً غريب الشكل ويطلق منه سهماً طويلاً غليظاً لابد أن يكون قاتلاً بحجمه ذاك..

أدارت جود الشاس من عنانه ليبتعد عن مرمى السهم، وخفضت رأسها وياسان يفعل المثل.. وبالفعل، لم يُصب السهم هدفه الأصلي، بل انحرف ليصيب الشاس في فخذه إصابة قوية جعلته يطلق زئيراً متألماً وهو يتخبط في طيرانه بألم.. بدأ الشاس ينخفض في طيرانه وهو يزأر بألم وغضب، فيما تعالت صيحات الظفر من الرجال وهم يلاحقونهما بأحصنتهم منتظرين اللحظة التي تطالهما أيديهم.. عندها، لن يكون مصيرهما

باللطف الذي قد يرجوه أحدهما..

حاولت جود دفع الشاس للارتفاع بكل ما تملك، وبارا يصوّب سهامه نحو الرجال محاولاً إبعادهم وتشتيتهم عن رفيقيه.. كانت جهودهم عقيمة وجود عاجزة عن معرفة الكيفية التي يمكنها بها دفع الحيوان لتجاهل آلامه والارتفاع فوق مستوى الغابة، بينما قلب ياسان بصره فيمن حوله بقلق وهمس "نحن هالكان لا محالة.."

قالت جود بحزم "ليس بعد.."

مدت يدها واختطفت المسدس الذي لا يفارق ياسان في حلّه وترحاله، رغم فراغه من الرصاص تقريباً.. فرفعت المسدس في وجه أقرب الرجال إليها، والذي مدّ يده محاولاً إسقاطها وضحكة تعتلي شفتيه، فأطلقت دون تمييز لتدوّي الرصاصة في الغابة وهي تخترق كتف الرجل وتلقيه خلفاً عدة أمتار وصيحاته تملأ المكان ضجيجاً..

تراجع الرجال بفزع ظاهر مع صوت الرصاصة ومنظر المسدس الغريب، والذي لم يروا مثله في هذه الأنحاء كما يبدو.. عندها استغل بارا ذعرهم الظاهر من هذا الصوت العالي، واندفع بشاسه بسرعة خاطفة مخترقاً جموعهم حتى التقى بالشاس الآخر، عندها جذب لجامه ولكز شاسه بقوة ليرتفع عالياً مجبراً الآخر ليتبعه رغم مقاومته وألمه.. ولم تملك جود وياسان إلا التشبث بالشاس بقوة خشية السقوط حتى ارتفع بهما فوق مستوى الأشجار، عندها قال لهما بارا بتوتر "يحسن بنا أن نرحل من هنا قبل أن يتمكنوا من إسقاطنا من جديد.."

علق ياسان بقلق وهو يستعيد مسدسه ويعيده لجرابه "من كانوا أولئك؟.. ولِمَ هاجمونا قبل أن نؤذيهم بالفعل؟"

أجاب بارا دون أن يتخلى عن لجام الشاس الثاني "هؤلاء فرقة رجال جوالة، أقرب لقطاع طرق.. يسلبون ويخطفون كل من يمر بهم.. لا مأوى يؤويهم ولا يمكن التنبؤ بما قد يفعلونه بمن يمرون به.. لذا الأسلم لنا أن نبتعد عنهم ونتجنبهم.."

غمغمت جود "أنا أوافق ذلك.. لا أحب العودة إليهم بعد من أصبناه وقتلناه منهم.."

لاحظت حركة الشاس المتوترة التي دلّتها على آلامه، فلم ترغب بإطالة عذابه أكثر من اللازم ووجهته نحو

الجهة التي تقع فيها القرية.. كان صياح الرجال ووعيدهم يصل لآذانهم بوضوح، فراقبت جود الأرض بحثاً عن أثر ممن قد يلحق بهم منهم لتطمئن أنهم لن يضطروا لمواجهتهم من جديد.. ثم سمعت بارا يقول "لا يبدو أنهم سيلحقون بنا أكثر مما فعلوا.. لنبتعد قبل أن تسوء الأمور أكثر.."

وحلق بالشاس الخاص به نحو القرية بسرعة تتبعه جود وياسان، وجود تربت على عنق الشاس برفق وهي تهمس له "تحمّل آلامك يا صاحبي حتى نصل.. لم يبقَ الكثير.."

أطلق الشاس زمجرة مستاءة، فيما علق ياسان بابتسامة "أنت أكثر تأقلماً مع العالم وكائناته مما يبدو عليك.."

غمغمت بعدم اقتناع "لا تدع المظاهر تخدعك.."

وصل الثلاثة للقرية خلال وقت قصير، فهبطوا في موقع قريب من كوخ التوأمين.. وجدت جود أن الشاس الذي يحملها قد أصبح أكثر تعباً في طيرانه مع الدماء التي سالت من ساقه بوضوح، وفور اقترابهم من الأرض تهاوى رامياً إياهما من على ظهره أرضاً.. اعتدل ياسان بتحفز وقلق، فيما نهضت جود وأسرعت للشاس لرؤية ما حلّ به.. وسرعان ما اقترب بارا بدوره لتخليص الشاس من السهم وعلاج جرحه بكل ما يملكه..

لم يمضِ وقت طويل والثلاثة منشغلون انشغالاً تاماً بالحيوان الجريح، والذي أصدر ضجيجاً وصياحه المتألم يلفت الأنظار إليه بقوة، حتى سمعوا صوت رادال الذي اقترب منهما مستاءً وقال بعصبية "ما الذي جرى؟"

لم يدرِ أحدهم سبب عصبيته تلك وإن خمّنوا أنه بسبب الشاس الجريح الخاص به مع رؤيته يقترب منه ويربت على رأسه ماسحاً على عنقه، فقال بارا "لقد واجهنا فرقة جوالة وهربنا منهم بالكاد.."

بدا الاستنكار واضحاً في عيني رادال، وهو ما لم يفهمه الآخرون، فبادر ياسان قائلاً بتوتر محاولاً عدم إثارة غضبه "ليس الأمر بالسوء الذي يبدو عليه.. لقد أصيب الشاس بسهم عابر، هذا كل ما هنالك....."

قال رادال بحنق "كل ما هنالك؟.. أتريد أن تخبرني أن أسوأ ما جرى هو تلك الإصابة، بينما ما أراه بعينيّ يفوق ذلك بمراحل؟"

نظروا له بدهشة كبيرة، ثم تتبعوا إشارة يده ليروا من جانب الغابة الذي أتوا منه ذلك الدخان الأسود الذي بدأ يتكاثف ويزداد حجمه وهو يتصاعد بكثافة ملحوظة.. تجمد الثلاثة مذهولي النظرات، فيما قال

رادال بحنق "أليس الحريق صادراً من موقع الطائرة؟.. من الذي تسبب بمصيبة كهذه؟"

استدار بارا وامتطى الشاس السليم، ولم تلبث جود أن قفزت خلفه بقلب واجف.. كان الحريق كبيراً كما يبدو بالفعل، ويبدو أنه قادم من موقع الطائرة بالفعل.. همست جود "يا للسماء.. أرجو ألا يكون قريباً من الطائرة بالفعل.."

قال بارا بقلق كبير "حتى لو لم يكن كذلك، هل تظنين أننا نقدر على تحريك الطائرة وإبعادها عن الحريق بأي صورة؟"

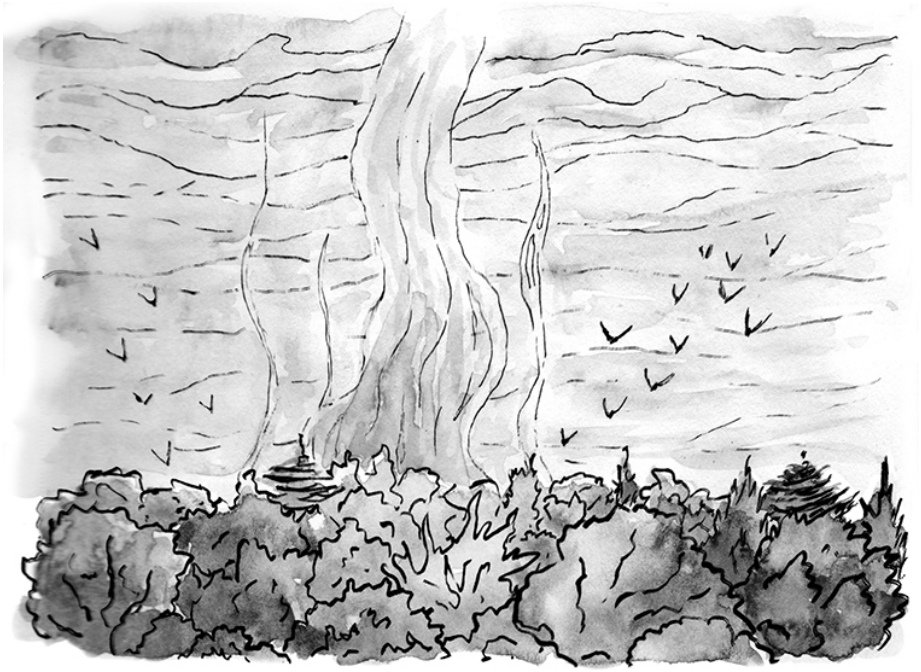

كان ذلك محالاً بالفعل.. والأكثر استحالة، إطفاء النيران في غابة كثيفة كهذه حتى لو كانت في منطقة رطبة غزيرة الأمطار.. كانت النيران تزداد حدة مع كل لحظة تمضي، وبدا بوضوح أنها قد شبّت بفعل فاعل، فلا يمكن لنيران كهذه أن تحدث بصورة طبيعية مطلقاً.. وبالفعل، مع الصيحات التي تعالت من جانب بعيد من الغابة حيث رحلت فرقة الجوالة تلك، رأى الاثنان أن تلك الفرقة قد نجحت في نيل ثأرها لمن قتل من أفرادها بأبسط الطرق وأنجحها.. فها هي النيران تشبّ في جسد الطائرة المعدني الذي لم تترفق به الأشجار محيطة به إحاطة شبه تامة.. ورغم المادة التي صنعت منها تلك الجدران والتي تملك نوعاً من المقاومة للنيران والحرارة العالية، لكن الطائرة لم تعدم أجزاءً أضعف معرضة للدمار الكامل بالحريق الذي طال قلبها وتغلغل في أجزائها..

وعندما هبط الشاس في أقرب موقع من تلك النيران، أدرك الاثنان أن ما بقي من الطائرة صالحاً للعمل قد دمّر في هذا الهجوم بشكل كامل.. كانت النيران تنبعث من أجزاء عديدة منها وتتسلل من نوافذها التي تحطمت مع الحرارة العالية المنبعثة في قلبها، ولم يكن إطفاء تلك النيران الآن ليجدي نفعاً..

وقف بارا وجود يتبادلان النظرات بشحوب وصدمة، ثم تهاوت جود أرضاً هامسة بأسى "تباً لهم.. كانت تلك تذكرة خروجنا الوحيدة.."

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

(الفصل الثالث عشر)
أرض الهوام: حياة أخرى وعالم آخر

أيامٌ قليلة فقط فصلت بين سقوط جود ورفيقيها وبين الحريق الذي اشتعل في الطائرة وتركها رماداً لا نفع منه.. أيامٌ قليلة تقلّب فيها الثلاثة بين الأمل واليأس مراتٍ عديدة.. وها هو اليأس يعود لهم بقوة مع مرأى تلك الطائرة التي استحالت سوداء خالصة والدخان لا يكفّ عن الانبعاث من جوانبها والحرارة لا تخفت من جدرانها المعدنية.. ورغم أنها لا تزال صامدة في موقعها كما كانت سابقاً، إلا أنهم يدركون أنها في تلك اللحظة لا تعدو أكثر من كونها خردة لن تعود للحياة والحركة من جديد مهما كانت جهودهم مخلصة..

مضت وقت طويل قبل أن يخمد الحريق بشكل كامل في الطائرة والأشجار المحيطة بها، دون أن تتزايد رقعته أكثر من اللازم بفضل الأرض الطينية، وبفضل الرطوبة المشبعة في كل زاوية وثنية من ثنايا الغابة..

قلّبت جود بعض الأجزاء المحترقة من الطائرة بصمت كاتمة الأسى واليأس في صدرها وهي تسمع صياح رادال الغاضب الذي سرعان ما لحقهم على ظهر الشاس الخاص بغيدان "ما الذي جرى؟.. أغيب أياماً قليلة لأجد الطائرة مدمرة بشكل كامل؟.. كيف نجحتم بفعل ذلك بهذه السرعة؟!"

قال بارا دون أن يستثيره غضب رادال "لم يكن ذلك بيد أحدنا.. هاجمتنا جماعة رجال جوالة كما أخبرتك، وقد حاولوا القبض علينا.. ولما هربنا بالشاس، انتقموا لمقتل أحد رفاقهم بتحطيم الطائرة بشكل كامل.."

صاح رادال حانقاً "وما الذي دعاكم لمهاجمة أحدهم؟.. كان بإمكانكم الهرب بالشاس والعودة للقرية دون أن تضطروا لمواجهتهم وإثارة غضبهم.."

قالت جود معترضة "كانوا يوشكون على محاصرتنا، وبارا قد تمكن من إصابة أحدهم ليمنحنا الفرصة للفرار.."

قال رادال على الفور "ليس عذراً.."

فقالت جود متبرمة "أنت لم تكن موجوداً في ذلك الوقت العصيب، لذا لا يحق لك محاسبتنا على ما فعلناه وما لم نفعله.."

قال رادال بعناد "بلى، يحق لي محاسبتكم.. أنا قد استأمنتكم على تلك الطائرة ووثقت بكم.."

قالت جود محتدة "ونحن لم نتعمد ما جرى.. أتظنني سُقت أولئك الرجال عامدة لتدمير الطائرة؟"

ازداد غضب رادال وهو يصيح "وهل يسعدك ما جرى هنا؟.. أتظنين أنك ستعثرين على وسيلة ملائمة للعودة بعد أن حطمت الوسيلة الوحيدة التي نملكها؟"

استدارت جود غاضبة بدورها نحو رادال الذي اقترب منها، وقالت بصرامة وحدة "وكيف تراني سعيدة وأنا مضطرة للبقاء في هذا العالم الذي يضمّ أمثالك؟.. ألا يكفي اليأس والحزن الذي نمرّ به؟.. هل تريد منا البكاء لتدرك مقدار حزننا لما جرى؟"

رمقها بعينين امتزج الغضب فيهما بالدهشة لما قالته، ثم قال بغيظ "إذن آسفٌ لأن أسوق هذا الخبر لك.. أنت ستلبثين في هذا العالم آماداً عديدة.. إلا لو قررت الانتحار في التّو واللحظة.. عندها، يمكنني أن أسوقك للمستنقعات بكل سرور لإكمال ما بدأته سابقاً.."

لمحت في ملامحه غيظاً وعناداً موجّهاً نحوها دون سبب.. ولا تدري أكان يلومها بما قاله عياناً أم أنه غاضبٌ ولا يعرف لمن يوجه اللوم في تلك اللحظة.. لكن استياؤها ازداد لما قاله.. وهي تكاد تنفجر بالفعل لكل ما جرى ولحظها السيئ الذي يسوقها عامداً من هاوية لأخرى.. ولكيلا تزيد الجدال الغاضب أكثر مما يحتمل كلاهما، قالت بفتور "استرِح يا هذا.. يمكنني أن أكفيك عناء الخلاص مني.."

واستدارت مغادرة بخطوات حادة، فيما تعالت ضحكات سيرا التي رافقت رادال أثناء قدومه، ونظرت للطائرة بسخرية قائلة "يبدو أن السماء قد استجابت لدعواتي أخيراً.. ألا تظنون أن هذه إشارة لكم بأن عبثكم ذاك لم يكن ذا معنى؟.. متى تيأسون من النظر للسماء؟.. عندما تُدقّ أعناقكم؟!"

قال بارا بضيق "كفي عن الهزء يا سيرا فهو لا يفيدنا في أي أمر.."

قالت سيرا باستخفاف "ومن ظنّ أنني أريد عونه في هذا الأمر؟"

فقال بارا بصرامة "على الأقل، عليك الكف عن جعل نفسك بغيضة أكثر مع كل لحظة تمضي.."

نظرت له سيرا بغضب وحنق، فيما ألقى رادال نظرة أسف حانقة على الطائرة المتفحمة قبل أن يقول "لم يعُد لوجودنا هنا أي فائدة.."

وعاد للشاس وامتطاه دون كلمة أخرى.. فأسرعت سيرا للحاق به وركوب الشاس خلفه.. ولما ارتفعا

عالياً فوق الغابة في طريقهم للقرية، مالت سيرا على رادال قائلة "أليس الأحرى بك أن تكف عن مثل هذه الأحلام؟"

قال رادال بضيق "وما أدراك ما هي أحلامي؟"

قالت بسرعة "طبعاً ليس ذلك عسيراً.. أنت تريد العودة.. تريد مغادرة هذا الشقاء وتريد العيش في نعيم العالم السامي.. لكن دعني أقُل لك.. لن تكون حياتك هناك نعيماً مقيماً كما قد يخيّل لك.."

غمغم رادال "لستُ جاهلاً لذلك.."

فقالت سيرا بابتسامة "إذن كفّ عن تمني ما لا يمكنك نيله.. يمكنك أن تعيش على هذه الأرض حياة أفضل مما تظن بكثير.."

وأحاطت خصره بذراعيها مسندة رأسها لظهره مضيفة بهمس "يمكنني أن أجعل حياتك أفضل مما تحلم بكثير.. فلا تصدّني وتهملني هذه المرة.."

ساد صمتٌ ممضٌّ عجزت سيرا فيه عن معرفة رد فعل رادال على ما قالته، حتى سمعته يقول بخفوت "لِمَ أنت مصرّة على البقاء في هذا العالم؟.. ما الذي يدعوك لكره عالمك السابق بكل هذا العنف؟"

قالت باندفاع "ألا يكفي أنهم نبذوني وأرادوا سلب الحياة مني؟"

علق رادال "هذا جرى لكلٍ منا، لكن لا يعارض أحدنا العودة بالطريقة التي تظهرينها أنت.."

صمتت مديرة وجهها جانباً، ثم قالت "لأنني أخشى ما قد أراه في ذلك العالم.. هناك، أنت لن تكون كما أنت الآن.. رادال الذي أحببته وعشقته يعيش في هذا العالم، ولا أظن رادال الذي سأجده في العالم السامي سيكون مشابهاً لما أراه يتمثل أمامي الآن.."

ثم أضافت بانكسار "وهناك، أخشى مما قد تراه والحياة التي ستندمج فيها.. هناك، لن أغدو إلا فتاة باهتة الملامح بلا جمال يميزها ولا صفات تنمّقها.. لو لم تبادلني الحب هنا، فكيف ستفعل ذلك هناك؟"

عندها قال رادال زافراً "أمازلتِ مصرة على تطويع مشاعري كيفما تشائين؟.."

كان هذا رفضاً جديداً لم تقدر سيرا على ابتلاعه، فأدارت وجهها بعيداً وهمست "لا.. لن أفعل ذلك من جديد.."

لم يدرِ رادال إن كانت جادة فيما تقوله أم أنها تفضّل الانسحاب في هذه اللحظات لئلا يناله غضبه.. لكنه

بالفعل لا يملك الفراغ الكافي للتفكير في مشاعرها وما قد يغضبها أو يحزنها وهو يفقد الأمل الوحيد الذي عاش به شهوراً عديدة من حياته منذ عثر على الطائرة لأول مرة..

أن تفقد الأمل بعد العثور عليه، لهو أشد قسوة من أن لا تملك أملاً البتة..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

عندما عادت جود مع البقية للقرية، استقبلهم ياسان القلق وهيما التي وقفت جواره بقلق مماثل متسائلة "ما الذي جرى؟.. أأنتم بخير؟.."

كانت كعادتها قد انشغلت في أمور القرية ومع بعض الفتيات اللواتي انطلقن للحقول القريبة.. لكن لم يكن لها ألا تلاحظ الدخان المتصاعد من قلب الغابة، حيث هي متيقنة أنه في ذات الموضع الذي تقع فيه الطائرة.. لذا عادت راكضة فور أن رأت الشاس الذي اقترب محلقاً من القرية، وأسرعت لاستقبال البقية والاطمئنان على ما جرى..

ظهر الضيق واضحاً في عيني جود وهي تجيب بشيء من الإحباط "لقد احترقت الطائرة.."

اتسعت عينا ياسان بصدمة، وصاح باعتراض "ربما لم تتدمر بشكل نهائي.. ربما لا زالت....."

قاطعته جود وهي تبتعد بضيق "لقد أصبحت مجرد خردة لا يرتجى منها.."

حاول ياسان ابتلاع صدمته في وقوفه مراقباً رفاقه الذين ابتعدوا بإحباط واضح.. ثم لاحظ أن ملامح هيما الواقفة قريباً منه قد انبسطت وهي تقول بشيء من الارتياح "على الأقل، أنتم بخير.. أليس ذلك هو الأهم؟"

علق ياسان وهو يبتعد بدوره "ألا يعني ذلك أننا حرمنا من العودة للعالم العالي؟.. ما الذي سرّك في مثل هذا الخبر؟"

تمتمت هيما بكلمات غير مترابطة محاولة تبرير الراحة التي ظهرت على ملامحها، لكنهم غادروا المكان تابعين رادال نحو كوخه بتلقائية.. ظلت هيما واقفة تفرك كفيها وهي تتأمل القرية حولها.. ثم همست لنفسها "لا بأس.. الأمور تتحسن بكل تأكيد.."

ثم انطلقت عائدة للحقول بانشراح أكبر وسعادة أوضح.. ولا يمكن لمن يراها ألا يدرك ما يدور في ذهنها ويدرك رغبتها في الاندماج في هذا العالم، مخالفة رغبة البقية بالعودة بأسرع ما يمكن..

وفي كوخ رادال، ساد صمت ثقيل الوطء حيث اجتمع الأربعة الذين فقدوا آمالهم بضربة واحدة.. جود وياسان.. ورادال وبارا.. فيما انعزلت سيرا رافضة المشاركة في هذا الأمر أو مجرد التفكير فيه..

بدت الكآبة كغمامة سوداء على وجهي جود وياسان، وهما الأكثر إحساساً بالخسارة التي حاقت بهم، وربما كانت جود أكثر ضيقاً مع إحساسها بأنها مسؤولة نوعاً ما لما جرى.. لو لم تصرّ على التفرق عن رفيقيها.... لو أنها لم تجذب انتباه أولئك الرجال.... لو أنها لم تدفع بارا لمهاجمتهم حتى يتسنى لهم الفرار..... رغم إنكارها للذنب الذي تتحمله أمام الآخرين، لكن المشاعر المتهاوية في أعماقها تدل على مدى إحساسها العميق بالخسارة والصدمة لما تسببت به..

تجرأ ياسان ليقول أخيراً "ما العمل الآن؟.."

قال رادال بوجه قاتم "وما الذي يمكننا فعله؟.. هذا كان أملنا الأخير، وقد فقدناه بأسرع مما توقعت.."

تساءل ياسان بشيء من التردد "ألا يمكننا البحث عن أي طائرات أخرى قريبة؟.. لا أظنها الطائرة الوحيدة التي سقطت لهذه الأرض بالتأكيد.."

علقت جود "لا أظننا سنعثر على واحدة أفضل حالاً مما وجدنا هذه الطائرة عليه.. لقد حمتها الأشجار من التحطم الكامل، وربما لم يفقد قائدها السيطرة عليها إلا من ارتفاع قليل.. لكن لا أظن أن تلك الظروف يمكن أن تتكرر بتاتاً.."

فقال ياسان بضيق "ولِمَ نبرة اليأس هذه؟.."

أضاف رادال "هذا صحيحٌ على قدر علمي.. مع جولاتي العديدة في المنطقة وما حولها، لم أعثر إلا على بعض الحطام أو قطع متفرقة من مخلفات الطائرات.. لذا كانت دهشتي عميقة لرؤية تلك الطائرة سليمة من غير سوء.."

غمغم بارا "أو التي كانت سليمة.."

فقالت جود على الفور بضيق "لا داعي لهذه النبرة.. أدرك تماماً أنكم تلومونني لفقداننا هذه الطائرة.."

قال بارا "نوعاًما اللوم يقع عليك.. ليس بسبب هجوم أولئك الجوالة، ولا بالدمار الذي ألحقوه والمتوقع

منهم مهما كانت ردة فعلنا في مواجهتهم.. ما نلومك عليه هو تجاهلك لتحذيراتنا المتكررة بخصوص تلك البقعة غير الآمنة.. لقد سمعت من الآخرين أنك من هذا العالم في الأصل، لكنك عشت في العالم العالي معظم سني عمرك.. هذا لا يجعلك أكثر دراية بهذا العالم ومخاطره منا لتتجاهلي تحذيراتنا بتلك الصورة.."

أسرعت تقول "لم يكن تجاهلاً مني، ربما إهمالاً وتهاوناً.. كنت أبحث عن بعض القطع المفقودة من الطائرة، وظننت أنني لن أواجه أي....."

قاطع رادال جدالهما قائلاً "ظنونك لن تغني عن الواقع شيئاً.. ما حصل قد حصل وانتهى الأمر.."

اعترض بارا قائلاً "وما الذي سنفعله إذاً؟.. هل نستسلم؟.."

قال رادال "وهل من حلٍ آخر؟.."

ألجم بارا مضطراً وهو الذي يرفض الاستسلام عادة.. لكن بالفعل كان الأمر يفوقهم جميعاً.. وبعد بعض الصمت تراجع رادال في كرسيه قائلاً بزفرة "ربما من الخير لنا أن نلتفت لحياتنا هنا، ولا ننشغل بأوهام لا معنى لها ولا يمكن تحقيقها.."

لم يكن أمام أحدهم ما يقوله، أو يعترض به عليه.. بالفعل كانت الحياة في هذا العالم هي الخيار الوحيد.. وكان الأمر أسهل بالنسبة لرادال وبارا اللذان عاشا أغلب سنوات حياتيهما هنا، وربما لهيما التي تأقلمت مع هذه الحياة بأسرع من البرق.. لكن ما الذي قد يفعله ياسان وجود هنا؟.. أي حياة قد يعيشونها هنا وأمر الغزو الذي اغتال مملكتهم غدراً يؤرقهم؟..

بعد بعض الصمت الممضّ، انسحب بارا والضيق يعتلي ملامحه الوسيمة ويعكرها، وانسحب ياسان بدوره والهم يمتزج بحيرة عميقة على وجهه.. وبينما نهضت جود بدورها لترحل باستسلام، لاحظت نظرات رادال المحدقة بها بصمت.. فقالت باستياء عارم "لا داعي لمزيد من التأنيب أرجوك.. يمكنني أن أنتحر كمداً لو سمعت كلمة تأنيب ولو م من أحدكم اليوم.."

وجدته يستوقفها قبل أن تغادر، ودفعها للجلوس من جديد دون أن يتفوه بكلمة.. صمتت جود بانتظار ما قد يقوله.. هل سيلومها مجدداً؟.. لو تحدث عن هذا الأمر بأسلوبه البغيض السابق، فستتركه ولن تعبأ بغضبه.. يكفيها ما جرى هذا اليوم، ويكفي تحطم أملها الأخير في العودة للعالم الذي لا تعرف سواه الآن، ولا يمكنها أن تعيش في غيره بعد أن ذاقت حلاوة العيش بين جنباته الآمنة..

بعد صمت قصير، زفر رادال، وقال دون أن ينظر إليها "اسمعي.. أنا آسف لصراخي عليك في ذلك الوقت.. كنت غاضباً بشدة، وحانقاً لما جرت عليه الأمور.. لكن ما كان يجب بي أن ألومك على ما جرى.."

كان اعتذاره غريباً من رجل بشخصيته، لكن جود لم تكن لتجعل الأمور تمر بسهولة وهي تعقد ذراعيها وتقول ببرود "لكنك ألقيت لومك عليّ بالفعل وانقضى الأمر.."

رفع رادال بصره إليها قائلاً بضيق "وها أنا أعتذر عن هذا الخطأ.. أما كان يجب أن تقبلي الاعتذار دون مماطلة؟"

رآها ترمقه صامتة وهي تبتسم ابتسامة خفيفة.. بدا أنها مستمتعة بمرأى خضوعه واعترافه بالذنب الذي ارتكبه، مما دفعه ليعتدل في جلسته ويقول بتحذير "إن لم تقبلي اعتذاري، فلا تحلمي بأن أكرره من جديد.."

قالت جود ضاحكة "لن أحلم بذلك بالطبع.. توقعت أن تتناسى أمر ثورتك وغضبك وتعود لسابق عهدك، لكن ما لم أتوقعه قط أن تبدي هذا الندم على ما ارتكبته.."

قال بضيق وهو يدير وجهه جانباً "وأنت مستمتعة برؤية ندمي هذا.."

غمغمت بابتسامة "ومن يمكنه لومي؟"

ظل رادال يحدق في جانب المكان الذي يجلسان فيه والتفكير باد على ملامحه.. ورغم صمت جود بالتبعية، إلا أنها استغلت الفرصة لمراقبة ملامح رادال وانفعالاته.. لشدّ ما بدا مختلفاً في هذه اللحظة.. ولشدّ ما شعرت أنها أصبحت مختلفة حياله أيضاً، وإن لم تحاول سبر أغوار نفسها أكثر من ذلك..

التفت إليها بعد بعض الصمت متسائلاً "والآن، ماذا؟.. أتملكين خططاً معينة أم أنك يئست من العودة لذلك العالم؟"

نظرت للسماء الغائمة البادية من نافذة الكوخ دون أن تجيب متسائلة إن كانت تملك إجابة حقاً.. هل يمكنها أن تيأس؟.. هل تقدر على ذلك حقاً؟.. هل يمكنها أن تعيش في هذا العالم وتندمج فيه متناسية كل ما مضى؟.. ولما طال صمتها علق رادال قائلاً "أنت عشت فترة من حياتك في هذا العالم.. ألن يجعلك هذا أكثر تقبلاً للعيش فيه من البقية؟.."

غمغمت جود "ليت ذلك كان سهلاً.."

عاد رادال يتساءل "في أي منطقة كنت تعيشين؟.. ماذا عن عائلتك التي تركتها؟.. ألا يشغل ذلك تفكيرك بعد أن أصبحت أقرب إليهم من السنوات الماضية؟.."

صمتت جود للحظة محاولة استحضار ذكرىٰ بعيدة.. ذكرىٰ غلفها الضباب، أو غيّبتها هي عامدة عن عقلها في سنواتها الماضية.. كانت منذ انتقالها للعالم السامي مصرّة علىٰ البقاء هناك.. نبذت اسمها السابق الذي لا تذكر منه حرفاً، واستخدمت اسم جود الذي أطلقه عليها دارو بعد أن رفض قاث مناداتها إلا بلقب (ابنة التراب).. تناست حياتها السابقة، ولو شاءت لتناست هذه اللغة تماماً.. لكن لم يكن ذلك ممكناً بإرادتها الحرة.. وهي محظوظة نوعاً ما لأنها احتاجت لاستخدامها رغم كل شيء..

بعد ذلك الصمت، ومع نظرات رادال الملحّة وهو يراقبها بانتظار جوابها، هزت كتفيها مجيبة "لا أذكر الكثير من تلك الحياة.. كنت في العاشرة من عمري، لذا ما سبق من حياتي يبدو كذكرىٰ بعيدة أقرب لحلمٍ باهت لا طعم له.."

قال رادال بإلحاح "أهذا يعني أنك لا تذكرين والديك أو أياً من أهلك؟.. ألن تسعي للبحث عنهما بعد عودتك لهذه الأرض؟"

ساءها تقريره بأنها قد (عادت) ولم تأتِ لهذه الأرض.. لمَ لا يفتأ الجميع تذكيرها أنها تنتمي لهذه الأرض البائسة وليست من سكان العالم السامي؟.. لطالما كرهت جود هذه الحقيقة، ولطالما تمنّت تناسيها في أغلب الأوقات.. لذا لم يسعها إلا أن تجيب بضيق واضح "لا، لن أسعىٰ للبحث عنهما لأني أذكر مصيرهما بشكل جيد.. للعجب هذه الذكرىٰ لم تُمحَ قط من ذهني رغم سوئها.."

وإزاء نظرات الفضول من عيني رادال، ازداد استياؤها وهي تستحضر تلك الذكرىٰ.. ما سبب فضوله الكبير عنها وعن عائلتها في هذا الوقت بالذات؟.. إنه لم يسأل عن ياسان أو هيما، رغم أن حياتهما قد تثير فضوله أكثر بالنظر للهفته الكبيرة للعودة للأرض العليا.. فلمَ يعبأ بحياة طفلة علىٰ هذه الأرض التي عاش فيها أغلب سنوات حياته؟..

قالت أخيراً "لا أذكر الكثير عن حياتي السابقة.. كان هناك الكثير من التشرد، والترحال المتواصل في ربوع أرض صخرية جرداء قاسية.. لا أعرف السبب الذي لأجله كنا نرتحل، لكني لم أعرف لنا موطناً ثابتاً كتلك القرية التي تسكنونها.. كنا ضمن قافلة صغيرة لا يتجاوز عدد أفرادها العشر، أنا وأبي وأمي.. تناقص

العدد مع مرور الشهور، ما بين صريع تحت الصخور الضخمة أو بأنياب حيوان جائع أو بسمّ زاحف من الزواحف.. تعددت الأسباب والنهاية واحدة.. والموت واحد.. حتى أمي قضت نحبها في يوم من الأيام بعد أن سقطت في هاوية عميقة وتحطم جسدها على بعض الصخور الحادة.. ورغم صياحي وبكائي لكن لم يسمح لي أبي بالتخلف عن الآخرين ولو للحظة.. وبعد وقت طويل، لم يعد هناك إلاي وأبي.. ولم نبقَ معاً لوقت طويل.. فوجئت في يوم من الأيام بكائن مفترس لم أرَ مثله قط يهجم علينا محاولاً الحصول على وجبة وافرة بعد جوع شديد.. حاول أبي إلهاءه عني، وتمكن من ذلك بالفعل بأن قدم حياته وجسده للحيوان الجائع.. وفررت أنا من المكان دون هدىً.."

صمتت قليلاً وكأنها تستطعم المرارة في حلقها لهذه الذكرى، ثم أضافت مديرة بصرها جانباً "همُتُ على وجهي أياماً دون طعام أو شراب إلا ما حصلت عليه من تلك الأرض الشحيحة.. وبعد أن كدت أهلك جوعاً، وأثناء هربي من حيوان مفترس رآني طريدة سهلة، عثرت على طائرة من طائرات العالم العلوي واختبأت في قلبها جاهلة بهويتها.. ظننتها بيتاً أنشأه أحد البشر، وظننت أني قد أجد العون من أصحابه.. ولك أن تتخيل ذعري لمرأى أولئك البشر الذين لا يشبهون أحداً من عالمنا، لا بهيئاتهم ولا لغتهم ولا ملابسهم.. حاولت الفرار، لكن لحسن حظي لم يسمحوا لي بذلك بل اصطحبوني لعالمهم وآووني وجعلوا مني ما أنا عليه الآن.."

سحبت نفساً عميقاً بعد أن أنهت حكايتها، وكأنها أفرغت ما بجعبتها من ذكريات مؤلمة تناستها لزمن طويل.. وبعد صمت ورادال يستمع إليها دون ملل، قال مشيراً لجبينها "أهذا أثرٌ من ذلك الحيوان؟.."

لمست جود بيدها الجرح الذي شق طريقه في جانب جبينها الأيسر، وغمغمت وهي تسدل بعض خصلاتها القصيرة عليه لتواريه "أجل.. هذه الذكرى الوحيدة التي تذكرني بأصلي الحقيقي، والذي لطالما حاولت تناسيه.."

مد رادال يده وأزاح الخصلة كاشفاً الجرح من جديد متمتماً "ولمَ؟.."

تراجعت جود شيئاً ما وهي بدهشة من قوله ومن تصرفه، فقال بابتسامة جانبية "لمَ تحاولين نسيان أصلك الحقيقي؟.. ما الداعي لذلك حقاً؟.."

نظرت له بغير استيعاب، ثم قالت مقطبة "لا أرى فيما عشته على هذه الأرض ما يستحق أن أتذكره..

بالعكس من ذلك، وجدت في العالم السامي كل ما حلمت به من حياة رغدة وادعة وعائلة فقدتها على هذه الأرض.. ما يجعلني متشبثة به أكثر فأكثر مع كل لحظة تمضي.."

فقال رادال وقد غابت ابتسامته "للأسف، تلك أحلام لا واقع لها الآن.. خسرنا كل شيء، وصارت فرصة نجاتنا تعادل الصفر أو ربما أدنى من ذلك.."

عادت المرارة لجود وبدا الاستياء على ملامحها واضحاً بقوة.. لقد واجهت مشاعر عديدة في الأيام الماضية.. فهل هذه هي اللحظة التي تنكسر فيها وتخسر ثباتها وثقتها بنفسها؟..

لاحظت زفرة أطلقها رادال، قبل أن يميل نحوها قائلاً "غداً، أو بعد غد، سأقود جماعة من القرية في رحلتنا الأولى نحو موضع جديد اخترناه لبناء قرية جديدة أكثر أمناً وراحة من هذه.. ألا ترغبين بمرافقتنا في هذه الرحلة؟"

نظرت له بصمت وهي بدهشة من أمر هذه الدعوة، فأضاف دون سخريته وهزئه المعتاد "ربما عندما تقومين بتغيير هذا المكان البائس، وترين جوانب أخرى من هذه الأرض، تتقبلين حياتك فيها أكثر من السابق.. أما آن الوقت لذلك؟"

أدركت جود حسن نوايا رادال بعرضه ذاك، لكنها رغم ذلك طوت استياءها في صدرها وحملت كآبتها وهي تنهض لتغادر بصمت.. لقد صار هذا العالم ضيقاً كئيباً لا تكاد تتحمله ولو للحظة.. فكيف لها أن تعيش سنوات عمرها الباقية في هذا المكان؟..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

بعد يومين، ومع ظهور أشعة الشمس الأولى، بدأت القرية حركة غير معتادة وبدأت تجربة جديدة في حياة أهلها لم يسبق لهم اختبارها من قبل.. وقف رادال على ضفة النهر الجنوبية يراقب انتقال المجموعة المختارة من أهل القرية والذين لا يزيد عددهم عن خمسين رجلاً وامرأة ممن وقع عليهم الاختيار في الرحلة الأولى.. وفي الجانب الآخر، وقف أيصر يراقب الموقف بدوره، وبجواره غيدان الذي بدا بحماس فائق لهذه الرحلة ولبداية هذه المرحلة من حياتهم.. ولم يتردد غيدان في اللحاق بتلك المجموعة على ظهر الشاس بعد

أن اطمأن لاكتمالهم في الضفة الأخرى دون مشاكل..

وفي الجانب الآخر، وقف رادال يقلب بصره في الضفة بصمت رغم الضجة التي أثارها رجال القرية قربه بعد أن اكتمل عددهم مع بعض الخيول والماشية التي ستعينهم في حياتهم الجديدة حتى بناء القرية واكتمال انتقال أفرادها.. استطاع رادال أن يلمح ياسان واقفاً يراقب الوضع بصمت ودون انفعالات واضحة كعادته، وقربه وقفت هيما وهي تلوح لبعض الفتيات ممن شاركن في تلك الرحلة.. لكنه لم يعثر لجود على أثر، ولم يرها منذ استيقاظه في هذا اليوم أو تبلغه بقرارها بخصوص دعوته للانضمام إليهم في هذه الرحلة.. أكان يتوقع منها الموافقة؟.. أكان يتمنى ذلك؟.. ربما ساءه الضيق والمرارة التي تبدّت في ملامحها في ذلك اليوم.. أو ربما ساءه تشبثها بذلك العالم وحزنها العارم على فقد الوسيلة الوحيدة للعودة إليه..

التفت عندما ناداه غيدان، فاستدار قائلاً لمن حوله "هيا بنا.. أمامنا أيام طويلة من السير.. لكن صدقوني، النتيجة تستحق دون جدال.."

رغم بعض التردد والقلق الظاهر في الأعين، لكن الحماس طغى على ذلك وهم يسارعون للحاق به في الطريق الذي يقودهم لحياتهم الجديدة.. امتطى بعضهم ظهور الأحصنة، ولحق بهم الآخرون على الأقدام، فيما سار رادال بدوره معهم بعد أن ترك الشاس المصاب في عهدة ورعاية بارا في القرية.. كان يومهم طويلاً، والمجهود الذي عليهم بذله لن يقلّ مع مرور الساعات.. ورغم عدم اعتياد أهل القرية على الترحال لمسافات بعيدة، لكن ذلك لم يثبط حماسهم لهذه الرحلة وهذه النقلة الكبيرة في حياتهم جميعاً..

بعد سير قصير لم يتجاوز عدة دقائق، سمع رادال ذلك النداء باسمه، ولاحظ الشاس الذي اقترب من القافلة ومن مقدمتها حيث يسير قائداً البقية في هذه الرحلة.. ومع هبوط الشاس أرضاً بسلاسة، رأى جود تترجل من على ظهره قائلة "كيف ترحل بعد أن دعوتني لمرافقتكم؟.. هذه خيانة.."

دهش لرؤيتها في هذا المكان وقد وقر في ذهنه أنها رفضت مصاحبتهم مع اختفائها التام في هذا اليوم.. فابتسم لرؤيتها وقال مشاكساً "ألستِ أنت من غرق في نومه حتى ارتفعت الشمس في وسط السماء؟.. كيف تلوميني على كسلك ذاك؟"

رآها تمسح عنق الشاس شاكرة، ثم ضربته ضربة خفيفه لتدفعه للطيران والعودة لبارا صاحبه الأصلي في القرية خلفهما، ثم استدارت لتكمل الطريق سيراً على الأقدام قرب رادال الذي تساءل "لا أدري لم ظننت

أنك سترفضين عرضي بشكل أكيد.. فما الذي غيرّ رأيك فجأة؟"

هزت جود كتفيها معلقة "كنت بحاجة لما يشغل ذهني عن أي أمر آخر.. الأفكار تكاد تعتصر عقلي، وأطارت النوم من عينيّ طوال الليلة الماضية.. لذا لم أعد أطيق التفكير بها ولو للحظة أخرى.."

بدا جوابها مبهماً نوعاً ما.. أهي تتحدث عن رحيلهم للعالم العالي؟.. أم أن أمراً آخر شغل ذهنها وجعلها تفرّ من التفكير به بالقيام بهذه الرحلة؟.. لا يظن أنها ستجيبه بأريحية، لذا عزف عن سؤالها وهو يواصل سيره قائلاً "حسناً فعلت يا فتاة.."

لم تبتسم أو تظهر سرورها لقوله وهي تسير محاذية لتلك القافلة.. جاء قرارها مصاحبة رادال في هذه الرحلة فجائياً حتى لها نفسها.. لكن مع تلك الساعات التي بقتها مسهدة في الليلة الماضية تفكر في حالها والبؤس الذي قد تلاقيه في أيامها القادمة هنا، كانت جود موقنة أن بقاءها دون عمل يشغلها سيؤدي لحتفها كمداً وضيقاً.. لذا كان الخيار الأمثل أن تتخذ خطوة جديدة مخالفة كليّاً لما كانت تفعله في الأيام الماضية.. وكانت هذه الرحلة هي الخيار الأمثل لتلك الخطوة..

وفي الآن ذاته، في القرية التي غادرتها جود برفقة رادال وبقية القافلة، مالت هيما على ياسان الذي وقف يراقب الضفة متسائلة "من الغريب أن أراك مفترقاً عن جود.. ألا يهمك ما قد يجري لها؟"

أجاب ياسان بعد لحظة صمت "لا.. لستُ قلقاً عليها بأكثر من قلقي على ما قد يجري لنا.. جود هي أكثرنا تأقلماً مع هذا العالم، والأقدر على العيش فيه مما رأيته في الأيام الماضية.. لكنها بحاجة للتغيير.. وبحاجة للبحث عن سبب قوي للعيش في هذا العالم وتناسي حياتنا السابقة.. لذا لا يمكنني منعها من الرحيل بأي صورة.."

قالت هيما بابتسامة "أنت لا تظهر قلقك للمرة الأولى منذ عرفتك.. وهذا تغيير جذري يجب مكافأتك عليه.."

زفر ياسان بدون تعليق.. لم تكن شخصيته بالقوة التي يحاول إظهارها عليها.. كان متردداً، غير واثق من نفسه.. وقد وجد نفسه في عالمٍ لا يعرف عنه شيئاً، ويواجه أخطاراً لا قبل له بها.. فكيف له ألا يقلق؟..

وجد هيما تحثّه على مصاحبتها وهي تنطلق نحو جانب من جوانب القرية لتعاون في حصد بعض المزروعات وتهيئة المحصول لنقله في الرحلة القادمة.. وقد سارت هيما أمامه ومتعة طاغية تبدو على

ملامحها.. فلم يجد ياسان لديه أي اعتراضٍ على ذلك وهو يتبعها باستسلام..

لقد انقضت كل أحلامهم بالعودة وصارت رماداً يذروها الرياح.. فما الذي يمكنه فعله إلا التأقلم في هذا العالم والاندماج فيه؟..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

عندما استيقظت سيرا صباح ذلك اليوم، اكتشفت اختفاء رادال مع المجموعة التي اختارها أيصر للرحيل من أبناء القرية.. والأهم من ذلك اكتشافها اختفاء جود.. نوعاً ما شعرت سيرا بغصة لمعرفتها مرافقة جود لرادال.. كانت تكره تلك الفتاة المتكبرة.. تكره استهانتها بها، وتبغض رؤية التقارب بينها وبين رادال وبارا.. أصبح رادال يتعامل معها بعفوية وراحة وكأنه يعرفها منذ سنوات طوال.. لذا ساءها رحيلهما معاً خشية أن يزيد ذلك تقاربهما أكثر..

لمَ تشعر بأن رادال يبتعد عنها أكثر فأكثر منذ جاءت تلك الغريبة؟.. لم يكن شيءٌ ليقنع سيرا في تلك اللحظات أن جود لا علاقة لها بابتعاد رادال عنها، وأن ما يدور في ذهنها مجرد هواجس وأوهام لا علاقة لها بالواقع..

دخلت سيرا كوخها بغضب واضح وعبوس وهي تدور في الكوخ بحدة وعصبية.. وفي جانب المكان، لاحظت ياسان الذي استلقى على أريكة طويلة واضعاً ذراعه على وجهه، بعد أن فضّل البقاء في الكوخ عن الوقوف بلا حيلة يراقب عمل الرجال في المزارع القريبة.. وعندما وصل لسمعه الجلبة التي أحدثتها سيرا، رفع ذراعه ونظر لها بصمت ملاحظاً حركتها العصبية.. أشاحت سيرا بوجهها عنه وهي تدمدم بصوت خفيض "هذا ما كان ينقصني.. متى سأرتاح من هؤلاء الغرباء ووجودهم الذي أبغضه؟"

سمعت ياسان يعلق "للأسف، عليك احتمالنا حتى نجد مأوىً آخر يؤوينا في هذا العالم.."

أشاحت سيرا بوجهها قائلة باستياء "لقد نفذ الصبر مني منذ زمن.."

ثم عادت ببصرها لياسان الذي يراقبها قائلة بشيء من الحنق "ما الذي دعا تلك الفتاة للرحيل مع رادال والبقية؟.. ما الذي يعنيها في ما يجري لهذه القرية وهي غريبة عنها؟"

تساءل ياسان بهدوء "أي فتاة؟"

قالت سيرا بعصبية "تلك الفتاة التي أتت معكم.."

وإزاء نظرات ياسان الصامتة وهو يرفع حاجبيه، قالت بعصبية أكبر "تلك الفتاة التي تسمّي نفسها جود.."

ابتسم ياسان معلقاً "ما دمتِ تعرفين اسمها، فلمَ تنادينها بتلك الفتاة في كل مرة؟"

قالت سيرا رافعة وجهها "لا يهمني مناداتها بأي اسم.. أخبرني.. ما هدفها الحقيقي من الرحيل مع رادال؟"

أجاب ياسان وهو يعتدل جالساً "رادال قد دعاها للانضمام إليهم.."

صاحت سيرا على الفور "أنت كاذب.."

رفع ياسان كفيه قائلاً "وما هدفي من الكذب عليك؟.."

ازدادت عصبية سيرا وهي تقول "لا يمكن أن يدعوها رادال ويتجاهلني.. إنه لم يطلب مني الرحيل معه.. ما معنى هذا؟.."

توقفت عن الدوران في الكوخ فجأة، ثم استدارت نحو غرفتها قائلة بحنق "سألحق بهما.. لا يمكن أن أسمح بما يجري.."

استوقفها ياسان متسائلاً "أتغارين من جود؟"

نظرت له باستنكار، رغم أن انفعالاتها كانت واضحة.. لكن سيرا شعرت أن الإقرار بها يقلّل من مكانتها في عينيها وأعين البقية.. فسارعت لتقول بإباء "مطلقاً.. ولِمَ أغار من تلك التافهة؟.."

فقال ياسان "بلى.. أنت تغارين منها.. والأسوأ أن رادال لا يبادلك مشاعرك هذه.. ولا أظنه قد يفعل في يوم من الأيام.."

قالت سيرا وهي تنتفض غيظاً "إياك أن تجرؤ على تقرير ما بيني وبين رادال.. أنت لا تعلم حجم العلاقة بيننا، ولا أن تكشف ما يدور بعقل رادال.. كيف لك أن تقرر ذلك بكل بساطة؟"

قال ياسان "بل يمكنني أن أجزم بذلك.."

وإزاء نظراتها المستنكرة، فسرّ الأمر قائلاً "رغم أنني أتيت للقرية منذ وقت قصير، لكني أدركت ما يجري خلال الأيام الأولى.. أنت تدورين حول رادال كذبابة، ولا يمكن لامرئٍ أن يبادل شخصاً لحوحاً الحب

ببساطة.."

صاحت سيرا بغضب "أنت كاذب.. لا يمكن أن يكرهني رادال بسبب حبي هذا.. إنه عنيد.. لكنه سيعود إليّ بالتأكيد.. وسيرضخ لحبي بعد أن يرى أي سعادة يمكنني أن أمنحه إياها.."

ابتسم ياسان معلقاً "كيف يحصل المرء على السعادة من الرضوخ لإرادة شخص آخر حتى لو كان ذلك باسم الحب.."

أشاحت سيرا بوجهها قائلة بسخرية " وما أدراك أنت؟.. يمكنني أن أرى من ملامح وجهك أنك لا تعرف شيئاً عن الحب ولا تدرك خباياه.."

اعتدل ياسان قائلاً "حقاً؟.. من قال ذلك؟"

لم تغادر الابتسامة الساخرة شفتي سيرا وهي تراه ينهض واقفاً ويتقدم منها.. وعلى وجهه، لمحت نظرة لم تعجبها وأثارت ضيقاً في نفسها.. تراجعت سيرا مع اقترابه منها لتتفاداه أكثر حتى وجدت الجدار يجبرها على الوقوف.. وهناك، وجدت ياسان يحتجزها بذراعيه وهو يحدق في عينيها، وقال لها "سيرا.. أنت تعلمين أنني معجب بك منذ أن التقيت بك.. ولا يمكنني إخفاء ذلك الإعجاب في صدري أكثر مما فعلت.."

انتفضت سيرا وقالت بعبوس "لا يهمني ما تظنّه.. أنا لا أقبل ما تقوله.."

قال ياسان "لكنني أحبك.."

قالت بجفاء "وأنا أرفض هذا الحب.."

قال بإلحاح "لكني أحبك.. فما الذي عليّ فعله كي أنال حبك؟.."

قطبت قائلة بسخط "ومن قال إنني سأفعل؟.. لا تحلم بذلك.."

حاولت إبعاد ذراعه، لكنه تشبث بموقعه وهو يقول بإصرار "لكني أحبك.. ألا تفهمين ذلك؟.. أنا أحبك وأريدك أن تبادليني الحب بأي وسيلة كانت.."

صاحت باستنكار "لا يمكنك إجباري.. أنا أبغضك.. ألا تفهم ما أقول؟"

ارتسمت ابتسامة على وجه ياسان مضيفاً "لكن ذلك لن يجعلني أبغضك.. وسأفعل المستحيل لأجعلك تبادليني الحب.. ولن أرضخ لرفضك مهما حاولتِ.."

ظلت سيرا تحدق بوجهه باستنكار.. كيف له أن يتحلى بالحماقة الكافية ليرمي بما تقوله عرض الحائط ويجبرها على قبول ما يقوله حتى لو كانت ترفضه؟.. عندها رفعت يدها وصفعته بقوة ثم قالت بغضب "حتى متى يجب أن تكرر هذا القول البغيض بهذا الإلحاح؟.. ألا ترى أنني أزداد بغضاً لك في كل مرة تكررها أمامي؟"

ابتسم ياسان ابتسامة جانبية رغم ما ناله، ثم نظر لها وقد زالت تلك النظرة التي كانت في عينيه سابقاً، وقال لها بهدوء "ألا تظنين أن رادال يودّ صفعك بالطريقة ذاتها؟.. كونك امرأة، وكونه غير قادرٍ على إيذائك لا يجعل إلحاحك والتصاقك به أقل إزعاجاً وإثارة للغضب مما كنتُ عليه الآن.."

وتراجع مطلقاً سراحها، ومسّد خده للحظة قائلاً "رغم أنني نلت صفعة جراء ما فعلته، لكني أرجو أن تكوني قد فهمتِ الآن مقدار الضيق والإزعاج الذي تسبّبينه لرادال.. كلما حاصرته وأجبرته على قبول حبك ذاك، كلما ازداد ابتعاداً وضيقاً منك.. الحب لا يؤخذ قسراً.. عليك أن تفهمي هذا.."

وغادر عائداً لأريكته ليستلقي عليها من جديد.. فيما ظلت سيرا واقفة بعينين متسعتين وصدمة واضحة على ملامحها.. أيمكن أن يكون ذلك؟.. أيمكن أن يراها رادال بالطريقة ذاتها التي رأت بها ياسان؟.. أيمكن أن يشعر رادال بالضيق من إلحاحها ويكرهها مع كل لحظة تعرض فيها حبها عليه وتحاول إجباره على قبول ذلك الحب وإرغامه على مبادلتها إياه؟..

تعساً لها.. كيف لها أن تمحو ما فعلته بحماقة وعناد دون أي اعتبار لمشاعر رادال محطّمة بذلك علاقة دامت لاثنتي عشرة سنة؟..

✻✻✻✻✻✻✻✻✻✻

مضى اليوم الأول بأسرع مما توقعت جود، وهي ترافق تلك القافلة بطيئة السير متأملة كل ما يمر بها من ملامح وتضاريس تتغير بسرعة مذهلة.. في الواقع، لم تكن جود تشعر بأي متعة في هذه الرحلة، وهي تتأمل ملامح هذا المكان الذي رغم اختلافه التام عن الأرض القاحلة التي كانت تعيش فيها لكنه يحمل معالم الشقاء والبؤس ذاته.. لا ترى أي سعادة في عيون سكانه، ولا ترى أي راحة على ملامحهم أو في

تصرفاتهم.. ربما كانت جود تبالغ في الاعتقاد بأن العالم العالي لا يعرف بؤساً ولا شقاءً كما يحدث في هذا العالم، لكن إصرارها وتشبثها به يزيّن لها ملامحه ويشعرها بعظيم ما فقدته بسقوطها لهذه الأرض..

ومع مغيب شمس ذلك اليوم، عسكرت القافلة في أحد المواقع بإشارة من رادال الذي تفحص الطريق في وقت سابق وتخيرّ أفضل الأماكن للتخييم وقضاء الليلة بأمان.. لم تكن القرية تبعد عنهم الكثير في الواقع، فسير القافلة البطيء كان يوازي ساعة واحدة فقط من طيران الشاس.. لكن قلة حيوانات الشاس، وكثرة الماشية والأمتعة التي حملها الرجال معهم، كان يزيد من تثاقل القافلة وتباطؤها بما لا يمكن تفاديه.. ولم يبدُ على رادال أي استياء بذلك وهو ينعزل قرب إحدى النيران التي أشعلت في هذا المعسكر.. ولما اقتربت جود وجلست قرب النار، علق متأملاً ملامحها الصامتة "لا يبدو أن هذه الرحلة قد نجحت في إزالة عبوسك الدائم.. ألا يمكنك أن تنسيَ ذلك العالم؟"

تساءلت جود "أيمكنك أن تنساه أنت يا رادال؟.. ربما مع مضيّ السنوات بالنسبة لك فإن الأمر أيسر لك مني.. لم يمضِ أسبوع منذ غادرت مدينتي.. والأدهى أنني تركتها في أسوأ حالٍ ممكن.. كيف لي أن أنسى همّ موطني بهذه السرعة؟"

قال رادال بثقة "ستنسين كل ذلك.. صدقيني ستفعلين.. وربما تحمدين السماء عندها على ما جرى لك.."

نظرت له باستنكار وغير تصديق، عندما لاحظت اقتراب غيدان منهما مستاءً مبادراً رادال بالحديث "رغم سيرنا طوال النهار، إلا أننا لم نقطع إلا مسافة بسيطة.. ألا تظن أننا نسير بصورة أبطأ من اللازم؟.. سنستغرق وقتاً أطول مما خططنا له للوصول لهدفنا.."

أجاب رادال "هذا ملائم أكثر مع عددنا الكبير ومع قلة الحيوانات التي يمكننا امتطاؤها.. علينا أن نواكب سرعة الأضعف فينا.."

غمغم غيدان بقلق "لكني أخشى مما قد نواجهه في هذه الرحلة، لذا أشعر أن سرعة وصولنا لهدفنا أكثر أمناً لنا.."

علقت جود التي كانت تسمع حديثهما "استعجالنا في السير سيشكّل ضغطاً على الأضعف منا، وسنجد أنه قد ينهار أو يفقد القدرة على مواصلة السير قبل أن نصل لهدفنا بالفعل.."

رمقها غيدان بصمت لا يخفي به استياءه، ثم نظر تجاه رادال باحتجاج صامت.. فقال رادال بابتسامة

"ألديك أي اعتراض على ما قالته جود؟.."

قال غيدان بشيء من الحدة "لا.. لكني لا أفهم كيف لغريبة مثلها أن تتدخل في أمور هذه القرية ولم تمضِ أيامٌ معدودة على وصولها إليها.."

علقت جود وهي تنهض "لستُ أتدخل، إنما أبدي رأيي.. وأنت حرٌ في العمل بذلك الرأي أم تركه.."

وابتعدت لتسير في دورة حول المعسكر.. عندها تساءل غيدان "أكان لزاماً عليك اصطحاب هذه الفتاة الغريبة؟.. أنا لا آمنها، ولا أثق بها وبرفاقها كثيراً.."

قال رادال "وما الذي تخشاه منها؟.. أتظن أنها تنوي تعطيل مخططاتنا وتعكير رحلتنا هذه؟.."

علق غيدان بسخرية "وقبل سنوات قليلة كنت ترفض سيرا باستمرار.. ما الذي اختلف بين تلك الفتاة وهذه؟"

أجاب رادال بتقطيبة "الذي اختلف أننا لسنا في رحلة صيد، وجود ليست صغيرة السن كما كانت سيرا.."

قال غيدان بهزء "حقاً؟"

أسرع رادال يقول "إلام تلمّح؟"

نهض غيدان مجيباً "لا شيء.. ولِمَ قد ألمّح لأمر وأنا أستطيع قوله صراحة؟"

وتأمل المكان الساكن حولهما حيث عسكروا لتلك الليلة.. ثم تنهد معلقاً "أتمنى أن نقضي ما بقي من رحلتنا هذه بالهدوء والسلاسة ذاتها كما جرى اليوم.."

قال رادال "كن متفائلاً يا غيدان.. لقد سعيتَ بإصرار لتحقيق هذا الأمر.. وقد تحقق بالفعل كما أردتَ له.."

قال غيدان زافراً "كل ما أردته هو صالح هذه القرية وصالح أهلها.. وأتمنى ألا يخيب ظني.."

لم يعلق رادال وغيدان يتركه لتفقد أحوال أفراد القافلة.. كانت أمورهم تسير بسلاسة كبيرة بالفعل.. هل له أن يفرح بذلك؟.. أم أن عليه الحذر أكثر مما سبق واتخاذ احتياطاته لما قد يواجهونه بعد اليوم؟..

في تلك الأثناء، كانت جود تسير حول معسكر القافلة تتأمل المكان حولهم.. كان ابتعادهم عن النهر قد قلل من رطوبة الأرض وجعلها أكثر جفافاً وملائمة لنمو أنواع مختلفة من الأشجار والحشائش التي تغزو الأرض بكثافة.. لا تدري نوع الحيوانات التي تعيش في هذه الأماكن، لكن لا يبدو أن رادال والبقية قلقون

من هذا الأمر.. وربما لم تكن الحيوانات في هذه المناطق بوحشية وشراسة حيوانات الغابة البعيدة، لذا ليس عليها أن تقلق لأمرها لهذا الحد..

وصلت في دورانها لجانبٍ منخفض من الأرض، تتناثر فيه الحجارة بين غابة كثيفة من الحشائش، ووسطها رأت نبعاً رقراقاً يبدو مختلفاً عما كانت تراه في الغابة والقرية.. اقتربت جود دون تردد من النبع ولمست مياهه الباردة قبل أن تغسل وجهها مزيلة آثار سفرهم الطويل ذاك.. عندما سمعت صوتاً من خلفها أثار توجسها بشدة وهي تستدير وتقبض على خنجرها بيدها.. رأت تلك الفتاة التي اقتربت منها دون أن تلاحظها، فزال تحفز جود وهي تسترخي عالمة أن هواجسها بشأن هجوم حيوانٍ ضارٍ عليها لم يكن له أساسٌ من الصحة..

اقتربت الفتاة منها بتردد، ثم قالت "هل المياه نظيفة؟"

أجابت جود "أنظف ما رأيت في هذا العالم.."

انحنت الفتاة على النبع وتناولت بعض مياهه بيديها لتشرب منه.. ثم غمغمت "إنها بالفعل تختلف عن مياه النهر القريبة من القرية.."

ونظرت نحو جود التي لم تعلق على مقولتها، فتساءلت بعد تردد "سمعت أن العالم العالي، ذلك الذي أتيت منه، يتمتع بهواءٍ نظيف وشمس مشرقة على الدوام ومياه عذبة على مدار السنة.. أهذا صحيح؟"

لم يكن قول الفتاة بجانب الصواب، لكنها قالت "بلى، لكن هذا لا يعني أن العيش في ذلك العالم كالعيش في جنة بلا عيوب.."

قالت الفتاة بلهفة "إن كان الأمر كذلك حقاً، فكيف لا تكون تلك جنة؟.. ربما كان ذلك العالم العالي فعلاً جنة من الجنان، وربما ينتقل إليها البشر بعد موتهم بالفعل.."

أسرعت جود تقول "هذا هراء.. تلك مجرد أرضٍ أخرى، والبشر عليها يمرضون ويموتون كما يحدث على هذه الأرض تماماً.."

بدت خيبة واضحة على وجه الفتاة وهي تتأمل ما حولها، فيما صمتت جود بدورها عازفة عن تزيين ذلك العالم لعيني الفتاة.. لو شعرت الفتاة باستياء وكره لعالمها هذا، دون أدنى فرصة للانتقال لغيره، ستستحيل حياتها هنا جحيماً، وتغدو أيامها على هذه الأرض لا تطاق.. وهو أمرٌ تشعر به جود في الأوقات الحالية

وتسعى جاهدة للتغلب عليه بكل صورة ممكنة..

انتبهت في تلك اللحظة لحشرة ظهرت من قلب الحشائش وارتفعت في الجو وهي تضيء بضوء أصفر يزيد ويخبو بين لحظة وأخرى.. ظلت الفتاتان تراقبان تلك الحشرة بدهشة عندما بدأت حشرات أخرى تتبع الأولى وضوؤها ينير الموقع حولهم بشكل واضح خطف أنفاس الفتاتين.. كانت الحشرات تتمايل في طيرانها الهادئ، وضوؤها يرسم لوحة جميلة في المكان المظلم لم يمنح جود والفتاة فرصة للابتعاد أو الشعور بأي قلق حيال ما يجري وهما تراقبان المنظر بصمت ودهشة..

انتبه رادال بعد بعض الوقت لاختفاء جود.. فدار ببصره في المكان بدهشة دون أن يعثر لها على أثر، ثم نهض ليدور دورة حول المعسكر بحثاً عن أثر منها.. كان المكان صامتاً هادئاً بعد خلود أغلب أفراد القافلة للنوم، وقد أخذ منهم التعب مأخذه.. سار رادال متلفتاً حوله حتى سمع صوتاً خافتاً يصل إليه من أحد جوانب المكان.. اقترب من جهة الصوت ليرى، في ذلك الموضع المنخفض، جود تقف وسط المكان برفقة إحدى فتيات القرية.. وحولهما، استطاع أن يرى تلك الحشرات المضيئة التي طارت في الجو بكثافة وهي تصدر أزيزاً واضحاً عالي الصوت نسبة لكثرتها في المكان..

كان منظر الحشرات جميلاً، وسحر جود التي وقفت تتأمله برفقة الفتاة بصمت لمدة لا يعلمها رادال.. لكن الأخير لم يكن جاهلاً لهوية تلك الحشرات، فصاح من موقعه بهما "ابتعدا عن تلك الحشرات ولا تسمحا لها

بقرصكما.."

انتبهت جود لصياحه، ودهشت من نبرة صوته القلقة، فالتفتت للحشرات التي تكاثفت حولهما، وقالت للفتاة بتقطيبة "لا أدري ما يجري هنا، لكن علينا الذهاب.."

قالت الفتاة بقلق وهي تتراجع "تلك الحشرات توشك على قرصنا.. أهي ضارة؟.."

كانا في وسط المكان الذي يعجّ بالحشرات بالفعل، فبادرت جود لخلع قميصها الخارجي بقماشه السميك، ورمته على رأس الفتاة لتخفي وجهها وعنقها وما ظهر من جسدها.. ثم دفعتها أمامها قائلة "لا أدري.. لكن هذا أدعى لأن نبتعد قبل أن يتأزم موقفنا أكثر.."

غادرتا المكان بأسرع ما يمكن، وجود تلاحظ تلك الجحافل من الحشرات التي حلقت نحوهما وأزيزها يتصاعد أكثر مع كل لحظة تمضي.. ثم وجدت رادال يهرع نحوهما حاملاً مشعلاً أضاء المكان حوله.. لوّح رادال بالمشعل نحو حشود الحشرات التي تراجعت بسرعة مبتعدة عن الوهج، فيما سقط منها ما لامس المشعل أرضاً محترقاً بأزيز متذبذب..

دفعت جود الفتاة لتتقدمها بعيداً عن ذلك الموقع، وتساءلت "ما هذه الحشرات الغريبة؟.. لقد تكاثرت نحونا فجأة دون إنذار.."

تراجع رادال معهما ونظر لجود عارية الذراعين متسائلاً "هل أصيبت إحداكما بلسعات إحداها؟"

بدا القلق واضحاً على ملامح الفتاة لتساؤله هذا، فيما قالت جود بلهجة عادية "الفتاة بخير.. وأنا كذلك رغم أنني تلقيت ما لا يستهان به من لسعات تلك الحشرات اللزجة.."

كانت ذراعا جود المكشوفتان قد جذبتا عدداً من الحشرات التي نالت منها ما نالت في تلك الفترة القصيرة، فقال رادال ولمعة ضاحكة في عينيه لم تفُت جود "أأنت بخير؟"

نفضت جود ملابسها مما علق بها ومسحت موضع اللسعات فيما ظهر من جسدها وهي تقول "لا تقلق.. أنا بخير.."

لكنها أدركت على الفور أن أمراً ما ليس على ما يرام.. لسانها الذي بدأ يتثاقل في النطق يدلها أنها ليست بخير حقاً.. ولما بدأت ذراعاها بالتهاوي قرب جسدها، وبدأت ساقاها بالارتجاف قبل أن تخذلاها وهي تسقط أرضاً دون إصدار صوت، أدركت جود بيقين أن تلك الحشرات لم تكن بريئة المظهر كما خيّل لها..

وجدت رادال يتلقفها بيد واحدة قبل أن تسقط أرضاً، وأراح جسدها برفق على الأرض العشبية قائلاً بضحكة واضحة "هذا ما تجنينه للتدخل فيما لا يعنيك.."

لم تفهم كيف له أن يسخر مما حل بها.. أليست في خطر فعليّ بعد كل ما جرى لها؟.. لقد فقدت السيطرة على جسدها تماماً.. حتى صوتها انقطع وما عادت تملك إلا أنفاسها التي تسحبها بتثاقل كبير.. وعيناها اللتان تدوران في محجريهما بفزع واضح.. سمعت الفتاة تسأله بصوت مذعور " أهي بخير؟.. هل ستموت؟.."

أجاب رادال ضاحكاً "لا تخشيْ شيئاً.. ما جرى لها هو أسوأ ما سيجري.."

تنهدت الفتاة بقلق واضح، فأضاف رادال وهو يناولها المشعل "عودي للمعسكر ولا تحاولي التوغل بعيداً في أي اتجاه.. لن أكون مسؤولاً لو أصابك أمرٌ آخر في هذا المكان الغريب علينا.."

هزت الفتاة رأسها وهي تلهج بالشكر له، فيما صرخت جود في سرّها بدون صوت معترضة على ما يحصل عليه رادال من ثناء بينما لم يكد يفعل ما يستحقه عليه.. ومع خطوات الفتاة التي ابتعدت عن الموقع راكضة، وجدت جود رادال يرفعها ويحملها على كتفه بيسر كما فعل في أول مرة قابلته فيها.. وهذه المرة، لم تملك جود من أمرها شيئاً ولم تقدر على الاعتراض على هذه الوسيلة المهينة لحملها.. سار رادال مبتعداً عن تلك المنطقة التي تعجّ بالحشرات السامة، حتى وصل بها لمنطقة مرتفعة تدور فيها نسمة هادئة ساعدت على إبعاد تلك الحشرات التي تفضّل المناطق الساكنة والأكثر رطوبة..

أنزل رادال جود أرضاً قرب شجرة ضخمة، فوجدها تتكوم جانباً دون أن تملك التحكم بأطرافها أو تستطيع الجلوس معتمدة على جسدها.. فقام رادال بإسناد ظهرها لجذع الشجرة القريبة، وركع أمامها متأملاً وجهها بابتسامة.. كانت جود عاجزة، وثائرة في داخلها لما يجري لها دون أن تملك من أمرها شيئاً.. والأسوأ أنها بوعيها لكن لا تستطيع حتى تحريك شفتيها ولو بهمسة.. كل ما تملكه هو عيناها اللتان تدوران في محجريها بشيء من الاحتجاج الصامت..

سمعته يقول وهو يزيح خصلة شعرها التي تغطي جرحها كما يفعل في بعض الأحيان دون أن تفهم سبب تصرفه ذاك " أنت بالفعل عنيدة وسريعة التدخل فيما لا يعنيك.. ألا تخشين مما قد يجري لك بخبر تك الضئيلة مع هذا العالم؟!.."

وبالطبع، لم تملك جود الرد عليه والاعتراض على ما قاله.. ثم سمعته يقول "أتعلمين؟.. لا أظن ما جرى لك وسقوطك لهذا العالم الدنيّ كما تسمّونه أمراً سيئاً بالضرورة.."

ورغم أن جود عاجزة عن التعبير عن نفسها، لكن الاستنكار بدا واضحاً في عينيها وهي ترمقه بصمت.. فرفع رادال بصره للغيوم وللعالم المخفيّ خلفها، وقال "أيمكنني أن أبوح لك بسرّ؟.. ما جرى لك جرى لي بالمثل في السابق، وأراني أسعد حظاً بكثير الآن عما كنت عليه سابقاً في حياتي في ذلك العالم.."

وعاد ببصره لجود الصامتة مستطرداً "في طفولتي، كنت محل تحقير ودونيّة ممن حولي، وأول من عاملي بهذه الصورة كان أبي.. كنت ضعيف الجسد وضعيف الشخصية بالتبعية.. حرصت على إرضاء والدي بكل صورة ممكنة، وأتقنت كل ما طلبه مني أو حتى ما لم يطلبه على أمل أن أنال حظوة عنده.. لكن كل ما رآه أبي هو ضعفي وعجزي، وكل من ملأ عليه عقله هو شقيقي الذي يصغرني بثلاث سنوات.."

وأضاف دون أن تبدو المرارة في صوته "كان شقيقي ذاك ممتلئاً صحة وعنفواناً.. كان واثقاً من نفسه لدرجة الغرور، قوياً لدرجة العنف.. كان يهوى لفت الأنظار، وقد حصل على ما أراده بسرعة وسهولة وبمباركة أبي الذي رآه الأفضل لحمل اسم عائلتنا المبجلة.."

استمعت له جود بصمت اضطرت عليه، وإن ظل عقلها يستوعب ما قاله بشيء من الدهشة.. ما الذي يدعو رادال للبوح بحياته السابقة قبل سقوطه للعالم السفلي؟.. لم يكن ما يقوله مسيئاً له بأي صورة، لكنه يفضح دخيلة نفسه ويظهر ضعفاً في شخصيته كما عانى منه في طفولته.. فلمَ اختارها هي بالذات، ولمَ اختار هذه اللحظة التي لا تقدر فيها أن تعترض أو حتى تعلق على ما يقال أمامها؟.. ثم انتبهت للوصف الذي وصف به عائلته.. أكان رادال وريث عائلة من النبلاء؟.. أم أنها كانت عائلة ذات ثراء فاحش وأموال طائلة؟.. استمعت لحكايته بشيء من الاهتمام وهي مدركة أن مثل هذه اللحظات قد لا تتكرر مع رادال مطلقاً.. وأنها للمرة الأولى ترى باباً في نفسه فتحه بأريحية وربما لا يُفتح من جديد لو قرر رادال إغلاقه..

أضاف رادال زافراً "لطالما أيقنت أنني، بصفتي الإبن الأكبر، سأنال تفضيل أبي فور أن أبلغ السن المناسبة لذلك وأثبت له قدراتي ومهاراتي بالفعل.. حتى أتى ذلك اليوم الذي أعلن فيه كهنة معبد الشمس، في احتفال أقيم بهذه المناسبة، أن الشمس قد اختارت القربان المقدس، وأن اختيارها لم يقع إلا عليّ أنا من بين

جميع الصبية في مملكتنا المجيدة.."

صمت رادال للحظة وهو يتذكر ذلك الموقف، وذلك الرعب الذي بدا في عيني الصبي الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره.. ثم قال بابتسامة مريرة "لم أجرؤ على الاعتراض، وازداد جبني عن القيام برد فعل مع الصمت والرضى الضمني الذي بدا على وجه أبي وأمي.. من يمكنه أن يتخيل أن يتحلى الاثنان بردة الفعل الهادئة تلك عندما يتم الحكم بالإعدام على ابنهما البكر؟.. هل كانا يعلمان بأمر وقوع الخيار عليّ مسبقاً؟.. أم لأنهما يملكان من يحل محلي لذا لم يشعر أحدهما بأي أسف لفقدي؟.. لكن أدركت بعد أن سمعت بعض الأحاديث الهامسة التي تردد حولي أن ذلك الاختيار كان بطلبٍ شخصي من أبي.. وهو ما لم أفهمه ولم أستوعبه قط.. أذكر الذعر الذي اعتراني وأنا أقف أمام تلك الدرجات التي تؤدي للفراغ، حيث السحب الكثيفة تسبح تحتها وتخفي في ثناياها المصير الذي ينتظرني.. وبدفعة من يد أحدهم، ومع أصوات الابتهاج الصادرة عن الجموع من خلفي، وجدت نفسي أهوي كريشة تتناهبها الرياح دون ذنب.."

رفع بصره إلى جود مستطرداً "عندما رأيت تلك الأرض من ارتفاع آلاف الأمتار، أطلقت العنان لمشاعري وصرخت كما لم أفعل طوال عمري.. كنت موقناً أنني سأموت، وإن بدا لي أنني سأقضي نحبي لأن قلبي الضعيف سيتوقف عن الخفقان في أي لحظة.. صرخت وصرخت وكأنني أفرغ الانفعالات التي أبقيتها حبيسة صدري منذ تم اختياري كقربان.. أو بالأحرى منذ ولدتُ وأدركت أي خيبة أمل تعتري أبي كلما ألقى نظرة على جسدي الضعيف الواهن.."

وظهرت ابتسامة على شفتيه قائلاً "وبسبب ذلك الصراخ، سمعني أحد رجال هذه القرية، والذي لم يكن بعيداً عن موقعي وكان يمتطي أحد حيوانات الشاس لحسن حظي.. سارع لإنقاذي قبل أن يصل جسدي للأرض.. ومنذ ذلك اليوم، كتبت لي حياة جديدة وأصبحت شخصاً مختلفاً لم أكن لأصبح مثله لو بقيت في ذاك العالم.."

وبضحكة خفيفة قال "أراهن أن أبي ما كان يتخيل أنني سأعيش، أو أنني سأصبح أفضل من أشد أحلامه جموحاً.. أراهن أنه لن يتعرفني لو رآني ولن يصدق عينيه لو عرفني.."

لم تعلق جود مجبرة رغم أنها استمعت له باهتمام، وودت في تلك اللحظة لو تستزيده في الحديث لتعلم أي طفولة عاشها.. أي نوع من الصبية كان في ذلك العالم الذي قرر نبذه بكل قسوة.. لكنها عجزت بالطبع

عن التعليق على ما قاله، وإن شعرت في تلك اللحظات بوخزات خفيفة في أطراف أناملها ازدادت قسوة وهي تنتقل لأصابعها ويديها بالتبعية.. كان إحساسها بجسدها يعود إليها سريعاً إنما بشيء من القسوة.. وفور أن تمكنت من تحريك شفتيها صدرت عنها آهة ألم للوخز الذي غزا جسدها كله، وكأن مئات الإبر الحادة تنغرز في جسدها دون رحمة وفي وقت واحد..

مد رادال يديه وأمسك يديها قائلاً "لا تتحركي بسرعة قبل أن يزول التأثير تماماً لئلا تزيد آلامك.."

بدأ يضغط على أصابعها ويديها بخفة وبحركة دائرية ليزيد من تدفق الدماء فيهما ويساعد على إزالة آثار ذلك السم الذي سرى في جسدها.. استغرق جود بعض الوقت لتتمكن من التحكم بجسدها وتتخلص من تلك الآلام المزعجة.. ولما أصبح لسانها أقل تثاقلاً من السابق، قالت بألم "أي سمّ تحمله تلك الحشرة؟.. أكاد أموت لشدة الألم الذي أشعر به.."

ابتسم رادال معلقاً "لكنك حية حتى الآن.."

نظرت لابتسامته التي لا تحمل أي مرارة أو أسى.. لعينيه اللتين لا تحملان شعوراً بالقهر والغضب.. وتعجبت أكثر لحاله.. فقالت وهي تحاول الاعتدال جالسة "ألست نادماً لأنك فارقت عالمك ذاك؟.. لأنك سُلبت حياتك التي تستحقها إرضاءً لأهواء بضع أشخاص لا يعبؤون لأمرك قيد شعرة؟"

أجاب رادال وهو يضغط على ذراعيها دون أن يلاقي عينيها "لا.. ولِمَ قد أكون كذلك؟.. لو أنني بقيت في ذلك العالم، فلا أشك أن يحاول أبي الخلاص مني بوسيلة أو بأخرى.."

قالت جود باستنكار "كيف تتقبل ذلك ببساطة؟.. لم يكن لك يدٌ فيما يخص جسدك، ولم يكن لك يدٌ في استسلام أبيك قبل أن تتمكن من تغيير حالك للأفضل.. فكيف يتم عقابك على ما لم تملكه بالفعل؟"

نظر لها بحزم قائلاً "لم أكن كذلك.. لكنني الآن أملك القوة والعزيمة لنيل ما أريد.. وأملك الجسد الذي يعينني على ذلك.. لذا سادني الأمل أن أتمكن من العودة لأستعيد ما هو حقٌ لي ولو بالقوة.."

ارتفع حاجبا جود بدهشة متسائلة "ما هو حقٌ لك؟.. أي حقٍ ذاك؟"

أدار بصره مجيباً "وهل هذا مهم؟.. لم يعد لي من سبيلٍ لتحقيق ذلك.. لذا صرفت النظر عنه نهائياً.."

ونهض ليعاونها على النهوض بدورها، ورغم بعض الآلام التي اعترت قدميها لما بقي فيهما من ذلك السم والوخز المؤلم، لكنها ضغطت على نفسها لئلا تتخاذل أكثر ورادال يسندها بقبضته القوية.. وقف للحظة

يتأمل معاناتها التي حاولت كتمانها قدر استطاعتها، ثم قال بابتسامة خفيفة "هل أقنعك قولي أن الحياة على هذه الأرض ليست بالسوء الذي تتوقعينه؟"

قالت ساخرة رغماً عنها "مع هذه الآلام التي أشعر بها، يصعب أن أقتنع بسهولة.."

ضحك رادال معلقاً "عليك أن تكوني شاكرة لأنني وصلت في الوقت المناسب وقمت بتحذيرك.. لو أنك فقدت القدرة على التحكم بجسدك في ذلك المكان، لنالت الحشرات من جسدك ما نالت، ولطال عذابك أياماً عديدة بدل هذه الدقائق المعدودة.."

ثم أضاف بابتسامة متسعة "ربما هذه المرة تكونين سعيدة لوجودي.. فها أنا أنقذ حياتك للمرة الثانية دون أن أتلقى شكراً على ذلك...."

فوجئ الاثنان في تلك اللحظة بصوت مدوي يرجّ الأرض رجاً تحت أقدامهما ويدفعهما لاتخاذ وقفة متحفزة وهما يديران عينيهما فيما حولهما دهشة.. كان الصوت غريباً، وبعيداً عن موقعهما نحو جهة الشمال.. لكنه رغم ذلك كان عالياً كفاية ليصل إليهما في صمت تلك الليلة، ويجذب انتباه عدد غير قليل من أفراد القافلة الذين استيقظوا فزعين لما جرى.. نهض غيدان بدوره وانتصب واقفاً بقلق، ثم اندفع إلى رادال الذي رمق الأفق بصمت حيث تبدّت أمامهم بقعة ضوء خافتة من مبعدة..

كان الصوت مدوّياً رغم بعده، والضوء مبهراً في ظلمة تلك الليلة رغم أنه لم يكن قريباً من موقعهم ذاك بحال.. ولم يكن ذلك مدعاة لأي راحة في أنفس أفراد تلك القافلة.. إذ أن موقع ذلك الضوء المتذبذب كان يأتي من الاتجاه ذاته الذي تقع فيه القرية..

ومع ما يشكله ذلك الضوء والصوت المصاحب له من تهديد واضح، كان القلق يتعاظم في نفوس الجميع بشكل لم يتصوّروه قط عندما غادروا القرية صباحاً..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

(الفصل الرابع عشر)
مملكة الضياء : قربان الشمس المجيدة

عمّت الفرحة والحبور أرجاء مملكة الضياء من أقصاها لأقصاها.. ومن أكبر مدنها لأصغر قراها.. جاء الإعلان الملكي بالانتصار على مملكة الغمام والسيطرة على مدنها سيطرة تامة كمفاجأة مذهلة لم يتوقع أغلب أبناء مملكة الضياء تحقيقها في هذا الوقت القصير نسبياً..

ساد الفرح جميع أفراد المملكة دون استثناء.. لم يعبأ أحدهم بمعرفة ما تمت التضحية به في سبيل ذلك النصر.. ولم يهتم أحدهم بكمية الدماء التي أريقت، وبالرجال الذين قتلوا، أو النساء اللواتي اغتصبن وبقرت بطونهن، أو الصبية والأطفال الذين نحروا كالنعاج.. لم يعبأ أحدهم إلا بحلمٍ ونصرٍ بدا لأعينهم مبهراً وهو لا يساوي شروى نقير.. حلم بجعل مملكتهم مملكة عظمى، وجعل رقعة أرضهم أكبر بنهب أراضي الممالك المسالمة والاستيلاء على ما هو حقٌ للآخرين..

أقام كهنة الشمس بعد ذلك الإعلان احتفالاً بالنصر سيدوم أسبوعاً كما تم التخطيط له.. لم يكن أحد الكهنة يخايله شك في فوز مليكهم على أعدائه مع محاباة الشمس له ومباركتها لعمله الجليل.. دارت مواكب الكهنة في طرقات المدينة وانطلق بعضها مغادراً العاصمة عبر الطرقات التي تنبعث منها كأشعة الشمس نحو بقاع المملكة كافة.. ومن كل موكب، تعالت أصوات التسبيحات والأدعية التي يلهج بها الكهنة للملك المبجل سوريم الذي أنعمت عليه الشمس بهبة عظيمة هي النصر والعلوّ والمكانة التي لا تدانيها مكانة في هذا العالم..

كان تطبيل الكهنة لأفعال الملك وتضخيمهم لنجاحاته مقروناً بذكر دور كهنة الشمس ودور معبودتهم في إنجاح مثل ذلك العمل ومباركته.. وبدعوة واضحة للمواطنين لزيادة إيمانهم بمعبودتهم المبجلة، وزيادة تبرعاتهم وصدقاتهم لها بالطبع طلباً للبركة والتوفيق في هذه الحرب..

وفي الاجتماع الذي ضمّ الملك مع مجلس الوزراء ومجلس كهنة الشمس، جلس الملك سوريم في صدر المكان بابتسامة واثقة قائلاً "ما هي آخر أخبار جيشنا يا قيرام؟"

انبرى الوزير الأول قيرام يقول "جيشنا يحقق انتصاراته بسهولة ويسر بالفعل يا مولاي.. لا يكاد يومٌ يمر إلا وعدد من مدن المملكة تسقط بيده وتستسلم له دون قيد أو شرط.. خاصة مع تهاوي دفاعات الجيش المعادي مع غياب قادته والملك وانقطاع التواصل بين مؤسساته.."

ونظر للوح مضيء يملكه مضيفاً "حسب آخر التقارير، سقطت المدن شاما وبيراد في الشمال، وكيبكي وقاسام في الجنوب.. والجناح الأوسط للجيش قد قارب قانار وهمّ بأن يحيط بها إحاطة تامة ليسيطر عليها ويمحو أي مقاومة فيها.."

تساءل سوريم باهتمام "ألم ترِد أي رسائل من الممالك المجاورة بخصوص هذه الحرب؟"

أجاب قيرام "لقد وردتنا رسالة عاجلة بالفعل من ملكة مملكة القمة العالية، تستنكر فيها ما يجري من اعتداء على الجوار ومن كسرٍ للسلام القائم بين ممالك العالم السامي.."

أطلق سوريم ضحكة قصيرة معلقاً "فلتستنكر كما تشاء.. وماذا عن مملكة النبع المقدس؟"

أجاب قيرام "لم يردنا أي شيء منهم.."

ابتسم سوريم ابتسامة راضية معلقاً "هذا متوقع.."

لم يعلق أحدهم على جملته، فيما قال قيرام باهتمام "ما الخطوة التالية يا مولاي؟.. قانار قد سقطت في أيدينا، والملك وعائلته قد قتلوا حتى آخر طفل.. فما التالي؟.."

قال سوريم "إذن يمكننا بالفعل أن نعلن زوال مملكة الغمام من خارطة الممالك السامية.."

انبرى رئيس مجلس الكهنة يقول "مولاي.. بدون ملكهم، وبدون معبدهم الذي يتّبعون تعاليمه، على سكان المدن والقرى المنضمّة حديثاً لمملكة الشمس أن يعلنوا ولاءهم لمعبودتنا الشمس المجيدة.. لا داعي لبقائهم على دينهم السابق.. وأرى أن تهدّ المعابد القديمة وتمسح الألواح المكتوبة من كل ما فيها.. وتستبدل بمعابد للشمس المجيدة.."

قال سوريم "سيحدث هذا.. لكن في البدء علينا أن نعينّ ولاة جدد للمدن الرئيسية والولايات، وأن نعينّ حامية صغيرة في كل مدينة كافية لحماية الأمن فيها ومنع أهلها من الثورة ضدنا.."

واعتدل في مجلسه مضيفاً "ومن الآن فصاعداً، على كل المدن أن تقدم ضريبة سأعيّنها بنفسي للمملكة.. لقد خسرنا الكثير في هذه الحرب.. وعليهم أن يدفعوا تعويضاً مناسباً لما خسرناه.."

تعالت كلمات الاستحسان من المجموعة التي حضرت الاجتماع، وكل منهم موقنٌ أن نصيباً من تلك الأموال التي ستُجنى من المملكة المغلوبة ستصبّ في بطونهم دون تأكيد.. ومن يرفض مالاً مجانياً يصل إليه دون عناء؟..

تساءل أحد الوزراء قائلاً "ماذا عن رجالنا في قانار؟.. لقد أرسل أناري يبلغنا بإتمام المهام الموكلة إليه، وبولائه الدائم لمولاي ولمملكة الشمس.."

قال سوريم " وأنا لن أبخسهم حقوقهم.. سأعينّ أناري والياً لي على قانار.. وسأجازي رجاله خير الجزاء.."

تردد أحد الوزراء قبل أن يتساءل "كيف تضمن خائناً يا مولاي؟.. مهما عمل لإنجاح غزونا وتيسيره، فإنه بالنهاية خان وطنه وشعبه ومليكه.. ما الذي يضمن لنا ألا يخوننا بالقدر ذاته؟"

قال سوريم "لا ضمانات بالطبع.. لكننا لسنا في مرحلة تبيح لنا معاقبة الخونة.. فهذا سيعطي مثالاً سيئاً للآخرين ويمنعهم من التعاون معنا.."

ومال في كرسيه قائلاً بحزم "وكما تعلمون.. نحن ما زلنا في البداية...."

انبرى قيرام قائلاً "المجد والعلياء لمملكة الشمس.. نحن واثقون من نجاح مولاي في كل ما يقوم به.."

ردد الوزراء والكهنة بحماس "المجد والعلياء لمملكة الشمس.. المجد والعلياء لمملكة الشمس.."

اتسعت ابتسامة سوريم الراضية وهو يراقب فرحة وزرائه والحبور على وجوه الكهنة..

ما تزال تلك بداية المخطط الذي يسير سوريم ورجاله عليه..

لكن ما دامت المرحلة الأولى قد تحققت، فالمراحل التالية ستتوالى دون عوائق.. هذا ما هو واثقٌ منه وموقنٌ من تحقيقه..

وما ستمنحه له الشمس المجيدة دون عناء..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

لم يكد الملك سوريم يهنأ بنجاحه السريع وبظفره على مملكة الغمام.. كان قد أمضى اليوم في اجتماع طويل مع

وزرائه وكهنته لتحديد مجريات الأمور واتخاذ الخطوة القادمة بحذر وسرعة قبل أن يحيق بهم الفشل قبل اكتمال النصر بشكل تام.. ورغم تعبه وإنهاكه من هذا اليوم، فإن الملكتين لم تسمحا له بأي راحة وهما تهجمان عليه في خلوته حيث جلس وسط حديقته الغناء يستمتع ببعض النسيم العليل ويستظلّ بظل إحدى الأشجار الأثيرة على قلبه..

لاحظ سوريم اقترابهما منه مع ثلة من الوصيفات، فزفر وهو يدير بصره جانباً متأملاً الشجرة الظليلة التي امتدت لعدة أمتار بكثافة عالية في أوراقها وأفرعها السميكة.. تنحّت الوصيفات جانباً، فيما استمرت الملكة الأم والملكة الكبرى في سيرهما حتى جلستا قريباً من سوريم والملكة الكبرى تقول "مرحى لك يا سوريم.. لقد نجحت فعلاً في تحقيق وعدك لنا وللملك الراحل.. أنت حقاً ابن أبيك.."

فقال سوريم بضجر "ألا يحق لي إذاً الحصول على بعض الراحة بعد كل ذلك العناء؟"

قالت الملكة الأم باستياء "لم تخاطب أمك وجدتك بهذا الأسلوب يا سوريم؟.. يا لك من رجل عاق.."

قال سوريم بابتسامة ساخرة وهو يتناول بعض الفاكهة من سلة قريبة "وما الذي تريدانه بعد كل ما جرى؟.. ألم نعلن انتصارنا على مملكة الغمام؟.. ألم أحقق حلم أبي وأجدادي بسهولة تامة؟.. لا يحق لكما التذمر بعد أن نجحت هذا النجاح الباهر فيما لم يكن يحلم به ملك قبلي قط.."

قالت الملكة الأم بابتسامة مداهنة "ونحن نثق أنك تستحق كل سعادة.. لذا، اسمح لي بأن أهديك هذه الهدية.."

وبإشارة من يدها، اقتربت فتاة من مجلسهم وانحنت لهم بتحية وتواضع.. لاحظ سوريم أن الفتاة بأجمل حلّة وأفضل صورة، أو أن هذا ما حاولت أمه تحقيقه معها قبل إحضارها إليه.. ولم يغب عن ذهنه سبب وجودها هنا، لكنه تظاهر بعدم الاستيعاب وهو يقول "من تكون هذه الفتاة اللطيفة؟"

قالت الأم وهي تمسك كتفي الفتاة المرتبكة بيديها "هذه هي ابنة والي مدينة (باتير).. لا بد أنك رأيتها في أحد الاحتفالات التي أقمناها في القصر.. لقد قطعت هذه الجميلة مسافة طويلة للقائك، ولتكون في خدمتك يا سوريم.."

علق سوريم بنبرة هزء "لم أعهد الولاة يرسلون بناتهم للعمل كخادمات في قصر الملك.."

نظرت الفتاة بحيرة وارتباك للملكة الأم التي قالت بصرامة "أنت تفهم ما أعنيه يا سوريم فلا تتظاهر

بالغباء.."

رمى سوريم الفاكهة من يده جانباً وقال متقدماً من الفتاة "لا بأس.. إن كنتِ مصرّة على ذلك.."

انشرحت أسارير الملكتين وهما تتبادلان النظرات الظافرة، فيما واجه سوريم الفتاة الخجلى التي سارعت للانحناء أمامه هامسة بصوت خفيض "مولاي.. سأكون في خدمتك وسأبقى جوارك لتحقيق كل ما تتمناه وتحلم به حتى آخر لحظة من عمري.."

فقال سوريم دون تأثر بما قالته "اسمعي يا فتاة.. أنت مطرودة من هذا القصر، فلا تتجرئي على الاقتراب منه مرة أخرى.. وستحملين معك أمراً من الملك بطرد الوالي من عمله وخلع جميع الألقاب عنه.."

تراجعت الفتاة خطوة شاهقة، فيما صاحت الملكة الأم مصعوقة "سوريم.. لا تجرؤ....."

قال سوريم بصرامة وحدة "بل الملك سوريم يجرؤ على فعل أكثر من هذا.. لو لم تكن لي كلمة على قصري وأمام الملكتين الموقرتين، فكيف يكون لي كلمة أمام شعبي وولاتي؟"

ونظر للفتاة مضيفاً ببرود "هذا عقابٌ للوالي كي يرتدع عن فرض ابنته على الملك.."

أشار بإصبعه للفتاة لترحل، فسارعت لتركض ودموعها تهطل من عينيها مذهولة لما جرى.. فيما أضاف سوريم وهو يجلس جانباً "هذا سيكون حال كل فتاة تجرؤان على تقديمها إليّ كزوجة أو حتى عشيقة.. ولعلّكما تيأسان الآن أو ترتدعان عن تجاهل أوامري.."

دمدمت الملكة الأم وهي تجلس ببغض "ستندم عندما لا ينفع الندم.... أيها الملك.."

تجاهل سوريم تحذيرها وهو يلحظ ميام التي اقتربت منهم بحلة زاهية زادتها جمالاً.. في الواقع، كان كل ما ترتديه ميام يجعلها تزهو بجمال واضح لا تخطئه الأعين.. ومع اقترابها، ارتسمت ابتسامة راضية على شفتي سوريم، فيما مطّت الملكة الكبرى شفتيها وبدت عقدة واضحة بين حاجبي الملكة الأم.. أسرعت ميام لتحية الثلاثة الذين اقتربت منهم برقة واحترام.. لكن الملكة الكبرى قالت هازئة "أتمنى أن تكفي عن تصنّع تلك الرقة وتقومي بعملك كما تفعل أحقر خادمة في هذا القصر.."

وقفت ميام بدهشة لذلك القول الذي بدا كإساءة لها دون أن تفهم معناه حقاً، ولم تعرف إن كان يجب عليها أن تعتذر أم تتقبل ما يقال لها بصمت.. لكن سوريم نهض واقفاً واقترب من ميام قائلاً "لنذهب يا عزيزتي.. لم أرك هذا اليوم، وأنا بشوق لسماع أحاديثك الممتعة.."

وضع ذراعه على كتفيها وأدارها لتسير معه نحو موقع متطرف من الحديقة، بشكل بدا لعيني المرأتين كإغاظة واضحة لهما ولمشاعرهما الحانقة.. فقالت الملكة الكبرى ساخرة "بئساً لملوك اليوم الذين يخضعون لنسائهم بهذه الصورة.."

وصل قولها لسمع سوريم بوضوح، لكنه لم يعبأ به كما يفعل عادة، وتجاهل نظرات ميام القلقة وهو يجلس معها في جانب من جوانب الحديقة.. عندها قالت الملكة الأم متبرمة "لشدّ ما أنا نادمة الآن على ما جرى لابني الأكبر.. ربما لو رفضنا ما قرره الكهنة، لكانت المملكة تنعم بولي عهد أو أكثر، ولما جلسنا على هذا الجمر الذي يكاد يحرقنا خوفاً من غضب سوريم.."

قالت الملكة الكبرى هازئة "ألم تكوني أنت أول من ناصر قرار الكهنة أولئك؟.. ألم تنبذي ابنك بطرفة عين وتكفكفي دموعك لتشاركي الشعب هتافاته الحماسية بالقربان الجديد؟.. أين ذهب إيمانك في هذه اللحظات؟.."

أسرعت الملكة الأم تقول مبررة "لستُ أعارض قرار الكهنة، ولا اختيار الشمس المجيدة لولي العهد كقربان.. لكن لو أنني تدخلت، وطالبت الملك بإصدار مرسوم يعفي ولي العهد من ذلك المصير.. لكنا أفضل حالاً مما نحن عليه الآن.. أليس كذلك؟"

أطلقت الملكة الكبرى ضحكة هازئة وهي ترمق سوريم الذي جلس في جانب الساحة مع ميام وملامح وجهه تخلو من أي همّ.. وكيف لمثله أن يحمل هماً، وقد سُيرّت حياته وفق ما أراد بتخطيط أبيه المحكم؟.. كيف له أن يحمل هماً وهو الذي رأى كيف سعى أبوه للتضحية بشقيقه الأكبر لينال هو العرش على طبق من ذهب؟..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

قبل اثنتين وعشرين سنة

وقف كبير الكهنة بهامة منكسرة وكتفين محنيين أمام الملك توريك الذي استرخى في عرشه محدقاً بالكاهن بصمت لوقت طال.. ولما تعاظم التوتر في القاعة الكبرى للقصر، وتصبب العرق غزيراً على جبين الكاهن، قال الملك أخيراً "صمتك هذا يدلّني أنك لم توافق على ما قلته لك قبل قليل.."

قال الكاهن بارتباك "مولاي يعلم تمام العلم هوية الطقوس المقدسة التي نقوم بها في معبد الشمس.. اختيار القرابين ليس عشوائياً، ونحن قد حددنا القربان القادم الذي ستتم التضحية به هذه السنة.. لذا....."

لم يعرف الوسيلة المناسبة لرفض طلب الملك صراحة، وخشي من غضب الملك إن تلفظ بهذا الأمر بكلمات واضحة.. لكن الملك قرر إعفاءه من هذا التردد وهو يقول بوضوح "أنت تعني أنك ترفض طلبي دون سبب.. أليس كذلك؟"

بهت الكاهن وهو يمنع نفسه بالكاد من رفع بصره للملك لئلا يواجه عينيه الغاضبتين، وقال بارتباك كبير "مولاي.. الأسباب لهذا الرفض لا تعد ولا تحصى.. نحن نختار قرباناً صحيح الجسد، لنضمن الصحة والرخاء لمملكتنا في السنوات القادمة.. التضحية بصبي عليل الجسد قد يأتي بنتائج عكسية.. والتضحية بابن الملك وولي عهد المملكة.....إنه..... قد يكون إشارة سيئة للمملكة وربما للعالم السامي كله.."

قال الملك ببرود "أنت تسوق الحجج ظاناً أنني قد أصدق ما تقوله وأقتنع به ببساطة.."

هتف الكاهن "ليست مجرد حجج يا مولاي.. إنها الحقيقة.."

ضرب الملك مسند عرشه بقبضته وهدر قائلاً "الحقيقة؟.. أتظنني من العامة الذين تستغفلونهم بكلماتكم المنمقة هذه؟.. أي حقائق هذه التي تستقونها من كتبكم البالية دون أن تتحققوا من صحتها؟.. كل هذا مجرد هراء.. وأنا سمحت به لأنه يخدم مصالحي، وينجح في تسيير العامة بما ينفعني.. لكني لا أسمح لك أو لغيرك من الكهنة استغفالي بهذا الهراء.."

صمت الكاهن مبهوتاً بحيرة كبيرة دون أن يدري كيف يقنع الملك بجدوى ما يقوله.. فيما استطرد الملك ببرود "أنا أحمل هذه المملكة على عاتقي.. ولا يمكنني أن أسمح لها أن تنهار لأي سبب كان.."

ثم نظر للكاهن بحدة مضيفاً "ولن يعجزني الأمر أن أغيّر مجلس الكهنة بالكامل في سبيل تحقيق ما أريده.."

بلع الكاهن ريقه بقلق مع تهديد الملك، ثم تجرأ أخيراً ليقول "لو يسمح لي مولاي، ما الذي يدعوك لتقديم ولي العهد كقربان لمعبودتنا الشمس؟.. هذا أمرٌ لم يحدث قط في تاريخ مملكتنا المجيدة.."

أجاب الملك دون انفعال "هذه المملكة بحاجة لمن يسوقها بيد من حديد.. أتظن أن فتىً ضعيفاً لينّ العريكة يمكن أن يقود هذه المملكة؟.. السبيل الوحيد الذي سيسوقها إليه ولي العهد هو الدمار الشامل.. هذا ما أنا موقن به.."

ثم مال للأمام مضيفاً "أما ابني الثاني.. سوريم.. فهو الشخص المثالي لهذا المنصب.. إنه شديد الشكيمة، وأشبه

ما يكون بي في صباي.. أنا واثق ومطمئن أن المملكة ستكون في أزهى حالاتها في عهده.."

قال الكاهن بتردد "ألن تعترض مولاتي الملكة على هذا الأمر؟"

لاحت الثقة في نبرة الملك وهو يقول "لا.. فهي امرأة مؤمنة ومطيعة لمعبودتنا الشمس ولكهنتها.. لن تعارض الأمر لو قيل إنه ناتج عن اختيار الشمس للأمير دون تدخل مني.."

تنهد الكاهن أخيراً باستسلام، ثم رفع بصره للملك متسائلاً "وكيف نفسرّ للعامة اختيار ولي العهد بالذات كقربان؟"

ابتسم الملك ابتسامة جانبية مجيباً "أخبرهم عن عدل معبودتنا المجيدة.. أخبرهم أن الشمس لا تفرق بين حاكم ومحكوم.. بين غني وفقير.. وأخبرهم أنني رضيت بالتضحية بابني الغالي وولي عهدي كي أشاطر شعبي همومه وتضحياته في سبيل مجد مملكة الضياء.."

واسترخى في كرسيه مضيفاً وابتسامته تتسع "أخبرهم أن الأمير رادال هو فردٌ آخر من أفراد هذا الشعب المجيد قبل أن يكون ولياً للعهد.. وأنه سيقدم حياته في سبيل أمن مملكتنا كما فعل من سبقوه في ذلك.."

واتسعت ابتسامته بثقة ونصر واضح، وكأنه لم يكتب نهاية حياة ابنه الأكبر بكل برود وقسوة قبل قليل..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

في تلك الليلة، وقبل أن يأوي سوريم لجناحه حيث تنتظره ميام بصبر كعادتها رغم انشغاله، انعزل في أحد الغرف التي امتلأت بالأجهزة المختلفة والمتنوعة.. أمر الحارس الذي يلازمه بشكل دائم أن يقف عند باب الغرفة ويمنع دخول أي شخص إليها.. وهناك، جلس سوريم على كرسي قرب أحد الأجهزة، ومد يده يعالج بعض الأزرار ويضبط موجات الجهاز على تردد معين.. وبعد أزيز قصير، وإشارة خضراء تضيء في جانب الجهاز، أتاه صوتٌ هادئ عبر السمّاعة يقول "توقعت اتصالك في يوم أبكر من هذا.."

قال سوريم مقترباً من الجهاز "كان عليك أن تُظهر بعض الممانعة قليلاً ولو ظاهرياً يا رجل.. صمتك هذا سيثير الشبهات.."

قال الصوت متعجباً "رجل؟.."

ابتسم سوريم معلقاً "هل علي أن أقول قداستك؟.. سعادتك؟.. أنت تعلم أنني الملك، ولا يوجد من يفوقني مكانة ليجبرني على الحديث معه باحترام وتقديس.."

قال الصوت "لا.. لم أتوقع ذلك.. ولكن مرحى لك بالفعل.. لقد حققت ما سعيتَ له بسهولة تامة.."

أجاب سوريم "لأن أولئك الحمقى قد وثقوا بمعاهدة شفوية تناقلها الأجداد أكثر من الفعل الذي يرونه بأعينهم.. ولكن لحسن حظي أنني بدأت الآن قبل أن يتغير الوضع.. فمما علمته، كان قائد الجيش لديهم بسبيلٍ لإصدار بعض الأوامر لمواجهة أي اعتداءٍ من جيشنا ورفع الإنذار قرب الحدود.."

علق الصوت قائلاً "أنت تعلم أن هذا النجاح ليس النهاية.. وأنه قد يتقوّض في لحظة تسهو فيها عنه وتعود لنقطة الصفر من جديد.."

قال سوريم بثقة "لا تقلق.. لن أسهو.. ولن أسمح بأن يحطّم أي شخص نصري.. مهما كانت هويته.."

فقال الصوت "كن مستعداً للمرحلة التالية.. والتي لن تكون بالسهولة ذاتها مع الحذر الذي نتج عن هذه الحرب.."

قال سوريم "كيف تكون واثقاً أنني لن أنقلب عليك كما فعلت بالبقية؟.. ألا تخشاني؟"

قال الصوت بهدوء "لا.. لست أخشاك أبداً.. وإلا لما تعاونت معك منذ البدء.."

ثم أضاف "حاول تقليل هذه الاتصالات قدر المستطاع.. يجب أن يبقى موضوع تعاوننا سراً لئلا يثير السخط والاستياء.."

وأنهى الاتصال تاركاً سوريم يسترخي في كرسيه بابتسامة ساخرة.. ثم غمغم "لا بأس.. دعْ هذه الثقة تنفعك عندما تطرق جيوشي أبوابك.."

ونهض بنشاط مغادراً الغرفة بعد أن قام بتغيير الموجة وإغلاق الجهاز..

كان واثقاً من النصر.. وواثقاً من مستقبله الذي يراه أمام عينيه رأي العين..

ولن يقدر أي امرئٍ على عرقلته مهما كانت هويته..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

(الفصل الخامس عشر)
أرض الهوام : بشارة من السماء

لم يكد الصوت المدوّي الذي قطع سكون تلك الليلة يخفت حتى كان أفراد القافلة جميعهم يقفون موجّهين أعينهم نحو الأفق الشمالي حيث تقع قريتهم التي غادروها قبل يوم واحد.. وحيث يمكنهم رؤية ذلك الضوء القوي الذي لم يخبُ بعد في ذات الاتجاه دون أن يعرفوا ماهيته أو يدركوا سببه..

تعاظم قلق أفراد القافلة وهم عاجزون عن معرفة ما قد جرى للقرية في ظل هذا الحدث المريب، ولم يكن قلق رادال وغيدان أقل منهم والأخير يتساءل "ما هذا الضوء؟.. وما كان ذلك الصوت؟.. لا يبدو لي أنه يبعد الكثير عن موقع القرية.."

كانت لرادال شكوكه بخصوص هوية ذلك الصوت والضوء الذي صاحبه، لكنه لم يبُح بشكوكه هذه لئلا يزيد قلق من حوله، بل التفت إلى غيدان قائلاً "عليّ الذهاب ورؤية ما يجري.. سآخذ الشاس وأعود به، وسأوكل لك مهمة إكمال سير القافلة بدءاً من صباح الغد.."

قال غيدان بقلق "ألا يجدر بنا العودة والاطمئنان على القرية؟"

قال رادال بسرعة "لا.. هذا تعطيلٌ كبير لخططنا.. لا تقطع هذه الرحلة، واستمر بها حتى تصل لهدفك.. سأعود فور أن أطمئن على أمور القرية وأطمئنك.."

هز غيدان رأسه موافقاً مرغماً، مدركاً أن عودتهم للقرية الآن لن تكون الخيار الأفضل في هذه المرحلة..

التفت رادال إلى جود التي وقفت جانباً تراقب الأفق بدورها، والتي سارعت تقول فور أن التقت نظراتها به "سأعود معك بالتأكيد.."

لم يعارض رادال هذه المرة.. وخلال لحظات، كانا يحلقان في السماء على ظهر الشاس، وجود تتساءل بقلق "هل خايلك أمر هذا الصوت العالي وذلك الضوء؟.. لا يبدو لي أنه ينتمي لهذا العالم بأي حال.."

قال رادال مقطباً "بلى.. أظنني أعرف ما هو، وإن كانت هويته في هذا المكان وهذا الوقت تذهلني.."

نظرت جود لذلك الاتجاه الذي غمره الضوء قبل بعض الوقت، والذي رغم خفوته ظل يضيء جانباً من

الأفق.. ثم قالت بتوتر "لا بد أن نكون حذرين عند الاقتراب منه.. قد يفزع الشاس ويسقطنا من على ظهره لو تردد الصوت مجدداً ونحن قريبان.."

طمأنها رادال عابساً "لا تقلقي.. أنا مدركٌ لذلك.."

طار بهما الشاس بسرعته الكبيرة دون اعتراض رغم أنه لم يحصل على كفايته من الراحة هذه الليلة.. وقاده رادال نحو القرية التي سرعان ما بدت لهما بأنوارها الخافتة، ليدرك الإثنان على الفور أن الضوء القوي والصوت الذي تكرر مرة أخرى بشكل أوضح صدر من موقع ما خلف القرية، في أقرب موضع من المستنقعات التي تحتل المكان خلفها..

لم يتردد رادال في تجاوز القرية التي استيقظت وخرج أهلها من أكواخهم يستطلعون ما جرى.. لم يكن الموضع الظاهر للضوء أمامهما قريبٌ من القرية، لكن خطورته على سكانها تعتمد على نوعيته وهويته الحقيقية.. ولم يكن ما رآه رادال وجود مريحاً بشكل مطلق..

سمعا صياحاً خلفهما، وبالنظر لجهة الصوت لاحظا بارا الذي اقترب بدوره على الشاس وياسان يرافقه بقلقه الدائم.. كان الصوت العالي قد اجتذبهما بدورهما، ولم يكن لهما ألا يلاحظا وجود رادال في الجو مع ذلك الضوء المبهر الذي أضاء تلك الناحية من المستنقعات..

اقترب بارا منهما متسائلاً بقلق "ما الذي يجري هنا؟.. هل عدتما بسبب هذا الصوت أم أن الأمر مصادفة؟"

قال رادال "بل الصوت العالي قد وصل إلينا بوضوح من موقع معسكرنا البعيد.. وقد أتيت لاستطلاع الأمر خشية أن يكون صادراً عن القرية.."

نظر بارا للموضع الذي نبع منه الصوت العالي، والذي تخلّفت عنه نارٌ كبيرة التهمت جانباً من بعض الأشجار المحيطة بالمستنقع القريب ودخان النار الأسود يرتفع بسرعة عالياً في السماء.. تساءل ياسان بقلق وحيرة "لا يبدو أن هذا مجرد دخان نيران، فالانفجار الذي صاحبه لا يدل إلا على قنبلة أو قذيفة أطلقت نحو ذلك الاتجاه.."

قال بارا باستنكار "هذا محال.. ومن أين لأصحاب هذا العالم شيئاً كهذا؟"

صاحت جود وهي تشير للأعلى "ليس لأصحاب هذا العالم بالتأكيد.. انظروا.."

تتبعوا إشارتها، فرأوا بوضوح ما زادهم صدمة وصمتاً وهم يراقبون ضوءاً أحمر متقطعاً بدا بوضوح من

بين الغيوم الكثيفة التي تلبّست بالسواد في هذه الليلة.. وبعد أن تراقصت الأضواء للحظة وسط الغيوم، انشقت عن جسمين سوداوين يتتابعان في عرض السماء وأنوارهما تبدو واضحة للعيان رغم الظلام.. ولم يكن ذلك مجرد جسمين غريبين، بل كانا طائرتين حديثتين استطاعت جود وياسان تمييزهما بسهولة تامة، وإن لم يجعلهما ذلك أقل دهشة وذهولاً لرؤيتهما في هذا المكان وهذا التوقيت، وفي ارتفاع لا تصل إليه طائرات العالم السامي إلا ما أصيب منها بعطل أو دمار أسقطها لهذه الأرض الدنيا رغماً عن قائدها.. لكن أن تصل إليه طائرة سليمة باختيار قائدها، بل طائرتان اثنتان في توقيت واحد؟.. هذا كان حقاً مدعاة لذهول كل من راقب ذلك الموقف الغريب على هذا العالم..

قال بارا مدهوشاً وهو يراقب طيران الطائرتين المحموم في السماء "يا للسماء.. ما الذي يجري هنا؟"

قال ياسان بشيء من اللهفة "أليست هذه بشارة خير؟.. إنها من طائرات العالم السامي.. يمكننا العودة بمعاونتها.."

قالت جود عابسة "هذا محال.. ألا ترى ما تفعلانه؟"

كان تفاؤل ياسان مجاوزاً للحد بالفعل.. فإحدى الطائرتين كانت تراوغ بضراوة بينما الأخرى تتبعها بإصرار وشدة، ومن الثانية تطايرت بعض الطلقات الضوئية مستهدفة الطائرة الهاربة لكنها تتجاوزها في كل مرة لتهوي نحو جانب بعيد من المستنقعات مثيرة انفجاراً محدوداً وضجيجاً عارماً هز المكان بشكل متتالٍ ومتكرر..

وخوفاً من أن تصيبهم إحدى تلك القذائف المميتة، تراجع بارا ورادال بالشاس حتى هبطا فوق مرتفع صخري يطلّ على تلك المستنقعات ويبعد بهم عن مسرح تلك المطاردة الشرسة مانحاً إياهم فرصة للهرب إن واجههم أي خطر..

دققت جود البصر في الطائرتين اللتين تطيران بسرعة فائقة، فيما قال ياسان بيأس "أما من وسيلة لإيقافهما والا ستنجاد بإحداها؟.. قد تكون هذه فرصة نادرة لا تعوض بالنسبة لنا.. قد نتمكن من العودة للعالم السامي أخيراً.."

اتسعت عينا جود بدهشة في هذه اللحظة وهي تتعرف على شعار جيش مملكة الغمام على الطائرة الهاربة.. أثناء دورانها، ومع إحدى القذائف الضوئية التي مرقت من جانبها دون أن تنجح في إصابتها، تمكنت جود

من رؤية الشعار بوضوح على أحد جوانب تلك الطائرة بلونيه الأصفر والأبيض..

ومع إداركها لأحد أطراف الصراع الدائر بشراسة أمامها، لم تملك جود نفسها أن قالت بتوتر "علينا إنقاذ تلك الطائرة.."

قال ياسان باستغراب "كيف يمكننا ذلك؟.. إنهما في عرض السماء، وتملكان أسلحة لا نقدر على مواجهتها.."

قالت جود بانفعال "إنها طائرة تابعة لجيشنا.. ألا ترى الشعار واضحاً عليها؟.. وتلك الطائرة تحاول إسقاطها بإصرار ودون رحمة.."

نظر لها البقية باهتمام، بينما قال ياسان وقد بدأ يستوعب الأمر "من الذي يلاحق طائرة من جيش مملكتنا بهذا الإصرار؟.. أهم من الغزاة؟"

قالت جود بإلحاح "ليس الوقت مناسباً لتساؤلات لن نحصل على إجاباتها.. علينا أن ننقذ أصحاب تلك الطائرة.."

قال ياسان بضيق وهو يتابع الهجوم الذي استمر بكل ضراوة "وما الذي بيدنا فعله؟.. ما زلنا عديمي الحيلة.."

التفتت جود إلى رادال قائلة برجاء "ألا يمكنك التدخل بأي صورة يا رادال؟"

نظر لها رادال باهتمام وصمت، ثم ارتسمت بسمة على جانبي شفتيه وهو يقول "هذه المرة الأولى التي ترجوني في أمر ما.."

انتاب شيء من الحنق جود لاضطرارها اللجوء له، فقالت بحنق "لا تجعلني أندم على هذا.."

قال رادال وهو يستدير "لن أفعل.."

وقفز على ظهر الشاس القريب منه ممسكاً بلجامه، لكن جود التي فطنت لما طلبته منه للتو، اندفعت نحوه وتشبثت به متسائلة بدهشة "ما الذي تنوي فعله؟"

قال رادال بعجب "تحقيق ما طلبته مني.. أليس كذلك؟"

قالت بتوتر "هذا جنون.. انسَ ما قلته لك، فلن تستطيع تحقيق أي أمرٍ بمغامرتك هذه.."

علا صوت انفجارٍ آخر من جانب بعيد من المستنقعات حيث أطلقت قذيفة ضوئية نحو الطائرة التي

لا زالت تناور باستماتة.. فقال رادال " الوقت يمضي بسرعة.. وعلينا فعل شيء قبل أن نخسر إحدى الطائرتين وتغادر الأخرى دون أن تلتفت لنا أو تعبأ بما نريده.. فما الذي تنصحينني القيام به؟.."

ازداد قلق جود وتوترها وهي تقول "هذا محال..."

قال رادال بحزم "جود.. أنت لا تعينينني في هذا الأمر.."

راقبت جود الطائرتين للحظة، فانتبهت إلى محاولات الطائرة الأولى الالتفاف نحو الطائرة المعادية، وأدركت جود أن قائدها يحاول انتهاز أي فرصة تلوح أمامه لجعل ملاحقيه في مرمى قذائفه ليرديهم بإحدى طلقاته.. عندها قالت "حاول تشتيت الطائرة الثانية.. سيتمكن قائد الطائرة الأولى من إصابتها عندها والتخلص منها بسهولة.."

هز رادال رأسه موافقاً، وقبل أن يلكز الشاس في بطنه قالت جود بسرعة مشيرة لجانب من المستنقعات "استخدم النيران.. ستفيدك حتماً.."

لم يتمهل رادال وهو يرتفع بالشاس بسرعة كبيرة، دون أن يحاول فهم ما ترمي إليه بتلك النصيحة، فيما قال ياسان بغير تصديق "أنت قد دفعته للموت دون تردد يا جود.."

راقبت جود ما يجري وهي تقول بتوتر "أرجو ألا أحمل ذنب موته في عنقي.."

رأت الشاس يحلق بصاحبه بشكل متوازٍ مع المستنقعات، حتى وصل لجانبٍ منها حيث اشتعلت إحدى الأشجار .. وبركلة قوية، تمكن رادال من كسر أحد الأفرع الذي اشتعل طرفه بالنيران كبقية أجزاء الشجرة، ثم التقط الفرع المتهاوي قبل أن يسقط أرضاً وهو يلكز الشاس ليعاود الارتفاع من جديد..

أطلق الشاس زمجرة مستاءة لوجود النيران قريبة من جسده، لكن معرفته الطويلة بصاحبه وطاعته الدائمة له لم تسمح له بالاعتراض وهو يضرب بجناحيه بقوة حتى بدا للناظر إليه كشعلة نيران تنطلق من الأرض نحو السماء.. وهذا بالذات ما بدا لقائد الطائرة المهاجمة الذي رأى النار التي اندلعت من الأرض كمقذوفة نارية تتجه نحوه في اتجاهٍ مائل..

لم يدقق قائد الطائرة في تلك النار، بل وجّه بصره للأرض متفحصاً إياها بأجهزته ظناً أن هناك من يهاجمه بأسلحة قد تكون متطورة.. ولما لاحظ أحد الجند المرافقين له تباطؤه عن ملاحقة الطائرة الأخرى تساءل بدهشة "ما الأمر؟"

قال القائد وهو يتفحص أجهزته "هناك من يحاول مهاجمتنا من الأرض.."

رفع القائد بصره في تلك اللحظة، فرأى تلك النار تندفع نحوه بسرعة لم يتوقعها بعد أن غيرّت اتجاهها كلية بشكل ينافي أي منطق.. ولم يطُل به الأمر إلا وهلة حتى انتبه لذلك الحيوان الطائر الذي يحمل بشرياً على ظهره، والذي طار نحو الطائرة وجهاً لوجه قبل أن يرمي النار نحوها بأقوى ما يملك..

ورغم أن مثل تلك النيران لا تشكل أي تهديد للطائرة، إلا أن قائدها يدرك مدى حساسية أجهزته الحديثة، ولخوفه أن تتعطل المجسّات المتطورة وأجهزة الاستشعار بتلك الحرارة القوية فإنه جذب مقود الطائرة ليرتفع بها في دورة سريعة انقلبت بها الطائرة قبل أن تواجه رادال من جديد منتوياً الخلاص منه بقذيفة ضوئية..

خفّف رادال سرعة الشاس فور أن رأى انقلاب الطائرة، وبنظرة سريعة خلفاً فإنه شدّ قبضته على اللجام وهو يصيح بالشاس "اهبط..."

ضمّ الشاس جناحيه على الفور مائلاً نحو الأسفل ليتسارع سقوطه أرضاً ورادال يتشبث به بقوة، في نفس اللحظة التي التمع فيها ضوءٌ قويٌ من خلفه وقذيفة مفاجئة تشق طريقها عبر السماء المظلمة لتصيب الطائرة المعادية التي لم تكد تستقر في طيرانها بعد انقلابها السريع ذاك..

جاءت الإصابة في جانب الطائرة المعادية بشكل اهتزت له بقوة وهي تدور حول نفسها والنيران تندلع في جانبها، فيما تعالت صيحات رادال الظافرة وهو يعتدل بالشاس في طيرانه ويدور به في السماء مراقباً الوضع، حتى غطى عليها صوت الانفجار القوي الذي تلا ارتطام الطائرة بالأرض.. دام الضجيج للحظات مثيراً توتر من شهد الواقعة من البشر، ومثيراً فزع العديد من الحيوانات التي تستوطن المستنقعات مثل الكيراك الذي تعالى صياحه المزعج.. فيما أضاءت النيران رقعة غير بسيطة من تلك المستنقعات..

علق ياسان على ذلك المنظر بقلق "أليست هذه النيران مقلقة؟.. ما الذي سنفعله لو امتدت عبر الأشجار القريبة وأشعلت حريقاً كبيراً في المنطقة.."

علق بارا قائلاً "لا يمكن أن يحدث ذلك مع هذه المستنقعات الرطبة.. فلا تقلق.."

انتبهوا في تلك اللحظات لتلك الطائرة التي حلقت فوق رؤوسهم بتمايل يوحي بمحاولة قائدها السيطرة

عليها قبل أن تهوي أرضاً.. وبعد لحظات، بدأت الهبوط بشيء من العسر باحثاً عن منطقة آمنة للهبوط.. ورغم تخيرّ القائد لبقعة تبدو من الأشجار التي تنمو عليها أنها قد تتحمل وزن الطائرة ولن تغوص بها أرضاً، إلا أن ذلك لم يجعل هبوطه أكثر أمناً والطائرة تصدر ضجيجاً عالياً لحظة التقائها بالأرض وتزحف لمسافة غير قليلة حتىٰ سقطت جانباً وجناحها الأيسر يغوص في أحد المستنقعات الموزعة في المكان..

أسرع بارا وياسان لامتطاء الشاس واللحاق بالطائرة قبل أن تندلع فيها النيران بسبب سقوطها ذاك، ولإنقاذ من يمكن إنقاذه من قلبها، فيما لاحظت جود أن رادال قد عاد إليها بسرعة دون أن يخفف من طيران الشاس.. ولما مد ذراعه لها لم تتردد في التشبث بها وهو يجذبها ليردفها خلفه بحركة سريعة ويرتفع من جديد دون إبطاء.. تلاحقت أنفاس جود مع ارتفاع الشاس بسرعة وهي تسمع رادال يقول بحماس "أرأيت؟.. لم أخيّب ظنك مطلقاً.. أليس كذلك؟"

لم تملك جود التعليق علىٰ الأمر وهي تتشبث به بقوة خشية السقوط وانفعالها قد جاوز الحد لكل ما جرىٰ.. لقد نجح بالفعل، وتخلص من تلك الطائرة المعادية رغم استحالة ما فعله.. من كان يصدق؟..

لحق رادال بالشاس الآخر نحو الطائرة الناجية، وفور وصولهم لموقع السقوط، أسرع ياسان للطائرة واستخدم إحدىٰ الطرق التي يعرفها أفراد الجيش لفتح بابها باستخدام لوحٍ مخفي يحمل أرقاماً سرية.. لم يبدُ أن تلك الأرقام قد تغيرّت منذ سقوطهم من العالم العالي قبل عدة أيام، لحسن حظهم بكل تأكيد.. وبذا، تمكن ياسان من فتح الباب بسلاسة وهرع لقلب الطائرة بحثاً عن الجنود لإخراجهم قبل أن يتعذر علىٰ أحدهم ذلك..

وفي قلبها، توزع الثلاثة بين غرفها القليلة بحثاً عن أي ركاب، فيما توجه ياسان لغرفة القيادة لمعاونة القائد علىٰ الهرب.. وهناك، لاحظ علىٰ الفور جسد قائد الطائرة الذي سقط علىٰ لوحة التحكم دون حراك، وإن صدر منه أنينٌ خافت وصل لسمع ياسان بوضوح.. هرع ياسان إلىٰ الرجل وعَدَله ليرىٰ ما حل به.. انتبه الرجل لتلك اليد التي أمسكت به، فالتفت ليرىٰ صاحبها لتغمره نفضة قوية عندما رأىٰ وجهاً غريباً يطلّ عليه.. أسرع ياسان يقول مهدئاً "لا تقلق.. لستُ غريباً.. أنا من مملكة الغمام، ومن جنود جيش المملكة بالتحديد.."

قال الرجل بدهشة وهو يتمالك الدوار الذي حلّ به "كيف.....؟"

قال ياسان وهو يتفحصه "ليس الوقت ملائماً للأسئلة.."

كان الرجل يعاني من ضربة محدودة على رأسه تصببت منها الدماء وسالت على وجهه وأذنه اليمنى.. عدا عن ذلك فلم يكن يشكي إلا من بضع رضوض تمنّى ياسان ألا تخفي تحتها أي كسور في عظامه..

بعد أن استعاد الرجل وعيه بالكامل، هبّ واقفاً وصاح بجزع "الأمير....."

وركض خارج غرفة القيادة وياسان يتبعه مدهوشاً.. وفي غرفة قريبة، هرع الرجل إليها ليجد غرباء ثلاثة يقفون قرب كرسي جلس عليه شاب لا يتجاوز العشرين من عمره إلا بسنوات، فاحم الشعر أبيض البشرة وبملاحة واضحة في ملامحه رغم الإنهاك البادي عليه.. وقد تم ربطه بأحزمة الأمان لتبقيه في مكانه دون أن يطرحه اهتزاز الطائرة أرضاً أو يسبب له أي إصابات.. فالشاب كان فاقداً للوعي، وإصابة واضحة كانت تبدو في جانبه من بين الملابس الثمينة التي يرتديها..

هرع الرجل الذي يدعى قاهين إلى الشاب صائحاً بالبقية "ابتعدوا عنه.. إياكم لمسه.."

تراجع رادال وبارا وجود مفسحين الطريق له وجود تقول له بلغة سكان العالم العالي "لا تقلق.. لا ننوي له شراً.."

اطمأن قاهين أن الراكب الوحيد معه في الطائرة بخير، ثم التفت لمن حوله بقلق يتفحص وجوههم.. ولما لمح جود صاح مشيراً لها بإصبعه "أنت... أنت الأرضية!.."

صمت للحظة قبل أن يقول رافعاً حاجبيه "أنت قاتلة قاث.. ما الذي جاء بك هنا؟"

كان هذا الخبر مفاجئاً لرادال وبارا اللذان يسمعان به للمرة الأولى، لكن ياسان أسرع يقول ملاحظاً الضيق على وجه جود "كان ذلك لَبْساً.. جود لم تقتل قاث، بل اتُهمت زوراً بذلك.. وقد سقطنا من العالم العالي بعد الهجوم الذي حدث على قيادة الجيش، ونجونا من ذاك السقوط بأعجوبة.."

تراجع قاهين خطوات متخبطة ليجلس على كرسي آخر، ثم زفر مغمغماً "كل ما يهم أن الأمير بخير.."

أمسك ياسان كتفه متسائلاً بدهشة "أي أميرٍ تعني؟.. من يكون هذا الشاب؟.. ولِمَ لاحقتكم تلك الطائرة بشراسة لإسقاطكم؟"

زفر قاهين مرة أخرى، بينما قال بارا "علينا علاج جرحي الرجلين أولاً.."

لم يتمهل ياسان وهو ينطلق لإحضار حقيبة الطوارئ من جانب الطائرة، والتي تحوي كل ما يمكن

احتياجه لعلاج الجروح الطفيفة والقيام بإسعافات أولية.. بينما سألت جود قاهين "أخبرني يا هذا بما جرى.. ما الذي حلّ بقانار بعد ذلك الهجوم؟.. وما الذي دعاك للهرب نحو الأرض الدنيا بهذه الصورة؟"

ابتسم قاهين ابتسامة مريرة وقال "ما جرى يفوق الوصف وتخونني الكلمات لنقله.. إنه أمرٌ لم يسجّل تاريخنا حدثاً مثله، ولم أتصور يوماً أنه يمكن أن يكون بهذه القسوة.."

ونظر لمن حوله قائلاً بصوت متهدج "لقد سقطت قانار.. بل سقطت مملكة الغمام كلها.."

نظرت له جود مصعوقة، بينما صاح ياسان الذي اقترب لعلاجه "كيف حدث ذلك بهذه السرعة؟.. ومن الذي هاجم مملكة الغمام بهذه الصورة؟.. أهي حقاً مملكة الضياء كما خمّنا؟.."

أجاب قاهين باقتضاب "بلى.. كانت تلك مملكة الضياء بالفعل.."

اتسعت الأعين بدهشة وتلاقت فيما بينها بذهول تام، بينما همس ياسان بارتعاب "يا للسماء.. ما الذي حلّ بأمي وشقيقتي الصغرى؟.."

لم يملك أحدهم إجابة ذلك التساؤل والدهشة ممتزجة بصدمة شديدة تملأ نفوسهم.. في الواقع، لم تكن تلك الدهشة لتكون أقل لو كان المعتدي أي مملكة أخرى من ممالك العالم السامي.. فالرخاء والسلام الذي عاشته تلك الممالك يجعل من العصيّ على الفكر تخيّل حدوث غزو أو حرب بينها لأي سبب من الأسباب..

أضاف قاهين بعد أن أطلق زفرة حارة "فعلنا ما بوسعنا لصدّ الهجوم، ولإنقاذ الملك والعائلة المالكة.. لكن لم تمضِ ساعة على ذلك الهجوم، وقبل أن يمتدّ أثره من قيادة الجيش إلى باقي أحياء العاصمة وإلى قصر الملك بالتبعية، حتى سمعنا أن الملك قد مات.. قتل بالأحرى.."

صاح ياسان "قتل؟.. كيف قتل وهو في قلب القصر؟.."

قالت جود عاقدة حاجبيها "إذن أيعني ذلك أن هناك خائن؟.. هل كان ذلك الخائن هو من سهّل للجيش المعتدي اقتحام قانار؟.."

واتسعت عيناها قبل أن تهمس "وقتل قاث؟.. هل جاء في ذلك التوقيت بالذات لإثارة البلبلة وتسهيل مهمة العدو؟"

قال قاهين "يبدو كذلك.. لقد راود الكثير منا ذلك الشك، لكننا لم نملك الوقت الكافي لإلقاء الشبهات

على أحد.. ذهبت جماعة منا لحماية الملكة وابنها الصغير.. وذهبتُ مع جماعة أخرى لحماية ولي العهد الأمير سابار.."

ونظر جهة الشاب الغائب عن وعيه مضيفاً "لم نكن نعلم بما حلّ بالملكة والأمير الصغير، فجلّ همنا كان تأمين ولي العهد.. وعندما عثرنا عليه، بعد بحث طويل في أرجاء القصر، عثرنا عليه كما هو الآن.. مصابٌ بإصابة بالغة في جانبه.. وفاقدٌ للوعي تحت كومة من الحجارة التي تساقطت على رأسه.. اضطررنا لتخبئته في قبوٍ مهمل تحت القصر حتى نعالج جرحه، وظننّا أن الأمر سيمر بسلام حتى يستعيد ولي العهد وعيه، ويستعيد قوته، ومن ثم ننضمّ إليه لاستعادة القصر وقانار من الغزاة.. لكن جرحه قد تلوث بسبب الموضع الذي رقد فيه رغم رعايتنا له، وبدأ يلتهب بشكل ينذر للخطر.. عندها رأى رفاقنا أن الحل الوحيد هو الهرب بالأمير بإحدى الطائرات بعيداً عن قانار، وربما أبعد من حدود مملكتنا ونحو مملكة (القمة العالية) الأقرب إلينا من الممالك، بغرض اللجوء لملكتها لتحمي ولي العهد حتى يتعافى بشكل كليّ.. لم يكن التسلل لهذه الطائرة هيناً، رغم أنها مهيأة للهرب بسكان القصر عند الطوارئ، لكن أمرنا كشف قبل نجاحنا بالهرب فعلاً، ووجدت أن جميع رفاقي قد انشغلوا بصدّ الخونة عن اللحاق بهذه الطائرة.. ولم يتمكن من الهرب بها إلاي والأمير.. وسرعان ما وجدت عدداً من طائرات الجيش المعادي تعترض طريقنا محاولة إسقاطنا بشتى الطرق.."

وزفر وهو يلقي نظرة على الأمير المصاب مضيفاً "ظننت أن هبوطنا للأرض قد يردعهم عن اللحاق بنا، وبالفعل تمكنت من الهرب منهم بشق الأنفس.. لكن لم نهنأ بهذا الهروب لوقت طويل وهذه الطائرة تلحق بنا، وقد عقد قائدها العزم على إسقاطنا وقتل ولي العهد بأي صورة ممكنة.. لولا معاونتكم لنا لكنّا رماداً تذروه الرياح بالفعل.."

علق ياسان قائلاً وهو يربط جرح قاهين بعد أن أوقف تصبّب الدماء منه "كان حظكم حسناً وسقطت تلك الطائرة قبل أن تتمكن من تفجيركم بقنبلة من قنابلها الضوئية.."

انشغل ياسان بعلاج الأمير بكل ما يملك بمعاونة بارا، فيما أمطر رادال وجود قاهين بالأسئلة عما جرى في العالم السامي في الأسبوع الماضي.. كانت جود تشعر بقلبها يعتصر في صدرها للأخبار التي نقلها إليها قاهين بمرارة واضحة.. قانار قد سقطت.. الملك قد اغتيل.. وأغلب قيادات الجيش قتلوا.. الجيش وأجزاء

كبيرة من المدينة قد تمّ تدميرها وتسويتها بالأرض.. وجحافل حاشدة من الجيوش قد دخلت من الحدود الفاصلة بين المملكتين دون أن تجد رادعاً حقيقياً يردعها.. المدن بدأت تسقط واحدة تلو الأخرى رغم مرور أيامٍ قليلة من بدء العدوان.. ورغم نشوء بعض الثورات من الشعب تناصر فرق الجيش وتحاول طرد المعتدي، لكن كل ذلك جرى بوسيلة متخبطة سهّلت على الجيش المعادي سحقه والقضاء عليه..

لقد انقلب العالم رأساً على عقب.. وما عادت الأحوال في العالم العالي كما كانت عليه سابقاً.. فكيف لهم أن يعودوا ليسقطوا في أتون تلك الحرب التي استيقظت على غفلة منهم؟..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

وقف أيصر قرب باب الغرفة التي ضمّت الأمير سابار فاقد الوعي في الكوخ الخاص برادال، وتساءل بتقطيبة "ما الذي يجري يا رادال؟.. للمرة الأولى نرى هذا الكمّ من البشر يسقطون من العالم العالي نحو أرضنا.. فما الذي يجري هناك؟"

قال رادال "إنها الحرب يا أيصر.. الممالك في العالم العالي قد أشعلت الحرب فيما بينها، وهؤلاء هم ضحايا لما جرى هناك.."

قال أيصر "ألا يشكّل ذلك خطورة علينا؟.. هل ينوي سكان العالم العالي السيطرة على أرضنا؟"

ابتسم رادال قائلاً "لا.. لا أظنهم يطمحون لذلك قط.. ولا أتمنى أن تكون تلك الحرب ذات أي خطورة على هذه الأرض.."

وأضاف بجدية "الآن، علينا ألا نتوانى عن نقل أهل القرية للموضع الجديد بأسرع ما يمكن.. ذلك المكان بعيدٌ عن العالم العالي، وسيشكل لنا حماية كافية من أي معركة قد تنتقل للأرض كما حدث الليلة الماضية.."

نظر أيصر للأمير الغائب عن وعيه، وللرجل الغريب الذي يتحدث مع الغرباء بلغة لا يفهمها، ثم قال مستديراً ليبتعد "سأذهب معك للاطمئنان على الفرقة الأولى التي رحلت من القرية غداً صباحاً.. وبعدها، سأعطي الإذن لرحيل بقية أهل القرية، لنستقر في الموقع الجديد ونبدأ تعميره.."

هز رادال رأسه موافقاً، ونظر للغرفة والحديث الدائر فيها بصمت.. كان قد وعد أيصر ألا يتخلى عن

القرية ويعاون في هذه المرحلة الحساسة من عمرها.. لكنه الآن وجد أن السماء قد أرسلت له وسيلة أكيدة للعودة.. بعد أن فقدوا الأمل، عاد إليهم بقوة ليذكّرهم أنهم لا بد أن يعودوا.. لا بد أن يعود هو لعالمه.. ولا بد أن يستعيد ما هو حقٌ له.. هذه الطائرة التي جاءت على طبق من ذهب تؤكد لرادال أن السماء بجانبه.. أن حياته لن تضيع سدىً.. وأنه هو الأحق بما سُلب منه وهو صبي صغير لا يعي من أمور الدنيا شيئاً..

في وقت لاحق من تلك الليلة، وقبل طلوع الفجر بقليل، عثر رادال على جود جالسة بصمت أمام كوخه وهي تتأمل السماء دون حراك.. لم يكن النوم قد قارب أحدهم مع الأحداث الجارية، لذا لم يكن من الغريب رؤية جود في مثل ذلك الوقت وذلك المكان..

جلس رادال بدوره على إحدى درجات الكوخ الخارجية، وتساءل "ما الأمر؟.. من يراك لا يظن أنك مسرورة لهذه المنحة التي أتتنا من السماء.. أحقاً أنت سعيدة للعودة للعالم العالي؟"

قالت جود بخفوت "ولمن نعود؟.. ذلك العالم قد قُلب رأساً على عقب.. ما عاد هو العالم الذي نظنه.. وما عاد فيه أي شخص ممن أحببناهم وتمنّينا العودة إليهم.."

ثم نظرت لرادال مضيفة "هل تظن أنك الآن، مع هذه الحرب الدائرة بين البلدين، ستعود لتجد الأمور ميسرّة لعيشك هناك؟.. هل تظن أنك ستعثر على أحد من أفراد عائلتك، أو تجد الرخاء الذي ترجوه؟.."

قال رادال بإصرار "لا يهمّني كل ذلك.. ولست عائداً للتمتع بالرخاء والسلام في ذلك العالم.."

قالت جود بشيء من السخرية "نسيت أنك من مملكة الضياء.. فما الذي قد تخشاه ومملكتك تهيمن على غيرها من الممالك وتحابي شعبها بالأمن والسلام دوناً عن الآخرين؟"

قال رادال بتحذير "أنا من مملكة الضياء، لكني لست مشاركاً في تلك الحرب يا جود.. لا تحمّليني ذنب ما جرى لشعبك.."

تنهدت مديرة رأسها جانباً، ثم غمغمت "آسفة.. لقد انسقت خلف مشاعر الغضب التي تجتاحني.."

ثم قالت عابسة بلهجة تشي بالمرارة التي تشعر بها "ما ذنب كل أولئك الذين قتلوا في هذا الهجوم؟.. ما ذنب أولئك الذين اغتيلوا لإنجاح الاعتداء الغاشم دون وجه حق؟.. أكل ذلك لبضع هكتارات لن تغني من جوع؟.. أذلك لتبدو رقعة مملكة الضياء أكبر وأكثر بهاءً في خارطة الممالك؟.. لا أفهم سبب ما جرى

ولا يمكنني ابتلاعه قط.."

علق رادال محدقاً بالسماء بدوره "وهل يحتاج الطمع لتبرير؟.."

زفرت جود مستجمعة مشاعرها المتهاوية منذ عرفت بسقوط مملكة الغمام وتمكّن العدو من كافة أرجائها.. كان الأمر صدمة كبيرة لها، وهي التي ظنت طوال الأيام الماضية أن الجيش قد نجح دون شك في صدّ ذلك العدوان وردّ كيدهم في نحورهم.. والأمر الذي صدمها أكثر كون الأيام التي مضت منذ بدء الهجوم لا تتجاوز خمسة عشر يوماً.. وهي أيام قليلة لتُمحى فيه مملكة كاملة رغم كل عدتها وعتادها.. أكان ذلك لأنها أخذت غيلة؟.. هل لتقاعس قادتها عن تحرّي الوضع الأمني للمملكة صلة بما جرى؟.. هل اغتيال قاث ومن بعده بقية القادة، بالإضافة للملك وعائلته، هي السبب الرئيسي؟.. أم وجود خونة في أماكن مهمة حيث لا يشكك شخصٌ في ولائهم لبلادهم؟..

قالت جود أخيراً بعزم "لا بأس.. لا ينفع تجرع الأحزان وابتلاع غصتي في إحداث أي فارق في حياتي.. فليجرِ ما جرى في العالم السامي.. لن أعلم ما الذي سيحدث لي إلا عندما أصل هناك بالفعل.."

قال رادال رافعاً حاجبيه "هل تفكرين بالعودة لعاصمة مملكة الغمام؟"

قالت بسرعة وحزم "طبعاً.."

هز رادال رأسه باعتراض قائلاً "هذا محال.. ألا تدركين أننا لن نعود لمملكة الغمام مباشرة؟.. أتظنين أن الأمير سيتوجه للموقع الذي ينشط فيه البحث عنه لقتله وتسليم جثمانه لأعدائه؟"

صمتت جود مفكرة بشيء من الضيق وخيبة الأمل بذلك، لكنها استدركت تلك المشاعر بسرعة قبل أن تتفاقم وقالت "لا بأس.. سأذهب معكم لمملكة القمة العالية.. ومن هناك، سنرحل أنا وياسان عائدين لبلادنا.. لا يمكننا أن نقبع صامتين ونحن نرى ما يجري فيها.."

قال رادال بهزء رغماً عنه "وما الذي ستحققينه هناك بمفردك؟"

قالت جود بثقة "لا يهم كوني وحيدة أم لا.. فردٌ واحد يمكنه أن يقلب موازين القوى دون أن يخطر على بال أحد.. المهم أنني لن أتخلى عن بلادي في مثل هذه الأوقات.."

ظل رادال يرمقها بصمت وتفكير، ولما لم تجد منه تعقيباً على ما قالته، نظرت للسماء من جديد مغمغمة "آن الأوان لأن أردّ جزءاً من الجميل الذي حملته لتلك البلاد.. وقد حان وقت سداد الدين بأسرع مما

توقعت.."

ودّت لو تخترق الغيوم ببصرها وتلقي نظرة على المدينة التي غادرتها والتي لا تعرف غيرها في ذلك العالم.. لكن لمَ العجلة؟.. لقد دارت عجلة الحظ، وأصبحوا هم في قلبها.. وليس عليهم إلا أن ينتظروا علامَ سترسو عليه في الأيام القادمة..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

استغرق الأمير سابار عدة أيام ليفيق، وليتعافى من حالته الحرجة تلك.. وخلال تلك الأيام، رفض قاهين تحريكه أو نقله لأي مكان.. وبالطبع رفض رفضاً تاماً العودة به للعالم السامي قبل أن يطمئن على حاله ويتلقى الأوامر منه..

لحسن الحظ، كانت الطائرة التي سقطت بهم للعالم السفلي سليمة إلا من بعض الأعطال البسيطة التي تمكنوا من إصلاحها في يوم واحد.. وبعدها، نقل قاهين الطائرة لأقرب موقع ممكن من القرية بانتظار استيقاظ الأمير، مثيراً بذلك ذعر وتوجس العديد من الأهالي عند رؤيتها..

بعد أن اطمأن أيصر لوصول المجموعة الأولى من القرية لهدفهم الجديد بقيادة غيدان، بعد رحلة دامت يومان كاملان ونصف يوم من السير شبه المتواصل، أعلن أنه ينتوي نقل باقي أفراد القرية بأسرع ما يمكن، على أن يتم نقل كل ما هو ضروري في الوقت الحالي وأن يتم نقل الأمتعة الأثقل والأقل أهمية في وقت لاحق بعد انتهاء الموسم المطير وإنجاز القرية الجديدة بالشكل الملائم..

بدأت حركة دؤوبة تدور في جوانب القرية، وبدأت الأمتعة والقليل من الأثاث يرصّ على العربات التي يملكها بعض القرويين.. ومع تلك الحركة، وقفت هيما فوق المنصة تراقب ما يدور حولها بقلق واضح على ملامحها.. حاولت وأد بعض قلقها في معاونة أهل القرية في أعمالهم، حتى إنها لا تكاد تعود لكوخ التوأمين، المقر الرسمي لجود ورفيقيها منذ قدومهما، إلا بعد حلول الليل بعدة ساعات.. فتعود منهكة لا تكاد تبادل رفيقيها أي حديث، وتلجأ للنوم مباشرة دون عشاء أو بالقليل منه.. وبعد يومين، جذبها ياسان قبل أن تغادر صباحاً، فانتحى بها جانباً خارج الكوخ متسائلاً "ما الأمر يا هيما؟.. تبدين على غير

عادتك.."

فركت هيما كفيها للحظات بتوتر، ثم قالت بارتباك "أشعر ببعض الحيرة والقلق.. لقد أمضيت الليالي أفكر بما هو قادم، وأتخذت قراري بالفعل.. لكني أخشى من رد فعلكم عليه.."

علق ياسان بعجب "ولِمَ؟.."

بدا ارتباك هيما واضحاً أكثر وهي تقول بشيء من العصبية "عدني أنك لن تعارضني ولن تحاول إقناعي بتغيير ذلك القرار.."

تساءل ياسان رافعاً حاجبيه "ما الأمر يا هيما؟.. أفصحي ولا داعي لهذه المناورات.."

تنهدت وهي تقلب بصرها فيما حولها قبل أن تقول بتردد "لا أريد الرحيل معكم.."

نظر لها ياسان بعدم فهم للحظة طالت، فازدادت حركة هيما عصبية وهي تقول "لا أريد العودة.. أريد البقاء في هذا العالم.."

قال ياسان باندهاش "لماذا؟.. ما الذي جرى لتخشي من العودة لعالمنا؟.."

قالت زافرة "لست أخشى العودة.. لكني لا أريد ذلك.. لا أريد مغادرة هذا العالم.. ولا أملك ما أتوق للعودة إليه.."

قال ياسان باعتراض "ماذا عن عائلتك؟.. منصبك ككاهنة؟.. رفاقك من الكاهنات؟.. ألا تعبئين لكل هؤلاء؟.."

أدارت بصرها جانباً معلقة " عائلتي فارقتني منذ كنت في السادسة، منذ انضممت للمعبد.. وطبقاً للقوانين، فإن لقب العائلة يُسلب مني ولا يمكنني الاحتفاظ إلا باسمي فقط.. أنا لا أعرف عائلتي تلك، ولا أملك إلا رؤيا ضبابية عنهم لا تغريني بالعودة.. كما أنني لا أملك من أهتم لأمره بين الكاهنات أو أعبأ لما جرى له، فعلاقتي بهم كانت سيئة.."

تساءل ياسان "ومنصبك؟.."

أجابت هيما ساخرة "أتظن أنني قد أتوق للعودة لمنصب يقيد حريتي ويمنعني من الاختلاط بمن حولي أو حتى تكوين عائلة أحبها وتحبني؟.. منصب يحتم عليّ القيام بطقوس تافهة كل يوم لإرضاء الكاهنات، وإرضاء رجل قضى نحبه منذ مئات السنين؟.. لا أنكر العبادة التي أرساها إينار، لكنها لا تروق لي.. ولا

تناسبني.."

ثم نظرت لياسان مضيفة "أريد البقاء هنا، ورؤية ما يمكن لهذا العالم أن يقدمه لي.."

قال ياسان محتجاً "وما الذي قد يقدمه مثل هذا العالم إلا الشقاء والفوضى؟.."

اندفعت تقول محتجة "هذه نظرتك القاصرة له.. أنت لا تريد أن ترى في هذا العالم إلا ما يروقك.. لا تريد رؤية جماله وهدوئه.. لا تريد أن ترى إلا ما ينفرك به.."

سمعا جود تقول مقتربة منهم "هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها صوت هيما عالياً.. كيف استطعت إغضابها بهذه الصورة يا ياسان؟.."

أدارت هيما وجهها والتوتر يعود إليها مرة أخرى، عالمة أن جود لن تكون أقل اعتراضاً من ياسان.. فيما انبرى ياسان قائلاً "هذه الفتاة لا تريد الرحيل معنا للعالم السامي.."

وكما توقعت هيما، فإن جود قد اندفعت تستنكر الأمر بكل حنق وعدم تصديق.. تبادل الاثنان النصائح ومحاولات ثنيها ان قرارها، فيما ظلت هيما تتجنب النظر إليهما بصمت طال وانعدام صبرٍ واضح.. وأخيراً، عادت بعينيها إليهما وهي تقول "هل ستجبرانني على صعود الطائرة لو رفضت ذلك؟.."

قالت جود بسرعة "بالطبع.."

فقالت هيما متبرمة "وهل تظنين أنك تسدين إليّ جميلاً بهذا التصرف؟.."

أمسكت جود ذراعها قائلة "لو رحلت هذه الطائرة، ستفقدين فرصتك الأخيرة للرحيل يا هيما.. ما الذي ستفعلينه عندها؟.. بل ما الذي تنوين فعله في هذا العالم؟.."

قالت هيما بإصرار "سأعيش.. سأعيش بالقدر الذي تسمح به حياتي، ولن أندم يوماً على قراري هذا.."

قالت جود حانقة "أنت واهمة.."

أدارت هيما وجهها باستياء، فيما أمسك ياسان كتفي جود مهدئاً وقال "يكفي هذا.. لا معنى للصياح بهذه العصبية فهذا لن يقنعها أكثر.."

قالت جود بحدة "إذن أقنعها أنت، وأعد لها عقلها قبل أن أفقد عقلي أنا.."

واستدارت مغادرة بحنق، فيما قالت هيما "ياسان.. لا تحاول إقناعي.. أنا اتخذت هذا القرار بعد ليالٍ طويلة من التفكير.. ولن أغيره لبضع كلماتٍ منك.."

تنهد ياسان متأملاً ملامح هيما التي رغم ارتباكها، إلا أنها بدت حازمة عنيدة بهيئة غريبة عليها.. فربت على كتفها قائلاً "سأرى ما أفعله بشأن جود.. المهم الآن أن تراجعي قرارك للمرة الأخيرة.. ولتعلمي أن أحداً لن يتضرر من هذا القرار سواك.. وليس ذلك مدعاة لأخذ قرارك هذا بأي استهانة بتاتاً.."

هزت هيما رأسها موافقة، وإن كانت في قرارة نفسها تعلم أن ذلك الاختيار ما كان ليتبدل ولو قضت الليالي الطويلة تفكر فيه..

ولن يقدر شخص على إجبارها على تغييره مهما حاولوا ذلك..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

لما بدأت تلك القافلة رحلتها للمرة الأخيرة من القرية، وتعالت الأصوات والضوضاء الصادرة عنها أثناء انتقالهم عبر النهر، وقفت هيما قرب الضفة تتأمل ما يجري وتحدق بالسماء الغائمة فوق رؤوسهم.. لقد آن الأوان لتنفصل عن ذلك العالم الذي لم تعرف غيره قط.. ولم تتوقع يوماً أن تكون سعيدة بذلك.. لطالما ساورتها المخاوف من هذا العالم، وراودتها الهواجس عندما سقطت إليه ورأت حاله البائس.. لكن الآن، فهي ترى جوانب منه لن يراه أو يعرفه سكان العالم السامي.. أو بالأصح، لن يعرفه الكهنة في معابدهم المزخرفة المبهرجة الكئيبة..

لمحت جود تقترب منها، فابتسمت هيما بصمت وقد أدركت من غياب جود في الليلة الماضية وصمتها أنها لم تعُد تعارض قرارها بالشدة السابقة.. والفضل بذلك لياسان الذي لا تدري كيف نجح في إقناعها..

بادرتها جود قائلة دون لمحة غضب "أأنت واثقة أنك لن تندمي؟"

أجابت هيما بابتسامة "هل يندم المرء عندما يعيش الحياة التي تمناها طوال عمره؟.."

قالت جود بضيق "أوهامك هذه ستتحطم على صخرة الواقع بأسرع مما تتوقعين.. هذا العالم لا يعرف إلا الشقاء.. فما الذي يجبرك على البقاء فيه؟"

علقت هيما "وهل كانت حياتك في العالم السامي نعيماً دائماً؟.. ألم تشعري بالشقاء عندما تظاهر سكان قانار ضدك؟.. ألم تشعري بالشقاء عندما كادوا يحرقونك حية؟.. ألم يراودك أي يأس عندما تسمعين تلك

الشتيمة التي تلاحقك ليل نهار وكأنها ذنبك الوحيد في ذاك العالم؟"

قالت جود مقطبة "كيف تعرفين كل هذا؟"

أجابت هيما ببساطة "ياسان قد حدثني عنك بتفصيل بعد رحيلك مع رادال وأهل القرية.."

غمغمت جود بحنق "ذلك البائس.. عليّ أن أعلمه كيف يحفظ لسانه.."

فقالت هيما "جود.. أنا سأبقى.. وسأكون سعيدة بذلك أيما سعادة.. ألن تسعدي لسعادتي مطلقاً؟"

تنهدت جود وهي ترمق عينيها الراجيتين، ثم قالت هازة كتفيها "ولِمَ لا أكون كذلك؟.. أنت من اتخذ القرار وأنت من قد يندم عليه مستقبلاً.."

مدت هيما يدها مصافحة بعينين دامعتين، فصافحتها جود للحظة قبل أن تعانقها بقوة قائلة "أتمنى ألا أكون نذير شؤم عليك.. فمنذ دخلتُ المعبد والتقيت بك، لم يعُد أي شيء في حياتك كما كان.."

ربتت هيما على ظهر جود معلقة بصوت متهدج "بل ربما كان ذلك أفضل ما حدث لي في الواقع.. وأنا لك شاكرة.."

ثم نظرت لجود بتوسّل قائلة "لو رأيت كابو.. ذلك الخادم الذي كان معي في السوق يومها.. فأبلغيه أسفي العميق لكل ما جرى له.. واشكريه لكل ما فعله لي.. وطمئنيه أنني بخير، وسأكون كذلك فلا داعي للقلق عليّ.."

قالت جود بابتسامة "لقد طالت رسالتك أكثر من اللازم.. لا أدري إن كنت سأذكرها كلها في ذلك الوقت أم لا.."

خفضت هيما بصرها قائلة بمرارة "لا أدري إن كنت ستقابلينه أم لا.. بل لا أدري إن كان حيّاً مع ذلك الهجوم على قانار أم....."

قاطعتها جود لتمحو الحزن الظاهر على ملامحها "سيكون بخير.. وسأوصل له رسالتك فلا تقلقي.."

ابتسمت هيما ابتسامة مرتبكة، ثم استدارت إلى ياسان الذي اقترب منهما، وصافحته قائلة "شكراً لك يا ياسان.. أنت رجلٌ طيب حقاً.."

صافحها ياسان بدوره قائلاً "بودّي لو أعيدك عنوة للعالم السامي.. فما تفعلينه هو الجنون بعينه.."

نظرت له بقلق لما قد ينتويه، لكنه ربت على رأسها مضيفاً "لكن لا يمكنني أن أنكر رغبتك المجنونة هذه

مهما كانت.. وأتمنى أن تبقي حية رغم كل المخاطر.."

شكرته هيما بابتسامة متلألئة، ثم استدارت مبتعدة وهي تلوّح بيدها لهم قبل أن تنضمّ لبعض الفتيات القرويات اللواتي صادقتهن في الأيام القليلة الماضية.. فعلقت جود وهي تتأمل ابتسامتها "سأعود يوماً لهذا العالم عندما تستتب الأمور.. لابد أن أحاول ذلك.. وعندها، أتمنى أن تكون تلك الفتاة قد شبعت من هذا العالم وغيرّت رأيها بالفعل.."

قال ياسان زافراً "هذا لو استتبّت الأمور بالفعل.."

لم تستنكر قوله وهي مدركة أنه الأقرب للواقع.. فالاستقرار الذي ترجوه قد يتطلب منهم سنين عديدة وأعماراً طويلة قبل أن يتحقق بالفعل..

ومع رحيل آخر فرد من أهالي القرية، وبدء مسير القافلة في الجهة الثانية من النهر، وقفت جود على الضفة تراقب ما يجري وهي تقول لرادال الذي يمسك لجام الشاس ويراقب عملية الانتقال بدوره "أأنت واثق أننا سنكون بأمان في هذه القرية حتى عودتك؟"

أجاب رادال "أنا واثق من ذلك.. كل ما عليكم أن تحذروا منه هي الأمطار إن هطلت بغزارة.. وعلى العموم، بارا يدرك المخاطر المحتملة التي قد تحيق بكم، ويعرف كيف يتصرف إزاءها.."

ونظر إليها مضيفاً "ولكن لمَ القلق؟.. لديكم الطائرة لتفرّوا بها عن أي خطر.."

ولوّح بإصبعه منذراً قائلاً "لكن إياكم التفكير بالرحيل قبل عودتي إليكم.."

قالت جود "لا تقلق.. أنتَ من أنقذ تلك الطائرة من الدمار، لذا من حقك أن ننتظرك بالتأكيد.."

امتطى رادال ظهر الشاس، ممسكاً بلجام الشاس الخاص بغيدان عازماً على إعادته لصاحبه.. ثم لمح سيرا تقترب منه فتركب خلفه بصمت.. لم يعلق رادال على ما فعلته أو يعارضه، فيما أشاحت سيرا بوجهها عن جود القريبة وهي تتمسك برادال، وسرعان ما انطلق الشاس براكبيه تاركاً جود على الأرض تراقبه حتى اختفى خلف الغابة على ضفة النهر المقابلة..

لاحظت وجود بارا قريباً منها يراقب رحيل سيرا بصمت، فسألته بتعجب "هل قررت سيرا البقاء على هذه الأرض مع القرية؟.. ألن تعود معك للعالم السامي حقاً؟"

هز بارا رأسه نفياً وقال "لا.. لكنها مصرّة على مصاحبة رادال في كل تنقلاته.."

وابتسم بجانب فمه معلقاً "وربما كانت تخشى أن تزيحيها وتحتلي مكانها بغفلة منها.."

نظرت له جود بعدم فهم للحظة، ثم فطنت أنه يعني علاقتها برادال، فهتفت "هذا محال.. لستُ ألا حق رادال كما تفعل هي.. ولا يحتل أي جزءٍ من اهتماماتي إطلاقاً.."

هز بارا كتفيه معلقاً "ومن يهتم؟.."

استدار مبتعداً، لكن جود استوقفته من جديد متسائلة "بارا.. ألا تعرف لأي عائلة ينتمي رادال في مملكة الضياء؟"

نظر إليها بارا باستفهام، فأضافت "لقد خمّنت من حديثه أنه ابن أحد العائلات الثرية أو المعروفة في المملكة، ولكنه لم يفصح عن أكثر مما قاله بالفعل.. ولقد كرر أنه عائدٌ لاستعادة ما هو حق له.. فما الذي عناه بذلك؟"

أجاب بارا بتعجب "لا أدري.. لم يسبق لرادال أن حدّثني عن أي شيء مما يخص حياته سابقاً.. أنا حتى لستُ متأكداً إن كان رادال اسمه الحقيقي أم أنه اسمٌ اتخذه في هذا العالم.. كل ما أخبرني به أنه اختير كقربان للشمس بطلبٍ شخصي من والده.."

غمغمت جود "لقد ذكر لي ذلك أيضاً.. لمَ يواري ما يتعلق بحياته السابقة دون أن يصرّح به؟.. ما الذي يخفيه؟"

علق بارا وهو يبتعد "لم تمضِ خمس دقائق منذ ذكرت أن رادال لا يحتلّ أي جزءٍ من اهتمامك إطلاقاً.."

صاحت جود "لست كذلك بالفعل.."

لكن بارا كان قد ابتعد بالفعل عائداً للقرية التي خَلَت عن بكرة أبيها، تاركاً جود تتما لك ضيقها واستيائها.. هل يظن بارا أنها مهتمة لأمر رادال؟.. وهل ظنت سيرا أنها تلاحقه حباً به؟.. ثم اتسعت عيناها قلقاً.. هل يظن رادال ذلك أيضاً؟..

زفرت وهي تستدير عائدة لكوخ رادال بدورها.. الآن أصبحت عودتهم للعالم السامي أكثر سلاسة ويسراً من السابق.. لذا ليس عليها أن تقلق لبعض الأمور التافهة مثل هواجس سيرا وغيرتها..

✻✻✻✻✻✻✻✻✻✻

بعد يومين قضتهما المجموعة بهدوء في القرية الخاوية، دون أي إزعاج أو قلق إلا لأمر الأمطار التي هطلت بغزارة في إحدى الليالي.. رأى بارا شاس رادال يقترب منهم صباح اليوم الثالث حاملاً صاحبه وسيرا خلفه.. بدا لبارا أن رادال لم يتمهل ولو للحظة بعد وصول القافلة للقرية الجديدة، بل قفل عائداً دون إبطاء لتبدأ المرحلة الأخيرة بعودتهم للعالم السامي.. ولِتنطوي هذه المرحلة من حياتهم وتبدأ مرحلة أخرى لا يعلمون كيف ستنتهي..

فور هبوط الشاس، قفز رادال من على ظهره متسائلاً "هل كل الأمور على ما يرام؟.. كيف هو الأمير؟.."

أجاب بارا "إنه أفضل حالاً الآن مما سبق.. ولم نواجه أي متاعب عدا عن بعض الأمطار التي هطلت بغزارة دون أن تشكل خطراً حقيقياً على القرية.."

علق رادال متأملاً الكثافة غير العادية للغيوم فوقهم "لقد بدأ الموسم المطير بالفعل.. من الجيد أننا تمكنّا من ترحيل القرويين للموقع الجديد قبل أن تتعسر الأجواء أكثر.."

قال بارا "ليس علينا القلق لهذه الأمور بعد الآن.."

نظر له رادال بابتسامة وقال "بالفعل.."

دلف الكوخ للاطمئنان على حال الأمير، فيما أمسك بارا ذراع سيرا التي مرّت قربه قائلاً "ما الأمر؟.. لمَ تبدو هذه التعاسة على وجهك رغم أننا عائدان للوطن؟.."

قالت سيرا ببرود "أخبرتك سابقاً أنني أبغض العودة، لكنكم تجبرونني على ذلك.. فكيف لي أن أظهر سروراً لذلك؟.."

تساءل بارا "ألا تشتاقين لرؤية أبويك؟.. سنعود لمنزلنا.. وسنكون أخيراً في أمان.. ألا يعني لك ذلك شيئاً؟.."

قالت سيرا ساخرة "هل تناسيت انتقامك بهذه السرعة؟.."

لم يجب بارا للحظة.. فهو لم ينسَ وعده بالانتقام من كهنة الشمس، لكنه يحاول تزيين عودتهما للوطن لكي تكف عن هذا البؤس البادي على ملامحها.. وإزاء صمته، غمغمت سيرا "لا تحاول خداعي.. فأنت عنيدٌ بالقدر ذاته كما هي أنا.."

وجذبت ذراعها مضيفة "وليكن في علمك.. سأذهب حيث يذهب رادال.. لذا لا تحاول إقناعي بغير ذلك.."

وغادرت تابعة رادال بخطوات سريعة، فيما وقف بارا واضعاً قبضتيه على خصره وهو يزفر بضيق.. هما توأمان، لكنهما عجزا عن إيجاد لغة تواصل مشتركة للسنوات الاثنتي عشر الماضية.. ويبدو أن الفجوة ستزداد اتساعاً بينهما مع كل وقت يمضي..

وفي الكوخ، لاحظت جود عودة رادال فور دخوله الغرفة التي يرقد فيها الأمير، ورغم بعض الراحة التي شعرت بها لعودته، والتي حاولت وأدها بكل ما تملك، لكنها تجاهلت وجوده كنوع من نفي العلاقة التي قد تجعلها مهتمة به وملاحقة له.. بل فضّلت أن تولي اهتمامها للأمير سابار الذي قال لها ولياسان القريب "لم أكن أظن في يوم من الأيام أنني سأصل للعالم السفلي.. ورغم قراءتي للمعلومات التي نمتلكها في العالم السامي عنه، ورغم شغفي لرؤيته والاطلاع على الحياة فيه، لكني لم أتجرأ للقدوم إليه مع المسؤولية الملقاة على عاتقي كولي للعهد.."

علقت جود "المسؤولية الآن ازدادت مع كونك وريث العرش الوحيد بعد موت الملك.."

قال سابار بحزم " وأنا لن أخشى العودة واستعادة عرشي.. والانتقام ممن اغتال أبي الملك طمعاً في الكرسي.."

ثم أضاف بمرارة "وممّن اغتال أمي، وشقيقي الصغير الذي لم يعرف من الدنيا شيئاً بعد.."

تعاطفت جود معه بشدة مع مرأى المرارة والحزن في عينيه.. ومع إدراكها أنه لا يجد وقتاً للبكاء على من فقد مع المسؤولية المناطة به لاستعادة المملكة وجمعها تحت عرشه من جديد.. فقالت بإشفاق "هل عرفتم من فعل ذلك؟.. لا يمكن أن يكون ذلك من أهل قانار.. لا أظن أحدهم بالقسوة لكي....."

لكن تلك الذكرى البعيدة عن الليلة التي واجهت فيها الموت حرقاً بأيدي سكان قانار قد أعجزتها عن إكمال قولها.. فيما أجاب سابار بغصة في حلقه "بل كان من أهلها، ومن خاصّة الملك لا غير.. كان قائد الحرس الخاص أناري.."

اتسعت عينا ياسان وهتف "كيف تأكدت من ذلك؟.. ربما كان ذلك لَبْساً لا غير.."

هز سابار رأسه نفياً وقال "بل كان هو.. لقد واجهته بنفسي عندما حاول قتلي بعد أن تمكن من قتل الملك

والملكة وأخي الصغير.. ذلك الوغد قد سيطر على القصر، وجلس على عرش أبي بحقارة معلناً الولاء التام لمملكة الضياء.. ويبدو أنه يرجو أن يصبح والي قانار وربما حاكم الولاية كاملة بأمر الملك سوريم.. وقد سلّم المدينة بالفعل فور وصول الجيش المعتدي لأسوار قانار.."

وجد رادال يربت على كتفه بقوة قائلاً "وهل هذا مهم؟.. المهم أنك نجوت منه، وأتيت إلينا وكأنك نجدة مرسلة من السماء.."

نظر سابار باستفهام وتعجب لرادال، لكونه لم يستيقظ إلا بعد رحيل الأخير مع القافلة الأخيرة.. وبالطبع تعجب لمعاملة رادال له بدون الاحترام والتوقير الذي اعتاده.. فقالت جود محاولة إزالة الشبهة بينهما مشيرة لرادال "هذا رادال.. هو من ساعد لإنقاذكم من ملاحقة طائرة العدو.. وعاوننا في إنقاذ حياتك وحياة الجندي الذي رافقك.."

نظر سابار باهتمام لرادال متسائلاً "كيف فعلت ذلك؟.. هل تملكون طائرة أو مدرعة يمكنها إسقاط طائرة محلقة في عرض السماء؟"

قال رادال بابتسامة "بل لدينا أفضل من هذا.."

وأشار لعقله قائلاً "لدينا هذا.. وحيواناً طائراً يدعى الشاس.."

وإزاء نظرات عدم الفهم من سابار، شرح له رادال، بفخر كبير، كيف تمكن من إسقاط الطائرة المعادية بسهولة.. فلم يملك سابار إلا أن يعلق بدهشة قائلاً "هذا أمرٌ مذهل لا أتخيله قط حتى لو رأيته بعينيّ.. والأغرب من ذلك هو تحلّيك بالشجاعة الكافية لمواجهة تلك الطائرة مجرداً من أي حماية.."

فمال رادال نحوه قائلاً "إذن، بعد كل هذا، أنت مدينٌ لنا بحياتك.. وعليك رد الجميل بأبسط صورة قد تتخيلها.."

رغم أن قوله ذاك كان خالياً من أي لباقة، إلا أن الأمير سابار لم يُظهر ضيقاً به وهو يقول "أنا شاكرٌ لك ما فعلته معي، وكرمكم معنا بإيوائنا في هذا المكان.. أخبرتني جود عن رغبتكم بالعودة للعالم السامي، وأنكم قرابين مملكة الضياء الذين نجوا بأعجوبة من الموت بعد سقوطهم لهذا العالم.."

قالت جود "عددنا ليس كبيراً، لذا طائرتك هذه رغم صغر حجمها ستضمّنا وتعود بنا دون مشاكل.."

هز الأمير رأسه موافقاً، فيما تساءل رادال "ألن تأتي طائرة أخرى للبحث عنك والتخلص منك؟.. كما

يبدو، فإن ملاحقوك يعرفون بوجودك في هذه الطائرة لذا تتبعوك بهذا الإصرار للقضاء عليك.."

قال سابار عابساً "هذا من فعل أناري.. ولا أستنكر أن يحاول القضاء عليّ مرة أخرى لو عدنا لمملكة الغمام من جديد.."

علق ياسان "يمكن أن نتمّ رحلتك التي بدأت بها قبل ملاحقة الأعداء لك.. سنذهب لمملكة القمة العالية المجاورة كي تتمكن من اللجوء لملكتها والاحتماء بها حتى ترتّب أوراقك ورجالك وتستعيد مملكتك.."

أسرعت جود تقول "ونحن معك في ذلك بالطبع.. ولا شك أن كل رجاء ونساء مملكة الغمام سيكونون معك أيضاً.."

نظر سابار إلى رادال، فابتسم الأخير معلقاً "لا تقلق بشأني.. أعيدوني للعالم السامي، ومن هناك سأتدبر أموري وحيداً حتى أعود لمملكة الضياء.. فهي هدفي الأول والأخير.."

تنهد سابار وقال "إذن علينا ألا نبطيء في الانطلاق.. فلنرحل غداً صباحاً للعالم السامي.."

تساءل ياسان "أترى أنك بخير الآن؟"

هز سابار رأسه بالإيجاب، وقال بحزم "بخير.. ولن أركن للراحة حتى أستعيد ملك أجدادي.."

صمت الثلاثة بانفعال ومشاعر متباينة.. رغم توحّد رغبتهم العودة للعالم السامي في تلك اللحظات، إلا أن لكل فردٍ منهم هدفاً.. وغاية.. ولكل فردٍ منهم طريق عليه أن يسلكه..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

في ذلك اليوم، الذي ترقّبته جود بلهفة منذ وصلت للعالم السفلي، كان الجو صحواً والشمس تنشر الدفء في أوصال المجموعة الصغيرة في القرية.. رغم أن الغيوم كانت تغطي السماء كعادتها في كل يوم تقريباً، لكن رادال أدرك بخبرته أنهم لن يواجهوا أي عواصف هذا اليوم.. فالغيوم قد ابيضّت نوعاً ما، وبدت بعض أجزاء من السماء الزرقاء بينها، ولم تكن رائحة الهواء مشبعة بالمطر كما يحدث في الموسم المطير عادة..

خرج الأمير سابار من كوخ رادال الذي لازمه في الأيام الماضية، وتأمل القرية الوضيعة التي كان يراها من نافذة غرفته بصمت وتعجب.. ثم تنهد قائلاً "كيف لأي شخص أن يعيش في مثل هذا المكان؟"

قال رادال بابتسامة هازئة "ليس لك أن تقلق عليهم.. لقد عاشوا فيها لمئات السنين، وسيستمر سكان هذا العالم في العيش فيه لقرون قادمة.."

لم يعلق سابار وهو يهبط الدرجات القليلة أمام الكوخ ويتوجه للطائرة التي تم إعدادها في وقت سابق هذا النهار للرحلة.. أما بارا ورادال، فقد انشغلا بوداع حيواني الشاس قبل إطلاقها لتعود للبرية التي جاءت منها.. كانت جود قد عرفت من بارا في وقت سابق أن اصطحاب هذه الحيوانات على ظهر الطائرة محال، نظراً لحجمها، وللذعر الذي قد تصاب به أثناء تحليق الطائرة مما قد يثيرها ويتسبب بإصابتها بجروح أو كسور في ثورتها تلك.. كان تعلق رادال بالشاس يفوق بارا بكثير، نسبة للسنوات الطويلة التي بقيا فيها معاً والتي تجاوزت خمسة عشر عاماً على الأقل..

مسح رادال على رأس الشاس وعنقه، وربت على أنفه بألفة لوقت طويل، فيما مسح الشاس رأسه على ذراع رادال ووضعه على كتفه وكأنه شعر بقرب مفارقة صاحبه.. ولما عجز رادال عن احتمال هذا الوداع أكثر من ذلك، ضرب الشاس ضربة خفيفة على فخذه ليدفعه للطيران.. حلق الشاس بسرعة استجابة للضربة وارتفع فوق مستوى الأكواخ قبل أن يبدأ الدوران فوقها برفقة الآخر.. ظل الحيوانان يدوران باستمرار حول القرية حتى تساءل بارا "كيف ندفعهما للرحيل؟"

أجاب رادال "سيرحلان عندما تحلق الطائرة.. فصوتها كفيل بإفزاعهما.."

تأمل ذلك المنظر الذي قد لا يراه مرة أخرى لما بقي له من العمر، لو تحقق لهم العودة للعالم السامي بالفعل!.. ثم استدار وتوجه بدوره نحو الطائرة التي بدأ البقية في صعودها واحداً تلو الآخر..

ظلت جود واقفة تتأمل الطائرة التي تحمل أملها الأخير في العودة.. وتساءلت كما تفعل كل ليلة ما الذي ستجنيه من العودة بالفعل.. رغم شوقها لذلك، لكن الحال الذي آل إليه العالم السامي يقلقها، ويشعرها بأسىً بالغ لما صارت إليه الأمور في وقت وجيز..

صمتت ملاحظة رادال الذي وقف قربها دون أن يتفوه بكلمة.. ولم يكن لها ألا تلاحظ نظرات سيرا المستاءة من وجودهما معاً.. لكن للعجب لم تظهر سيرا غضبها وثورتها كالمعتاد، بل أشاحت بوجهها وتبعت بارا لقلب الطائرة بصمت.. منذ عودتهم، طرأ على هذه الفتاة تغيرٌ واضح في أسلوب تعاملها مع رادال ومع البقية وبالأخص جود.. صحيح أنها تلا حق رادال كظله كما في السابق، لكنها كفّت عن

الثورات وعن الصراخ العصبي أمام كل ما لا يعجبها.. ورغم أن جود لا تفهم سبب ذلك التغيير، لكنها سعيدة به بالطبع.. فهي ليست مجبرة الآن على تحمّل إهانات سيرا وكلماتها الغاضبة بسبب أو بدونه..

قطعت جود الصمت وهي تقول "رادال.. ربما كان عليّ قول هذا منذ زمن بعيد، لكن لم يفُت الوقت عليه بعد.. أنا بالفعل مدينة لك بالشكر على كل ما قدمته لي.. على إنقاذك حياتي في المرتين السابقتين.. وعلى ما بذلته لنحصل على وسيلة تنقلنا للعالم السامي.."

والتفتت إلى رادال الذي يرمقها بعينين مبتسمتين، فأضافت "شكراً لك.. وشكراً لك أيضاً لأنك حاولت إبعاد الضيق والحزن عني بدعوتي للرحيل مع أفراد القرية ورؤية جوانب أخرى من هذا العالم.. رغم أن ذلك لم يتحقق بشكل كامل.."

لم يعلق رادال وإنما ظل ينظر إليها بعينين مبتسمتين وصمت طال، ولما رفعت جود حاجبيها مظهرة تساؤلاتها عن سبب تحديقه بها، قال أخيراً "أنا مسرورٌ لذلك الحظ الذي ساقك إليّ، وسرّني حقاً التعرف عليك..... يا ابنة التراب.."

نظرت له جود بدهشة لمعرفته بهذا اللقب، ثم تساءلت بضيق "لا تقل لي إن ياسان هو من أخبرك بهذا اللقب؟"

اتسعت ابتسامة رادال في إجابة صريحة، فزفرت جود بضيق لهذا الأمر.. كيف لهذا الشاب أن يثرثر بتلك الأريحية مع كل من يمر به عن كل ما يعرفه؟.. والأسوأ من ذلك، أنها لا تعرف ما الأخبار الأخرى التي وصلت لرادال من فم ذلك الثرثار.. ثم سمعت رادال يضيف "لو كان لقبك السابق هو ابنة التراب، بالنظر لأصلك الذي يراه الآخرون وضيعاً.. فيمكن القول إن أفضل لقب لي هو (ابن الضياء).."

ارتفع حاجبا جود بتعجب معلقة "أتعني لكونك من مملكة الضياء؟.. هذا ليس سبباً كافياً لحصولك على هذا اللقب دوناً عن ملايين البشر ممن يسكنون تلك المملكة.."

اتسعت ابتسامة رادال معلقاً "ربما.. لكني لست مجرد رجل.. ولست مجرد فرد من تلك المملكة كما قد تظنين.."

ومال نحوها هامساً "أنا الأحق بلقب (ابن الضياء) من بين أولئك الملايين.. فأنا ولي العهد السابق.. أنا الملك الذي اغتصب شقيقه حقه في ذاك المُلك، ورماه أبوه الملك السابق من السماء العليا ليتخلص من

ضعفه وهوانه.."

اتسعت عينا جود بدهشة وذهول لكل ما سمعته.. لقد خمّنت من حديث رادال السابق أنه من عائلة ثرية، أو ربما عائلة مهمة في مملكة الضياء.. لكن لم يدر بذهنها قط أن يكون ابن الملك السابق، ووريث عرش تلك المملكة القوية التي لا تدانيها مملكة في قوتها في العالم السامي..

اعتدل رادال في وقوفه وهو يرفع بصره للسماء الغائمة.. ثم قال بابتسامة واثقة "وها أنا أعود لاستعادة ما هو حقٌ لي.. ولأزيح شقيقي من مكاني الحقيقي.. فأنا الملك.. ولن يكون العرش لغيري.."

ولم تجد جود كلمة تعقب بها على ما سمعته، سوى القلق الذي احتشد في صدرها لهذه الأحلام الضخمة التي يحملها رادال على كتفيه..

لو كانت أعينهم معلقة بالسماء في الأيام الماضية، فرادال متشبث بتلك السماء تشبثاً تاماً ويكاد يسقط فيدقّ عنقه..

بدت أحلامه أكبر وأصعب من أحلامهم مجتمعين، وبدا أنه سيوقع نفسه، وقد يسوقهم معه، لهاوية لا قرار لها..

ولو حدث ذلك، فلا تشك جود أن يتم بأسوأ السبل الممكنة على الإطلاق..

❋ نهاية الجزء الأول ❋

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

(الفصل الإضافي)
أرض الهوام: مذكرات هيما غير المكتوبة

جلست هيما على صخرة عريضة واضعة لوحاً خشبياً أمامها وقطعة فحم سنّتها لتصبح مدببة الطرف، ونظرت للأعين الواسعة التي ترمقها بفضول.. كانت قد جمعت عدداً من الصبية والفتيات وأجلستهم أمامها، ورفعت اللوح الذي خطّت بضع أحرف عليه وهي تقول "سأقوم بتعليمكم الكتابة والقراءة.. هذا أمرٌ ضروري يجب أن تتعلموه مادمتم صغاراً وستشكرونني عليه عندما تكبرون.."

اعترض أحد الصبية قائلاً "لكن أبي وأمي لا يعرفان القراءة.."

قالت هيما "هذا ليس سيئاً، لكن لا يعني أنك يجب أن تصبح مثلهما.. عندما تقرأ وتكتب، ستتعلم الكثير من الأشياء وستستفيد منها في حياتك.."

قال صبيٌ آخر "أبي قال إن القراءة غير مفيدة.."

ردت هيما بصبر "ستعرفون فوائدها عندما تتعلمونها أولاً.. لا داعي لهذا الانهزام قبل أن نبدأ.."

وجدت طفلة ترفع يدها بتردد، فقالت هيما بابتسامة "اسألي ما بدا لك يا صغيرتي.."

فقالت الطفلة وهي ترمق اللوح "أهذه الأحرف من لغتنا؟.. أم من لغة العالم السامي؟"

صمتت هيما للحظة، بينما قال أحد الصبية بانفعال "نحن لا نتحدث بلغة ذلك العالم.. فكيف نتعلم القراءة والكتابة بتلك اللغة؟.. هذا هراء.."

انبرى آخر وهو يقفز واقفاً "من يذهب لصيد الأرانب معي؟"

تقافز الفتية واقفين وركضوا يتبعونه دون أن يلتفتوا للوراء، وما لبثت الفتيات أن نهضن وانسحبن بدورهن وهن يلقين نظرة قلقة على هيما.. فزفرت هيما وهي تضع اللوح جانباً وتريح وجهها على قبضتها المضمومة متأملة القرية القريبة.. يبدو أن طريقها هذا سيكون طويلاً..

سمعت ضحكة خافتة من خلفها، ورأت إحدى الفتيات تقترب منها معلقة " أمازلتِ مصرّة على تعليمهم؟.. أخبرتك أن هذا أمرٌ ميؤوسٌ منه.."

قالت هيما بضيق "ولكن....."

فقالت الفتاة "لن يمكنك كبح جماح الأطفال أبداً.. كما أن الصعوبة تكمن في كون تلك اللغة مجهولة لهم تماماً.. أما لغتنا هذه، فلا نعرف لها أسلوباً للكتابة بحيث يمكننا تعلمه.."

تنهدت هيما بضيق وهي تتأمل القرية التي امتدت أمامها على مساحة واسعة في السهول العشبية المنبسطة.. مضت عدة أشهر منذ انتقل القرويون لهذا المكان وبدؤوا تأسيس قريتهم الجديدة فيه.. تمّ بناء الأكواخ بسرعة كبيرة بتضافر أهل القرية معاً في هذا العمل، وبنيت عدة حظائر متفرقة في جوانب القرية، بالإضافة لمنصة تتوسط القرية كما كان في القرية السابقة، وبدؤوا بتجهيز بعض الأراضي المجاورة للزراعة وحرثها تمهيداً لزراعة عدة أنواعٍ من الخضار والفواكه فيها.. وهو عملٌ قد يستغرق عدة أسابيع أو أشهر على الأقل..

كانت هيما في هذا الوقت لا تتوانى عن معاونة القرويين في كل ما يفعلونه.. انضمّت لإحدى العوائل التي رحّبت بها دون مراء، وأصبحت مع ابنة تلك العائلة صديقة مقربة لا تكادان تفترقان طوال النهار، وبمعاونتها تعلمت هيما لغتهم بسرعة كبيرة خلال وقت وجيز.. ورغم ذلك، ظلت علاقتها بالأطفال أكثر قرباً من البقية، وظلت هيما تحلم بأن تغيرّ من واقع الصبية ولو قليلاً في هذا العالم..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

عدة أشهر كانت كل ما حظي به أهل القرية من سكينة وسلام.. مضى بهم الموسم المطير دون مشاكل تذكر، ورغم أن الأمطار هطلت بغزارتها المعتادة، لكن الأرض كانت تتشربها بسرعة ولم تكن تلفظها مكونة بحيرات وفيضانات تجرف ما أمامها كما كان يجري لهم قرب النهر.. الشتاء أيضاً كان قاسياً كالمعتاد، لكن كل ذلك انقضى مع حلول الربيع بنسائمه الباردة والحياة تتبرعم من جديد حولهم..

لكن، انقضى كل ذلك بلمحة واحدة عندما فوجئ الأهالي، في بداية أحد الأيام، بجماعة من الجوالة يقتحمون القرية بخيولهم غريبة الهيئة ويثيرون الغبار في جوانبها وهم يدورون حول المنصة حديثة البناء التي تتوسط الساحة.. تراكضت النسوة حاملات أطفالهن بذعر واضح، فيما هرع الرجال بحثاً عن أي

سلاح يمكن استخدامه.. رماح وسيوف، وما أقلها، وبعض المعاول والمناجل وغيرها من الأدوات الزراعية التي لن تنجح في صدّ الهجوم إلا في النزال المباشر.. بعد دورة سريعة حول المنصة، وذعر شديد قلقل الأهالي وبعثرهم في كل اتجاه، توقفت فرقة الجوالة وسط القرية وهم ينظرون لما حولهم بثقة..

حاول الرجال الإحاطة بتلك الفرقة بتهديد واضح لكل من تسوّل نفسه الإضرار بالقرية، لكن لم يكن ذلك التهديد ليحطّ من ثقة رجال الجوالة مع الأسلحة التي يملكونها والتي تتهاوى أمامها أي أسلحة أخرى.. تقدم أحد رجال الجوالة متلفتاً حوله وصاح "متى قمتم بإنشاء هذه القرية؟.. لم يكن لها أثر في آخر مرة ممرنا من هذا الطريق.."

قال أحد الرجال عابساً "وما سبب سؤالك يا هذا؟.. هل علينا أخذ الإذن منك أو ممن تخدمه قبل إنشاء القرية حيث نشاء.."

أجاب رجل الجوالة بابتسامة ساخرة "نحن لا نعمل في خدمة أحد.. وإجابة سؤالك هي بلى.. عليكم أخذ الإذن منا قبل إنشاء هذه القرية.. فهذه السهول هي حدودنا.. وكل ما فيها يخضع لنا بصورة أو بأخرى.."

صاح رجل آخر من رجال القرية "هراء.. لا يمكنكم السيطرة على كل هذه السهول دون وجه حق.."

رفع رجل الجوالة رمحه الطويل بذراعه العضلية قائلاً بهزء "هذا هو الذي يبيح لنا السيطرة على السهول.. ولا يجرؤ شخص أو قرية على معارضتنا.."

تزايد الغضب في صدور أهل القرية مع الفزع الذي أصيبت به القرية كاملة بسبب هذا الهجوم السافر الذي لم يكن له أي معنى والتهديد الذي تجرأت به تلك الفرقة على قرية مسالمة.. سمع الفريقان صوت أيصر الذي تقدم متسائلاً "وما هو المطلوب منا الآن؟.. لا أظنكم تطلبون منا هدم منازلنا وأخذ الإذن منكم قبل بنائها مرة أخرى.."

اتسعت ابتسامة رجل الجوالة وهو يقول "هذا أفضل بكل تأكيد.. بدل مواجهتنا بهذا التحدي السافر الذي لستم بأهلٍ له، الأفضل لكم الانصياع لما يطلب منكم بصمت.."

ثم تقدم خطوة أخرى بحصانه قائلاً لأيصر "نريد منكم حصة معينة من محاصيلكم كل شهر، وقدراً معيناً من الماشية ومن النقود.. وعليكم تجهيزها قبل قدومنا مع بداية كل شهر جديد.."

وإزاء نظرات الاستنكار من القرية، رفع إصبعه مضيفاً "ولا تقلقوا.. لن تدفعوا هذه الأموال مجاناً..

سنقوم بفرض حمايتنا على القرية ونواحيها.. لن يجرؤ فردٌ واحد على مسّ القرية وأهلها بسوء مادمتم تدفعون الأموال المطلوبة عليكم.. وبذا، يكون كلا الطرفين رابحاً بهذه الصفقة.. أليس كذلك؟"

تبادل رجال القرية نظرات الحنق والقلق الواضحة.. موارد القرية بالكاد تكفي أهلها، خاصة مع انتقالهم القريب الذي استنزف منهم أكثر مما توقعوا قبل أن يتمكنوا من إنتاج محاصيل جديدة.. ولا يملك الأهالي أي أموال تذكر لعدم حاجتهم لها.. فكيف لهم الا ستجابة لهذه الفرقة دون استثارة غضبهم واستجلاب انتقامهم؟.. لكن أيصر لم يتردد للحظة وهو يقول بحزم "للأسف، لا يمكننا قبول هذا العرض.. سيقوم رجال القرية بحمايتها بأنفسهم.. لذا لسنا بحاجة لمن يحمينا.. ولا نملك أموالاً أو زاداً يمكننا اقتسامه مع أحد.. خاصة مع فرقة جوالة مثلكم لابد أن الأموال لا تنقصها من القرى والمناطق الأخرى.."

تعالت بضع ضحكات من رجال الجوالة مع الرفض الذي تلقوه، والذي بدا لهم هزيلاً مع مرأى رجال القرية الذين لا يملكون صدّ رجلٍ واحد منهم.. فكيف بهم صدّ الفرقة كاملة ومنعهم من إحداث الخراب بهذه القرية؟..

وفي جانب آخر من جوانب القرية، وقفت هيما بوجل تراقب ما يجري.. كانت هذه هي الحادثة الأولى التي تحدث منذ انتقالهم لهذا الموقع.. فهل كان هذا معهوداً للأهالي في السابق؟.. أم أنها من سيئات الموقع الجديد؟..

لاحظت، بعد شدّ وجذب وجدال حانق دار بين الجوالة وبين الأهالي، أن أحد الجوالة قد رفع قدمه وركل أقرب الرجال إليه حتى رماه أرضاً، ثم لكز حصانه وانطلق به بين أكواخ القرية والقرويون يتدافعون من أمامه بذعر، فدار دورة بين الأكواخ، وعاد من جهة أخرى حاملاً صبياً أخذ يركل ويصرخ بذعر وفزع محاولاً الإفلات.. تعالت صيحات النسوة من أحد الأكواخ، فيما صاح رجل الجوالة قائلاً "سيبقى هذا الصبي معنا، حتى نعود إليكم بعد يومين فقط.. وإن لم تدفعوا لنا ما طلبناه منكم، فستكفينا النقود التي سنجنيها من بيع هذا الصبي.."

وأشار لرجاله برأسه مضيفاً "وبيع أولئك الصبية أيضاً.."

تدافع بعض الجوالة حيث أشار قائدهم، فيما علا صياح الصبية المختبئين خلف أحد الأكواخ وهم يتراكضون مذعورين محاولين الاختباء.. تصايح الرجال محاولين الوقوف بوجه الجوالة، لكنهم نالوا ما

نالوه من لطم وركل بحوافر الأحصنة، بينما تجاوزهم بعض الجوالة بقفزة عالية بأحصنتهم قبل أن يستمروا بمطاردة الصبية بحماس كبير..

لم تتمكن هيما من البقاء بصمت على ما تراه.. كانت تعشق أطفال القرية، وتموت ذعراً لفكرة أن يصاب أحدهم بأذى.. فركضت معاونة بعض النسوة في تهريب من يصل إليها من الصبية والفتيات وتخبئتهم في الأكواخ القريبة.. ولما رأت صبياً لا يكاد يتجاوز السادسة يركض مذعوراً محاولاً الهرب من الحصان الذي يلاحقه، لم تتردد هيما في الاندفاع نحوه والتقاطه قبل أن ينجح رجل الجوالة في اختطافه.. لكن الخاطف لم يستسلم وهو يقول لها آمراً "ناوليني هذا الصبي.."

تراجعت هيما قائلة بتوتر "محال.."

واستدارت راكضة بالصبي على أمل أن تتمكن من اللجوء لأقرب الأكواخ إليها.. حتى وجدت شيئاً ما يجذبها من ملابسها بعنف وصوتاً ضاحكاً يقول "أتجرؤين على تحدي من هو مثلي؟.."

شهقت هيما بقوة للحركة المفاجئة، لكنها تصرفت بسرعة وهي تفلت الصبي الذي سقط أرضاً وسرعان ما أطلق ساقيه للريح.. حاولت هيما دفع يد الرجل عنها وهي تصيح "أطلقني.. ما الذي تنوي فعله بي؟.."

أجاب الرجل وهو يستدير بحصانه عائداً للبقية "سنرى بشأن ذلك.."

ورماها على ظهر حصانه كجوالٍ، ولم يسمح لها بالإفلات وهو يعود لرفاقه الذي أثاروا بلبلة في جوانب القرية قبل أن يتراجعوا ويغادروها مطلقين الصيحات الشامتة والعالية..

توقف رجال القرية لاهثين بعدما حاولوا مطاردة الجوالة في جوانب القرية، بينما ركض بعض الرجال نحو الحظائر لامتطاء ما يملكونه من أحصنة وملاحقة الخاطفين.. راقبت الجماعة من الرجال التي وقفت عند أطراف القرية ابتعاد الجوالة وصياحهم يصل إليهم ممزوجاً ببكاء النسوة اللواتي فقدن أبنائهن.. ثم رمى أحد الرجال معوله أرضاً وصاح بغضب "تباً لهم.. كيف لهم أن يختطفوا أبناءنا دون رادع؟.."

قال آخر بغضب لأيصر "لو أنك لم تصرّ على رفض طلبهم، لما اختطفوا أبناءنا مهددين ببيعهم.."

قال أيصر بتقطيبة على جبينه "لو تنازلنا هذه المرة، فلن تقل مطالبهم في المرات القادمة حتى نعجز عن تحقيقها.."

قال ثالث بقلق "لكن من أدرانا أنهم سيبقون على حياة الصبية؟.. من أدرانا أنهم لن يبيعوهم بالفعل قبل

عودتهم إلينا.."

ونظر لأيصر هاتفاً بهلع "ماذا لو ابتدؤوا بخطف فتياتنا ونسائنا في المرة القادمة؟.. كيف لنا أن نعيش في هذا المكان بأمان؟.."

قال آخر بحنق وغضب "أين غيدان في مثل هذه الأوقات؟.. لو كان موجوداً، لتمكن من تتبع أولئك الجوالة باستخدام الشاس واستعادة الصبية قبل أن يؤذيهم قطاع الطرق أولئك.."

لم يملك أحدهم أي إجابة.. ما الذي قد يفعله غيدان وحيداً، أو ما الذي قد يفعله أولئك الرجال الذين انطلقوا محاولين اللحاق بالجوالة بفارق زمني كبير؟..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

لا تدري هيما ما الذي عليها فعله أو ما الذي عليها القلق لأجله وهي تجد نفسها مساقة رغماً عنها مع فرقة الجوالة تلك.. اختلط صياح الجوالة وهم يغادرون القرية ببكاء الصبية ولهاث الأحصنة وهي تركض بأسرع ما تملك.. تلفتت هيما حولها بقلق، لترى أن الفرقة قد تمكنت من اختطاف أربعة صبية من القرية، بالإضافة لاختطافها هي معهم.. ما الذي ينوي أولئك الرجال فعله بالصبية؟.. هل سيؤذونهم؟.. هل سيقتلونهم؟.. أم هل سيبيعونهم كما توعدوا أهل القرية؟.. من أين لهم تلك الجرأة التي تبيح لهم فرض شروطهم وطلباتهم على قرية لم يروها قط قبل اليوم؟.. وما الذي سيفعلونه بها مع أولئك الصبية؟.. هل سيكون مصيرها مشابهاً لمصيرهم، أم أنه سيكون أسوأ بمراحل؟..

حاولت هيما عدة مرات أن تحرر نفسها من قبضة ذلك الرجل، ملاحظة نظرات بعض الصبية إليها بذعر وكأنهم ينتظرون منها عوناً أو إنقاذاً من مصير يجهلونه.. لكن من أين لهيما إنقاذ نفسها ناهيك عن مد يد العون لهم؟!..

بعد سيرٍ لا تدري كم طال بهم دون لحظة راحة ودون أن تتحسن معاملة الجوالة لهم، وجدت هيما الرجل الذي اختطفها يدير حصانه مفترقاً عن رفاقه ومتوجهاً نحو شجرة مروا بها في تلك الأرض الشاسعة والمنبسطة انبساطاً كبيراً.. تلفتت هيما حولها بقلق، ثم تساءلت برجفة واضحة "إلى أين ستذهب؟.. لمَ

افترقنا عنهم؟"

أجاب الرجل "لن نتأخر عنهم طويلاً.. لا أظن أحدهم يمانع لو توقفت قليلاً لقضاء الحاجة.."

وغمز لها مضيفاً "ولا بأس ببعض المرح أيضاً.."

وجف قلب هيما بقوة وهي تجده يوقف الحصان فجأة، ثم يترجل عن ظهره ويشدّها أرضاً بغير ترفق قائلاً بتحذير وابتسامة ساخرة "إياك والهرب.. فلو فعلت ذلك، لن أكون أكثر ترفقاً بك مما أنا الآن.."

تراجعت هيما خطوات وجسدها ينتفض بارتعاب لما ينوي الرجل فعله بها.. لمَ افترق عن رفاقه؟.. ولمَ يحاول الاختلاء بها في هذا المكان حيث لا ترى قرية ولا معسكراً ولا حتى بشرياً يمكنها أن تستنجد به؟..

رأته يدير لها ظهره بثقة تامة وهو يربط لجام حصانه في الشجرة لئلا يبتعد بغفلة عنه، ولما استدار إليها من جديد، فوجئ بالفتاة المرتعبة تمسك بيديها حجراً يفوقهما حجماً، وتضربه بأقوى ما تملك على رأسه وهي مغمضة عينيها.. ورغم كل توقعاتها، فإنها وجدت الرجل يتهاوى أرضاً مع تلك الضربة القوية تاركاً هيما تلهث بقوة وانفعال.. همّت بضربه من جديد للخلاص منه بشكل كامل، لكنها تجمدت في موقعها وهي عاجزة عن قتل أي شخص حتى لو كان من الجوالة.. اعترتها رجفة قوية جعلتها ترمي الحجر، ثم اتخذت التصرف الوحيد الذي تملكه قبل أن يستعيد الرجل وعيه وينتقم منها.. اتجهت لحصانه الذي ظل واقفاً بصبر ينتظر عودة صاحبه، ولما مدت يدها للجام وهي متسائلة بحيرة عن كيفية امتطائها لظهره ناهيك عن تسييره، فوجئت بالحصان ينتفض بعصبية وهو يصهل بقوة ويرمي حوافره في الهواء قبل أن يركل الأرض في ثورة موجهة نحوها.. أدركت هيما وهي تتراجع بأنفاس مخطوفة أن الحصان يرفض أن تمتطيه دون صاحبه، واستمرت ثورة الحصان بشكل خشيت معها أن يستيقظ الرجل من غيبوبته.. عندها لم تجد بداً من الاستدارة والرحيل راكضة على قدميها، في اتجاه مخالفٍ لذلك الذي سلكته الفرقة قبل وقت قصير..

لهثت هيما متلفتة حولها بمزيج الانفعال والصدمة.. لقد هربت منهم.. يا للسماء لقد هربت منهم بالفعل.. لكن الأمر السيئ أنها هربت وحيدة، ولازال أولئك الصبية المساكين يواجهون مصيراً لا يعلم أحدٌ مداه..

بعد أن قطعت مسافة طويلة، واختفى الحصان عن ناظريها، وقفت هيما متلفتة حولها بحثاً عن أثر من تلك الفرقة.. هل تتبعهم؟.. وما الذي ستنجح بفعله لو تبعتهم وتمكنت من اللحاق بهم؟.. ألن يختطفوها مجدداً؟..

تلفتت حولها مجدداً بحثاً عن طريق القرية.. ثم اتخذت قرارها وبدأت بالركض نحو الاتجاه الذي تظنه الطريق الصحيح إليها.. ربما لو تمكنت من الوصول للقرية، وإبلاغ القرويين بالاتجاه الذي اتجه إليه الجوالة، قد تنجح في معاونتهم باستعادة الصبية قبل فوات الأوان..

ورغم ما تحاول تهدئة نفسها به من أفكار، فإن دموع هيما قد سالت على خديها وهي مستمرة بسيرها دون توقف.. مع رحيلها، لا بد أن بؤس الصبية قد ازداد وقد ألفَوْا أنفسهم وحيدين وجهاً لوجه مع رجال شرسين كأولئك الجوالة.. هل ظنوا بأنها تعمدت الهرب وحيدة؟.. هل شعروا أنها خانتهم؟.. كيف لها أن تعرف أنهم لم يصبحوا لها كارهين؟..

رغم كل محاولاتها تغيير شخصيتها ولو قليلاً، ها هي هيما تشعر من جديد أنها قد خذلت أشخاصاً عزيزين عليها.. وأنها لا تملك وسيلة للاعتذار مطلقاً..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

لا تدري هيما كم ساعة قضتها راكضة وسط هذه السهول الواسعة.. كانت تركض بأقصى ما تستطيع حتى يتناهبها التعب والألم الشديد في خاصرتها لهذا المجهود، فتستعيض عن الركض بالسير وجرّ خطواتها وهي تلهث بشدة.. وفور أن تعود لها بعض طاقتها، فإنها تعاود الركض متلفتة خلفها خشية أن ترى فرقة الجوالة تلك تبحث عنها.. لا تدري إن كانت في سيرها هذا تبتعد عنهم أم أنها تسير في ذات الطريق.. ولا تدري إن كانت تقترب من القرية أم تبتعد عنها.. ما الذي ستقوله لأهالي القرية عندما تعود وحيدة سليمة ودون بقية الصبية؟.. أي عذرٍ ستسوقه لأمهاتهم لعودتها دون أن تحاول إنقاذهم؟.. تلك أسئلة فضّلت إرجاءها حتى تتمكن من العودة بالفعل، وهو أمرٌ لا يبدو أنه سيتحقق في وقت قريب..

مع انتصاف ذلك النهار، توقفت هيما قرب نبع ماء، أو بالأحرى تهاوت منهكة، وهي تجرع من مائه بلهفة لتطفئ عطشها وجوعها وتخفف إنهاك جسدها بعد كل ذلك المجهود.. لم تكن تملك أي طعام، ولم تملك أي حاوية لحمل بعض الماء معها.. لكنها لم تتوقف طويلاً في ذلك المكان وهي تواصل سيرها بإنهاكٍ أكبر وتجرّ قدميها جراً على الأرض العشبية.. تطاولت ساعات ذلك النهار، وبدأ اليوم يلملم ثوبه ويهمّ

بالرحيل عندما التفتت هيما خلفها كعادتها بحثاً عن أي أثر من مطارديها.. وهناك، عند الأفق، لمحت ذلك الحصان، إن كان بالإمكان إطلاق ذلك المسمى عليه، يقترب منها بخفة وسرعة وحوافره بالكاد تلمس الأرض لسرعته..

انتفضت هيما وهي تلمح أحد الجوالة فوق ظهر ذلك الحصان، فاستدارت بهلع وركضت بكل سرعتها مبتعدة عنه.. تمنّت في سرها ألا يكون قد لمحها، وأن يكون مساره مغايراً بحيث يبتعد ويتركها في سلام.. لكن مع كل لحظة تمضي كان صوت الحوافر يصلها بوضوح وحدة أكبر، مما ينفي تلك الأمنية بشكل تام..

كادت هيما تتعثر عدة مرات، لكنها لم تجرؤ على الالتفات خلفها، واستمرت في ركضها وهي تجد الأرض تنحدر بها جزئياً قبل أن تنكشف عن جدول ماءٍ ضيق المجرى يقطع ذلك المكان.. لم تتوانَ عن تجاوز ذلك الجدول وهي لا تدري كيف ستهرب من ملاحقة ذلك الشخص لها.. ما الذي يبغيه منها؟.. ما الذي سيفعله بها؟.. لكم تزيدها تلك الأفكار بؤساً كلما لاحت لذهنها..

ومع المياه التي تجري وسط مجرى ضيق تناثرت فيه الحجارة، تعثرت خطواتها قبل أن تتجاوزه ووجدت نفسها تسقط في المياه التي بللت أغلب ملابسها.. لهثت هيما بقوة، ثم سحبت نفسها سحباً لتتجاوز الجدول وتصعد الأرض من الجهة الأخرى قبل أن تجرؤ على النظر خلفاً مع الصمت الذي بدا لها لوهلة.. وخلفها، رأت ذلك الحصان يقف في الجهة المقابلة من الجدول في أعلى نقطة من الأرض العشبية وصاحبه يراقبها بصمت.. عندها، تهاوت أرضاً وهي مدركة أن هربها لم يكن ذا فائدة حقاً، وأنها ستلاقي حتفها حتى لو

بذلت جهدها لتفاديه.. عندها، خفضت وجهها وبدأت دموعها تنحدر على خديها لتمتزج بالمياه التي تقاطرت من شعرها وملابسها.. ارتجف كتفاها وهي تبكي بلا صوت، عدا عن نشيجٍ خافت أفلتته رغماً عنها وهي تنتظر اللحظة المحتومة عندما يقبض عليها رجل الجوالة ليفعل بها ما يشاء.. هل سترى نور الشمس في اليوم التالي، أم أنها ستتمنى لو لم ترَه؟.. هل ستموت، أم تتمنى ذلك من كل قلبها؟.. ما المصير الذي يختبئ في ثنايا الساعات القادمة من حياتها؟.. لشدّ ما تتمنى ألا تعرف ذلك.....

سمعت صوت الحوافر التي تقدمت منها متجاوزة الجدول الصغير، وصوت لهاث الحصان إذ اقترب منها ووقف قربها متململاً بعد ركضه الطويل.. فانطوت هيما أكثر على نفسها وهي تهمس لنفسها "لا بأس.. سيقوم بقتلي.. لابد أنه سيفعل ذلك ولن يمسّني.."

أتاها صوت الرجل متسائلاً بغلظة أجفلت لها "أأنت تائهة؟"

انتفضت هيما للحظة، ثم أجابت دون أن تجرؤ على النظر إليه "لا.... بلى.. بلى أنا تائهة ولا أعرف طريق العودة.."

فقال الرجل وهو يتلفت حوله "وما الذي جاء بك لهذه النواحي البعيدة عن أي قرى؟.."

لم تجرؤ هيما على إجابته وهي تختلس النظر إليه.. لاحظت من النظرة الأولى أنه لم يكن من ضمن فرقة الجوالة التي اقتحمت القرية سابقاً، لذا لا يبدو أنه يدرك أن رفاقه قد اختطفوها من قريتها عنوة وجاؤوا بها لهذا المكان المقطوع.. ولا تجرؤ هيما على إخباره بذلك لئلا يعيدها إليهم.. ولما نظر إليها، أدارت وجهها جانباً بارتعاب وهي تقول بصوت مرتجف "افترقت عن رفاقي في طريق عودتنا للقرية.. وأنا أبحث عنهم الآن.."

زفر الرجل باستياء واضح مما حيرّ هيما للحظة، لكنها لم تجرؤ على الحراك من موقعها آملة أن يغادر ويتركها.. وكان هذا أملها الوحيد للنجاة من براثنه.. لكنها سمعته يقول "حسناً.. سآخذك إليهم.."

انتفضت هيما بشدة وهي تهتف "لكني لا أعرف طريقهم.. ولا أريد تعطيلك.. لذا....."

ونهضت بتردد متراجعة خطوتين وهي تقول بارتباك "سأبحث عنهم بنفسي.."

رفع الرجل حاجباً بتعجب وهو يقول "على قدميك؟.. في هذه السهول الشاسعة؟.. وفي الليل؟!.. أنت تمزحين.."

تراجعت خطوات أخرىٰ بتوتر وقد أدركت خطأ اختيارها.. لو أنها أنكرت ضياعها، لربما تركها وشأنها.. أو أن هذا ما ترجوه.. تراجعت خطوة أخرىٰ وهي تقول بتوسل "لا بد أنهم قريبون.. سأبحث عنهم بنفسي..."

رأته يتقدم بحصانه منها وهو يقول "هذا جنون....."

استدارت هيما راكضة بهلع، لكنه لحقها بلكزة قوية علىٰ بطن حصانه، وانحنىٰ يلتقطها ويرفعها علىٰ ظهر الحصان بسهولة تامة.. ركلت ولوّحت قبضتيها محاولة الإفلات وهي تصيح "أنزلني.. ما الذي ستفعله بي؟"

أمسك يديها بقبضته وهو يثبتها في مكانها قائلاً "أحاول إعادتك وإنقاذك من الموت في هذه السهول.. ألا ترغبين بذلك؟"

استجمعت هيما انفعالاتها وهتفت به غاضبة "أتسخر مني؟.. ليس هذا هدفك قطعاً.."

قال الرجل "لن أؤذيك.. صدقيني.."

دفعته بعيداً عنها وهي تصرخ "ومن المفترض أن أصدقك بكل بساطة؟.. اقتلني الآن، فهذا خيرٌ لي مما تنوي فعله بي.."

كمّمها رغماً عنها وهو يقول زافراً "اصمتي أرجوك.. صوتك يصيبني بالصداع.."

تخلصت من قبضته بحنق وهي تنظر له غاضبة، فقال بصبر "لا تقلقي.. لا أنوي لمسك.. ولا قتلك.. ولا بيعك.. ولا أنوي تسليمك لأي رجلٍ آخر.. ولا....."

لاحظ عيناها المرتعبتان مع كلماته تلك، فتنهد وقال "اصمتي ودعينا نواصل سيرنا قبل أن يحلّ الظلام بالفعل.."

أدار حصانه ولكزه بقوة ليدفعه للركض من جديد.. فلم تجد هيما بداً من التشبث بعرف الحصان بقوة ودقات قلبها تتراكض بدورها دون أن تدري ما عليها فعله.. لقد أصبحت في قبضته، وأصبح مصيرها بيده بشكل كامل.. فمن يمكنه أن ينقذها منه في هذه السهول الخالية من أي روح؟..

بعد سير قصير، وجدت الرجل يتلفت حوله متسائلاً "ألا تعرفين أين هم رفاقك حقاً؟"

لم تكن هيما تعرف موقع القرية بالتحديد، لكنها تعرف الاتجاه الذي سار به الجوالة في وقت سابق.. وهي

لن تتخذ الاتجاه نفسه ولو كلفها ذلك حياتها.. فقالت بارتباك "لا أدري، لكنهم كانوا يتجهون للشمال.. أظن لو سلكنا الاتجاه ذاته فسنراهم بعد بعض الوقت.."

لم يمانع الرجل وهو يدير حصانه للجهة التي أشارت إليها ويلكزه ليركض بأسرع ما يملك.. تشبثت هيما بالحصان أكثر وهي تشعر بآلام شديدة جراء حركته التي لم تترفق بها.. لكنها لم تجرؤ قط على الشكوى.. وكل ما كانت تملكه هو النظر خلفاً خشية رؤية فرقة الجوالة تلك تلحق بهما..

كانت الشمس تتسارع نحو مغيبها، بعد أن بدت للحظات من تحت حاجز الغيوم وتلألأت بنورٍ أحمرٍ زهت به السماء لوقت قصير.. ومع اقتراب الشمس من الأفق، كانت سرعة الحصان تتباطأ أكثر فأكثر، ورأسه يدور يميناً ويساراً بارتباك واضح دهشت له هيما.. حتى وجدت الرجل يجذب لجام الحصان ويوقفه بقوة كادت تسقطها من على ظهره.. تسارعت أنفاس هيما وهي تقلب بصرها فيما حولها، فيما ترجل الرجل من على ظهر الحصان وجذبه من اللجام نحو شجرة باسقة قريبة منهما.. ظلت هيما تراقب ما يفعله بقلبٍ واجف، ولما رأته يربط اللجام حول الشجرة ثم يستدير إليها ليعينها على الهبوط، امتنعت من إطاعته وهي تقول بصوت مرتجف "لِمَ توقفت؟.. ألم تقل إن البقاء في هذه السهول خطرٌ ليلاً؟"

قال الرجل بتقطيبة "لستُ أحاول استدراجك، فلا تقلقي.. هذه الأحصنة لا يمكنها أن ترى ليلاً، لذا من المحال أن تطيع صاحبها بعد غروب الشمس مهما كانت الدوافع.."

وأنزلها رغماً عنها قبل أن يستخرج وعاءً للماء من جراب الحصان ويجرع منه بضع جرعات بصوت مسموع.. ثم مدّ يده بالوعاء نحو هيما التي تراجعت خطوة مديرة وجهها وهي تحاول ألا تلاقي عينيه بعينيها.. تخشى مما قد تراه في عينيه، وتخشى أن ترى كذبه وخداعه لها واضحاً فيهما.. لكنها سمعته يقول وهو يستدير مبتعداً "خوفك هذا صار مملاً.."

قالت هيما بحنق مكتوم "أليس هذا طبيعياً؟.. مع ضعفي، وقلة حيلتي حيال شخص مثلك.. ومع وجودي وحيدة هنا دون سندٍ أو عونٍ من أحد.. أليس من الطبيعي أن أرتعب مما قد تفعله بي؟.."

لوح الرجل بيده قائلاً "وها هي السهول أمامك.. يمكنك الرحيل فوراً إن كنتِ لا تأمنينني على نفسك.. لن أوقفك هذه المرة رغماً عنك.."

نظرت له هيما بتردد وعدم تصديق.. هل يطلق سراحها حقاً؟.. تلفتت حولها بتردد، ثم استدارت

وانطلقت بسرعة مبتعدة عنه وعن الحصان بحثاً عن وسيلة للعودة للقرية.. كم تبعد عنها حقاً؟.. كم ساعة، أم كم يوماً ستستغرق للوصول إليها، لو سلّمنا أنها تعرف الطريق الصحيح؟..

بعد مسافة بسيطة، أدركت هيما أن رحيلها مستحيل.. لقد غربت الشمس تماماً، وحلّ الليل المظلم ظلمة تامة مع غياب النجوم وغياب القمر بشكل شبه كامل إلا ما تسلل للأرض من نوره عبر الغيوم الكثيفة.. ترددت هيما أكثر وهي تقلب بصرها فيما حولها.. كيف ستستدل على طريقها في هذا الظلام؟.. لا يمكنها رؤية معالم المكان حولها، إلا تلك النار الوليدة في الموضع الذي هربت منه منذ وقت قصير..

فركت هيما كفيها وهي عاجزة عن اتخاذ القرار، ثم جلست في مكانها على صخرة قريبة بانتظار أن تعتاد عيناها على الظلام.. قد تتمكن عندها من إكمال طريقها دون مخاطر.. خاصة أن الرجل لم يُبدِ أي نية للحاق بها كما قال..

طال بها جلوسها في مكانها دون فائدة، وعيناها لا تكادان تريان إلا تلك النار التي تصل رائحتها لأنفها بقوة مع النسمة الباردة التي حركت الحشائش من حولها.. ما الذي ستفعله الآن وهي عاجزة عن الهرب وعاجزة عن اتخاذ خطوة ملائمة لحماية نفسها من أي خطر؟.. لكن عواءً عالياً تردد في الأفق كفاها همّ التفكير وهي تنهض واقفة بصدمة، ثم تستدير وتعود راكضة للنار القريبة.. لم تعُد هيما تدري ما الذي يجب عليها فعله، وأين يمكنها أن تحصل على الأمان في هذه الأرض الغريبة..

لاقتها عينا الرجل الضاحكتان فور اقترابها، وهو يتساءل بلهجة لا هزء فيها " هل أخافتك الكلاب البرية؟.. هناك الكثير منها في هذه السهول، وقطعانها يتجاوز عدد أفرادها الأربعين كلباً في كل قطيع.."

تهاوت هيما جالسة في الجهة البعيدة منه قرب النار، ودفنت وجهها في ذراعيها بصمت تام.. لم يتفوه الرجل بكلمة أخرى طوال الساعة التالية، عدا عن همهمة غامضة وهو يناولها أرنباً مشوياً من الطرائد التي لاحظتها سابقاً مربوطة في جانب الجراب المعلق على ظهر الحصان.. لكنها لم تتجاوب مع عرضه ذاك، ولم تجد في نفسها القدرة على ابتلاع لقمة واحدة وهي لا تعرف مصيرها في الساعات، والأيام، القادمة.. ولكي تهرب من خوفها ذاك، أغمضت عينيها ونامت جالسة دون أن تجرؤ على الاستلقاء أرضاً.. وكلما أحست بحركة قريبة، انتفضت مفزوعة تتلفت حولها بترقب.. مضت ساعات الليلة وهي على هذه الحالة، وكلما فتحت عينيها، رأت الرجل جالساً قرب النار بصمت، أو يدور دورة واسعة حول المعسكر الصغير هذا

متفحصاً جوانب المكان بتدقيق.. لم تفهم هيما سبب تصرفاته تلك، ولم تتمكن في الآن ذاته من الاستغراق في نومٍ عميق كما تفعل عادة..

وعند أولى بشائر الصباح، استيقظت هيما مفزوعة بعد أن سمعت صوت حوافر الحصان تضرب الأرض بقوة.. لتدرك أنها قد نامت أرضاً بعد أن أعياها الجلوس، ووجدت دثاراً حال لونه وعبق برائحة الحصان يغطيها في نومها.. تلفتت حولها بعدم فهم، لترى الرجل منشغلاً بالحصان الذي تململ في وقوفه وهو يضرب الأرض بحوافره.. عندها أطلقه الرجل وخلّصه من اللجام ليدور الحصان نصف دورة قبل أن ينطلق راكضاً وصهيله يعلو في السهول..

قالت هيما بقلق بالغ "كيف تطلقه؟.. ألن يهرب؟"

قال الرجل بثقة "لا.. وهو يدرك أنني ما أطلقته إلا لأنني وثقت به.."

تساءلت هيما بحيرة "لكنه مجرد حيوان.."

رفع الرجل حاجبيه قائلاً بإباء "مجرد حيوان؟.. بل هو أعقل كائن على وجه هذه الأرض.. أكثر ذكاءً من كثير من البشر لو أردت رأيي.."

صمتت هيما بحيرة وهي تراقب الحصان، وتراقب الثقة البالغة على وجه صاحبه وهو يطفئ النيران بحذائه بعد تلك الليلة الطويلة.. لم تكن ملامح الرجل في نور الشمس ووضوحه أقل إخافة لها مما كان في عتمة المساء السابق.. فملامحه حادة ووجهه قاسٍ، وربما زاده الجرح الذي يقطع جبينه حتى منتصف خده الأيسر من قسوته تلك.. لحيته كثة، وشعره الطويل الأسود كعادة أغلب الجوالة مربوط خلف عنقه.. مربوع الجسد عريض الكتفين وبأطراف لا تتميز بأي رقة أو اعتدال.. لم يكن قبيح الهيئة، لكنه لم يكن وسيماً كذلك.. وربما لو لم يملك ذلك الجرح الغائر في وجهه لبدا أكثر قبولاً للناظر إليه..

انكمشت هيما لرؤيته يقترب منها، حتى وجدته يسحب الدثار منها ويعود للشجرة القريبة قائلاً "الآن، مع بدء النهار، يمكنني أن أنام لبعض الوقت.. لا تثيري فزع الحصان عند عودته رجاءً حتى أستيقظ.."

تساءلت هيما بدهشة "أنت لم تنم طوال الليل.. أليس كذلك؟.. ما السبب؟"

همهم بصوت لا يكاد يسمع "كلاب.. كان هناك الكثير منها.."

وغرق في النوم بعدها حيث جلس مسنداً ظهره للشجرة ومتدثراً بذلك الدثار.. فيما جلست هيما في مكانها

بحيرة شديدة وبعقل تائه.. ما أنسب تصرف تقوم به الآن؟.. هل تنتظر الرجل حتى يستيقظ؟.. هل تحاول الهرب وحيدة قبل استيقاظه؟.. أم هل تسرق حصانه وتحاول العودة به للقرية؟.. لا تريد إثارة غضب الرجل بسرقة الحصان، ولا تظن الحصان قد يطيعها مع الثقة القوية بينه وبين صاحبه.. ورحيلها وسط السهول وحيدة يعني أنها ستواجه الليلة التالية وحيدة فيها.. فكيف لها أن تأمن على نفسها من هجوم الكلاب؟..

تعساً لها.. أصبح وضعها أكثر تعقيداً بحيث احتارت بما عليها فعله وما قد لا تندم عليه في وقت لاحق..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

عندما فتح الرجل عينيه بعد نومٍ طويل، ومع حركة خافتة شعر بها قربه، رأى تلك الفتاة غريبة الأطوار قربه تنحني فوقه محدقة به بانفعال.. والأسوأ كان رؤية سيفه الذي تركه جانباً في يدها والدماء تلون نصله.. لم يشعر الرجل بأي ألم في جسده، لكنه لم يشك في نواياها وهو يدفع يده تلقائياً ويقبض على عنقها قبل أن يستوعب ما يراه فعلاً..

أسقطت هيما السيف من يدها وهي تحاول التخلص من قبضته صائحة بصوت متحشرج "مهلاً.. ثعبان....."

انتبه لما تقوله.. فنظر حوله ليرى ذلك الثعبان الصريع قريباً منه والذي انفصل رأسه عن جسده وأغرق الأرض العشبية بدمائه.. فأطلق الرجل هيما بدهشة، وسارعت هي للابتعاد بأنفاس متلاحقة، قبل أن تقول "رأيت ذلك الثعبان يقترب منك، فقتلته قبل أن يقوم بلدغك لدغة مميتة.."

حك الرجل رأسه بدهشة، ثم قال "يبدو أنك أنقذت حياتي.. لكن كيف تمكنت من قتل الثعبان؟.. ألم تفزعي منه؟"

أجابت هيما وهي تفرك عنقها "لا.. في الحقول القريبة من القرية نضطر لقتل عدد من الثعابين بشكل يومي لئلا تغافل أحدنا وتلدغه أثناء قيامه بعمله.. لذا أصبحت معتادة على هذا العمل.."

نهض الرجل ورمى جسد الثعبان بعيداً، ثم نظر لهيما قائلاً بابتسامة "عندما رأيتك والسيف في يدك، كنت

موقناً أنك تهدفين لنحري بالتأكيد.."

أدارت هيما وجهها جانباً قائلة "ما كنت لأفعل ذلك لبشري مهما كانت هويته.."

ربت الرجل على كتفها بقوة قائلاً "هذا رائع.. الآن يمكنك أن تطمئني أنني لن أسبب لك أي أذى.. فلا يمكن أن أؤذي من أنقذت حياتي.. وسأبقى مديناً لك بذلك.."

تجاوزت آلام كتفها بسبب تربيته القوي، ونظرت له باهتمام وهو يضيف "سنتناول إفطاراً سريعاً، ثم نكمل طريقنا دون إبطاء.. لا أريد أن نبقى وسط هذه السهول لليلة أخرى.."

واقترب من حصانه الذي وقف جانباً بصبر بانتظار صاحبه، فمسح على عنقه بألفة وربت على أنفه.. حتى وجد هيما تقف أمامه بانفعال قائلة "أأنت حقاً مدينٌ لي؟.. وهل ستوفي بدينك لي بأي صورة؟"

أجاب الرجل بحيرة "أجل، هذا ما سنفعله اليوم.. فلن أتخلى عنك حتى أعيدك لرفاقك.."

هزت هيما رأسها نفياً، وقالت "كنت أكذب.. لقد تم اختطافي من إحدى القرى الواقعة في جانب هذه السهول.."

لم يتعجب الرجل لكذبها، بل قال "لا بأس.. سآخذك إليها إن كنت واثقة من موقعها.."

واستدار مبتعداً، لكن هيما تشبثت بمعطفه قائلة "ليس هذا ما أريده الآن.. لكني أريد أن أطلب منك طلباً آخر، وأرجو ألا تخذلني فيه.."

نظر لها الرجل بدهشة، فقالت "عدني أنك ستطيعني فيما أطلبه منك.. ولن تحاول خيانتي.."

فقال الرجل "حسناً.. يمكنني أن أعدك بذلك حالياً.."

زفرت هيما بتوتر وهي تفرك كفيها، ثم قالت دون أن تلاقي عينيه "في الواقع، هجمت فرقة جوالة على قريتنا، وحاولت دفع الأهالي للتنازل عن بعض محاصيلهم مقابل السماح لهم بالاستقرار في تلك المنطقة.. وإزاء رفض القرية، اختطفت الفرقة بعض الصبية، واختطفوني معهم، بهدف بيعهم وتحصيل بعض الأموال منهم، ونكاية في القرية التي رفضت طلبهم.."

لم يعلق الرجل بكلمة وهميا تضيف بتوتر أكبر "هربت من أولئك الجوالة بشق الأنفس، ولم أتمكن من العودة للقرية وحيدة أو إنقاذ أولئك الصبية حتى عثرت عليّ.."

وتجرأت للنظر في وجه الرجل لتراه يستمع إليها بصمت، عندها تشجعت لتقول "أريدك أن تعينني على

استعادة الصبية.. من المؤسي أن يتحمل الصبية ذنباً لم يرتكبوه، ومن المحزن رؤية ما حلّ بأمهاتهم من جزع وذعر لما جرى.. لذا.. أرجوك، أعد أولئك الصبية لي بأي وسيلة كانت.."

رفع الرجل حاجبيه مغمغماً "ما تطلبينه ليس بالأمر السهل.."

قالت هيما بتوسل "ألست منهم؟.. لابد أنك تعرف أين يذهبون وما الذي يفعلونه بالصبية.. ألا يمكنك مساعدتي على إنقاذهم بأي صورة قبل أن نفقدهم؟"

أشار الرجل بإصبعه قائلاً "أولاً، كنتُ منهم.. انفصلت عنهم منذ عدد من السنين، وآثار الانفصال ذاك ماثلة على وجهي كما ترين.."

أدركت هيما أنه يتحدث عن الجرح البارز في وجهه، فيما أضاف "ثانياً.. معاونتك؟.. هل تقدرين على إنقاذهم كي أعاونك على ذلك؟.. أليس طلبك الحقيقي أن أقوم أنا بإنقاذهم بينما تكتفين أنت بالفرجة؟"

قالت هيما بشيء من الحنق "أتهزأ بي؟.. هل تنوي رد الجميل أم لا؟"

ابتسم الرجل مجيباً "يمكنني أن أرده بصور متعددة.. يمكنني أن أرميك وسط قطيع من الكلاب ثم أنقذك من براثنهم.. بهذا أكون قد أنقذت حياتك وما عدتُ مديناً لك بشيء.."

تلفتت هيما حولها بحيرة، ثم سألته برجاء "ألا تستطيع أن تدلني على موقعهم على الأقل؟.. ربما أتمكن....."

قاطعها الرجل مضيفاً "هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها فتاة تعود لمختطفيها طائعة.. أهذه الدرجة أعجبك البقاء معهم؟.."

ازداد حنقها مع ردوده الهازئة متجاهلاً أمر الصبية الذين لا تعلم هيما حتى الآن ما الذي جرى لهم.. فاستدارت وابتعدت عن الرجل والحصان بخطوات متسارعة وهي تدمدم لنفسها "سأفعل ذلك بنفسي.. من قال إنني بحاجة إليه؟"

لم يبدُ لها أن الرجل ينوي اللحاق بها، وهذا ساءها أكثر مما أراحها.. ما الذي كانت تتوقعه؟.. ربما ارتاح من همها ومن اضطراره إيصالها لقريتها رغم بعد المسافة.. لكن هيما لم تتراجع

وهي تسلك طريقها في السهول رغم أنها لا تعرف الاتجاه الصحيح.. لم تكن هناك أي علامات تدلها على الاتجاه الصحيح، ولم يكن هناك أي شخص يمكنها أن تستنجد به وتطلب عونه في هذا الأمر.. طال سيرها عدة دقائق دون أن تلتفت خلفها، حتى سمعت صوت الحوافر وهي تقترب منها راكضة.. نظرت خلفاً لترى الرجل يقترب منها على ظهر حصانه، فركضت هيما تلقائياً وهي لا تدري السبب الذي لأجله يلاحقها.. هل هو غاضب من تجرؤها عليه وينوي عقابها؟..

كان من المحال عليها هزيمة الحصان بالطبع، لذا بعد لحظات وجدت يد الرجل تمسك بها وترفعها عالياً والحصان مستمر في ركضه.. آلمها جسدها لجذبه العنيف لها بتلك الصورة، فقالت بحنق "أنت تستمتع بفعل ذلك.."

قال الرجل ضاحكاً "ربما...."

لم يهدأ غضبها وهي تحدجه بنظراتها الحانقة، فقال بابتسامة "لا داعي لكل هذا الغضب.. لا يمكنني تركك ترحلين وحيدة في هذه السهول.. لستُ ناكراً للجميل بهذه الصورة.."

فقالت بلهجة قاطعة " خذني لموقع أولئك الصبية، أو اتركني لمصيري.. عليك أن تختار أحد هذين الخيارين.."

غمغم الرجل "يبدو أنك عنيدة فوق ما تصورت.."

وأدار حصانه متخذاً طريقاً آخر وهيما تقلب بصرها بين السهول وبين وجهه بصمت، ثم تساءلت بتردد "هل ستأخذني إليهم؟"

هز رأسه مجيباً بالإيجاب، فأضافت بلهفة "وهل ستنقذ الصبية؟"

قال بتعجب " وهل أملك غير ذلك؟.. لا أظنك تقدرين على تحقيق شيء بمفردك.. بل إنني أرجو ألا تقومي بأي فعل يجذب لك الأنظار حتى أنتهي من استعادة الصبية.. صمتك هو كل ما أطلبه في تلك اللحظات.."

لم تعارض هيما عالمة أنها بالفعل لا تقدر على فعل شيء.. كل ما يهمها أن تعود بالصبية للقرية.. لا شيء آخر يدور في عقلها في تلك الأوقات..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

مضى نصف النهار ورجل الجوالة يقطع السهول بسرعة حصانه الكبيرة دون توقف تقريباً.. تعجبت هيما من استماتته في هذا الطريق دون تعب، وتعجبت أكثر من صمته رغم مرور الساعات عليهما على ظهر الحصان معاً.. يبدو أنه معتاد على الترحال وحيداً، لذا لا يجد دافعاً للحديث معها حتى لو كانت أمام عينيه طوال الوقت الذي مضى.. تجرأت أخيراً على التساؤل بعد أن هدأ قلقها الدائم منه واشتعل مللها لصمته الطويل "ما الذي دفعك لترك الجوالة؟.. ولِمَ أصابوك بهذا الجرح الكبير؟.. أكانوا ينتوون قتلك؟"

قال الرجل بسخرية "إذن أظننتها هدية وداع؟.. بالطبع دار عراكٌ عنيف بيني وبينهم، ونفذت بجلدي بحظٍ كبير.."

تساءلت بقلق "إذن كيف ستقدر على هزيمتهم هذه المرة؟"

أجاب بإباء "أنا لستُ كما كنت قبل سنوات.. ومن نازلني في المرة الماضية قد قتل بالفعل.. من بقي من الجوالة كلهم لا يمكنهم مباراتي بالقوة والمهارة.."

بدت لها هذه الثقة عصيّة على التصديق مع تلك الجماعة الشرسة التي لا يقل عدد أفرادها عن العشرة.. وإزاء نظراتها المستنكرة، قال بعصبية "أنا كذلك بالفعل.. هل تريدين مني إثبات مهارتي في هذه اللحظة؟"

لم تملك هيما ابتسامة ارتسمت على شفتيها وهي تقول "لست بحاجة لذلك حقاً.. لكن أرجوك ألا تتهور كثيراً.. لا أريدك أن تقضي نحبك فور التقائك بهم.."

تساءل الرجل بشيء من الدهشة "هل تقلقين لأمري؟.."

كادت هيما تضحك بصوت عالٍ لهذا التساؤل الذي لا معنى له، لكنها أمسكت نفسها بالكاد وهي تقول "بل أخشى أن يقبض عليّ الجوالة فور مقتلك، وبذا أخسر الفرصة الوحيدة لإنقاذ الصبية من براثنهم.."

صمت الرجل بشيء من الخيبة، ثم استعاد جديته وهو يقول "محال.. لن أنهزم أمامهم مهما كان عددهم.. لذا ليس عليك أن تقلقي عليّ.."

بدا لها أنه لم يستوعب ما قالته، وأنها ليست مهتمة بحياته قدر اهتمامها بنجاتها ونجاة الصبية.. ولم تدرك هيما أن الابتسامة لم تغادر شفتيها لبعض الوقت وهي تتأمل ما حولها.. هل بدأت تستلطف هذا

الرجل؟!..

التفتت إليه مجدداً متسائلة "ما هو اسمك؟"

نظر لها بتعجب لهذا السؤال، ثم أجاب "جاكام....."

عادت هيما تتساءل باهتمام "وما معناه؟.."

نظر لها الرجل بحيرة واضحة، فقالت باهتمام "أنا اسمي هيما.. وهو يعني ضوء القمر بلغتنا.. أراه اسماً جميلاً لا يناسبني كثيراً.. لكني أحبه رغم ذلك.. فهل لإسمك أي معنى؟"

غمغم الرجل "لا أعرف ذلك صراحة.."

صمت للحظة، ثم رفع سيفه العريض الذي يضعه خلف ظهره قائلاً بلهجة حاسمة "سيكون معنى اسمي السيف الباتر.. أليس ذلك مناسباً؟.."

قالت هيما ضاحكة رغماً عنها "لا يمكنك اختراع معنىً يناسبك لإسمك.."

قال بإصرار "بلى يمكنني ذلك.."

فقالت هيما بابتسامة "إذن.. ما هي حكايتك مع الجوالة؟"

هز كتفيه مجيباً "ليست حكاية غريبة يمكن أن تثير اهتمامك.. اختطفت في صغري من قبل بعض الجوالة، وعشت بينهم طوال السنوات التالية حتى فقدت هويتي ونسيت عائلتي والقرية التي أتيت منها خاصة أنها بعيدة بعداً تاماً عن هذه السهول.."

استمعت له هيما وقلبها يغوص في صدرها مفكرة في حال الصبية الذين اختطفهم الجوالة.. هل ينوون تكرار الأمر معهم؟..

استمر جاكام يقول "لم تكن حياة سهلة ميسرة، وقد قسا عليّ قائد الجوالة بشكل لا يمكن تخيله.. وفي أحد الأيام، أثناء هجومنا على إحدى القرى النائية، عادت لي ذكرياتي وأنا أتعرف ملامح القرية والمنازل الموزعة فيها بشكلٍ لا يمكنني أن أخطئه.. اكتشفت أن تلك القرية هي قريتي التي فارقتها منذ ما يزيد على خمسة عشر عاماً.. وقد قرر القائد نهبها من جديد متجاهلاً ما قد أشعر به أو أفعله في تلك اللحظات.. وبالطبع لم أتمكن من الصمت هذه المرة.. رغم أنني شاركتهم في كثير من الغزوات، وأنني لم أكن أقل قسوة منهم في الجرائم التي ارتكبوها في تلك القرى، لكني لم أستطع الصمت ورؤية قريتي، وربما عائلتي التي لا أعرف

فرداً منها، تواجه ذلك الهجوم القاسي.."

وأضاف بتقطيبة "وقفت في وجه القائد للمرة الأولى، وفي وجوه الجوالة، معارضاً ما يفعلونه.. نالني من سخريتهم وهزئهم ما نالني، حتى تأكدوا أنني جاد في منعهم مهما اضطررت لفعله لتحقيق ذلك.. عندها دعاني القائد للمنازلة، وسط القرية التي لم يتوقف الجوالة عن نهبها حتى تلك اللحظة.. لم يكن لي بدٌ من منازلته، وحاولت بالفعل هزيمته عالماً أن الجوالة سيخضعون لي لو تمكنت من ذلك.. لكن اندفاعي وصغر سني لم يكونا لصالحي مطلقاً.. والقائد بخبرته الكبيرة كان يعلم استحالة فوزي عليه، وإلا ما بارزني جهاراً أمام الآخرين مضحّياً بمنصبه بسهولة.. وكانت النتيجة كما ترين.. جرحٌ وسمني في وجهي كدليل لفشلي، وهربت من قبضة القائد بأعجوبة قبل أن يقتلني بالفعل نظير جرأتي في مواجهته.. وبالطبع، لم أملك أن أنقذ القرية أو أهلها من ذلك الهجوم، والذي تعمّد القائد تدميرها بشكل كامل نكايةً بي.."

غمغمت هيما بإشفاق "لابد أن ذلك كان صعباً عليك.."

أسرع جاكام يقول "ربما في البدء.. لكنه أعادني لرشدي بالفعل.. أدركت أن قوانين الجوالة ليست مطلقة، وليست هي الطريق الصحيح الذي على المرء أن يسلكه.. قمت بعدها، مع إيماني أنني سأبقى مشرداً لما بقي لي من حياة دون أن تقبل قرية إيوائي، بتتبع الجوالة في بعض هجماتهم وتحذير القرى منهم، وربما المعاونة في صدّهم.. بهذا التصرف يمكنني أن أرجو المغفرة ممن سبق وقتلت ونهبت في حياتي السابقة.."

أدارت هيما بصرها بصمت بعد أن أنهى جاكام قصته التي يراها غير مثيرة للاهتمام.. هل يمكن لجاكام أن يغفر لنفسه ما فعل سابقاً بالفعل؟.. وهل سيغفر له الآخرون ذلك؟.. حتى لو حاول اللجوء لإحدى القرى أو المدن البعيدة، فإن أهلها سيلفظونه دون تردد مع تاريخ الجوالة المشهور بالعنف والقسوة.. فحتى متى سيبقى مشرداً وحيداً بهذه الصورة؟..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

ربضت هيما بجوار جاكام على تلة تطل على المعسكر الذي أقامته فرقة الجوالة.. كانت تلك الفرقة، كغيرها من فرق الجوالة الموزعة على هذه الأرض البائسة، لا تملك موقعاً للإقامة الدائمة ولا تملك عائلات تعود

إليها.. بل تأوي حيث وقف بها حصانها، وتعيش في أي أرض دون اهتمام ببناء بيت مستقر.. معظم المنتمين لهذه الفرقة تمّ ضمهم إليها وهم أطفال، واختيروا من الصبية الأيتام أو المختطفين الذين فارقوا أهلهم منذ زمن طويل.. بهذا يكون الصبي منهم طيّعاً لين العريكة يمكن تشكيله كيفما يشاؤون.. كما أنه لا يملك موطناً يحنّ للعودة إليه أو أهلاً يشتاق إليهم، فيعيش منفصلاً عن الآخرين وولاؤه وانتماؤه الأوحد لفرقة الجوالة هذه..

راقبت هيما المكان بانفعال مع مرأى الصبية الذين تم تقييدهم قرب إحدى الأشجار.. كانوا بعيدين عنها فلم تتمكن من رؤيتهم بوضوح ومعرفة ما حل بهم أو ما يشعرون به، رغم ثقتها أنهم عاشوا أسوأ ساعات حياتهم في اليومين الماضيين..

سألت هيما بإشفاق بالغ "هل تقدر على إنقاذهم حقاً؟"

أجابها وهو يتراجع نحو حصانه "ما كنت لآتي لو لم أثق بذلك.."

تفحص ما يملكه من أسلحة.. استخرج كنانة السهام والقوس وعلقهما على كتفه، وخبأ عدة خناجر في ملابسه لتكون في متناول يده، ثم استلّ سيفه وتفحصه للحظة مغمغماً "حسناً.. فلنبدأ.."

تساءلت هيما بدهشة "الآن؟.. ألن تنتظر حلول الظلام لنقوم بتهريب الصبية دون مواجهتهم؟.."

قال جاكام "أتمزحين؟!.. تلك خطة هزيلة.."

وقفز على ظهر حصانه قائلاً بابتسامة جذلة "لا يمكنني تفويت هذه الفرصة للانتقام منهم ورد الدين أضعافاً مضاعفة.."

ولكز الحصان ليندفع نحو المعسكر متجاهلاً هيما التي حاولت استيقافه بوجل.. ركض الحصان بسرعته البالغة التي لم ترَ هيما ما يوازيها، وقطع أكثر من نصف المسافة بالفعل قبل أن يفطن الجوالة لأمره بعد..

انتبه الرجال الذين تحلقوا وسط المعسكر لقدومه بتعجب، ليلمحوا جاكام يقترب منهم بسرعته الكبيرة وهو يشدّ قوسه دون أن يخفف سرعة حصانه.. كتمت هيما أنفاسها للجنون الذي تراه، عندما أطلق جاكام أول سهامه ليصيب أحد رجال الجوالة في عنقه إصابة قاتلة ويرديه صريعاً.. كانت المفاجأة على رجال الجوالة وقعها كبير جداً، لتجرّؤ شخص الاقتراب منهم ناهيك عن بدء صراعٍ معهم مجتمعين.. لكنهم بخبرتهم الكبيرة تفرقوا بسرعة وسهام جاكام تلاحقهم وكل فرد منهم يشهر سلاحه بانتظار وصول

المعتدي إليهم..

لا حظ جاكام على الفور ذلك الرجل الذي يحاول إيقاف اندفاعه برمحه الطويل، وقبل أن يرمي الرجل الرمح نحوه بأقوى ما يملك، لكز جاكام حصانه ليدفعه للقفز بعلوٍ لا يصدق متجاوزاً ضربة الرمح والمجموعة الأولى من الرجال الذي وقفوا أمامه بتحفز حاملين أسلحتهم..

لم تكد قدما الحصان تلامسان الأرض حتى أكمل ركضه وجاكام يطوّح سيفه بضربة قوية أصابت أحد الرجال وطار لها رأسه، فيما أصابت الضربة الثانية ذراع آخر وبترتها لتسقط اليد بالسيف أرضاً، ويسقط الرجل جانباً وصيحاته المتألمة تملأ المكان..

دار جاكام بالحصان وعاد ليخترق جموع الجوالة ليمنعهم من رميه بالسهام أو الرماح، فترك لحصانه أن يفرقهم بركلاته الصاعقة، بينما استمر جاكام بالتلويح بيده بضربات لا يمكن ردعها..

ومع سقوط رجلين آخرين قتيلين بيده، تكالب البقية عليه محاولين إصابة حصانه وهي النقطة الأضعف التي قد ترديه صريعاً تحت أيديهم لو تمكنوا منه.. لكن جاكام لم يتردد في تجاوزهم قبل أن ينجحوا في إصابته، وقفز عن ظهر الحصان ليضربه بصفحة سيفه ويدفعه للابتعاد مواجهاً البقية وحيداً..

كانت هيما بالكاد تلتقط أنفاسها للقلق والانفعال الذي تحس به.. رأت الحصان يبتعد راكضاً عن رفيقه لمسافة بسيطة قبل أن يستدير مواجهاً المعركة وضربات حوافره على الأرض تدل على انفعاله الشديد بما يجري..

نقلت هيما بصرها نحو الصبية وصوت بكائهم يصلها بوضوح مع المعركة العنيفة الدائرة أمامهم.. فلم تتمكن هيما من الصمت على ما يجري كما طلب منها جاكام.. قد يتهمها بالجنون عندما يعرف ما تنوي فعله، لكنها ليست أقل منه جنوناً هذا اليوم.. لذا تسللت بصمت وهدوء في استدارة واسعة حول المعسكر محاولة الوصول للصبية دون أن يلمحها الجوالة وهي تدمدم "ذلك الأحمق.. لو أننا قمنا بالهجوم ليلاً لما خشيتُ من رؤية الجوالة تسللي نحو الصبية.."

تناهى لسمعها صوت الصياح والصراخ الغاضب بين المتعاركين، ورغم أن إنقاذ الصبية يحتل اهتمامها بالدرجة الأولى، إلا أنها لم تجد حيلة للقلق الذي غلبها على جاكام وما قد يجري له..

كانت مواجهة الخمسة أرضاً أصعب بمراحل من مواجهتهم على ظهر حصانه، فلم يتعجّل جاكام

بالاندفاع في هجومٍ غير متعقل، بل لبث في مكانه بحذر يراقب خصومه الذين حاولوا الإحاطة به بينما تقدم أحدهم منه ويده تقبض على السيف بشدة وتعطش للدماء.. وفي اللحظة التي هجم فيها ذلك الرجل، صدّ جاكام الضربة بسيفه ويده اليسرى تستخرج خنجراً من حزامه ويطوحه بضربة قوية نحو فخذ الرجل أجبرته على الركوع أرضاً، عندها دفع جاكام سيف الرجل بضربة أخرى وأغمد سيفه في صدره قبل أن يركله بعيداً ويستدير نحو بقية المهاجمين..

لم يكن الأمر مع الأربعة الباقين بأسهل مما سبق وهم يقررون الهجوم عليه في وقت واحد ومن الاتجاهات الأربع.. انخفض جاكام راكلاً ساق أقربهم إليه ثم دفع سيفه في خصر الثاني قبل أن يسحبه جانباً بالسيف ويركله ليطيح به في وجه الثالث.. ثم استدار نحو الرابع الذي طرح سيفه نحوه، وحاول صد الضربة بسيفه، لكنه لم يكن بالسرعة الكافية وسيف خصمه يصيبه إصابة محدودة في صدره، فلم يتوقف جاكام للحظة رغم الألم وهو يضرب خصمه بدوره محاولاً قتله.. تبادل الأربعة الضربات المتلاحقة مع جاكام الذي أمسك بسيف في يده وخنجر في اليد الأخرى، يصد بها ما استطاع ويحاول أن يصيب ما يطاله من جسد خصومه.. حاول بكل ما يملك ألا يسمح لخصومه بالإحاطة به، وإلا أصبح مقضيّاً عليه في الحال.. ورغم ما أصابه من جروح، عميقة وسطحية، لكنه لم يكف عن قتالهم رغم الألم الذي يعتصر ساعديه.. وفي لحظة، انتبه لتراجع اثنين من الرجال بخطوة سريعة، بينما أحاطه الآخران وهما يحاصرانه بضربتين سريعتين متزامنتين لا تتيح له مجالاً للهرب منها..

تدارك جاكام نفسه بسرعة وهو يتخذ خطوة جانبية ويدور حول نفسه قبل أن يمسك ذراع أحد الرجلين ويدفعها بالسيف تجاه رفيقه، في نفس اللحظة التي وجه فيها أحد خناجره نحو عنق الرجل نفسه.. صدرت حشرة من حلق الرجل الأول فيما صاح الثاني متألماً والسيف يخترق بطنه، فأطلقهما جاكام ليسقطا في آن واحد، وبحركة سريعة دفع سيفه في عنق الرجل الآخر الذي ظل حياً رغم الضربة التي أصابته.. عندها، استدار جاكام خلفاً واستعد لمواجهة آخر رجلين من فرقة الجوالة..

وقف الرجلان بتحفز يتبادلان النظرات مع جاكام، حتى قال بابتسامة هازئة "هيا.. ما الذي تنتظرانه؟.. نجدة من السماء؟"

اندفعا نحوه بتوقيت واحد، والغضب قد أكل منهما مأكله، فتلقى جاكام الأول بضربة من سيفه حيث

انخفض أرضاً بسرعة متفادياً سيف خصمه، ثم تفادىٰ سيف الآخر بقفزة للخلف قبل أن يعود ليهجم عليه من جديد وسيفيهما يلتقيان بعدة ضربات قوية دوّىٰ صداها في المكان.. وبغفلة منه، أثناء هجومه علىٰ خصمه بضربة قوية، فوجئ جاكام بسهم يصيب كتفه غير بعيد عن عنقه.. انثنىٰ جاكام متألماً، لكنه تمالك نفسه بسرعة وهو يقفز مبتعداً عن خصمه ومواجهاً الرجل الآخر الذي سقط بضربة السيف سابقاً دون أن تكون الضربة قاضية..

تمالك جاكام لهاثه وقد استبدّ به التعب، فيما رأىٰ الرجل الثاني يستخدم القوس الذي رماه أرضاً في وقت سابق ويصوّب سهماً جديداً نحوه.. لاحظ جاكام أن الرجل الأول لم يتردد في الهجوم عليه مع انشغاله بنزع السهم الذي أصابه، عندها لم يتردد جاكام في رمي سيفه أرضاً وهو يتفادىٰ الهجوم بحركة سريعة قبل أن يقبض علىٰ خصمه من عنقه ويديره أمامه، في نفس اللحظة التي أطلق فيها الرجل الثاني سهمه محاولاً استغلال انشغاله بذلك الهجوم..

ومع حركة جاكام السريعة في تقييد خصمه واتخاذه درعاً ضد ذلك الهجوم، أصاب السهم خصمه في صدره إصابة مميتة شهق لها قبل أن يتهاوىٰ أرضاً.. عندها وقف جاكام مواجهاً الرجل الأخير وهو يقول بسخرية "لم يبقَ إلا أنا وأنت.."

قال الرجل بكره وهو يستعيد سهماً آخر من الكنانة القريبة "أنت كنت من أفضل الجوالة عند القائد السابق، وقد تنبأ لك بمستقبلٍ رائع كخليفة له.."

ثم شدّ القوس بالسهم وهو يضيف "خسارة أن ينتهي هذا المستقبل قبل أن يبدأ بالفعل.."

سمع جاكام في تلك اللحظة صياح الصبية من جانب المعسكر مصحوباً بصيحة هيما، في اللحظة ذاتها التي أطلق فيها الرجل الأخير سهمه محاولاً إصابة جاكام إصابة مميتة.. تدحرج جاكام أرضاً قبل انطلاق السهم بالفعل، وفور أن تجاوز تلك الإصابة لم يتردد في القفز نحو غريمه ويغمد السيف في عنقه وقد عاد له نشاطه مع اشتعال قلقه للصوت الذي تعالىٰ من مؤخرة المعسكر..

وفي ذلك المكان، كانت هيما قد وصلت للتو مشيرة للصبية لئلا يصدروا صوتاً، وبدأت حل وثاقهم بسرعة قبل أن تنتهي تلك المعركة التي لا تعرف كيف نتيجتها ولا تبدو أنها ستكون في صالحهم.. بدأ الصبية ينهضون راجفين بعد أن تحلّ هيما وثاق أيديهم وأرجلهم.. وقبل أن تطلق الصبي الأخير، سمعت

صيحات الصبية وهم ينظرون خلفها بارتعاب، فاستدارت بقلب واجف لترىٰ أحد رجال الجوالة يقترب منها يحمل سيفاً بيد واحدة ويده الأخرىٰ مقطوعة والدماء تتصبب منها ووجهه ينطق بالشر والغضب الذي يشعر به.. كان ذلك الرجل قد أصيب في الهجمة الأولىٰ لجاكام علىٰ المعسكر، ومع إصابته البالغة تلك تراجع خلفاً لتضميد يده المقطوعة قبل أن يفقد وعيه مع الدماء التي فقدها.. وكان من حظ هيما السيئ أنه رآها قبل أن تنجح في تهريب الصبية جميعاً..

هوىٰ الرجل بالسيف علىٰ الفور نحو هيما وهو يطلق شتيمة حانقة، فصاحت هيما وهي تتراجع وتسقط أرضاً للمفاجأة، فيما تراكض الصبية لجانب المكان يراقبون ما يجري.. زحفت هيما للخلف مع نظرات الرجل الحانقة، لكنها لم تلجأ للهرب دون إطلاق الصبي الأخير بل فضّلت البقاء بجواره وحمايته بجسدها ورجل الجوالة يقترب منها رافعاً سيفه من جديد..

لم تدرِ هيما ما الذي عليها فعله وهي تحتضن الصبي المرتعب.. هل تركل ساق الرجل؟.. هل ترمي التراب في عينيه؟.. كل تلك الأفكار دارت في ذهنها لكنها لم تجد لديها السرعة الكافية للتصرف وهي ترىٰ السيف يهوي نحوها قبل أن يسقط الرجل بدوره مع ذلك السهم الذي أصابه في ظهره..

تمالك الرجل نفسه قبل أن يسقط، واستدار للخلف نحو جاكام الذي اقترب منهم لاهثاً.. فصاح الرجل "أيها المأفون.. لِمَ عدت؟.. هل أتيت لتنتقم؟.."

وجد جاكام يركض نحوه دون هوادة، فرفع الرجل سيفه محاولاً ضربه، لكن جاكام صد الضربة بسيفه دون أن يوقف اندفاعه وهو يرتطم بالرجل ويرميه أرضاً، وقال وهو يضغط علىٰ صدر الرجل بركبته ويرفع يده الأخرىٰ بالخنجر "إنما هو دينٌ عليّ رده.."

وأغمد الخنجر في عنق الرجل بقوة حتىٰ غاب النصل بكامله.. نهض جاكام تاركاً الجسد ينتفض، وسار خطوات قليلة بتخبط متسائلاً "أأنتم بخير؟.."

قالت هيما متمالكة انفعالها "نعم.. نحن جميعاً بخير.."

وجدت جاكام يتهاوىٰ أرضاً بعد أن فرغت طاقته وتكالب عليه الجهد الذي بذله وجراحه التي تنزف دماً لتعجزه حتىٰ عن الوقوف.. هرعت هيما إليه، تاركة أمر الصبي المقيد لرفاقه.. رمقت هيما جراح جاكام العديدة مفزوعة، ثم تلفتت حولها قائلة بصوت مرتجف "كيف فعلت كل ذلك؟.."

قال بابتسامة فخورة رغم الرجفة التي اعترت صوته "ألم أقل لك؟.. لا أحد منهم يمكنه مباراتي.."
فقالت بإشفاق "ولكنك....."

وصمتت مع مرأى كل تلك الجراح التي أصيب بها في سبيل إتمام الوعد الذي وعدها إياه.. لم تكن لديها أي خبرة بمعالجة الجروح النازفة، كل ما تعلمه أن عليها إيقاف النزيف.. فبحثت عن أي قماش نظيف في هذا المعسكر، وعادت به لتضغط به على الجرح النازف في صدره وهي تقول بقلق "ما الذي علينا فعله الآن؟.."

تجمع الصبية جانباً يراقبون ما يجري بقلق ودهشة.. قلق من منظر هذا الرجل الذي لا يقل إرعاباً عن بقية رجال الجوالة.. ودهشة من اعتناء هيما به ورعايته بهذه الصورة.. تساءل أحد الصبية "كيف سنعود؟.."

قالت هيما "لا تقلق يا صغير.. سنعود بالتأكيد.. لكن لا يمكننا التخلي عن جاكام بعد أن أنقذنا.."

قال جاكام وهو يحاول أن يعتدل جالساً "لا عليك مما جرى لي.. علينا الرحيل قبل عودة أحدهم ورؤية ما حل بالمعسكر.. لا يجب أن نستنفذ الحظ الذي نملكه بالبقاء هنا لوقت أطول.."

قالت هيما باعتراض وهي تعيده ليستلقي أرضاً "محال.. لو تحركت من موقعك دون أن تقوم بتضميد جراحك، فستموت لما فقدته من دماء.."

لمحت هيما، في ارتباكها وحيرتها مما عليها فعله بذلك الرجل الذي لا يكف عن نزف الدم من جراحه، ذلك الطائر الضخم المحلق في السماء.. ورغم بعده عنهم، لكنها أدركت أنه ليس مجرد طائر عادي.. كان ذلك أحد حيوانات الشاس دون شك، وراودها أملٌ أن يحمل على ظهره غيدان بحثاً عنها وعن صبية القرية..

كانت هيما عاجزة عن معرفة كيفية لفت انتباهه، ثم تذكرت ما فعلته جود في اللحظة التي سقطوا فيها من العالم العالي.. لكن، كيف لها أن تكرر الأمر وهي لا تتقن الصفير؟.. عندها التفتت للصبية القريبين، وسألتهم بلهفة "هل يعرف أحدكم كيف يصفّر؟.."

نقل الصبية نظراتهم بين بعضهم البعض باستغراب ودهشة، فألحّت هيما وهي تقول "صفّروا.. افعلوا ذلك بأعلى ما تستطيعون إن كنتم تريدون العودة.."

لم يفهم الصبية سبب ذلك الطلب، لكن الإغراء لم يكن يقاوم وهم يقومون بالتصفير بقوة وتتابع وهيما تراقب الشاس وتشير للصبية بالاستمرار وبصوتٍ أعلى.. وأخيراً، لاحظت أن الشاس قد غيّر اتجاهه وبدأ

الهبوط نحوهم، فقالت بحماس "لقد نجحنا.. ها هو غيدان قادمٌ إلينا.."

واقتربت من جاكام قائلة بلهفة "لا تقلق.. ها هي النجدة قادمة.. ستكون بخير.."

لم يعلق جاكام وهو يحاول تمالك آلامه عابساً، دون أن يتخلى عن سيفه الذي يقبضه بيده وذلك الطائر الضخم كما بدا له بهيئته الشرسة يقترب منهم دون أن يبدو على الفتاة أو الصبية أي ذعر من منظره.. استمر الصبية بالصفير بفرح ملوحين بأذرعهم للشاس وراكبه، فيما استمرت هيما تضغط على جرح جاكام وتحاول إيقاف الدماء التي تنزف بغزارة.. ومع مرأى الشاس، صهل حصان جاكام وأظهر بعض العدوانية وهو يرفع قائمتيه الأماميتين ويضرب بهما الأرض بقوة.. فيما هبط الشاس بسلاسة وغيدان يقفز من على ظهره هاتفاً "ما الذي جرى؟.. أأنتم بخير؟"

ارتمى أغلب الصبية عليه فرحين بقدومه وبنجاتهم المؤكدة بعد أيامٍ من الفزع والذعر البائس، فيما قالت هيما بصوت يرتجف "ساعدني يا غيدان.. جراحه لا تكف عن نزف الدماء.."

تساءل غيدان بدهشة أكبر "أليس هذا.....؟"

قالت هيما بإلحاح "إنه من أنقذ الصبية من الجوالة.. أرجوك ساعدني لعلاجه.."

اقترب غيدان دون أن يطيل تساؤلاته، فكشف عن جراح جاكام الذي حاول كتمان ألمه، وقال وهو يمسح الدماء التي غمرتها ليتمكن من رؤية الجرح على حقيقته "لا يبدو أن علاجه سيكون متاحاً في هذا المكان المقطوع.."

ونظر حوله بتعجب متسائلاً "أأنت من فعل كل هذا؟"

اندفعت هيما تقول بتوسل "لقد واجه الجوالة وحيداً ليعين الأطفال على الهرب.. لا يمكننا تركه هكذا.."

قال غيدان "كما قلت، لا يمكن فعل ذلك في هذا المكان.. يمكنني نقله على ظهر الشاس، لكن كيف ستعودين أنت والصبية بعدها للقرية؟"

حاول جاكام الاعتدال وهو يقول بتقطيبة "لا داعي لذلك.. لن تكون هذه الجراح أسوأ ما مرّ بي.. خذ الفتاة والصبية للقرية، قبل أن تداهمنا فرقة أخرى.. لن تقدر على مواجهتهم عندها مطلقاً.."

قال غيدان باعتراض "لن يطول بك الوقت قبل أن تفقد وعيك مع كل ما نزفته من دماء.. كفاك كبرياءً.."

قال جاكام بعصبية "ليس تكبراً مني.. أنا لم أفعل ما فعلته لنخسر كل شيء بغمضة عين.. غادروا، ويكفي

ما حققناه حتى الآن.."

اعترضت هيما بانفعال "لن أتركك بعد كل ما بذلته لنا.."

ونظرت لغيدان مضيفة "خذ الصبية على ظهر الشاس، وأنا سألحقكم مع جاكام بالحصان.. قد يكون سيرنا أبطأ، لكننا سنصل للقرية لو تبعناكم ولو من مبعدة.."

ودّ جاكام لو يعترض بشكل جدّي، لكن هيما لم تمنحه الفرصة لذلك.. فقال غيدان "يبدو ألا مفرّ من ذلك.. يجب أن نعيد الصبية لأهاليهم قبل أن يجنّوا حزناً وقلقاً.."

وقال موجهاً حديثه لهيما "اتبعاني على ظهر الحصان، وحتى لو غبت عن ناظريك، فاستمري في السير بذات الاتجاه حتى أعود لك.."

قال جاكام عابساً "أنت مجنون لتترك الفتاة وحيدة في هذه السهول الخطرة.."

أسرعت هيما تقول "لكني بقيتُ فيها ليومين وحيدة دون أن يصيبني شيء.."

علق بسخرية "والفضل لي في ذلك.. لو لم أكن موجوداً....."

قاطعته بصوت متهدج "وأنت لازلت موجوداً.. لذا ليس عليّ أن أقلق.."

ورغم ذلك، كانت عيناها القلقتان تتوسلان إليه ألا ينكر ذلك.. فلم يجرؤ جاكام على رفضها هذه المرة، أو رفض معاونة غيدان له والذي قام باستخدام كل ما يمكنه لتضميد الجراح بشكل محكم لتقليل الدماء النازفة منها بعد تنظيفها.. ثم قال وهو يعاونه على النهوض "هذا مجرد حلٍّ مؤقت.. فور وصولنا للقرية سنقوم بعلاجك بطريقة صحيحة.."

وللمرة الأولى في حياته، استعان جاكام بشخص ما لامتطاء ظهر حصانه ورفيقه الوحيد.. وسرعان ما أردف غيدان هيما خلفه قائلاً لها "تمسكي جيداً لئلا يسقط أحدكما.. ولو بدا لك أنه سيفقد وعيه، فمن الأفضل التوقف وانتظار عودتي دون المخاطرة بسقوطه أثناء ركض الحصان.."

هزت هيما رأسها إيجاباً، فيما كتم جاكام ألمه وهو يتحسس جرحه.. لم تكن من عادته الاعتماد على أحد.. في المرة الوحيدة التي احتاج فيها لعون، عندما أصيب بهذا الجرح البالغ في وجهه، فإنه لجأ لشخص غريب في إحدى المدن البعيدة ليعالجه مقابل بعض النقود.. أما الآن، فهو موقنٌ أنه لا يحتاج لمعاونة القرية له.. لكن كيف له أن يرفض طلب هيما وهي ترجوه بتلك العينين القلقتين؟.. تلك الفتاة تملك وسيلة ما تستطيع بها

إجباره على القيام بما يكره، ولا يملك رفض طلبها حالياً حتى لو رغب بذلك..

راقب غيدان الذي امتطى الشاس وبدأ برفع الصبية وتثبيتهم على ظهره، متأكداً أن أحدهم لن يسقط أثناء عودتهم فيدقّ عنقه.. ثم بدأ الشاس التحليق بخفة وشيء من الهدوء متبعاً تعليمات غيدان، وسلك أحد الاتجاهات بسرعة تقل كثيراً عن سرعته العادية محاولاً موازنة هذا العدد الكبير من الأفراد على ظهره..

لكز جاكام حصانه بدوره سالكاً ذات الاتجاه وجاعلاً الشاس نصب عينيه، وإن كان يشعر بإنهاكٍ غير معتاد لقيامه بذلك المجهود الذي أمضى أغلب سني حياته يقوم به بشكل يومي.. سمع هيما التي تتشبث به تتساءل بقلق "أأنت بخير؟"

هز جاكام رأسه إيجاباً، فقالت بإصرار "أأنت حقاً بخير؟"

لم يجبها جاكام هذه المرة وهو يزفر بضيق.. لا تدري إن كان يشعر بالضيق من إلحاحها أم من جراحه التي تؤلمه ولابد.. صمتت هيما وهي لا تعلم ما الذي عليها قوله بعد كل ما جرى.. لم تتمنّ أن يصاب جاكام بأذى لإنقاذ الصبية.. لم تتمنّ أن تراه يتألم بهذه الصورة.. ولم تتمنّ أن ترى عذابه دون أن تملك من أمرها شيئاً..

مالت نحوه قائلة "ألا ترغب بالبقاء معنا في القرية؟ هذا أفضل من حياة التشرد والتجوال وحيداً في السهول.. والأهالي سيرحبون بك دون شك بعد ما فعلته.."

قال جاكام ساخراً "هل أخذتك الشفقة علي؟.."

أسرعت تقول "مطلقاً.. لكني مدينة لك لكل ما فعلته لي وللقرية.. ومع حالتك السيئة هذه، ظننت أن بقاءك في القرية أفضل بمراحل من رحيلك وحيداً في هذه السهول.."

قال بإباء "لست بحاجة لأحد.. سأرحل فور إيصالك للقرية.."

لكن لم يبدُ أن ذلك متاحٌ مع شحوب وجهه وجراحه البالغة كما رأتها.. هذا الرجل العنيد.. لكن عند وصولهم للقرية لن تعدم وسيلة لإجباره على البقاء.. حتى لو اضطرت للاستعانة بالأهالي بأي صورة كانت..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

كانت الأوقات التالية لوصولهم القرية بالفعل هي أصعب ما مرّ بهيما.. فرغم تعب جاكام البالغ، فإنه ثار ثورة كبيرة عندما حاولوا إجباره على البقاء وعلاج جراحه بطريقة صحيحة.. ورغم كل توسلات هيما، إلا أنه رفض رفضاً شديداً الالتزام بما يطلب منه حتى كاد يفقد وعيه ويسقط من فوق الحصان قبل أن يغادر القرية بالفعل.. عندها، استسلم لهم استسلاماً أرغم عليه وهو يجد نفسه مجبراً على البقاء طريح الفراش أياماً عدة..

قضت هيما الأيام التالية ملازمة لفراشه وتقوم بتمريضه وفق ما تقدر وما تعلمت من الرجل الذي يمكن وصفه كطبيب لهذه القرية، رغم أنه لم يحصل على خبراته تلك إلا مما تعلمها على يد الطبيب السابق منذ صغره.. ورغم كل ما بذلته هيما من جهد، إلا أن جاكام لم يتردد في حمل متاعه ومغادرة القرية فور أن استعاد جزءاً من قواه.. مصرّاً على البقاء وحيداً وسط تلك السهول كما كان سابقاً، وكما قرر أن يبقى لما بقي من حياته.. ظلت هيما بعدها عدة أيام تفكر في حاله وما جرى له، شاعرة بالأسف لأنها لم تكن أكثر إلحاحاً في دعوته للانضمام للقرية ونبذ حياة الشقاء التي يصرّ عليها..

ورغم أسفها لاضطرارها وداعه بتلك السرعة، إلا أنها لم تتوقع ولو للحظة أنها ستراه من جديد بعد أيامٍ قليلة.. ففي ذلك اليوم، بعد أيامٍ عدة من رحيل جاكام، انشغلت هيما انشغالاً تاماً بجني محصول المزرعة

الصغيرة التي تملكها عائلتها، ولم تقطع عملها حتى فوجئت بذلك الظبي الصغير الصريع الذي ارتمى عند قدميها.. أجفلت للمفاجأة وهي تقفز خلفاً ترمق الجسد الهامد، قبل أن يصلها الصوت الضاحك قائلاً "هذه هدية صغيرة لك.. أنت بحاجة لبعض التغذية فجسدك هزيل كما هي العادة.."

رفعت بصرها بدهشة إلى جاكام الذي وقف قريباً دون أن تدري متى عاد للقرية ولا سبب هذه الهدية غير المتوقعة.. ثم قالت أخيراً "أنا لا آكل اللحوم.. هذا ما ربّيت عليه عندما كنت في المعبد.."

قال جاكام بابتسامة "لكنك لستِ في المعبد الآن.. فما المانع؟"

لم تجد هيما إجابة على هذا السؤال.. غمرتها الدهشة لإصرارها على التمسك بتلك التعاليم التي نبذتها دون أسفٍ كبير قبل أن تسقط من العالم السامي.. والآن، ما الذي يجبرها على الانصياع لتعاليم الكهنة؟..

فرضخت أخيراً قائلة "شكراً لك.. عائلتي ستقدر لك ما تمنحه لنا.. رغم أنك لست مجبراً على ذلك.."

بدا فخر جاكام بهديته تلك واضحاً وهيما ترمقه بابتسامة ملاحظة التغيير البادي عليه.. كان قد تخلص من لحيته الكثة تلك، وشذّب خصلات شعره الثائرة، واعتنى بهندامه أكثر من السابق.. بدا أصغر سناً مما ظنته في السابق، ولا يبدو أنه قد تجاوز الثلاثين من عمره، وأكثر لطفاً وتحضراً مما كان عليه وإن كان جرحه لا يزال يثير ذعر بعض الصبية والفتيات في القرية..

تساءلت هيما "لكن ما سبب هذه الهدية؟.. ولِمَ هي لي دوناً عن الآخرين؟!.."

أجاب جاكام بحزم "هذا ردٌ لجميلك وإنقاذك حياتي.. مرتين.. لا يمكنني أن أنكر أنك قد أنقذتِ حياتي بإحضاري للقرية لألقى العلاج الملائم.. لكن ما أدهشني أكثر كان إنقاذك لي في اليوم الأول للقائنا رغم خوفك ورغبتك بالتخلص مني.. هذا شيءٌ احترمته فيك جداً، لذا أنت تستحقين ما أمنحه لك جزاءً على ذلك.."

لم تتغير ملامح هيما وهي منشغلة بعملها، وقالت بلهجة عارضة "مرتين؟.. أتعني ذلك الثعبان الذي قتلته؟.. أنا من وضعه قربك، وحرصت أن تستيقظ عندما أقوم بقتله.."

ونظرت تجاه جاكام الذي رمقها بصدمة مستنكرة وهي تضيف بابتسامة "كانت تلك فرصة حاولت انتهازها.. أردت أن أقيدك بجميلٍ تحمله في عنقك، فلا تقدر بعدها على إيذائي.. وكان من حسن حظي أنك وافقت على استعادة الصبية بعدها دون ضغط كبير مني.."

صاح جاكام بحنق "أيتها الخبيثة.. كيف أمكنك فعل ذلك؟.. ماذا لو قتلني ذلك الثعبان قبل أن تقتليه؟.."

قالت ببساطة "كنتُ عندها سأتخلص منك وأحصل على الحصان الذي سيعود بي للقرية بأمان.. في ذلك الوقت، كانت تلك خطة ناجحة بكل الأحوال.."

تعالى صياح جاكام وثورته الغاضبة لما جرى، رغم أن هيما موقنة أنه لن يكرهها بشكل جدي لما فعلته.. فحاولت تهوين الأمر عليه وهي تقول بابتسامة "عندما فعلت ذلك كنت أبغضك وأخشاك بشدة.. الآن لا يمكنني أن أحمل لك الكره ذاته.. ولا يمكنني أن أؤذيك بأي وسيلة كانت.."

جلس جاكام جانباً وهو ينفخ بغيظ قائلاً "وكأنك تقدرين على إيذائي.."

مالت هيما نحوه قائلة "لكني آسفة لما فعلته بك.. وأعتذر عن سوء ظني بك في البدء.. لكن هل يمكنك أن تلومني مع هيئتك الخشنة وكونك من الجوالة الذين لا يملكون صيتاً حسناً على هذه الأرض؟"

فقال جاكام بحنق "أنتِ مدينة لي إذاً.. وعليك رد الدين حالاً.."

فقالت هيما بابتسامة "لا يمكنني رفض ذلك.."

هدأ غضب جاكام بسرعة، ثم قال وهو يحك أنفه "أريدك أن تطلبي من ذلك الرجل الذي يملك حيواناً طائراً أن يعينني على ترويض واحد مثله.."

نظرت له هيما بدهشة، فأضاف جاكام مبرراً "أتوق لامتلاك واحد منذ رأيته.. ولا أظنه يرفض عوني دون سبب.."

تساءلت هيما بدهشة "وما الذي تنوي فعله به؟.. هل ستتخلى عن حصانك؟"

أسرع جاكام يقول "مطلقاً.. لكن ذلك الكائن سيكون مفيداً لي في عملي أكثر من السابق.."

ولوح بيده محاولاً تزيين الأمر لها قائلاً "سأتمكن من مسح هذه السهول بسرعة أكبر، ومواجهاتي مع فرق الجوالة الأخرى لن تكون دموية كما كانت في السابق.. كما أنني أستطيع أن آخذك في تلك الجولات معي.. ألن يكون ذلك ممتعاً؟"

قالت هيما بسرعة "لا.. أنا أكره الارتفاعات العالية.."

نظر لها باستنكار، وقال معترضاً "حتماً سيزول خوفك بعد أن تجربي الأمر عدة مرات.."

قالت هيما بإصرار "جربته سابقاً بالفعل، وأنا لا أستسيغه مطلقاً.."

حملت السلة التي كانت معها عائدة لمنزلها، وسمعت جاكام يقول بشيء من الخيبة "سيكون الأمر ممتعاً.."

وقفت للحظة مفكرة، ثم قالت "أعدك أنني سأحدث غيدان في هذا الأمر.. لكني لا أعدك بأكثر من هذا.."

ظهرت ابتسامة واسعة على شفتي جاكام، ولم يتمهل وهو يجذبها من ذراعها قائلاً "هيا بنا.. لا حاجة بنا للتأخير.."

لم تمانع هيما عالمة أن جاكام لن يقبل منها عذراً في هذه اللحظة.. وبكلمات بسيطة وشرح قصير، أخبرت هيما غيدان عن رغبة جاكام اقتناء أحد حيوانات الشاس كالذي يملكه هو وفصّلت له أسبابه.. لكن غيدان لم يعارض الأمر مطلقاً، وسرعان ما اقتادهما للحظيرة الجانبية حيث يحتفظ بحيوان الشاس فيها.. وهناك، كانت دهشة جاكام كبيرة وسعادته طاغية برؤية شاسين آخرين في الحظيرة ذاتها، وغيدان يدعوه لاختيار أحدها كشكر لما فعله للقرية ولما أصابه من جراح في سبيل إنقاذ أبنائها..

أدركت هيما لدى رؤية الشاسين أنهما ما كان يمتلكه رادال وبارا قبل رحيلهما للعالم السامي، واللذان سرعان ما لحقا بالقرية بعد رحيل صاحبيهما ورفضا العودة للبرية مطلقاً رغم كل محاولات غيدان.. شعرت هيما بشيء من الحنين لجود وياسان عند تذكرهما، مما جعلها تنسحب متنهدة تاركة جاكام ينشغل انشغالاً كلياً بالشاس متناسياً كل ما ومن حوله..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

وقفت هيما في جانب القرية تربت على أنف حصان جاكام وتطعمه بعض العلف الذي جلبته من الحظيرة.. كان صياح جاكام الحماسي قد تعالى بعد ساعة واحدة فقط من حصوله على موافقة غيدان، وها هو يحلق في السماء فوق القرية ونواحيها بحماس وانفعال واضحين ويكاد يصيب غيدان بجلطة دماغية وهو يحاول تعليمه الطريقة الصحيحة للطيران بالشاس دون تهور أو مخاطرة.. وفي النهاية، يئس غيدان منه وغادر حانقاً تاركاً إياه وشأنه، فيما بقيت هيما تراقبه بصمت وقلق.. ذلك المجنون... ماذا لو أغضب الشاس

ورماه من على ظهره من ذلك الارتفاع؟.. ما الذي يدعوه للتصرف بهذا الجنون في تحليقه للمرة الأولى؟..

لاحظت بعد بعض الوقت أن الشاس قد دار دورة واسعة ثم مال نحو الأرض في موقع قريب منها.. ظنت أن جاكام قد قرر الهبوط أخيراً بعد أن استنفذ طاقته، وحريٌّ به أن يفعل بعد كل الضجيج والمجهود الذي بذله في رحلته الأولى.. لكنها فوجئت بالشاس يندفع نحوها دون أن يلمس الأرض مما حدا بهيما للتراجع وهي تهتف بقلق "توقف أيها المجنون.."

لكن جاكام لم ينصت لكلمة مما قالتها، فاستدارت هيما تلقائياً محاولة الهرب، وسرعان ما وجدت الشاس يصل إليها ووجدت نفسها ترتفع عن الأرض بذراع جاكام القوية حتى استقر بها على ظهر الشاس.. ولم يتمهل جاكام بعدها وهو يلكز الشاس في بطنه ويدفعه للارتفاع عالياً بسرعته الكبيرة، فيما انكمشت هيما على ظهره وهي تطلق صيحة مذعورة للسرعة التي وجدت فيها نفسها في السماء..

كان حماس جاكام على هذا الارتفاع الكبير من الأرض لا يقارن بذعر هيما وهي تجد ساقيها معلقتين في الهواء، وترى الأرض تبتعد عنهم أكثر فأكثر مع كل لحظة تمضي.. إلى أين ينوي الارتفاع بها؟..

تزايدت خفقات قلبها مع كل لحظة تمضي وهي تتشبث بالشاس بقوة، وصاحت بكل ما تملك "أنزلني.. لا أريد السقوط للأرض.. أنزلني حالاً يا جاكام...."

قال جاكام بمرح "الجولة لم تبدأ بعد.. لذا....."

صاحت هيما بعصبية مذعورة "أنزلني الآن.. أكاد أموت ذعراً، ولا أريد الاستمرار في هذا لمدة أطول.."

صمت جاكام بدهشة للذعر البادي في عينيها وللعصبية التي تحدثه بها.. للحظة أيقن أنه أخطأ بما فعله، فاستسلم وهو يدير الشاس نحو الأرض ويعود به دون تهور أو سرعة هذه المرة.. حتى وجدت هيما أنهما قد وصلا للأرض والشاس يهبط برفق على قوائمه الأربعة ويربض في مكانه بانتظار أمرٍ من سيده..

ظلت هيما منكمشة على نفسها مدارية وجهها بيديها وهي ترتجف بقوة للذعر الذي أصابها، دون أن تجد في نفسها القدرة على الهبوط من على ظهر الشاس.. منذ سقوطها من العالم السامي، أصبحت تخشى المرتفعات، وتخشى اللحظة التي تسقط فيها ويتهشم جسدها على الأرض دون رحمة.. لكن كيف تشرح هذا الأمر لجاكام الذي لم يمرّ بتجربة كهذه قط؟..

وجدت جاكام يزيح يديها التي تغطي بهما وجهها، وقال باعتذار عميق ونظرات لم تخلُ من قلق واضح "أنا

آسف.. لم أظن للحظة أن خوفك كان حقيقياً.. ظننتُ....."

قالت هيما ودموعها تنحدر على خديها "وما الذي ظننته وأنت تتجاهل كل ما قلته لك وتحملني رغماً عني؟.. لمَ عليك أن تتجاهل كل ما أقوله مهما كان مهماً؟"

قال جاكام "لستُ أتجاهله.. لكني وجدت متعة حقيقية في التحليق بهذا الشاس.. وأردت أن تشاركيني هذه المتعة ولو قليلاً.. فهل ألام على ذلك؟"

ظلت دموع هيما تنحدر على خديها وجسدها لا يكف عن الارتجاف، فحاول مسح دموعها عبثاً ملاحظاً الشحوب البالغ الذي اعترى وجهها، ثم ضمّها لصدره برفق قائلاً "ها أنا أعتذر من جديد.. ألن تسامحيني مطلقاً يا هيما؟"

صمتت هيما محاولة تناسي ارتعابها ولو للحظة، وجاكام يمسح على شعرها المموج ويتخلل خصلاته بأصابعه برفق تعجبت له.. كانت تلك هي المرة الأولى التي يعاملها جاكام بهذا اللطف.. فهل تسامحه رغم كل شيء؟..

لما سكن روعها، ابتعدت هيما عنه وهي تمسح وجهها من الدموع، وغمغمت بصوت مرتجف "سأسامحك هذه المرة.. ولكن....."

قاطعها جاكام بابتسامة "هذا رائع...."

ولكز الشاس من جديد مضيفاً "لكنك لن تتغلبي على هذا الخوف وأنت على الأرض بكل تأكيد.."

نظرت له هيما بارتعاب واضح، لتجد الشاس ينطلق من جديد نحو السماء الغائمة دون هوادة، وصياح جاكام الحماسي يمتزج بصراخ هيما المذعور الذي لم يتوقف ولو للحظة..

ولم تكن تلك المرة الأولى، ولا الأخيرة، التي ستحمل فيها النسمة الهادئة التي تجوب هذه السهول صيحات هيما المرتعبة..

❋❋❋❋❋❋❋❋❋

تمت